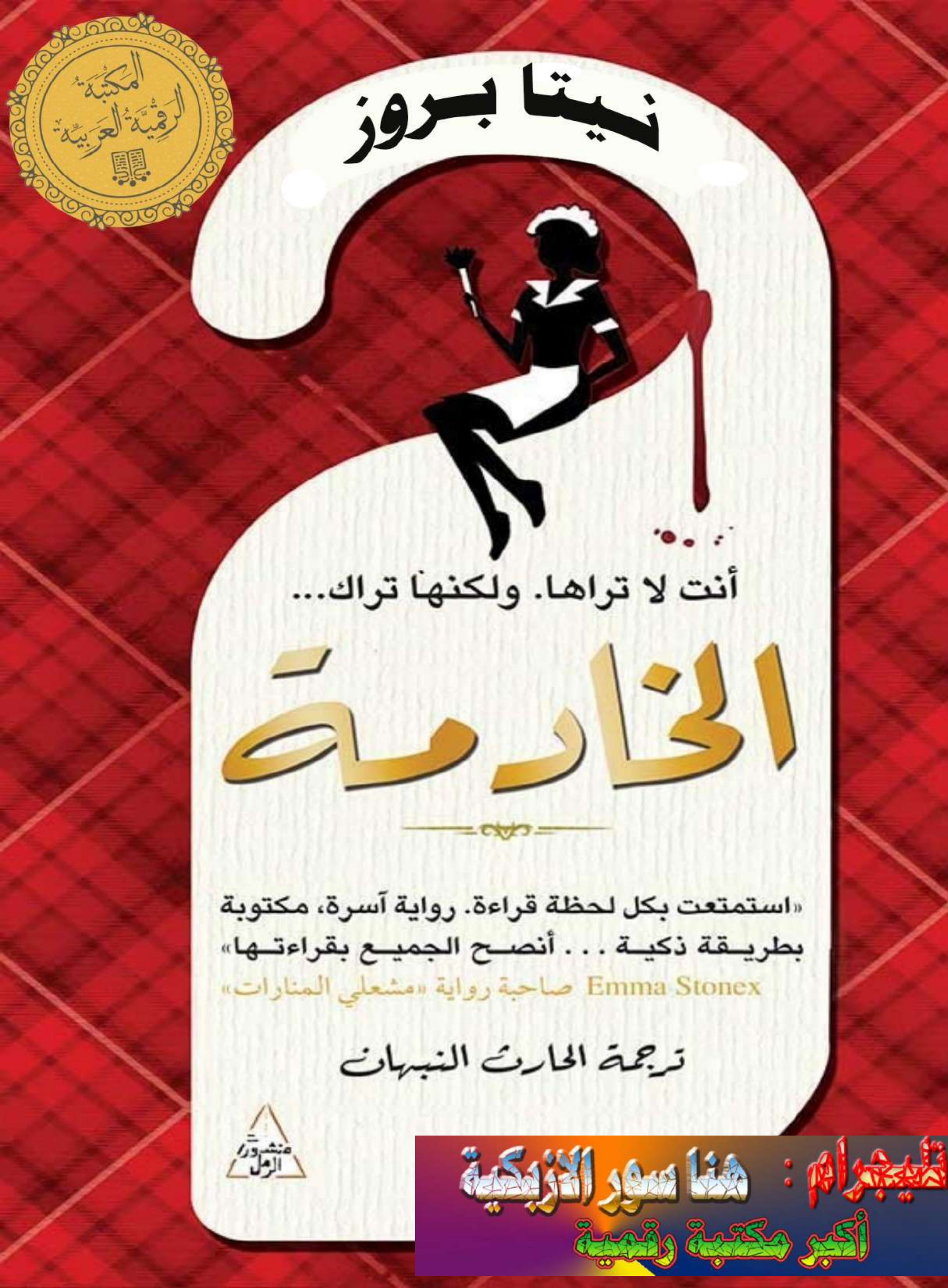


المكتبة الرقمية العربية
نيتا بروز
أنت لا تراها. ولكنها تراك...
الخادمة
«استمتعت بكل لحظة قراءة. رواية آسرة، مكتوبة
بطريقة ذكية . . . أنصح الجميع بقراءتها»
Emma Stonex صاحبة رواية «مشعلي المنارات»
ترجمة الحارث النبهان
منشورات الرمل
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

نيتا بروز

الخادمة- أنت لا تراها. ولكنها تراك...

ترجمة: الحارث النبهان



مدخل

أنا خادمتك. أنا الخادمة التي تنظّف غرفتك في الفندق، التي تدخل كأنها طيف زائر عندما تكون في الخارج ساعيًا خلف ملذّات يومك، لا تلقي بالًا إلى ما تركته خلفك، إلى الفوضى، أو إلى ما قد أراه في غيابك.

أنا الخادمة التي تفرغ قمامتك، وترمي إيصالات الشراء التي لا تحب أن يراها أحد. أنا الخادمة التي تغيّر ملاءات سريرك، التي تستطيع معرفة إن نمت فيها أم لم تفعل، إن كنت وحدك الليلة الفائتة أم لم تكن وحدك. أنا الخادمة التي تعدّل وضع حذائك عند الباب، التي تنفش وسائدك وتجد شعرات عالقة بها. أهي شعرات منك؟ هذا مستبعد. أنا الخادمة التي تنظّف المكان بعد إفراطك في الشرب وتلويثك مقعد المرحاض... أو ما هو أسوأ من ذلك.

أفرغ من عملي فأترك غرفتك في أحسن حال. سريرك مرتّب ترتيبًا مثاليًا، عليه أربع وسائد منتفخة، كأن أحدًا لم يستلق هنا قط. لقد أزلت ما تركت خلفك من غبار وأوساخ، فصار طيّ النسيان. مرآتك الملمّعة تعكس إليك صورة البراءة في وجهك. كأن قذارتك كلّها، أكاذيبك وخياناتك كلها... كأنها مُحيت.

أنا خادمتك. أعرف عنك الكثير.

لكن، فكّر في هذا: ماذا تعرف عنّي؟



الاثنين
الفصل الأول

أنا أدرك تمام الإدراك أن اسمي سخيف. ما كان اسمًا سخيفًا قبل أن أبدأ هذا العمل منذ أربع سنين. أنا خادمة غرف في فندق ريجنسي غراند. اسمي مولي. مولي ميد(1). إنها نكتة! قبل أن أبدأ هذا العمل، كان مولي اسمًا فحسب: كان اسمًا منحتني إياه أمي التي ابتعدت عني، أمي التي تركتني منذ زمن بعيد جدًا، فما بقيت عندي أية ذكرى عنها... بضع صور، وبضع قصص يمكن أن تحكيها لي جدتي. قالت جدتي إن أمي رأت اسم مولي ظريفًا: اسم بنت يوحي بوجنتين تفاحيتين وضفيرتين. لكن ما يتبين الآن هو أنني لم أحظ بوجنتين تفاحيتين، ولا بضفيرتين. شعري داكن اللون، تسريحته بسيطة، أربطه في عقدة أنيقة واضحة المعالم. أفرق شعري في منتصفه، في منتصفه تمامًا. أحب أن تكون الأشياء بسيطة، أنيقة.

وجنتاي بارزتان، وجلدي شاحبٌ إلى حدّ يجعل الناس أحيانًا يعجَبون منه. لست أدري لعجبهم سببًا. أنا بيضاء مثل الملاءات التي أضعها على الأسرّة وأرفعها عنها، أضعها وأرفعها طيلة النهار في أكثر من عشرين غرفة أرتّبها من أجل نزلائنا البارزين في فندق ريجنسي غراند: فندق فخم ذو خمسة نجوم يباهي بما له من «أناقة راقية وذوق سليم من أجل العصر الحديث».

أبدًا لم أتخيل في حياتي كلّها أنني سأتولى هذا المركز الرفيع في فندق كبير. أعرف أن الآخرين يفكّرون بطريقة مختلفة، يرون أن الخادمة نكرة لا قيمة لها. أعرف أنه مُنتظر منا جميعًا أن نطمح إلى أن نصير أطباء ومحامين ومستثمرين عقاريين أثرياء. لكني لست كذلك. أنا شاكرة جدًا لأن لي هذه الوظيفة، شاكرة إلى حدّ يجعلني أقرص نفسي كل يوم. أقرص نفسي حقًّا. الآن خاصّة، بعد أن لم تعد جدتي موجودة معي. ما عاد البيت بيتًا من غيرها. أحسّ كأن اللون قد زال من الشقة التي عشنا فيها معًا. لكن ألوان العالم المتألّقة تعود كلّها لحظة دخولي فندق ريجنسي غراند.

عندما أضع يدي على نحاس الدرابزين البرّاق وأسير صاعدة الدرجات القرمزية المفضية إلى ردهة الفندق الجليلة، أصير كأنني دوروثي داخلةً مملكة أُوْز. أعبر الأبواب الدوارة المتألّقة، وأرى صورة نفسي الحقيقية منعكسة على زجاجها - شعري الداكن وبشرتي الشاحبة واضحان تمام الوضوح، لكن التورّد يعود إلى وجنتيَّ فور دخولي، وتُستعاد علّة وجودي من جديد.

بعد عبوري الباب الدوّار، كثيرًا ما يحدث أن أتوقّف لحظة لكي أتملّى عظمة ردهة المدخل. ردهة لا تشوبها شائبة في أي وقت من الأوقات. لا يمكن أبدًا أن يغزوها غبار، ولا أن تبدو مهملة. لا يخبو ألقها أبدًا، ولا يخفت. هي نفسها في كل يوم يمرّ. أرى إلى جهة اليسار مكتب الاستقبال وخدمة النزلاء... طاولة من زجاج أسود، سوادَ الليل، وموظفي استقبال أذكياء المظهر يرتدون بدلات سوداء وقمصانًا بيضاء، مثل طيور البطريق. ثم تأتي صالة الردهة الفسيحة نفسها ممتدة على شكل حدوة حصان، أرضياتها من رخام إيطالي فاخر يشع بياضًا سماويًا يجعل العين تنشدّ إلى أعلى، إلى شرفة الطابق الثاني. هناك زينات الشرفة على نمط Art Deco وسلم مرمري عريض يأخذك إلى الأعلى، درابزينه لامع، باذخ، ثعابين تتلوّى صاعدة إلى كرات ذهبية تثبّتها في أماكنها أشداق من نحاس. كثيرًا ما يتوقّف النزلاء عند الدرابزين، أيدٍ مستندة إلى عمود متألّق، تجول عيونهم في المشهد الجليل في الأسفل - حمّالون سائرون عبر الصالة، يجرّون حقائب من خلفهم؛ ونزلاء مرتاحون في كنبات وثيرة، أو أزواج مندسّون في كنبات مزدوجة زمردية، أسرارهم تكتمها أعماق نسيجها المخملي الغني.

لكن، لعل رائحة الردهة هي الجزء المفضل عندي، أول نفحة من عبير تأتيني عندما أعبّ عبق الفندق نفسه في بداية كل نوبة من نوبات عملي - مزيج من عطور نسائية راقية، وروائح مسك من الكنبات الجلدية، وشذا الليمون النفاذ النضِر لمحاليل تُستخدم مرتين كل يوم في تلميع الأرضيات الرخامية البراقة. هي رائحة النشاط والاندفاع. هي عبق الحياة نفسها.

أصِلُ كل يوم إلى عملي في فندق ريجنسي غراند، فأحسّ بالحياة تعود إليّ من جديد، أحسّ نفسي جزءًا من نسيج الأشياء، من روعتها ومن لونها. أنا عنصر من عناصر التصميم، مساحة فريدة متألّقة، جزء لا يتجزأ من نسيج سجادة رائعة.

كانت جدتي تقول لي: «إذا أحببتِ عملكِ، فلن تعملي يومًا واحدًا في حياتك كلّها». وقد كانت محقّة. عملي متعة لي في كل يوم. لقد وُلدت كي أقوم بهذا العمل. أحب التنظيف، وأحب عربة خدمة الغرف، وأحب ملابس عملي.

ما من شيء أكثر اكتمالًا من عربة خدمة الغرف المجهزة في باكورة كل صباح. في رأيي المتواضع، هي وفرة من سخاء وجمال. قطع الصابون الصغيرة الناعمة في أغلفتها الرشيقة فائحة

برائحة زهر البرتقال، وزجاجات شامبو «Crabtree & Evelyn» الصغيرة، وعلب المناديل الورقية المربّعة، ولفافات ورق المرحاض في أغلفة من النايلون الصحّي، ومناشف ناصعة البياض، مناشف بثلاثة مقاسات -مناشف الحمام، ومناشف الأيدي، والمناشف الصغيرة- وأكداس المناديل الورقية من أجل صواني الشاي والقهوة. ثم تأتي لوازم التنظيف المشتملة على منفضة غبار مصنوعة من ريش، وسائل بنكهة الليمون لتلميع الأثاث، وأكياس مهملات معقّمة معطّرة قليلًا، وكذلك مجموعة كبيرة من زجاجات محاليل الكشط والتنظيف مصطفّة كلّها في العربة، مستعدة لإنزال الهزيمة بأية بقعة، بقع القهوة الدائرية، والقيء... أو حتى بقع الدم. عربة خدمة الغرف المجهَّزة جيدًا أعجوبة متحرّكة من أعاجيب النظافة؛ هي آلة تنظيف على عجلات. ومثلما قلت لكم، هي جميلة أيضًا.

ثم ملابس العمل. إن خُيّرت بين عربتي وملابس عملي، فلا أظنني قادرة على الاختيار. ملابس عملي هي حرّيتي. إنها عباءة الإخفاء ذات القدرة المطلقة. في فندق ريجنسي غراند، ينظّفون ملابس العمل كل يوم، ينظّفونها في قسم التنظيف في الفندق، ذلك القسم الواقع في أحشائه الباردة الرطبة في آخر الممر الذي يضم حجرات تغيير الملابس الخاصة بخدمة الغرف. تكون ملابسي معلّقة على باب خزانتي قبل وصولي إلى عملي في كل يوم. تأتي مغلّفة بنايلون رقيق، ملصقة عليها بطاقة صغيرة تحمل اسمي مكتوبًا بقلم عريض أسود. أفرح كلما رأيتها صباحًا، فهي جلدي الثاني - نظيفة، معقّمة، مكوية، فواحة بمزيج من رائحة ورق جديد، وبركة سباحة داخلية، ولا شيء. بداية جديدة. يكون ذلك كأن اليوم الذي
انقضى قد مُحي كله، كأن الأيام الكثيرة التي انقضت قد محيت كلها... كأن كل ما انقضى من قبل قد مُحيَ وزال.

أرتدي ملابس العمل -هي ليست على طراز ملابس الخادمات العتيق في مسلسل «داونتون آبي»، وهي ليست حتى تكرارًا لنمط ملابس نادلات نوادي بلاي بوي، بل قميص طويل منشّى، ناصع البياض، وتنورة ضيّقة سوداء منسدلة حتى أسفل الركبتين (تنورة مصنوعة من قماش قابل للتمطّط حتى يصير الانحناء سهلًا)- أرتدي ملابس عملي فأصير مكتملة. أحسّ بقدرٍ أكبر من الثقة عندما أصير مرتدية ملابسي، مستعدة للعمل... أصير عارفة ما ينبغي قوله، وما ينبغي فعله - أكثر الأوقات، على الأقل. وما إن أخلع ملابس العمل في نهاية اليوم، حتى أحس بنفسي عارية، غير محمية، ضائعة.

حقيقة الأمر هي أنني كثيرًا ما أجد صعوبة في المواقف الاجتماعية؛ كأن الجميع يلعبون لعبة كبيرة ذات قواعد معقّدة يعرفونها كلّها، وأنا بينهم لاعبة مبتدئة تلعب لأول مرة. بتواتر منذر بالخطر، أرتكب أغلاطًا في الإتيكيت، أجرح الناس عندما أريد إطراءهم. لغة جسد بائسة! أقول الشيء الخاطئ في التوقيت الخاطئ. لو لم تعلّمني جدتي هذا لما عرفته: الابتسامة لا تعني بالضرورة أن صاحبها مسرور. أحيانًا، يبتسم الناس عندما يريدون أن يسخروا منك؛ أو يشكرونك عندما يكونون، في حقيقة الأمر، راغبين في صفعك على وجهك. كانت جدّتي تقول لي إن قراءتي سلوك الناس تتحسّن -كل يوم ومن كل ناحية، يا عزيزتي- لكن الأمر صار الآن صعبًا، صار أصعبَ. في ما مضى كنت أعود إلى البيت من عملي فأفتح باب شقتنا وأطرح عليها سؤالًا خبأته طيلة النهار من أجلها. «لقد عدت! يا جدّتي، أصحيح أن الكاتشب مفيد من أجل تلميع النحاس، أم إن علي أن أواصل استخدام الخل مع الملح؟ أصحيح أن من الناس من يشرب الشاي بالقشدة؟ جدّتي، لماذا دعوني اليوم رومبا في العمل؟».

لكني أفتح باب الشقة الآن فلا أسمع: «أوه، عزيزتي مولي، أستطيع أن أشرح لك هذا»، أو «انتظري ريثما أعدّ لك فنجان شاي وسوف أجيب عن أسئلتك كلّها». الآن، صارت شقتنا الحنون، شقتنا ذات غرفتي النوم، خاوية، مفرغة، لا حياة فيها... كأنها كهف. أو كأنها تابوت، أو كأنها قبر.

أظن أن الصعوبة التي أجدها في فهم أساليب التعبير التي يستخدمها الناس هي ما يجعلني آخر شخص يمكن أن يدعوه أحدهم إلى حفلة، مع أنني أحبّ الحفلات، أحبّها حقًا. واضح أنني خرقاء في الكلام مع الناس. وإذا أردتم تصديق ما يتهامسون به، فليس لي أصدقاء من سنّي. علي أن أكون منصفة وأقول إن هذا صحيح مئة بالمئة. لا أصدقاء لي من سنّي. الحقيقة أن أصدقائي، من أي سنٍّ كانت، قليلون جدًا.

وأما في العمل، عندما أرتدي ملابس العمل، فأنا جزء من كل. أصير جزءًا من ديكور الفندق مثل ورق الجدران المخطط بالأسود والأبيض، ورق الجدران الذي يزيّن ممرات وغرفًا كثيرة. في ملابس العمل، يمكن أن أكون أي شخص طالما ظلّ فمي مطبقًا. من الممكن أن تراني واقفة في صف من أولئك الذين تعرضهم الشرطة أمامك أحيانًا لكي تتعرف على مشتبه فيه، فلا تستطيع تمييزي مع أنك مررت بي عشر مرات في يوم واحد.

بلغت الخامسة والعشرين منذ فترة قصيرة. لو كانت جدتي قادرة على أن تقول لي شيئًا، لقالت: «ربع قرن». لكنها لا تستطيع قول هذا لأنها ماتت.

نعم، ماتت. لماذا ندعو الأمر غير ذلك؟ لا أقول إنها رحلت... مثل نسمة حلوة تداعب الأعشاب. ما كان ذلك رحيلًا لطيفًا. لقد ماتت. ماتت منذ نحو تسعة شهور. كان اليوم الذي أعقب موتها جميلًا، معتدل الطقس، ذهبت فيه إلى العمل، كعادتي. فوجئ مدير الفندق، السيد ألكساندر سنو، عندما رآني هناك. يذكّرني بالبوم. نظارته المصنوعة من عظم السلحفاة كبيرة على وجهه المربع، كبيرة جدًا. شعره الخفيف مردود إلى الخلف. خط بداية شعره يرسم ما يشبه منقارًا وسط جبهته. لا أحد آخر في الفندق يحبّه كثيرًا. كانت جدتي تقول لي، لا تهتمي بما يفكّر فيه الآخرون. المهم هو ما تفكّرين فيه أنت. أنا موافقة على هذا. على المرء أن يعيش وفق معاييره الأخلاقية الخاصّة به، لا أن يتْبع الآخرين اتباعًا أعمى مثلما تفعل الأغنام.

سألني السيد سنو عندما وصلت إلى العمل في اليوم الذي أعقب موت جدتي: «مولي، ماذا تفعلين هنا؟ يؤسفني مصابك كثيرًا. قال لي السيد برستون إن جدتك رحلت يوم أمس. لقد طلبت من إحداهن أن تأخذ نوبة عملك. افترضت أنك لن تأتي إلى العمل اليوم».

سألته: «سيد سنو، لماذا تفترض؟ كما كانت جدتي تقول، إذا افترضت، فأنت تهزأ بنفسك وبي»(2) .

بدا السيد سنو كأنه موشك على أن يتقيأ ضفدعًا. قال: «أرجو أن تقبلي مني صادق العزاء. هل أنت واثقة من أنك لا تريدين يوم إجازة؟».

أجبته: «جدتي هي التي ماتت، لا أنا. ينبغي أن يظل العرض مستمرًا، كما تعلم».

اتسعت عيناه. لعل هذا يعني أن ما سمعه كان صادمًا! لن أستطيع فهم هذا الأمر أبدًا - لماذا يجد الناس الحقيقة صادمة أكثر من الأكاذيب؟

مع ذلك، لم يُبدِ السيد سنو أية ممانعة. قال لي: «مثلما تريدين، يا مولي».

بعد دقائق من ذلك، كنت في الأسفل، في واحدة من حجرات تغيير الملابس الخاصة بالعاملين في خدمة الغرف. ارتديت ملابس العمل مثلما أفعل في كل يوم... مثلما فعلت هذا الصباح، ومثلما سأفعل صباح الغد على الرغم من أن أحدهم قد مات اليوم. (ليست جدتي، ماتت يوم أمس). مات أحدهم، ليس في البيت، بل في الفندق.

نعم، هذا صحيح. أثناء عملي هذا اليوم، وجدت واحدًا من النزلاء ميتًا في فراشه. إنه السيد بلاك. السيد بلاك نفسه. في ما عدا هذا، كان يوم عملي عاديًا مثلما يكون دائمًا.

أليس مما يثير العجب أن حدثًا مزلزِلًا واحدًا يستطيع تغيير ذكرياتك عما حدث؟ في الأحوال العادية، يجري يوم العمل جريانًا انسيابيًا، يجري منزلقًا كلّه معًا، وتندمج المهمّات فلا تعود هناك حدود فاصلة بين مهمّة وأخرى. سلال المهملات التي أفرغها في الطابق الرابع تندمج بسلال المهملات في الطابق الثالث. وقد أقسم على أنني أنظّف الجناح رقم 410، غرفة الزاوية المشرفة على الناحية الغربية من الشارع، لكني أكون في الجهة الأخرى من الفندق، في الغرفة رقم 430 الواقعة في الزاوية الشرقية، غرفة كأنها انعكاس في المرآة للجناح رقم 410. لكنّ شيئًا غير معتاد يحدث -من قبيل العثور على السيد بلاك ميتًا في
فراشه، ميتًا تمامًا- فتتخذ مكونات اليوم أشكالًا واضحة متمايزة، تتحوّل من غاز إلى مادة صلبة، تتحوّل في طرفة عين. تصير كل لحظة واضحة في الذاكرة، تصير لحظة فريدة، متميّزة عن أيام العمل السابقة كلها.

هذا ما حدث اليوم قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر، قبيل انتهاء نوبة عملي. عندها، وقع ذلك الحدث الزلزالي. كنت قد فرغت من تنظيف الغرف المخصّصة لي كلّها، بما فيها شقة السيد والسيدة بلاك الفخمة في الطابق الرابع. ولكن، كان عليّ أن أعود إلى تلك الشقة لكي أنهي تنظيف حمّامها.

لا تظنّنَّ لحظة واحدة أنني مهملة في عملي، أو أنني غير منظّمة، لقولي إنني ذهبت مرتين لتنظيف شقة السيد والسيدة بلاك. عندما أنظف غرفة من الغرف، أهاجمها من أسفلها إلى أعلاها. أتركها لامعة، لا شائبة فيها. لا أترك سطحًا من غير مسح، ولا أترك ذرّة غبار. كانت جدتي تقول: النظافة من الإيمان، وأظن أن هذا شعار في الحياة أفضل من أي شعار آخر. أنا لا «أدوّر الزوايا»، بل ألمّعها. لا أترك آثار أصابع، ولا أترك بقعًا.

إذًا، ما كان الأمر أنني تكاسلت وقرّرت ألا أنظف حمّام السيد والسيدة بلاك عندما كنت أنظف بقية الشقة في ذلك الصباح. على العكس تمامًا... كان الحمام مشغولًا في ذلك الوقت أثناء زيارتي التنظيفية الأولى. اندفعت زوجة السيد بلاك الحالية، اسمها جيزيل، إلى الحمام بعد وصولي بلحظات قليلة. سمحت لي (بمعنى من المعاني) أن أنظّف بقية الشقة أثناء استحمامها، لكنها ظلّت في الحمام وقتًا طويلًا جدًا. ظلّت فيه إلى أن بدأ البخار يتسرّب من ذلك الشق بين الأرض وأسفل الباب.

السيد تشارلز بلاك وزوجته الثانية، جيزيل بلاك، نزيلان يكثران التردّد على فندق ريجنسي غراند منذ زمن طويل. يعرفهما كل من يعمل في الفندق؛ بل يعرفهما كل من في البلاد. ينزل السيد بلاك لدينا -كان ينزل لدينا، قبل موته- ما لا يقل عن أسبوع واحد في كل شهر عندما يأتي لمتابعة مصالحه العقارية في المدينة. إن السيد بلاك هو- كان- مقاولٌ شهيرٌ، بل قطبٌ من أقطاب العقارات، بل واحد من عمالقتها. كثيرًا ما يظهر على الصفحات الاجتماعية مع زوجته جيزيل. كانوا يصفونه بأنه «ثعلب فضي في أواسط العمر»، مع أنه ليس فضّيًا، ولا ثعلبًا، إن أردنا الوضوح. وأما جيزيل، فكثيرًا ما توصف بأنها «مثال الشخصية الاجتماعية الشابة الرشيقة».

وجدت هذا الوصف مديحًا لها، لكن جدّتي خالفتني الرأي عندما قرأته. سألتها عن السبب فقالت: عليك قراءة ما بين السطور، لا السطور نفسها!

تزوّج السيد والسيدة بلاك منذ أمد قريب، منذ نحو سنتين. ونحن في فندق ريجنسي غراند محظوظون بأن يشرّف هذا الثنائي المرموق فندقنا بزياراته المتكررة. يمنحنا هذا مكانة متميزة. وهو يعني مزيدًا من إقبال النزلاء على فندقنا. يعني هذا بدوره، أن تكون لي وظيفة.

ذات يوم، منذ أكثر من ثلاثة وعشرين شهرًا، كنت أسير مع جدتي في الحيّ المالي، فأشارت إلى تلك المباني كلّها التي يملكها السيد بلاك. ما كنت تدرك أنه يملك قرابة ربع هذه المدينة. لكنه يملك ربعها، للأسف. كان يملك ربعها. فكما اتضح في آخر المطاف، لا تستطيع
أن تكون مالكًا شيئًا بعد أن تصير جثة.

ذات مرة قال السيد سنو عن السيد بلاك، عندما كان السيد بلاك لا يزال حيًا تمامًا: «إنه لا يملك فندق ريجنسي غراند». اختتم السيد سنو جملته بنخرة صغيرة مضحكة. لا فكرة عندي عما

يفترض أن تعنيه تلك النخرة. إن من بين الأسباب التي جعلتني شديدة الإعجاب بزوجة السيد بلاك الثانية، جيزيل، أنها تقول لي الأشياء بطريقة بسيطة واضحة. تعرف كيف تستخدم كلماتها.

عند دخولي شقة السيد والسيدة بلاك هذا الصباح أول مرة، نظّفتها كلّها، من أعلاها إلى أسفلها -عدا الحمام الذي كان مشغولًا لأن جيزيل فيه-. لم تبدُ لي على طبيعتها، أبدًا. لاحظت عقب وصولي أن عينيها محمرّتان، منتفختان. أهي حساسية؟ أم لعلها حزينة! لم تتوانَ جيزيل. انطلقت مسرعة -بُعيد وصولي- إلى الحمام، وأغلقت بابه من خلفها.

لم أترك سلوكها يؤثّر على المهمة التي جئت من أجلها. على العكس تمامًا: شرعت في عملي على الفور، ونظّفت الشقة بكل نشاط. وعندما صار كل شيء نظيفًا مرتّبًا، وقفت أمام باب الحمام المغلق أحمل علبة مناديل وناديت جيزيل مثلما علّمني السيد سنو. «أعيدت الشقة إلى حالتها المثالية! أعود في وقت لاحق لكي أنظّف الحمام».

أجابت جيزيل: «لا بأس! لا حاجة إلى الصراخ، ماذا بك؟». ناولتها المناديل عندما فتحَت باب الحمام آخر الأمر. لعلّها في حاجة إليها... إن كانت حزينة أو لديها حساسية. توقّعت أن يجري كلام بيننا لأنها تحب الكلام، أكثر الأحيان، لكنها أسرعت إلى غرفة النوم حتى ترتدي ملابسها.

خرجتُ من الشقة عند ذلك، وذهبت للعمل في غرف الطابق الرابع، غرفة تلو غرفة. نفشت الوسائد، ولمّعت المرايا المذهّبة. أزلت الأوساخ والبقع عن الجدران وعن ورق الحائط. جمعت الملاءات المتّسخة والمناشف الرطبة. عقّمت بورسلان المراحيض والمغاسل.

في منتصف عملي في ذلك الطابق، توقّفت قليلًا ونزلت إلى القبو مع العربة، حيث سلّمت قسم التنظيف كيسين كبيرين من المناشف والملاءات المتّسخة. على الرغم من الهواء المكتوم في القبو، ومن نور مصابيح النيون الشديد المزعج، وانخفاض السقوف هناك، كان ترك الكيسين في قسم التنظيف مبعث راحة. سرت عائدة إلى ممرات الفندق فأحسست بأنني صرت أكثر خفّة مع أنني حملت معي شيئًا من أثر تلك الرطوبة النديّة.

قرّرت أن أعرّج لزيارة خوان مانويل الذي يعمل في غسل الأطباق في المطبخ. سرت عبر الممرات الكثيرة في القبو، ورحت أنعطف تلك الانعطافات المألوفة -يسار، يمين، يسار، يسار،

يمين- كأنني فأر مدرّب ذكي في متاهة. وعندما بلغت باب المطبخ العريض وفتحته، توقف خوان مانويل عن فعل ما كان يفعله وأتاني، على الفور، بكأس كبيرة من الماء البارد مع الثلج. شكرته كثيرًا.

تركته بعد حديث قصير لطيف. ذهبت بعد ذلك إلى قسم خدمة الغرف، وتزوّدت بدفعة جديدة من المناشف والملاءات النظيفة. صعدت بعدها إلى حيث الهواء الأكثر نقاء في الطابق الثاني حتى أبدأ تنظيف مجموعة غرف جديدة لا يقدّم نزلاؤها عادة إلا بقشيشًا بسيطًا، قطع نقدية معدنية صغيرة، لكنّي حصلت على مزيد منها في ما بعد.

نظرت إلى ساعتي كي أتفقّد الوقت، فوجدت أنها قد قاربت الثالثة بعد الظهر. حان وقت العودة إلى الطابق الرابع لتنظيف حمام السيد والسيدة بلاك. توقّفت أمام بابهم وأصغيت علّني أسمع أصواتًا فأعرف أنهما في الشقة. طرقت الباب مثلما تقتضي قواعد السلوك في الفندق. قلت بصوت مرتفع، لكنه رسمي مهذب: «خدمة الغرف!». لم أسمع إجابة. أخرجت بطاقتي التي تفتح الأبواب كلّها ودخلت الشقة جارّة عربتي من خلفي.

«سيد بلاك، سيدة بلاك! هل تسمحان بأن أكمل جولة التنظيف؟ أود إعادة شقتكما إلى كمالها».

لا شيء. من الواضح، أو هكذا ظننت، أن الزوج والزوجة قد خرجا. هذا أفضل بالنسبة إليّ. أستطيع إنجاز عملي كلّه من غير أي تشويش. تركت الباب الثقيل يغلق من خلفي. جالت عيناي في غرفة الجلوس. لم تكنْ مثلما تركتها قبل ساعات. لم تكنْ مرتبة، ولا نظيفة. الستائر مسدلة على النوافذ الكبيرة الممتدة من الأرض إلى السقف، النوافذ المطلة على الشارع في الأسفل. وزجاجات ويسكي صغيرة كثيرة من الميني بار ملقاة على الطاولة الزجاجية، وكأس نصف فارغة، وسيجار جديد إلى جوارها، ومنديل مجعّد على الأرض، وانخماص على الأريكة حيث تركت مؤخرة من كان يشرب الويسكي أثرها عليها. حقيبة يد جيزيل الصفراء غير موجودة حيث رأيتها ذلك الصباح على طاولة المدخل. يعني هذا أنها ذهبت تتجوّل في المدينة.

عمل الخادمة لا ينتهي أبدًا. هكذا قلت في نفسي وأنا أرفع الوسادة عن الأريكة وأدعكها بين يدي، ثم أعيدها إلى موقعها وأزيل الغضون الباقية على الأريكة. قرّرت تفقد حال الغرف الأخرى قبل أن أبدأ تنظيف الطاولة. بدا لي أنني سأكون مضطرة إلى تنظيف الشقة كلّها من جديد.

سرت صوب غرفة النوم في آخر الشقة. كان بابها مفتوحًا. رأيت واحدًا من أثواب الحمام الفاخرة الخاصّة بالفندق مرميًا على الأرض أمام عتبة غرفة النوم. من حيث كنت واقفة، كنت قادرة على رؤية خزانة الملابس المغلقة أبوابها عدا باب واحد مفتوح، تمامًا مثلما تركتها في الصباح لأن خزنة النقود في الخزانة كانت مفتوحة أيضًا مما يحول دون إغلاق باب الخزانة إغلاقًا محكمًا. بعض محتويات الخزنة لا يزال على حاله -رأيت هذا على الفور- لكن الأشياء التي سبّبت لي قدرًا من الذعر عندما رأيتها في الصباح كانت الآن غير موجودة. على نحو ما، كان هذا مبعث راحة. صرفت انتباهي عن الخزانة، وخطوت بحذر من فوق ثوب الحمام الملقى على الأرض. دخلت غرفة النوم.

لم أره إلا في تلك اللحظة. السيد بلاك. كان مرتديًا البدلة ذات الصدار المزدوج التي رأيتها عليه عندما اصطدم بي في الممر. وحدها الورقة التي كانت ظاهرة من جيبها ما عادت موجودة الآن. كان مستلقيًا على السرير، على ظهره. كان الفراش مضطربًا كله كأن السيد بلاك قد تحرّك وتقلّب كثيرًا قبل أن يستقر نائمًا على ظهره. رأسه مرتاح على وسادة واحدة، لا اثنتين. والوسادتان الباقيتان على الفراش إلى جانبه. عليّ أن أعثر على الوسادة الرابعة التي ينبغي أن تكون موجودة، تلك الوسادة التي كنت واثقة كل الثقة أنني وضعتها على السرير هذا الصباح عندما رتبته. عليَّ أن أعثر عليها لأن الشيطان يكمن في التفاصيل، مثلما يقولون.

ما كان حذاء السيد بلاك في قدميه، بل في الناحية الأخرى من الغرفة. أتذكّر هذا على وجه التحديد لأن واحدة من فردتي الحذاء كانت متجهة صوب الجنوب، والثانية صوب الشرق. أدركت على الفور أن من واجبي المهني أن أضع الفردتين بحيث تشيران إلى الاتجاه نفسه، وأن أفكّ رباطيهما المتشابكين قبل أن أخرج من الغرفة.

بطبيعة الحال، لم يكنْ أول ما تبادر إلى ذهني هو أن السيد بلاك ميت. ظننته غفى إغفاءة عميقة عقب استمتاعه، بعد الظهر، ببضع كؤوس في غرفة الجلوس. لكنّ مزيدًا من التدقيق قادني إلى ملاحظة أمور غريبة أخرى في الغرفة. على الطاولة الصغيرة إلى جوار السرير، على يسار السيد بلاك، رأيت زجاجة دواء مفتوحة. عرفت علبة الدواء؛ إنه دواء جيزيل. بضعة أقراص صغيرة زرقاء كانت متناثرة من الزجاجة وقد سقط بعضها على الطاولة الصغيرة، وبعضها الآخر على

الأرض. رأيت بضعة أقراص مهروسة كأن أحدًا قد داس عليها فصارت مسحوقًا ناعمًا بات الآن متغلغلًا في السجادة. لا بد من مكنسة كهربائية لإزالة هذا المسحوق من السجّادة، وبعدها رشة من سائل تعطير السجاد حتى يعود زغب هذه السجادة إلى حالته المثلى.

لا يحدث كثيرًا أن أدخل غرفًا فأجد نزلاءها غارقين في نوم عميق. ما يتكرر حدوثه أكثر -يضايقني هذا- أن أدخل غرفًا فأجد سكانها في حالة أخرى تمامًا -أجدهم متلبّسين-. يكون أكثر النزلاء الذين يقرّرون أن يناموا، أو أن ينخرطوا في نشاطات خاصّة، على قدرٍ كافٍ من التهذيب يجعلهم يستخدمون بطاقة «أرجو عدم الإزعاج» التي تُعلّق على الباب، تلك البطاقة التي أتركها لهم دائمًا على طاولة عند المدخل من أجل استخدامها في هذه الحالات. ينبّهني أكثر النزلاء على الفور إذا وقع أن داهمتهم في لحظة غير مناسبة. لكن حالة السيد بلاك ما كانت هكذا: لم يصِح بي ولم يأمرني بأن «أغرب عن وجهه» مثلما يفعل عادة عندما يصرفني إذا أتيت في وقت خاطئ. لم يفعل شيئًا. ظل غارقًا في نوم عميق.

أدركتُ في تلك اللحظة أنني لم أسمع صوت تنفسه خلال الثواني العشر، أو أكثر من ذلك، التي أمضيتها واقفة عند باب غرفة النوم. إنني على معرفة بمن ينامون نومًا عميقًا لأن جدتي كانت واحدة منهم. لكن، ما من نوم عميق إلى حدّ يجعل صاحبه يكف عن التنفس.

رأيت من المستحسن أن أتفقّد حال السيد بلاك وأتأكد من أنه بخير. هذا أيضًا من بين واجبات الخادمة المهنية. تقدّمت خطوة صغيرة لكي أنظر جيدًا إلى وجهه. لاحظت عندها كم كان يبدو رماديًا، وكم كان وجهه منتفخًا، وكم كان... في حالٍ غير حسنة، بكل تأكيد. اقتربت أكثر. اقتربت بكل حذر ووقفت إلى جوار السرير، ثم انحنيت فوقه. كانت تجاعيد وجهه أكثر عمقًا، وفمه منسدلًا صوب الأسفل في تكشيرة عابسة، مع أن هذا ليس مما يمكن اعتباره أمرًا غير عادي في ما يخص السيد بلاك. علامات صغيرة غريبة من حول عينيه كأنها وخزات دبوس حمراء وقرمزية. في تلك اللحظة فقط، بدأ عقلي إطلاق إشارات إنذار مفاجئة. ففي تلك اللحظة، أدركت إدراكًا تامًا تلك الحقيقة المقلقة، حقيقة أن في هذا الوضع شيء خاطئ أكثر مما ظننت أول الأمر.

مددت يدي ونقرت بها على كتف السيد بلاك. أحسست بكتفه باردة، متصلّبة كأنها قطعة أثاث. وضعت يدي أمام فمه راجية أن أحس بأنفاسه، لكن من غير جدوى.

قلت: «لا، لا، لا»، ثم وضعت إصبعين على رقبته متفقدة نبضه، لكني لم أعثر على نبض هناك. أمسكته من كتفيه وهززته: «سيدي! سيدي! استيقظ». عندما أفكر في الأمر الآن أرى أن ما فعلته كان سخيفًا، وأما في ذلك الوقت فقد بدا لي أن من المستحيل تمامًا أن يكون السيد بلاك قد مات فعلًا.

عندما تركته من بين يدي، سقط على الفراش واصطدم رأسه بلوحة رأس السرير صدمة خفيفة جدًا. عندها، ابتعدت عن السرير وقد تدلّت يداي إلى جانبيّ متخشّبتين.

أسرعت إلى الطاولة الصغيرة الأخرى عند الناحية الثانية من السرير. كان الهاتف موضوعًا عليها. طلبت رقم مكتب الاستقبال.

«فندق ريجنسي غراند. مكتب الاستقبال. كيف أستطيع مساعدتكم؟».

قلت: «مرحبًا. أنا لست نزيلًا هنا. في الأحوال العادية، لا أتصل طالبة مساعدتكم. اسمي مولي. من خدمة الغرف. أنا في الجناح رقم 401. إن لدي هنا حالة غير اعتيادية. يمكن القول إنها حالة سيئة لا تحدث كثيرًا».

«لماذا تتصلين بمكتب الاستقبال؟ اتصلي بقسم خدمة الغرف».

قلت: «أنا من خدمة الغرف... »، بدأ صوتي يعلو... «من فضلك، أرجو أن تخبر السيد سنو بأن في هذا الجناح نزيلًا أصابته... حالة توعّك دائمة».

«حالة توعك دائمة!؟».

هذا هو السبب الذي يجعل من الأفضل دائمًا أن يقول المرء كلامًا واضحًا، مباشرًا. لكني أعترف بأنني -في تلك اللحظة- فقدت صوابي، فقدته فقدانًا مؤقتًا.

قلت في الهاتف: «إنه ميت. ميت تمامًا. ميت في فراشه. اتصل بالسيد سنو. ومن فضلك، اطلب الإسعاف، على الفور». وضعت السماعة بعد ذلك. إن أردتم الصدق، فإن ما حدث بعد تلك اللحظة

يبدو كلّه شيئًا غير واقعي، شيئًا كأنه حلم. أتذكّر كيف كان قلبي يخفق في صدري، وكيف بدأت الغرفة تميد بي كأنني في فيلم لهيتشكوك، وكيف ارتخت يداي وكادت سماعة الهاتف تنزلق من بين أصابعي عندما أعدتها إلى مكانها.

رفعت رأسي في تلك اللحظة، ونظرت. على الجدار المقابل لي، لم تعكس المرآة المذهّبة صورة وجهي المذعور وحدها، بل رأيت فيها أيضًا كل ما لم ألاحظه قبل ذلك.

عندها، ازداد الدوار قوة، وصارت الأرض تميل كأنني في مدينة للألعاب. وضعت يديَّ على صدري... محاولة لا طائل منها لتهدئة قلبي المرتجف.

الأمر أكثر سهولة مما قد تظنون. أن يكون المرء موجودًا على مرأى من الناس جميعًا مع بقائه غير مرئي إلى حدّ كبير. هذا ما تعلّمته من عملي كخادمة هنا. قد تكون شخصًا مهمًّا جدًا، شخصًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى نسيج الأشياء، لكن أحدًا لا يلقي إليك بالًا على الإطلاق. هذه حقيقة تسري على الخادمات، وكذلك على أشخاص آخرين. هذا ما يبدو لي. إنها حقيقة عميقة، مؤلمة.

أُغمي عليّ بعد ذلك، لكن ليس لفترة طويلة. غدَت الغرفة سوداء، وتهاويت على الأرض مثلما يقع لي أحيانًا، فأفقد الوعي حين يصير الوعي فادح الثقل.

والآن، أنا جالسة في مكتب السيد سنو الفخم. يداي مرتجفتان. أعصابي تالفة. الحق هو الحق. وما وقع قد وقع. مع هذا، لا أزال أرتعش.

أستخدم حيلة ذهنية تعلّمتها من جدتي لكي أهدئ نفسي. كلما صار التوتر في فيلم من الأفلام شديدًا يصعب احتماله، تتناول جدّتي جهاز التحكّم وتجعل الفيلم يقفز مسافة إلى الأمام. تقول لي: «هكذا! لا معنى لأن نرهق أعصابنا عندما تكون النهاية محتومة. ما سوف يكون سيكون». هذا صحيح في الأفلام، لكنه أقلّ صحّة في الحياة الحقيقية. ففي الحياة الحقيقية، يمكن للأفعال التي تقوم بها أن تغيّر النتائج، من حزن إلى سعادة، من إحباط إلى رضا، من باطل إلى صواب.

أستفيد من حيلة جدتي استفادة كبيرة. أسير بالفيلم إلى الأمام سريعًا، ثم أجعله يسير بالسرعة الطبيعية في اللحظة المناسبة تمامًا. على الفور، يزول ارتعاشي. لا أزال في تلك الشقة، لكني لست

في غرفة النوم. أنا الآن عند باب الشقة. أندفع داخلة الشقة مرة أخرى، وألتقط سماعة الهاتف مرة أخرى، وأطلب رقم مكتب الاستقبال. هذه المرة، أطلب الكلام مع السيد سنو. عندما أسمع صوته على الخط يقول لي: «مرحبًا! ما الأمر؟»، أحرص أشدّ الحرص على أن أكون واضحة تمامًا.

«أنا مولي. السيد بلاك ميت. أنا في شقته. أرجو أن تطلب الإسعاف فورًا».

بعد قرابة ثلاث عشرة دقيقة، يدخل السيد سنو الشقّة ومعه جيش صغير من العاملين الطبيين وعناصر الشرطة سائرين في إثره جميعًا. ينتحي بي جانبًا، ويقودني من مرفقي كأنني طفلة صغيرة.

والآن، ها أنا جالسة في مكتب السيد سنو الواقع على مقربة شديدة من ردهة الفندق الرئيسية. أنا جالسة على كرسي صلبة ذات ظهر مرتفع، كرسي مغلّفة بجلد بني يزقزق من تحتي. خرج السيد سنو منذ بعض الوقت - لعلّه خرج منذ ساعة، أو منذ ساعتين! قال لي أن ألزم مكاني إلى أن يعود. في إحدى يدي الآن فنجان شاي جميل، وفي يدي الأخرى قطعة بسكويت. لا أستطيع تذكّر من أتاني بهما. أرفع الفنجان إلى شفتيّ. دافئ، لكنه لا يحرقني. حرارته مثالية. لا تزال يداي مرتعشتين قليلًا. من الذي أعدَّ لي فنجان الشاي الممتاز هذا؟ أيكون السيد سنو؟ أم هو شخص آخر، من المطبخ؟ لعله خوان مانويل! قد يكون رودني الذي يعمل في البار. فكرة جميلة: رودني يخمّر لي فنجانًا من الشاي الممتاز.

أنظر إلى الفنجان -فنجان بورسلان حقيقي مزين بزهرات وردية وأشواك خضراء- أفتقد جدتي فجأة. أفتقدها إلى حدّ مخيف.

أرفع قطعة البسكويت إلى فمي. تتفتّت بين أسناني. قوامها هش، ونكهتها ناعمة، نكهة الزبدة فيها. على وجه الإجمال، هي قطعة بسكويت ممتعة. مذاقها حلو. أوه، مذاقها حلوٌ كثيرًا.

---

(1) مولي ميد (Molly Maid): شركة أميركية كبيرة لخدمات التنظيف في البيوت وأماكن العمل.

(2) هذا تلاعب بالألفاظ قائم على قسمة كلمة «يفترض - assume» إلى (ass) و(u) و(me): «غباء أو غبي» و«أنت» و«أنا».



الفصل الثاني

أظلّ وحدي في مكتب السيد سنو. لا بد لي الآن من القول إنني قلقة لتأخّري في أداء نصيبي من تنظيف الغرف، هذا إذا لم أقل شيئًا عن خسارتي البقشيش الذي أتلقاه هناك. في الأحوال العادية، أكون في هذا اللحظة من يوم عملي قد نظّفت ما لا يقلّ عن طابق كامل. لكن، ليس اليوم! يقلقني ما سوف تظنّه بقية العاملات في خدمة الغرف إذا وجدن أنفسهن مضطرات إلى التعويض عن تقصيري. انقضى زمن طويل، لكن السيد سنو لم يعُد بعد حتى يأخذني. أحاول تهدئة الخوف الذي بدأ يتفتح في معدتي.

يقول لي عقلي إن هناك طريقة حسنة أستجمع بها شتات نفسي ألا وهي أن أعود فأتتبع وقائع هذا اليوم خطوة فخطوة، وأن أتذكّر، بأحسن ما تسعفني به ذاكرتي، كل ما جرى وصولًا إلى لحظة عثوري على السيد بلاك ميتًا في فراشه في الجناح رقم 401.

بدأ هذا اليوم بداية عادية. أتيت عبر باب الفندق الدوّار المهيب. من الناحية النظرية، يُنتظر من العاملين هنا أن يستخدموا باب الخدمة الذي في الخلف، لكن قلّة يفعلون هذا. هذه قاعدة أستمتع بخرقها.

أحب إحساس البرودة تحت يدي، برودة درابزين النحاس اللامع الصاعد إلى الدرجات القرمزية في مدخل الفندق الرئيسي. أحب هسيس السجادة الوثيرة تحت حذائي. أحب تحية السيد برستون، بواب فندق ريجنسي غراند. رجل بدين يرتدي معطفًا مطريًا طويلًا مزينًا بشعار الفندق الذهبي، وعلى رأسه قبعة. يعمل السيد برستون في الفندق منذ أكثر من عقدين من السنين.

«صباح الخير، سيد برستون».

«أوه، مولي! أتمنى لك يوم اثنين سعيدًا، يا فتاتي العزيزة». يرفع لي قبعته.

«هل رأيت ابنتك في الآونة الأخيرة؟».

«ماذا؟ نعم. تناولنا طعام الغداء معًا يوم الأحد. سوف تترافع غدًا في قضية أمام المحكمة. لا أزال غير قادر على تصديق هذا. ابنتي الصغيرة واقفة هناك، أمام قاضٍ. ليت ميري كانت قادرة على رؤيتها الآن».

«لا بد أنك فخور بها».

«نعم، أنا فخور بها».

ترمّل السيد برستون منذ أكثر من عشر سنين، لكنه لم يتزوج ثانية. عندما يسأله الناس عن السبب، يجيب دائمًا بجملة واحدة لا تتغير أبدًا: «قلبي ملك ميري».

إنه رجل محترم، رجل جيّد. ليس خائنًا. هل ذكرت من قبل كم أحتقر الخائنين؟ يستحق الخائن أن يُرمى به في رمال متحرّكة، وأن يختنق بالتراب. السيد برستون ليس من ذلك النوع من الرجال، هو لطيف إلى حدّ أتمنى معه أن يكون أبي، على الرغم من أن لا خبرة لي في هذا الأمر، لأنني لم يكنْ لي أبدًا أب في حياتي كلها. اختفى أبي عندما اختفت أمي، في اللحظة نفسها، عندما كنت «قطعة بسكويت صغيرة»، مثلما كانت جدتي تقول. ما أفهمه من
هذا هو أن عمري كان من ستة شهور إلى سنة. عند تلك النقطة، بدأت جدتي ترعاني وصرنا وحدة واحدة، جدتي وأنا، أنا وجدتي... إلى أن فرّقنا موتها.

يذكّرني السيد برستون بجدتي. كان يعرفها جيدًا. ليس واضحًا في ذهني كيف التقيا؛ لكن جدتي كانت ودودًا معه، وكانت شديدة القرب من زوجته، من ميري... فلترقد روحها بسلام!

يعجبني السيد برستون لأنه يوحي للآخرين بأن يسلكوا مسلكًا حسنًا. إذا كنت بوابًا في فندق متميّز فخم، فسوف ترى أشياء كثيرة. سترى رجال أعمال يأتون معهم إلى الفندق بشابات حسناوات عندما تكون زوجاتهم اللواتي صرن في أواسط العمر بعيدات عنهن آلاف الأميال. ترى نجوم الروك وقد بالغوا في السكر إلى حدّ يجعلهم يحسبون مقصورة بوّاب الفندق مكانًا للتبوّل. سترى السيدة بلاك الشابة، الجميلة -السيدة بلاك الثانية- خارجة من الفندق على عجل وقد جرت الماسكارا على وجنتيها المخضّبتين بدموعها.

يستخدم السيد برستون قواعده الشخصية للسلوك حتى يجعل القانون ساري المفعول. سمعت في مرة من المرات إشاعة تقول إنه غضب كثيرًا من ذلك النجم نفسه، نجم الروك، فنقد المصورين الصحافيين مالًا حتى ينقضّوا على النجم انقضاضًا شديدًا حمله على الإقلاع عن القدوم إلى فندق ريجنسي غراند مرة أخرى.

سألته ذات يوم: «مستر برستون، أهو صحيح ما يقوله الناس أنك الشخص الذي استدعى المصوّرين في تلك المرة؟».

أجابني: «أبدًا، لا تسألي رجلًا محترمًا عمّا فعل أو لم يفعل. إن كان رجلًا محترمًا حقًا، فهو يفعل ما يفعله لسبب وجيه. وإن كان رجلًا محترمًا حقًا، فلن يجيبك أبدًا». هكذا هو السيد برستون.

بعد مروري به هذا الصباح، عبرت ردهة المدخل الضخمة ونزلت السلم صوب متاهة الممرات المؤدية إلى المطبخ وغرف غسيل الملابس، وكذلك إلى المكان المفضّل عندي الذي هو قسم خدمة الغرف. لعلّه ليس قسمًا فخمًا -لا نحاس ولا رخام ولا مخمل- لكن قسم خدمة الغرف هو المكان الذي أحسّ بنفسي منتمية إليه.

ومثلما أفعل دائمًا، ارتديت ملابس عملي النظيفة المكويّة، وأحضرت عربة خدمة الغرف، وتأكّدت من أنها مزوّدة بكل ما يلزمها، جاهزة من أجل جولاتي. وجدت العربة غير مجهّزة فلم يفاجئني هذا لأن تشيريل غرين، رئيستي في العمل، هي التي كانت في النوبة الليلة. من خلف ظهرها، يسمّيها أكثر العاملين في فندق ريجنسي غراند تشيرنوبيل. لكن، علينا أن نكون واضحين: هي ليست من تشيرنوبيل. الحقيقة هي أنها ليست من أوكرانيا أصلًا. لقد عاشت حياتها كلّها في هذه المدينة، مثلي. وليكن معلومًا أنني، على الرغم من كوني لا أحترم تشيريل، فأنا أرفض أن أُطلق عليها أسماء غير اسمها - أرفض هذا الأمر في ما يخص جميع الناس. كانت جدتي تقول لي: عاملي الآخرين مثلما تحبين أن يعاملك الآخرون! هذه حكمة أتمسّك بها في حياتي. دُعيت بأسماء كثيرة خلال ربع القرن الذي عشته حتى الآن، وما تعلمته هو أن تلك العبارة الشائعة عن الحجارة والعصي عبارة عتيقة: غالبًا ما يكون الألم الناجم عن الحجارة والعصي أقل كثيرًا من ألم الكلمات.

قد تكون تشيريل رئيستي في العمل، لكنها ليست أعلى منّي أبدًا. هذان ليسا أمرين

متماثلين. لا يمكنكم أن تحكموا على الإنسان من خلال الوظيفة التي يؤدّيها، أو من خلال موقعه في الحياة. ينبغي الحكم على الإنسان من خلال أفعاله. تشيريل قذرة، كسول. إنها تغش، وتسلك طرقًا مختصرة. تجرجر قدميها عندما تمشي. الواقع أنني رأيتها تنظّف مغسلة واحد من النزلاء بالخرقة نفسها التي نظفت بها كرسي المرحاض. هل يستطيع أي شخص تصديق أن أحدًا يفعل شيئًا من هذا القبيل؟

سألتها يوم أمسكت بها متلبّسة بتلك الفعلة الشائنة: «ماذا تفعلين؟ هذا غير صحي».

رفعت كتفيها وقالت: «لا يمنحني هؤلاء النزلاء بقشيشًا إلا في ما ندر، هذا ما سوف يلقّنهم درسًا».

هذا غير منطقي! كيف للنزلاء أن يعلموا أن كبيرة الخادمات قد لوّثت مغسلتهم ببقايا البراز المجهرية؟ وكيف لهم معرفة أن هذا يعني وجوب إعطائها بقشيشًا أكبر؟

«واطئة مثل مؤخّرة سنجاب». هذا ما قالته جدتي عندما أخبرتها بقصة تشيريل وخرقة تنظيف المراحيض.

عقب وصولي صباح هذا اليوم، وجدت عربتي لا تزال ممتلئة مناشف متّسخة رطبة، وقطع صابون مستخدمة من اليوم السابق. دعوني أقول لكم هذا: لو كنت مسؤولة عن الأمور هنا لأستفدت من موقعي حتى أحرص دائمًا على إعادة تزويد عربات خدمة الغرف بكل ما ينقصها.

استغرقني الأمر فترةً من الزمن حتى أزوّد عربتي بالمستلزمات كلها. ومع انتهائي من ذلك، وصلت تشيريل أخيرًا حتى تباشر نوبة عملها. وصلت متأخّرة كعادتها. أتت كأنها جارّة قدميها الرخوتين من خلفها. تساءلْت إن كانت ستصعد اليوم مسرعة إلى الطابق العلوي مثلما تفعل عادة «حتى تؤدّي جولاتها الأولى». يعني هذا أنها تتسلل إلى شقق ذلك الطابق، الشقق التي أتولى تنظيفها، حتى تسرق البقشيش الذي تجده على الوسائد ولا تترك من أجلي شيئًا غير قطع نقود معدنية صغيرة. أعرف أنها تفعل هذا مع أنني غير قادرة على إثباته. هكذا هي تشيريل. إنها من هذا النوع من الناس، غشّاشة. وهي ليست لصًا مثل روبن هود. الأشخاص الذين مثل روبن هود يأخذون من أجل الخير العام، يستعيدون حقوق من ظُلموا. هذا النوع من السرقة مبرّر، في حين أن

أنواع السرقة الأخرى غير مبرّرة. لكن، دعونا لا نرتكب غلطة هنا: تشيريل ليست روبن هون، هي تسرق من الآخرين لسبب واحد فقط - حتى تحسّن وضعها على حساب الآخرين. هذا ما يجعلها طفيليّة، لا بطلة.

ألقيت على تشيريل تحية غير نابعة من القلب، ثم ألقيت التحية على سَنشاين وعلى سونيتا، الخادمتين اللتين تشاركانني نوبة العمل نفسها. سنشاين من الفيليبين.

سألتها عندما التقينا أول مرة: «لماذا سموك سنشاين؟»(3).

قالت وهي تضع يدها على خصرها وتلوح باليد الأخرى مزهوة بمنفضة الغبار المصنوعة من الريش: «لأن لي ابتسامة متألّقة».

عندها، فهمت الأمر، رأيت وجه التشابه -رأيت التشابه بين الشمس وسنشاين. سنشاين متألقة، مضيئة. تتكلم كثيرًا. يحبها النزلاء. سونيتا من سيرلانكا. وعلى النقيض من سنشاين، نادرًا ما يسمعها المرء تقول شيئًا.

أقول لها عندما تكون في نوبة عمل واحدة معي: «صباح الخير. هل أنت على ما يرام؟».

تومئ برأسها مرّة وتقول كلمة أو كلمتين، أو أكثر قليلًا. هذا ما أجده مناسبًا لي. يعجبني العمل معها لأنها لا تتلكأ ولا تتوانى. لا شيء عندي ضد بقية خادمات الغرف شريطة أن تقمن بأعمالهن كما ينبغي. لن أقول إلّا شيئًا واحدًا: سونيتا وسنشاين تعرفان كيف تنظّفان غرفة من الغرف وترتبانها بحيث لا تظل فيها أية شائبة. هذا شيء أحترمه - احترام خادمة لخادمة.

بعد أن صارت عربتي جاهزة، دفعتها في الممر متّجهة إلى المطبخ حتى أزور خوان مانويل. إنه زميل عمل جيد، دائم الإيحاء بالبهجة وبروح الزمالة. تركت عربتي أمام باب المطبخ، ثم نظرت عبر الزجاج. رأيته أمام آلة غسل الأطباق العملاقة يضع في فمها الكبير أكداسًا من أطباق متسخة. كان زملاؤه من العاملين في المطبخ يتحركون في كل اتجاه، حاملين صواني الطعام ذات الأغطية الفضية، أو قوالب تورتة من ثلاث طبقات، أو غير ذلك من أطايب الطعام التي ما عادت صالحة

للأكل. كان المشرف على خوان مانويل غير موجود. لذا، وجدت أن الوقت مناسب لدخولي. سرت مع جدار المطبخ إلى أن بلغت منطقة عمل خوان مانويل.

قلت له: «مرحبًا!». لعلي قلتها بصوت مرتفع أكثر مما ينبغي، لكني أردت أن يعلو صوتي هدير الآلة.

قفز خوان مانويل مجفلًا، ثم استدار إلي: «يا إلهي! لقد أخفتني».

سألته: «هل الوقت مناسب الآن؟».

أجابني وهو يمسح يديه بمريلته: «نعم». جرى إلى المجلى المعدني الكبير. أخذ كأسًا نظيفة فملأها ماء باردًا كالثلج. ناولني الكأس.

قلت: «أوه، شكرًا». إن كان القبو حارًا، فإن المطبخ جحيم. لست أدري كيف يقوم خوان مانويل بعمله واقفًا ساعات طويلة في هذه الحرارة الخانقة، في هذه الرطوبة غير المحتملة، وهو يزيل بقايا الطعام عن الأطباق. تلك الفضلات كلّها؛ وتلك الجراثيم كلها. أزوره كل يوم؛ وفي كل يوم، أحاول ألا أفكر في هذا الأمر.

«إن لديَّ بطاقة الباب من أجلك. الغرفة رقم 308. سوف يغادرون في ساعة مبكرة من هذا اليوم. سأنظّف الغرفة الآن حتى تكون جاهزة لك عندما تريدها». منذ شهرين، على الأقل، أعطي خوان مانويل بطاقات فتح أبواب الغرف. أعطيه إياها خلسة منذ أن شرح لي رودني الوضع المؤسف الذي يعيشه خوان مانويل.

قال خوان مانويل: «آميّا ميّا(4)، شكرًا جزيلًا».

«ستكون في أمان حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، عندما تصل تشيريل. ليس من عملها أبدًا أن تنظّف غرف ذلك الطابق - لكن، مع تشيريل، لا يمكنك أبدًا أن تكون مطمئنًا».

في تلك اللحظة، انتبهت إلى العلامات الحمراء على رسغ يده: بقع مدوَّرة، حمراء.

سألته: «ما هذا؟ هل أحرقت نفسك؟».

«أوه! نعم. أحرقت نفسي. أحرقتني آلة غسيل الأطباق. نعم».

قلت: «يبدو لي هذا خللًا في تدابير السلامة. السيد سنو شديد الاهتمام بتدابير السلامة. عليك أن تخبره بذلك، وسوف يجعلهم يصلحون الآلة».

أجاب خوان مانويل: «لا، لا. كانت تلك غلطتي. وضعت ذراعي حيث لا يجوز أن أضعها».

قلت: «لا بأس. عليك أن تنتبه جيدًا».

أجابني: «سأفعل هذا».

لم ينظر في عينيّ أثناء هذا الجزء من كلامنا. ما كان هذا سلوكًا مألوفًا. استنتجت أن إهماله جعله يشعر بالحرج، لذا غيّرت الموضوع.

سألته: «هل سمعت في الآونة الأخيرة شيئًا من عائلتك؟».

«وصلتني هذه من أمي يوم أمس». أخرج هاتفه من جيب مريلته وفتح صورة فيه. تعيش عائلته في شمال المكسيك. مات أبوه منذ سنتين فعانت العائلة قلّة الدخل. يرسل خوان مانويل المال إليهم لكي يساعدهم. لديه أربع شقيقات، وشقيقان، وستّ عمات وخالات، وسبع أعمام وأخوال، وابن أخ واحد. هو الأكبر سنًا بين إخوته وأخواته... إنه في مثل سني. رأيت في تلك الصورة العائلة كلّها تجلس حول طاولة من البلاستيك. وجوههم مبتسمة للكاميرا. أمه واقفة عند رأس الطاولة، تحمل طبقًا كبيرًا من اللحم المشوي.

«هذا سبب وجودي هنا، في هذا المطبخ، في هذه البلاد... حتى تستطيع عائلتي تناول اللحم أيام الأحاد. إن رأتكِ أمي، يا مولي، فسوف تحبك على الفور. أمي وأنا. نحن متشابهان. نعرف الإنسان

الجيّد عندما نراه». أشار إلى وجه أمه في الصورة... «انظري! لا تكفّ عن الابتسام مهما تكن الظروف. أوه، يا مولي».

عندها، جرت دموعه من عينيه. لم أدرِ ما أفعل عندها. لا أريد رؤية أية صور أخرى لعائلته. كلما رأيت صوَرهم، ينتابني إحساس غريب في أعلى معدتي، الإحساس نفسه الذي أتاني مرة عندما أوقعت، من غير قصد، قرط واحدة من النزيلات في فتحة المغسلة.

قلت: «عليّ أن أذهب الآن. عندي اليوم إحدى وعشرين غرفة لا بد من تنظيفها».

«لا بأس، لا بأس. أكون سعيدًا كلما أتيتِ لزيارتي. أراكِ عما قريب، يا آنسة مولي».

اندفعت خارجة من المطبخ إلى الممر الهادئ ذي الإنارة الساطعة. خرجت إلى عربتي التي كانت في أحسن ترتيب. على الفور، شعرت بأنني صرت في حالٍ أحسن.

حان وقت ذهابي إلى «سوشال»، أي إلى المطعم الذي في الفندق،÷ حيث تبدأ الآن نوبة عمل رودني. رودني ستايلز، كبير عاملي البار. رودني بشعره الكثيف المتموّج وقميصه الأبيض الذي يترك أزراره العلوية مفتوحة (بذوق رفيع)، كاشفة عن مساحة صغيرة من صدره الصقيل تمامًا -حسنًا، هو كذلك تقريبًا باستثناء ندبة مدوّرة صغيرة فوق عظم القص-. على أية حال، ما أريد قوله إنه ليس واحدًا ممن لديهم شعر على أجسادهم. لا أفهم كيف لرجل كثير الشعر أن يعجب أية امرأة. لا أعني أنني متحيّزة، لكني أقول فقط إنني -إن كان
للرجل الذي يعجبني شعر على جسده- فسوف آتي بالشمع وأنتزع شعر جسمه إلى أن يصير كله نظيفًا، عاريًا.

لم تسنح لي بعد فرصة لفعل هذا في الحياة الحقيقية. ما كان لي إلّا صديق واحد، اسمه ويلبور. صحيح أنه كان من غير شعر على صدره، إلا أنه حطم قلبي. كان محطم قلوب. وكان كاذبًا، خائنًا. لذا، فلعل شعر الصدر ليس أسوأ شيء في العالم!

أستنشق نفسًا عميقًا حتى أنظّف ذهني من ويلبور. ما أسعد حظّي بأن لي هذه القدرة، قدرة تنظيف ذهني مثلما أنظف غرفة. أتصوّر أشخاصًا مؤذين، أو أتذكّر لحظات مزعجة، ثم أمسح ذلك مسحًا.

يختفي. يُمحى. هذا ما يحدث. يعود عقلي إلى صفائه.

لكني جالسة هنا، في مكتب السيد سنو، أنتظر عودته، فأجد صعوبة في الإبقاء على ذهني نظيفًا. تعود أفكاري إلى السيد بلاك، إلى إحساس بملمس جلده الميت على أصابعي... أشياء من هذا القبيل.

أتناول رشفة من فنجان الشاي الذي صار الآن باردًا. سوف أعود إلى تركيز تفكيري إلى صباح هذا اليوم، إلى كل تفصيل من تفاصيله. أين كنت؟

آه، نعم! خوان مانويل. بعد أن تركته، ذهبت إلى المصعد دافعة العربة أمامي. صعدت بها إلى ردهة الفندق. انفتحت الأبواب فرأيت السيد تشِن، والسيدة تشن واقفَيْن هناك. إنهما نزيلان متكرّران، تمامًا مثل السيد والسيدة بلاك. لكن السيد والسيدة تشن من تايوان. السيد تشن تاجر منسوجات. هكذا قيل لي. والسيدة تشن تسافر معه دائمًا. في ذلك اليوم، كانت ترتدي فستانًا بلون النبيذ له حاشية سوداء جميلة. السيد والسيدة تشن مهذبان دائمًا. أجد هذه الصفة استثنائية.

عرفاني على الفور. دعوني أقول إن حدوث هذا مع نزلاء الفندق أمر نادر. بل إنهما تنحّيا جانبًا حتى أستطيع الخروج من المصعد قبل أن يدخلا.

«أشكركما لأنكما تنزلان دائمًا في فندقنا، يا سيد تشن ويا سيدة تشن».

علّمني السيد سنو أن أحيي النزلاء بأسمائهم، وأن أعاملهم مثلما أعامل أفراد عائلتي.

قال السيد تشن: «ونحن نشكرك لأنك تحافظين على غرفتنا نظيفة، مرتبة. تحب السيدة تشن أن ترتاح عندما تكون هنا».

قالت السيدة تشن: «بدأ الكسل يصيبني. أنت لا تتركين لي شيئًا أعمله».

لست ممن يحبون استقطاب الأنظار. أفضّل أن أرد على المديح بإيماءة رأس، أو بالصمت. في تلك اللحظة، أومأت برأسي، وانحنيت قليلًا، ثم قلت: «آمل أن تستمتعا بالإقامة هنا».

دخل السيد والسيدة تشن المصعد، وأغلقت الأبواب من خلفهما.

كانت ردهة الفندق مزدحمة بعض الشيء. نزلاء جدد يصلون، وآخرون يغادرون. بنظرة واحدة، يبدو المكان نظيفًا، حسن الترتيب. لا حاجة إلى فعل أي شيء هنا. لكن النزلاء يتركون أحيانًا صحيفة ملقاة على طاولة جانبية، أو يُسقطون فنجان قهوة على الأرضية الرخامية النظيفة، فيتناثر آخر ما فيه من قطرات مخلفًا بقعًا بشعة على الأرض. كلما لاحظت
خللًا من هذا النوع، أعالجه من غير تأخير. إذا شئنا الدقة، فإن تنظيف الردهة ليس جزءًا من عملي. لكن السيد سنو يقول إن الموظف الجيّد يفكّر خارج الصندوق.

دفعت عربتي إلى مدخل «مطعم وبار سوشال». أوقفتها هناك. كان رودني خلف البار يقرأ صحيفة مبسوطة أمامه.

سرت بخطوات رشيقة حتى أبيّن أنني امرأة لديها ثقة بالنفس، ولديها إحساس بالهدف.

قلت له: «لقد وصلت».

رفع رأسه: «أوه، مرحبًا يا مولي! هل أتيتِ لكي تأخذي صحف الصباح؟».

«ظنّك صحيح مئة بالمئة». آخذ كل يوم رزمة من الصحف لكي أوزّعها على غرف النزلاء أثناء جولة التنظيف.

أشار إلى الصحيفة المفتوحة أمامه، وسألني: «هل رأيت هذا؟».

إن في يده ساعة رولكس لامعة جدًا. لست خبيرة في أنواع الساعات، لكني أعرف تمام المعرفة أن رولكس هي من الماركات باهظة الثمن. يعني هذا أن السيد سنو غير غافل عن قدرات رودني المتميزة في عمله في البار، وأنه يدفع له أكثر مما يتقاضاه عمال البار عادة.

نظرت إلى العنوان الذي أشار إليه رودني: «نزاع عائلي يهزّ أركان إمبراطورية بلاك».

«هل أستطيع رؤية هذا؟».

«بالتأكيد». أدار الصحيفة في اتجاهي. رأيت صورًا كثيرة من بينها صورة كبيرة للسيد بلاك مرتديًا بدلته الكلاسيكية ذات الصدار المزدوج، بينما يدفع عنه المراسلين الصحافيين الذين يصوّبون كاميراتهم إلى وجهه. كانت جيزيل إلى جانبه، شديدة الأناقة من رأسها إلى قدميها. نظارة شمسية على وجهها. استنتجت من ملابسها أن الصورة ملتقطة منذ وقت قريب جدًا. أظنها التُقطت يوم أمس.

قال رودني: «الظاهر أن مشكلات عائلة بلاك لا تزال في تفاقم مستمر. والظاهر أن ابنته -اسمها فيكتوريا- تملك تسعة وأربعين بالمئة من أسهم إمبراطورية أعمال عائلة بلاك. يريد السيد بلاك استرجاع تلك الأسهم التي في يد ابنته.

قرأتُ المقالة قراءة سريعة. لدى السيد بلاك ثلاثة أطفال. ليسوا أطفالًا، فكلّهم كبار! يعيش واحد من أولاده في أتلانتيك سيتي، وقد انتقل الثاني من تايلاند إلى جزر العذراء، أو إلى حيث يطيب له العيش. في هذه المقالة، تصف السيدة بلاك -السيدة بلاك الأولى- ولدَيْها بأنهما «لا يُعتمد عليهما»؛ وقد أوردوا قولها: «الطريقة الوحيدة لكي تظلّ شركة بلاك للاستثمارات والعقارات مستمرة هي أن تصير ابنتي فيكتوريا، التي تتولّى إدارة الشركة بالفعل، مالكة نصف أسهم الشركة على الأقل». ثم تتابع المقالة وصف الطعنات القانونية المتبادلة بين السيد بلاك وزوجته السابقة. أشارت المقالة إلى عدد من كبار رجال الأعمال ممن اتخذوا هذا الجانب أو ذاك، وأشارت أيضًا إلى أن زواج السيد بلاك من جيزيل قبل عامين (سنّها أقل من نصف سنه) كان إيذانًا ببدء الاضطراب في إمبراطورية بلاك المالية.

قلت بصوت مرتفع: «مسكينة جيزيل».

أجاب رودني: «حقًا! هي ليست في حاجة إلى هذا».

خطرت في ذهني فكرة. «هل تعرفها جيدًا؟».

رفع رودني الصحيفة ووضعها تحت طاولة البار. أخرج رزمة الصحف التي سآخذها إلى الأعلى. قال: «من؟».

قلت: «جيزيل».

«لا يتركها السيد بلاك تنزل إلى البار. لعلكِ على احتكاك معها أكثر مني».

لقد كان محقًا في هذا. بالفعل، أنا على احتكاك بها. علاقة سارّة ليست مما يوجد عادة في حياتي. هل أجرؤ على تسميتها صداقة؟ نشأت هذه العلاقة بيننا، بين الشابة الجميلة جيزيل بلاك التي هي الزوجة الثانية لعملاق العقارات الشهير، وبيني أنا، مولي، عاملة خدمة الغرف التي لا شأن لها. لا أتكلم كثيرًا عن هذه العلاقة بيننا، لأن للسيد برستون قولًا مأثورًا يصحّ على النساء المحترمات، مثلما يصح على الرجال المحترمين: من الأفضل أن أُبقي شفتَيَّ مطبقتَين.

انتظرت أن يتابع رودني الحديث، وتركت له متسعًا كافيًا كذلك الذي قد تتركه أنثى عازبة، لكنها ليست متعجلة كثيرًا، عندما تحسّ اهتمامًا عاطفيًا بعازب موجود أمامها يثير عطره في نفسها إحساسًا برائحة البرغموت وسحر ذكوري غريب.

لم يخب أملي - على الأقل، لم يخب تمامًا.

«مولي! ها هي صحفك». انحنى فوق البار فتقلّصت عضلات ذراعيه تقلصًا جذابًا. (بما أن هذه ليست طاولة طعام، بل طاولة بار، فإن قاعدة عدم الاستناد إليها بالمرفقَين ليست سارية).

«وبالمناسبة، أشكرك، أشكرك لأنكِ تساعدين صديقي خوان مانويل. أنت فتاة مميَّزة حقًا».

أحسَست بموجة دفء تسري إلى وجنتيَّ وكأن جدتي قد قرصتهما. قلت: «أنا مستعدة لفعل مثل ذلك، أو ربما أكثر. أعني أن هذا ما يفعله المرء من أجل أصدقائه، أليس كذلك؟ يساعدهم في حلّ مشكلاتهم».

وضع إحدى يديه على معصمي وضغط بها ضغطًا لا يكاد يُلحظ. كان إحساسًا بهيجًا إلى أقصى حدّ. انتبهت فجأة إلى أن زمنًا طويلًا جدًا قد انقضى منذ أن لمسني أحد آخر مرة، أي شخص. أبعد يده قبل أن أكون مستعدة لأن يبعدها. أبعدها قبل ذلك بزمن طويل. انتظرت أن يقول المزيد، فلعله يقترح أن نخرج في موعد آخر! ما أردت شيئًا أكثر من لقاء غرامي ثانٍ مع رودني ستايلز. كان لقاؤنا الأول قبل ستة وثلاثين يومًا بالضبط. لا يزال ذلك اللقاء معلمًا بارزًا في حياتي بعد أن صرت امرأة ناضجة.

لكني انتظرت عبثًا. استدار إلى آلة القهوة لكي يبدأ إعداد إبريق قهوة جديدٍ.

قال لي: «من الأفضل أن تصعدي الآن، وإلا فسوف تقذفك تشيرنوبيل بقنبلة».

ضحكت - في الواقع، كان ذلك شيئًا بين القهقهة والسعال. كنت أضحك مع رودني، لا من تشيريل: بالتأكيد، هذا ما جعل ضحكي أمرًا لا عيب فيه.

قلت لرودني: «كان الحديث معك ممتعًا». ثم أضفت أتحثّة: «قد نستطيع فعل هذا مرة أخرى».

قال: «بكل تأكيد. أنا هنا طيلة الأسبوع».

أجبت: «بالطبع، أنت هنا». قلتها كأنني أقرر حقيقة.

أجابني غامزًا بعينه: «كانت هذه نكتة».

مع أنني لم أفهم النكتة، فقد فهمت غمزته... فهمتها بكل تأكيد. خرجت من البار إلى حيث تركت عربتي. كان صوت قلبي مسموعًا في أذنيّ؛ نبض مثير.

دفعتُ العربة عبر الردهة، ورحت أحيي النزلاء بإيماءات من رأسي. كثيرًا ما يقول السيد سنو: «لياقة خفية. خدمة زبائن حاضرة دائمًا، لكنها غير مرئية». أحرصُ على تنمية هذا السلوك عندي مع أن عليّ القول إنني لا أجد فيه أية صعوبة. أظن أن جدّتي علّمتني الكثير عن هذا الأسلوب في الوجود، إلّا أن الفندق يوفّر لي فرصًا رحبة لممارسته وإتقانه.

هذا الصباح، كان في رأسي لحن فرح عندما أخذت المصعد إلى الطابق الرابع. سرت إلى شقة السيد والسيدة بلاك، الجناح رقم 401. انفتح الباب لحظة هممت بقرعه وخرج السيد بلاك مندفعًا. كان يرتدي بدلته المعروفة ذات الصدار المزدوج، وكانت ورقة بارزة من جيب صداره مكتوب عليها بحروف منمّقة مدوّرة «وثيقة مُلكية». كاد يسقطني أرضًا لشدّة اندفاعه.

«ابتعدي عن طريقي!».

كثيرًا ما يفعل هذا - يصطدم بي أو يعاملني كأنني غير مرئية. قلت: «أعتذر، يا سيد بلاك. أتمنى لك يومًا ممتعًا».

وضعت قدمي مقابل الباب حتى يظلّ مفتوحًا، ثم قرّرت أن من المستحسن أن أعلن عن نفسي قبل دخولي. صحت: «خدمة الغرف».

كانت جيزيل تجلس في غرفة الاستراحة مرتدية ثوب الحمام. رأسها بين كفّيها. أتراها تبكي؟ ما كنت واثقة تمام الثقة. رأيت شعرها مشعّثًا - شعرها الطويل، الناعم، الداكن. وتّرتني رؤية شعرها على هذه الحال.

سألتها: «هل الوقت مناسب لأن أعيد شقتك إلى حالة الكمال؟».

رفعت جيزيل رأسها ونظرت إلي. وجهها أحمر، عيناها منتفختان. أخذَت هاتفها عن الطاولة الزجاجية ثم نهضت وجرت إلى الحمام. أغلقت بابه من خلفها. شغّلت مروحة التهوية في الحمام، فلاحظت أن صوت المروحة مرتفع، غير طبيعي. عليَّ إبلاغ قسم الصيانة بأن هناك مشكلة في المروحة. بعد ذلك، سمعتها تفتح ماء الدوش.

صحت بصوت مرتفع: «لا بأس. إن لم يكن لديك مانع، فسوف أرتب كل شيء هنا إلى حين انتهائك من الاستعداد لبدء يومك».

لا إجابة.

قلت: «إنني سأنظف هنا. وبما أنني لم أتلقَ منك إجابة...».

لا شيء. ليس من طبيعة جيزيل أن تتصرّف هكذا. عادة ما تحب أن تكثر من الكلام معي عندما أنظّف شقتها. تجعلني أشاركها الحديث؛ وفي حضورها، أحسّ شيئًا لا أحسّه مع الآخرين إلّا في ما ندر. أحسّ بنفسي مرتاحة كأنني جالسة في البيت، على الأريكة، مع جدتي.

ناديتها مرّة أخرى: «كانت جدتي تقول دائمًا إن ترتيب المكان وتنظيفه أفضل طريقة لرفع المعنويات. إذا أحسست حزنًا، فما عليك إلا أن تمسكي مكنسة أو خرقة!». لكن جيزيل كانت غير قادرة على سماع صوتي عبر انهمار الماء وصوت المروحة.

باشرتُ التنظيف. شغلْت نفسي بالتنظيف. بدأت من غرفة المعيشة. كانت على سطح الطاولة الزجاجية بقع وآثار أصابع كثيرة. يحيرني دائمًا نزوع الناس إلى إنتاج القذارة. تناولت زجاجة الأمونيا، وبدأت عملي في إعادة الطاولة إلى بريقها الأنيق، الجميل.

نظرت في الغرفة. الستائر مفتوحة. لحسن الحظ، كان زجاج النوافذ خاليًا من آثار الأصابع. على الأقل، هذه نعمة!

رأيت على البيرو عند باب الشقة عددًا من المغلفات. كانت مفتوحة. زاوية مغلف ممزقة مرمية على الأرض، متغضّنة. رفعتها ورميتها في سلة المهملات. إلى جوار تلك المغلفات، كانت حقيبة يد جيزيل الصفراء ذات السلسلة الذهبية. بدت لي حقيبة باهظة الثمن؛ لكن من المستحيل أن يدرك المرء ذلك إذا رأى كيف تلقيها هكذا من غير اكتراث. كان السحّاب في أعلى الحقيبة مفتوحًا. بطاقة طائرة بارزة منه. أنا لا أحب التلصص على حياة الآخرين، لكنني لم أستطع منع نفسي من ملاحظة أنها من أجل رحلة إلى جزر كايمان، ذهابًا وعودة. لو كانت هذه حقيبتي، لأغلقت سحّابها دائمًا، وحرصت على ألّا تكون أشيائي الثمينة التي فيها معرّضة لخطر السقوط منها. حرصت على وضع الحقيبة موازية لكدسة الرسائل -موازية تمامًا- وعلى أن تكون سلسلتها ممتدة إلى جوارها امتدادًا أنيقًا.

جالت عيناي في أرجاء الغرفة كلها. لقد ديست السجادة كثيرًا - أوبارها مضطربة، مشوشة من الجانبين وكأن واحدًا من الناس -السيد بلاك، أو جيزيل، أو الاثنين معًا- كانا يذرعاها جيئة وذهابًا. تناولت مكنستي الكهربائية من عربتي ووصلتها بالكهرباء.

صحت: «عذرًا للإزعاج!».

كنست المساحة كلها في خطوط مستقيمة إلى أن صارت أوبار السجادة منتصبة، فبدت مثل حديقة زِن يابانية حديثة التنسيق. الواقع أنني لم أزر حديقة زِن في الحياة الحقيقية، لكني كنت أذهب مع جدتي في رحلات كثيرة ونحن جالستين على الأريكة، جنبًا إلى جنب، في غرفة المعيشة في شقتنا.

كانت جدتي تقول لي: «أين تحبين أن نسافر اليوم؟ أنذهب إلى الأمازون مع ديفيد أتنبورو، أم إلى اليابان مع ناشيونال جيوغرافيك؟».

اخترت اليابان في تلك الليلة، فعرفت أشياء كثيرة عن حدائق زِن. عرفَت كلتانا أشياء كثيرة. بطبيعة الحال، كان هذا قبل مرضها. ما عدت أقوم برحلات الأريكة بعد ذلك لأنني
صرت غير قادرة على دفع قيمة الاشتراك بتلفزيون الكابل أو بشبكة نتفليكس. حتى لو كان لديّ مال، فلن أستمتع برحلات الأريكة مثلما كنت أستمتع بها مع جدتي.

في هذا الوقت، وأنا جالسة في مكتب السيد سنو أسترجع مجريات يومي، تفاجئني من جديد شدّة غرابة بقاء جيزيل في الحمام هذا الوقت كله. كان ذلك كأنها غير راغبة في الكلام معي.

أنهيتُ الكنس، ثم انتقلت إلى غرفة النوم. كان السرير في حالة فوضى. لا بقشيش على الوسادة... خابت توقّعاتي. أعترف بأنني صرت معتمدة على البقشيش السخي الذي أتلقاه من السيد والسيدة بلاك. مكنني ذلك المال من تجاوز الشهور الأخيرة بعد أن صار البيت قائمًا على راتب واحد لأني ما عدت قادرة على الاتكال على دخل جدتي لدفع الأجرة.

بدأت أنزع الملاءات عن السرير وأرتبه من جديد، وأجعل زواياه منتظمة، وأضع عليه الوسائد الأربع المنفوخة - الوسائد الأربع الموجودة على كل سرير في الفندق: اثنتان قاسيتان، واثنتان طريتان؛ وسادتان لكل شخص، للزوج وللزوجة. كان باب الخزانة مفتوحًا قليلًا، وعندما ذهبت إليه

لكي أغلقه لم أستطع ذلك لأن الخزنة التي خلفه كانت مفتوحة. رأيت في الخزنة جواز سفر واحدًا، لا اثنين؛ وبضع وثائق بدت لي قانونية جدًا؛ وبضع رزم من المال... أوراق نقدية جديدة من فئة مئة دولار. كان في الخزنة ما لا يقل عن خمس رزم من تلك الدولارات.

ليس سهلًا أن أقرَّ بهذا، حتى أمام نفسي، لكني أعاني أزمة مالية شديدة. صحيح أنني لست معتزة بالأمر، لكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن رزم النقود القابعة في الخزنة قد أغرتني... أغرتني كثيرًا، أغرتني إلى حدّ جعلني أستعجل إنجاز ترتيب بقية الغرفة في أقصر وقت ممكن - الأحذية مرتبة في صف متناسق، والثوب المنزلي مطوي فوق كرسي طاولة الزينة، وهكذا دواليك... استعجلت حتى أخرج من تلك الغرفة وأنهي أعمال التنظيف في الشقة كلّها.

عدت إلى غرفة الجلوس حيث أعدت تزويد البار والبراد الصغير. ثلاث زجاجات صغيرة من جِن بومباي كانت ناقصة (افترضت أنها زجاجاتها)، وكذلك ثلاث زجاجات ويسكي صغيرة (هو من شربها، بالتأكيد). عوّضت النقص، ثم أفرغت سلال المهملات كلّها.

بعد مضي وقت طويل، سمعت صوت فتح ماء الدوش، ثم صوت مروحة الحمام. وبعدها، سمعت نشيج جيزيل في الحمام.

بدت لي شديدة الحزن، فأعلنتُ بصوت مرتفع أن الشقة صارت نظيفة، وتناولت من عربتي علبة مناديل ورقية، ثم انتظرت أمام باب الحمام.

ظهرت جيزيل آخر الأمر. كانت تلفّ نفسها بواحدة من مناشف الحمام الناعمة الخاصة بالفندق. أتساءل دائمًا كيف يمكن أن يكون إحساسي إذا تدثّرتُ بواحدة من هذه المناشف. ينبغي أن يكون إحساسًا بأن غيمة تحتضنني. كانت على رأسها منشفة أخرى ملفوفة لفًّا متقنًا... مثل حلواي المفضلة، الآيس كريم.

مددت يدي بعلبة المناديل الورقية. سألتها: «ألست في حاجة إلى منديل لمسح دموعك؟».

تنهدت وقالت لي: «أنت لطيفة جدًا. لكن المنديل لن يوقف دموعي».

تجاوزتني ومضت إلى غرفة النوم. سمعتها تبحث عن شيء في خزانتها.

سألتها: «هل أنت واثقة من أنك بخير؟ ألا أستطيع مساعدتك بأية طريقة؟».

«ليس اليوم، يا مولي. ليست لدي طاقة».

كان صوتها مختلفًا، كان مثل صوت إطار سيارة تسرّب منه الهواء... لو كان إطار السيارة قادرًا على الكلام. بطبيعة الحال، لا قدرة لإطار السيارة على الكلام إلّا في الرسوم المتحركة! كان واضحًا لي أنها في حزن شديد.

قلت بصوت أكثر انخفاضًا: «لا بأس! هل أنظّف الحمام الآن؟».

«لا، يا مولي. آسفة. ليس الآن، من فضلك».

لم آخذ الأمر على محمل شخصي. قلت: «إذًا، هل أعود في وقت لاحق لكي أنظفه؟».

قالت: «فكرة حسنة».

انحنيت قليلًا شكرًا لها على امتداحها فكرتي، ثم دفعت عربتي وخرجت من الشقة.

تابعت تنظيف بقية الغرفة والأجنحة في الطابق، لكن قلقي ظلّ في ازدياد مستمر. ما مشكلة جيزيل؟ في الأحوال العادية، تحدّثني جيزيل عن مجريات يومها، وعما تفعله. تسألني إن كان من الأفضل أن ترتدي هذا الثوب أو ذاك. تقول لي أمورًا سارة. «أنت، يا مولي... لا أحد مثلك أبدًا. أنت الأفضل. لن أنسى هذا». تعلو الحرارة إلى وجهي، وأحسّ كأن صدري يتسع قليلًا مع كل كلمة لطيفة من كلماتها.

أيضًا، ليس من عادة جيزيل أن تنسى إعطائي بقشيشًا.

سمعت صوت جدتي في رأسي، قد يمر أيٌّ منا بيوم سيئ، من وقت إلى آخر. وأما إذا صارت الأيام سيئة كلها، من غير أية أيام سارة، فهذا يعني أن الوقت قد حان لأن يعيد الإنسان النظر في الأمور.

وصلت إلى جناح السيد والسيدة تشن الذي تفصله بضعة أجنحة عن شقة السيد والسيدة بلاك. رأيت تشيريل في الممر توشك على دخول الجناح.

قالت لي: «فكّرت في أخذ الملاءات المتّسخة إلى الأسفل... لمساعدتك».

أجبتها وأنا أتجاوزها دافعة عربتي أمامي: «لا حاجة إلى هذا لأنني وصلت. لكنني شاكرة لطفك». عبرت الباب وتركته يغلق أمام وجهها المتجهّم الحانق.

ورقة جديدة من فئة عشرين دولارًا وجدتها على الوسادة في غرفة نوم السيد والسيدة تشن. إنها تقدير لعملي، لوجودي... إقرار بأنني مفيدة.

قلت وأنا أطوي ورقة العشرين دولارًا وأدسّها في جيبي: «هذا هو اللطف، يا تشيريل». باشرت التنظيف، ورحت أتخيّل كل ما سأفعله بتشيريل إن أمسكتها يومًا متلبّسةً بسرقة البقشيش من غرَفي - أرش وجهها بسائل تنظيف المغاسل، وأخنقها برباط ثوب الحمام، وأدفعها عن الشرفة.

---

(3) سنشاين (Sunshine): ضياء الشمس.

(4) آميا ميا (بالإسبانية): يا صديقتي.

الفصل الثالث

أسمع صوت خطوات في الممر آتية صوب مكتب السيد سنو، حيث لا أزال جالسة على واحدة من كراسي السيد سنو المزقزقة، البنّية، ذات المساند الجلدية العالية. لست أدري كم مرّ عليّ من زمن هنا -يبدو لي أنني جالسة هنا منذ أكثر من مئة وعشرين دقيقة- ازداد توتّر أعصابي مع أنني حاولت كل ما استطعته لكي أشغل نفسي بالأفكار والذكريات. دخل السيد سنو غرفة المكتب. قال لي: «مولي، أشكرك لأنك انتظرتني. أنتِ صبور جدًا».

انتبهتُ في تلك اللحظة إلى أن منْ خلْفه شخصًا آخر، شخصًا في بدلة زرقاء داكنة. تقدّم الشخص فدخل الغرفة. إنها شرطية، شرطية ضخمة الجسم، قوية بكتفَيْن رياضيتين عريضتين. رأيت في عينَيها شيئًا لم يعجبني. اعتدت أن ينظر إليّ الناس فلا يرونني، كأنهم ينظرون من حولي. وأما هذه الشرطية، فقد نظرت إليَّ مباشرة - أأقول إن نظرتها اخترقتني! كان اختراقًا عميقًا مزعجًا. فنجان الشاي في يدي بارد كأنه حجر. يداي باردتان أيضًا.

«مولي، هذه هي المحقّقة ستارك. أيتها المحققة، هذه هي مولي غراي التي وجدت السيد بلاك».

لا أعلم الطريقة الصحيحة لتحيّة محققي الشرطة. درّبني السيد سنو على تحية رجال الأعمال، ورؤساء الدول، ونجوم الانستغرام، لكنه لم يعلّمني كيف أتصرّف مع محققي الشرطة. لا بد لي من الاعتماد على ذكائي، وعلى ما أتذكره من مسلسل كولومبو.

أنهضُ واقفة، ثم أنتبه إلى أن فنجان الشاي لا يزال في يدي. أسير صوب مكتب السيد سنو المصنوع من خشب الماهوغني الثمين. أهمّ بوضع الفنجان عليه، لكني لا أجد واحدًا من تلك الأقراص المدوّرة التي توضع تحت فناجين الشاي. أنظر، فأراها في الناحية الأخرى من الغرفة، على رف ممتلئ كتبًا ضخمة ذات أغلفة جلديّة... كتب تستلزم إزالة الغبار عنها عملًا غير قليل، لكنه ممتع. أذهب إلى الرف، وآخذ قرصًا مدوّرًا، ثم أعود إلى مكتب السيد سنو، وأضع القرص عليه، أضعه عند زاوية المكتب، ثم أضع الفنجان المزين بالزهور، أضعه بكل حرص حتى لا تنسكب قطرة واحدة من الشاي الذي صار باردًا.

أقول: «هكذا». ثم أقترب من المحققة وألاقي عينيها اللتين تتفحّصانني. أقول مثلما أراهم يقولون في التلفزيون: «أيتها المحققة». أؤدي انحناءة تحية صغيرة، أضع قدمًا خلف الأخرى وأحني رأسي قليلًا.

تنظر المحققة إلى السيد سنو نظرة سريعة، ثم تعود إليّ. تقول لي: «أعرف أنك مررت بيوم عصيب». لا يخلو صوتها من قدر من الدفء. أظن أن فيه دفئًا.

أقول: «أوه، لم يكن عصيبًا كلّه. كنت الآن جالسة أستعيد مجريات يومي. الحقيقة أنه كان يومًا سارًّا في أكثره، إلى أن قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر». تنظر المحقّقة إلى السيد سنو مرة أخرى.

يقول لها: «صدمة. هي في حالة صدمة».

لعل السيد سنو محقٌّ في هذا. الفكرة التي خطرت على ذهني بعد ذلك بدت فجأة فكرة لا بد من قولها بصوت مسموع. «يا سيد سنو، أشكرك جزيل الشكر على فنجان الشاي، وعلى البسكويت اللذيذ. هل أنت من أتى بهما؟ أم شخص آخر؟ أعجبني الاثنان كثيرًا. هل أستطيع سؤالك عن ماركة هذا البسكويت؟».

تنحنح السيد سنو، ثم قال: «هذا هو البسكويت الذي نصنعه في مطبخنا، يا مولي. يسرني أن أقدّم إليك المزيد في مرة أخرى. وأما في هذه اللحظة، فمن المهم أن نناقش أمرًا آخر. الآن لدى المحققة ستارك بضعة أسئلة تطرحها عليك لأنك أول من وصل إلى حيث كان السيد بلاك... إلى حيث... ».

أقول: «إلى السرير الذي كان ميتًا عليه».

يطرق السيد سنو برأسه وينظر إلى حذائه اللامع.

تعقد المحقّقة ذراعيها على صدرها. أرى عينَيها تنظران في عينَي. إن لنظرتها معنىً، لكني لست متأكدة مما تعنيه بها. لو كانت جدتي هنا، لسألتها. لكنها ليست هنا. لن تكون هنا بعد الآن أبدًا.

يقول السيد سنو: «مولي، ليست لديك أية مشكلة، أبدًا. لكن المحقّقة تودّ التحدّث معك بصفتك شاهدة. لعل هناك تفاصيل لفتت انتباهك في الغرفة، أو في مجريات هذا اليوم... تفاصيل قد تكون مفيدة في التحقيق».

أقول: «التحقيق. هل تفترضون شيئًا في ما يخص سبب موت السيد بلاك؟».

تسعل المحقّقة ستارك سعلة صغيرة. تقول لي: «لا أفترض شيئًا حتى الآن».

أقول لها: «هذا منطقي تمامًا. إذًا، أنت لا تظنين أن السيد بلاك مات مقتولًا».

تتّسع عينا المحققة ستارك. تقول: «من المرجح أن يكون مات بنوبة قلبية. إن من حول عينيه نزيفًا نمريًا مما يظهر عادة في حالة الوفاة بنوبة قلبية».

يسأل السيد سنو: «ما هو النزيف النمري؟».

«هو كدمات صغيرة جدًا تظهر من حول العينين. يحدث هذا النزيف عند الإصابة بنوبة قلبية؛ لكن من الممكن أيضًا أن يعني... أمورًا أخرى. حتى هذه النقطة، لسنا متأكدين من أي شيء. سوف نجري تحريات شاملة حتى نستطيع استبعاد احتمال وجود جريمة قتل».

يذكّرني هذا بنكتة مضحكة جدًا كانت جدتي تقولها: ماذا تدعو أداء ضعيفًا لمسرحية هاملت تقدّمه بضع دجاجات؟ الإجابة: إنها مسرحية دجاجات!

أبتسم لهذه الذكرى.

يقول السيد سنو: «مولي، هل أنت مدركة خطورة الوضع؟». ينعقد حاجباه فأدرك ما فعلته، أدرك كيف أساء فهم ابتسامتي.

أقول موضحة: «أعتذر، يا سيدي. لقد تذكّرت نكتة».

تنسدل ذراعا المحققة بعد أن كانتا معقودتين على صدرها. تضع يديها على وركيها. ومن جديد، تنظر إليَّ بطريقتها الغريبة تلك. تقول لي: «أريد أن أصطحبك إلى مركز الشرطة، يا مولي... حتى نأخذ منك إفادة رسمية بصفتك شاهدة».

أقول: «أخشى أن هذا لن يكون ممكنًا. لم تنته نوبة عملي، والسيد سنو يعتمد عليّ في أداء نصيبي من مهمة خدمة الغرف».

يقول السيد سنو: «أوه، لا مشكلة في هذا، يا مولي. إنها ظروف استثنائية. وأنا مصرّ على أن تساعدي المحقّقة ستارك. سوف ندفع لك أجر نوبة عملك كاملًا. لا تدعي هذا الأمر يقلقك».

يريحني أن أسمع هذا. فبالنظر إلى حالتي المالية، لا أستطيع أن أتحمل خسارة أجر يوم عمل.

أقول: «هذا لطف كبير منك، يا سيد سنو». ثم تخطر على بالي فكرة أخرى: «أفهم أنني لا أواجه أية مشكلات. هل هذا صحيح؟».

يقول السيد سنو: «على الإطلاق. أليس هذا صحيحًا، أيتها المحققة؟».

«بالطبع، هي لا تواجه أية مشكلة. لا نريد شيئًا غير معرفة ما رأته اليوم، وما لاحظته... في ذلك المكان خاصة».

«في جناح السيد بلاك. أليس هذا ما تريدين قوله؟».

«صحيح».

«عندما وجدته ميتًا هناك».

«أوه، نعم».

«فهمت. سيد سنو، ماذا أفعل بفنجان الشاي المتّسخ؟ يسرني أن أعيده إلى المطبخ. أنت تقول لي دائمًا إن عليّ ألا أترك خلفي شيئًا خاطئًا قد يثير انتباه النزيل».

استشهدت بما سمعته من السيد سنو في آخر درس من دروس التطوير المهني، لكن إجابتي الذكية لم تلق لديه أي تقدير... للأسف!

قال لي: «لا تهتمي بأمر فنجان الشاي. سأتولى أمره بنفسي».

بعد هذه الكلمات، تتحرّك المحققة وتصطحبني إلى الخارج، فنعبر ردهة فندق ريجنسي غراند اللامعة المتألقة ونخرج من باب الخدمة.

الفصل الرابع

أنا في مركز الشرطة. أحس شيئًا من الغرابة لأنني لست في فندق ريجنسي غراند ولا في البيت، في شقة جدتي. أجد صعوبة في تسميتها «شقتي»؛ لكنّي أظنها الآن شقتي. هي شقتي، شقتي وحدي، طالما بقيت قادرة على دفع الإيجار.

أنا الآن في مكان لم أكن فيه قبل اليوم أبدًا، في مكان لم أتوقّع أبدًا أن أجد نفسي فيه - غرفة صغيرة بيضاء مبنيّة من الطوب الخفيف، ليس فيها غير كرسيَين وطاولة وكاميرا مثبتة في الزاوية العلوية اليسرى، لها مصباح أحمر صغير وامضٌ في اتجاهي. نور مصابيح النيون هنا حادٌّ كثيرًا، يكاد يعميني. صحيح أنني معجبة كثيرًا باللون الأبيض الناصع في الديكور والملابس، لكن شدّة بياض الإنارة هنا غير مناسبة... غير مناسبة أبدًا. لا يكون اللون الأبيض مناسبًا إلا في غرفة نظيفة. لا مجال لأي خطأ: هذه الغرفة غير نظيفة أبدًا.

لعل هذا «مرض مهني»: أرى الأوساخ حيث لا يراها الآخرون. آثار على الجدار حيث أظن بأن محفظة جلدية سوداء قد احتكت به. آثار فناجين القهوة الدائرية على الطاولة البيضاء أمامي، دائرتان بنيتان. آثار رمادية اللون خلّفتها أصابع كثيرة من حول مقبض الباب؛ وخطوط متوازية على الأرض باقية حيث سارت المحققة بحذائها المبتل.

تركتني المحققة ستارك هنا منذ بضع لحظات. كانت رحلتنا بالسيارة سارّة إلى حد معقول. تركتني أجلس في مقعد السيارة الأمامي فقدّرت لها هذا اللطف. أنا لست مجرمة. أشكرك جزيل الشكر. إذًا، لا موجب لمعاملتي كأنني مجرمة. حاولت المحقّقة فتح أحاديث صغيرة عندما كنا في السيارة. أنا لا أحسن الخوض في أحاديث صغيرة.

سألتني: «منذ متى تعملين في فندق ريجنسي غراند؟».

«منذ أربع سنوات تقريبًا، وثلاثة عشر أسبوعًا، وخمسة أيام. لعلي انقطعت عن العمل يومًا واحدًا، لا أكثر. أستطيع تحديد ذلك اليوم بكل دقة إن كان لديك تقويم».

«لا ضرورة لهذا». هزّت رأسها بحركة بطيئة، عدة ثوان، ففهمت من هذا أنني قدّمت معلومات أكثر مما تريد سماعه. علّمني السيد سنو كلمة «KISS»، لكنها ليست ما تظنون. معناها هو «تكلّمي ببساطة، يا غبية». لكن عليّ التوضيح هنا: لا يعتبرني غبية. كان يحاول إفهامي أنني أُكثر الشرح، بعض الأحيان. أدركت أن هذا السلوك قد يزعج الآخرين.

عندما وصلنا مركز الشرطة، حيّت المحقّقة ستارك موظفة الاستقبال، فكان هذا بادرة حلوة من جانبها. يعجبني أن يحيّي من يدعونهم «مسؤولين» الموظفين الأدنى منهم مرتبة. تقول جدتي، ما من أحد أعلى شأنًا من المجاملات العادية المهذبة، ولا أقل شأنًا منها.

دخلنا مركز الشرطة فقادتني المحقّقة إلى هذه الغرفة الصغيرة الواقعة في الناحية الخلفية منه.

«هل أحضر لك شيئًا قبل أن نبدأ حديثنا؟ ما رأيك في فنجان قهوة؟».

سألتها: «ألديكم شاي؟».

«سأرى ما أستطيع فعله».

عادت تحمل في يدها كأسًا من الستيروفوم. «آسفة! ليس لدينا شاي. بدلًا من ذلك، جلبت لك كأس ماء».

كأس من الستيروفوم! أكره الستيروفوم. إنه يزقزق! الأوساخ تلتصق به! أبسط لمسة من ظفر يمكن أن تترك عليه ندبة لا تزول. لكني أعرف كيف أكون مهذبة. لن أعترض.

أقول لها: «شكرًا».

تتنحنح المحقّقة، ثم تجلس على كرسي قبالتي. أمامها دفتر ملاحظات صغيرٌ أصفر اللون، وقلم بيك ممضوغ من أعلاه. أُرغم عقلي على عدم التفكير في العدد اللامتناهي من البكتيريا في أعلى ذلك القلم. تضع دفتر الملاحظات على الطاولة، وتضع القلم إلى جانبه. تستند إلى ظهر كرسيها وتنظر إليّ بتلك العينَين الثاقبتَين.

تقول لي: «أنت لا تواجهين أية مشكلة، يا مولي. أريد أن تفهمي هذا».

أقول: «أفهم هذا تمامًا».

دفتر الملاحظات منحرف قليلًا، مائل بنحو سبعة وأربعين درجة على الخط المنطلق من زاوية الطاولة. تتحرّك يدي قبل أن أستطيع إيقافها فتصحّح هذا الخلل وتزيح الدفتر حتى يصير موازيًا لحافة الطاولة. القلم منحرف أيضًا، لكن ما من قوة على وجه الأرض تجعلني أمسّه بيدي.

تراقب المحقّقة ستارك حركاتي مائلة برأسها جانبًا. قد يبدو هذا التشبيه غير لطيف، لكنها تشبه كلبًا ضخمًا يميل برأسه مصغيًا إلى أصوات في الغابة. تنطق المحققة أخيرًا: «يبدو لي أن السيد سنو كان محقًّا في ما قاله عنك من أنك في حالة صدمة. أمر مألوف أن يجد من يكون في حالة صدمة صعوبة في التعبير عن انفعالاته. رأيت هذا من قبل».

لا تعرفني المحققة ستارك على الإطلاق. وأظن أيضًا أن السيد سنو لم يقل لها عني شيئًا. تظن أن سلوكي غريب، وأنني في حالة معنوية صعبة لأنني وجدت السيد بلاك ميتًا في سريره. صحيح أن الأمر كان صدمة، وأنني مضطربة بعض الشيء، لكني أحس الآن أنني أحسن حالًا مما كنت قبل بضع ساعات. وأنا واثقة تمام الثقة من أن تصرفاتي طبيعية تمامًا.

ما أريده حقًا هو أن أعود إلى البيت، وأن أعدّ لنفسي فنجان شاي حقيقيًا. وبعدها قد أكتب لرودني رسالة نصية أخبره فيها بما شهده هذا اليوم من حوادث آملة أن يواسيني بطريقة من الطرق، وأن يقترح عليّ الخروج في موعد جديد. إذا لم يتحقّق هذا، فلن أكون قد خسرت كل شيء. من الممكن أن أحظى بحمّام لطيف، وأن أقرأ رواية لأغاثا كريستي - إن لدى جدتي روايات كثيرة قرأتها كلّها، قرأتها أكثر من مرة.

أقرّر ألّا أفصح عن شيء من هذه الأفكار. بدلًا من ذلك، أوافق المحقّقة ستارك على ما قالته حتى الآن؛ أوافقها قدر ما أستطيع من غير أن أكون كاذبة تمامًا.

أقول لها: «أيتها المحقّقة، قد تكونين محقّة عندما قلت إنني في حالة صدمة. آسفة إن كنت تظنينني أنني لست في حالة طبيعية تمامًا».

تقول: «هذا مفهوم». ترتفع أطراف شفتيها. ابتسامة صغيرة - على الأقل، أظنّها ابتسامة. من الصعب أن أكون واثقة من هذا.

«أود أن أسألك عما شاهدتِه عندما دخلت جناح السيد والسيدة بلاك بعد ظهر هذا اليوم. هل رأيت هناك شيئًا مضطربًا، أو غير معتاد؟».

كلما تحرّكتُ أصادف جمهرة كبيرة من أشياء «مضطربة» أو «غير معتادة» - ليس في جناح السيد والسيدة بلاك وحده. اليوم، وجدت في الطابق الثالث قضيب ستارة منتزعًا من مكانه؛ ووجدت موقدًا صغيرًا مهرَّبًا، وجدته مكشوفًا على رف في حمام في الطابق الرابع. وجدت أيضًا ست سيدات غارقات في الضحك وهن تحاولن إخفاء فرشات هوائية تحت سرير في غرفة مخصّصة لنزيلَين فقط. قمت بما يتعيّن عليّ القيام به، وأحطت السيد سنو علمًا بهذه المخالفات كلّها - وبمخالفات أخرى أيضًا.

قال السيد سنو: «إن إخلاصك لمعايير فندق ريجنسي غراند الرفيعة لا حدود له». لكنه، لم يبتسم. ظلت شفتاه في خط أفقي تمامًا.

أجبته: «شكرًا»، وكنت راضية عن نفسي لأنني أبلغته بتلك الأمور كلّها.

أظن أن ما تريده المحقّقة حقًّا هو معرفة ما أنا مستعدة للبوح به.

أقول لها: «أيتها المحقّقة، كان جناح السيد والسيدة بلاك في حالة مألوفة من الفوضى عندما دخلته بعد ظهر هذا اليوم. ما كان فيه شيء غير مألوف عدا أقراص الدواء على الطاولة الصغيرة إلى جوار السرير».

أقول قول هذا عامدة لأنه تفصيل لن يمكن أن يفوت أي محقّق، مهما يكن غبيًا. ما لا أريد الخوض فيه هو الأمور الأخرى التي لاحظتها - الثوب الملقى على الأرض، والخزنة المفتوحة، والمال

المفقود، وبطاقة السفر بالطائرة، وعدم وجود حقيبة يد جيزيل عندما دخلت الغرفة ثاني مرة. وما رأيته في تلك المرآة، ما رأيته في غرفة نوم السيد بلاك.

شاهدت من أفلام جرائم القتل ما يكفي لأن أعرف من يكون أول المشتبه فيهم. كثيرًا ما تحتل الزوجات رأس القائمة؛ لكن آخر ما أريده هو أن أضع جيزيل موضع الشك. لا ذنب لها في هذا كله؛ وهي أيضًا صديقتي. أنا قلقة عليها.

تقول لي المحققة: «إننا نتحرى أمر تلك الأقراص».

أقول على الرغم مما قرّرته في نفسي: «إنها لجيزيل». لا أستطيع تصديق أن اسمها خرج من فمي هكذا. قد يكون صحيحًا أنني في حالة صدمة لأن ما من توافق بين أفكاري وفمي مثلما يكون في الأحوال العادية.

تسألني المحقّقة من غير أن ترفع رأسها عن الدفتر الذي تكتب فيه: «كيف تعرفين أن الأقراص لجيزيل؟ اسمها غير مكتوب على العلبة».

«أعرف هذا لأنني أرتب كل ما لديها من عبوات مواد التجميل. أرتبها عندما أنظّف الحمام. أحب أن أصفّها من أطولها إلى أقصرها، مع أنني أحاول التحقّق، أحيانًا، مما إذا كان النزيل يفضل أسلوبًا آخر في ترتيبها».

«أسلوب آخر؟».

«نعم... كأن تضعي مستحضرات التجميل أولًا، ثم الأدوية، ثم المنتجات الصحية النسائية... ».

ينفتح فم المحقّقة ستارك قليلًا.

«... أو مستلزمات الحلاقة، وكريمات الجلد، ومقويات الشعر. ألا ترين هذا؟».

يطول صمت المحقّقة. تنظر إليَّ كأنني حمقاء. لكن من الواضح أنها عاجزة عن إدراك منطقي البسيط. في الحقيقة، أعرف أن الأقراص لجيزيل لأنني رأيتها مرات كثيرة تتناولها عندما أكون في غرفتها. بل إنني سألتها عنها ذات مرة.

قالت لي: «هذه؟ إنها تهدئني عندما أفقد أعصابي. هل تريدين قرصًا منها؟».

أرفض رفضًا مهذّبًا. وظيفة الأدوية هي أن تخفّف الألم. وأنا مدركة تمام الإدراك ما يمكن أن يحدث عندما يُساء استخدامها.

تتابع المحققة أسئلتها: «عندما وصلت إلى شقة السيد والسيدة بلاك، هل ذهبت إلى غرفة النوم مباشرة؟».

أجبتها: «لا. لو دخلت غرفة النوم على الفور، لكان ذلك مخالفًا للبروتوكول الخاص بعملنا. في البداية، أعلنت عن وصولي ظانّة أن أحدًا يمكن أن يكون في الشقة. وكما اتضح لي بعد ذلك، كنت محقة في ظنّي، محقّة مئة بالمئة».

تنظر المحققة إليّ ولا تقول شيئًا.

أنتظر قليلًا، ثم أنبهها: «أنت لم تسجّلي هذا عندك».

«أسجّل ماذا؟».

«ما قلته الآن».

ترشقني بنظرة لا أستطيع قراءتها، ثم تلتقط قلمها وتدوّن كلماتي. تلقي بالقلم على الدفتر بعد انتهائها من الكتابة. تسألني: «وماذا بعد ذلك؟».

أقول: «نعم... عندما لم يرد أحد على ندائي، دخلتُ غرفة المعيشة فوجدتها في حالة فوضى شديدة. هممت بتنظيفها وترتيبها، لكني قلت في نفسي إن من الأفضل في البداية أن ألقي نظرة على

الشقة كلّها. دخلت غرفة النوم فوجدت السيد بلاك في سريره. كان كأنه استلقى هناك حتى يرتاح قليلًا».

كانت نهاية القلم الممضوغة مائلة صوبي تهتز اهتزازًا منذرًا بالسوء مع تدوين المحققة كلماتي في دفترها. استحثتني قائلة: «تابعي!».

أشرح لها كيف اقتربت من سرير السيد بلاك، وكيف تحقّقت من تنفّسه، ومن نبضه، لكني لم أجد تنفسًا ولا نبضًا. أشرح لها كيف اتصلت بمكتب الاستقبال طالبة العون. أخبرها بكل ما جرى حتى لحظة وصولها.

أراها الآن تكتب بسرعة شديدة وتتوقّف من حين إلى حين حتى تنظر إلي، وتضع مصنع الجراثيم، نهاية قلمها، في فمها كلما رفعت رأسها في اتجاهي.

«أخبريني شيئًا، هل أنت على معرفة حسنة بالسيد بلاك؟ هل جرت أحاديث بينك وبينه؟... أعني، في ما يتجاوز تنظيف شقتهما؟».

أجيبها: «لا. كان السيد بلاك دائم التحفظ. كان يشرب كثيرًا ولا يبدي أي مَيل إلى الكلام معي. لذا، كنت أظل بعيدة عنه إلى أقصى حدّ أستطيعه».

تسألني المحققة: «وماذا عن جيزيل بلاك؟».

أفكر في جيزيل، وفي الأحاديث الكثيرة التي دارت بيننا، في الخصوصيات التي تبادلناها، خصوصياتي وخصوصياتها. هكذا تُبنى الصداقة... حقيقة صغيرة في كل مرة.

عادت أفكاري إلى أول لقاء بيننا، إلى لقائنا قبل شهور كثيرة، إلى أول تواصل بيننا. كنت قد نظّفت جناح السيد والسيدة بلاك مرّات كثيرة قبل ذلك. لكني لم ألتق جيزيل فعليًا. كان الوقت صباحًا -لعل ذلك كان في الساعة التاسعة والنصف صباحًا- عندما طرقت الباب، ففتحته جيزيل وأدخلتني. كانت ترتدي مبذلًا بيتيًا ناعمًا وردي اللون، مصنوعًا من الحرير أو الساتان. شعرها الداكن متهدّلٌ على كتفيها في تموّجات جميلة. ذكّرتني بنجمات الأفلام القديمة بالأبيض والأسود، بتلك الأفلام التي

كنت أتابعها مع جدتي في الأمسيات. مع هذا، كان في جيزيل أيضًا شيء معاصر جدًّا كأنها... كأنها جسر واصل بين عالمين.

دعتني إلى الدخول فشكرتها وجررت عربتي خلفي.

مدّت يدها وقالت لي: «أنا جيزيل بلاك». لم أدرِ ما أفعله. يتجنّب أكثر النزلاء ملامسة خادمات الغرف، ملامسة أيدينا خاصة. يربطون بيننا وبين أوساخ البشر الآخرين - لا يفكرون أبدًا في أوساخهم! لكن جيزيل لم تكن هكذا. كانت مختلفة. كانت مختلفة دائمًا. لعلّ هذا سبب إعجابي الشديد بها.

أسرعتُ فمسحت يدي بمنشفة أخذتها من عربتي، ثم مددت يدي وصافحتها. قلت لها: «تسرني معرفتك».

سألتني: «وما اسمك؟».

ارتبكت من جديد. نادرًا ما يطلب النزلاء معرفة اسمي. غمغمت قائلة: «مولي»، ثم انحنيت انحناءة صغيرة.

قهقهت وقالت: «مولي ميد! هذا مضحك جدًا».

أجبتها مطرقة برأسي: «صحيح، يا مدام».

قالت: «أوه، لست مدامًا. لم أكن مدامًا منذ زمن بعيد. خاطبيني باسمي، جيزيل. يؤسفني أنك مضطرة إلى تنظيف هذه القذارة كل يوم. نحن نوسّخ الشقة كثيرًا، أنا وتشارلز. لكنه أمر لطيف أن أفتح بابي بعد أن تكوني هنا فأجد كل شيء في أحسن حال. هذا أشبه بأن يولد المرء من جديد في كل يوم يمرّ».

عملي ملاحَظ، مُقَرٌّ به، مُقدّرٌ. في تلك اللحظة، ما عدت غير مرئية.

قلت: «أنا في خدمتك يا... يا جيزيل».

ابتسمت لي عند ذلك؛ ابتسمت ابتسامة تشجيع كبيرة امتدت على وجهها كلّه حتى بلغت عينيها الجميلتين.

أحسست باندفاع الدم إلى وجنتي. لم أدرِ ما أفعله بعد ذلك. لم أدرِ ما ينبغي قوله. لا يحدث كل يوم أن يدور حديث بيني وبين نزلاء لهم هذه المكانة الرفيعة. وأيضًا، لا يحدث في كل يوم أن يثني نزيلٌ على عملي وينتبه إلى وجودي.

تناولت منفضة الغبار المصنوعة من الريش وهممت بأن أباشر عملي. لكن جيزيل تابعت الكلام.

قالت لي: «قولي لي يا مولي... كيف هو ذلك الإحساس عندما تكونين خادمة غرف وتنظفين ما يخلّفه أشخاص مثلي، كل يوم؟».

لم يحدث قبل الآن أبدًا أن طرح عليَّ هذا السؤال أي نزيل من النزلاء. ولم تكن كيفيّة الإجابة مما تعلمته في أية واحدة من جلسات السيد سنو التي تتناول التطوير المهني الشامل في ما يخص أصول الخدمة في الفندق.

قلت: «هذا عمل شاق. لكنني أجد مسرّة في ترك الغرفة في حالة مثالية ثم الخروج منها والاختفاء من غير أن أترك أثرًا».

جلست جيزيل على الأريكة. راحت تفتل بين أصابعها خصلة من شعرها الكستنائي الغزير. قالت: «يبدو هذا أمرًا يصعب تصديقه... أن تكوني غير مرئية... أن تختفي مثلما تقولين. أنا ليست لي أيّة خصوصية، أيّة حياة. أجد كاميرات المصورين في وجهي أينما ذهبت. ثم إن زوجي طاغية. ظننت دائمًا أن كوني زوجة رجل ثري سيحلّ مشكلاتي كلّها، ثم اتضح لي أن الأمر ليس هكذا. الأمر ليس هكذا أبدًا».

وجدتُ نفسي عاجزة عن الكلام. ما الإجابة المناسبة هنا؟ لم يتسن لي وقت كافٍ للتفكير في هذا لأن جيزيل عادت تتكلّم من جديد: «من حيث الجوهر، يا مولي، ما أقوله لك هو أن حياتي بائسة».

نهضَت عن الأريكة، وذهبَت إلى الميني بار. تناولت زجاجة جِن بومباي صغيرة أفرغتها في كأس. عادت إلى الأريكة حاملة شرابها. جلست من جديد.

قلت لها: «لكل منا مشكلاته».

«أوه، حقًا! ما هي مشكلاتك؟».

سؤال آخر ما كنت مستعدة له. تذكّرت نصيحة جدتي - الصدق أفضل سياسة.

بدأت أقول: «صحيح أنني غير متزوّجة، لكن كان لي صديق منذ حين من الزمن. وبسببه، أعاني الآن مشكلات ماليّة. اتضح أن صاحبي... اتضح أنه... نعم، اتضح أنه بيضة فاسدة».

«صاحبي! بيضة فاسدة! هل تعرفين أنك تتكلّمين بطريقة مضحكة بعض الشيء؟». أخذَتْ جرعة من كأسها... «كأنك سيدة عجوز، أو كأنك الملكة».

قلت: «جدتي هي السبب. لقد ربّتني. لم تحظ بقسط وافر من التعليم، من الناحية الرسمية... لم تتجاوز المدرسة الثانوية. أمضت حياتها كلها في تنظيف البيوت إلى أن
مرضت. لكنها علّمت نفسها بنفسها. كانت جدتي ذكية. كانت مؤمنة بثلاثة مبادئ: لباقة التصرف، وحسن التعبير، وسعة الاطلاع. علّمتني الكثير. الحقيقة أنها علمتني كل شيء أعرفه».

قالت جيزيل: «هكذا... ».

«كانت مؤمنة بالتهذيب؛ وكانت تعامل الناس بكل احترام. ليس مهمًا ما تكونه مكانتك في الحياة. المهم هو مسلكك مع الآخرين، ومع نفسك».

«صحيح. أفهم هذا. أظن أنني لو عرفت جدتك لأحببتها. أهي من علّمك كيف تتكلمين هكذا؟ كأنك إليزا في فيلم سيدتي الجميلة؟».

«نعم، أظن هذا».

نهضت جيزيل عن الأريكة. وقفت أمامي تمامًا. ذقنها مرفوعة.

قالت لي: «جلدك جميل جدًا، كأنه من البورسلان. أنت تعجبينني، يا مولي. أنت غريبة قليلًا، لكنك تعجبينني». ذهبت مسرعة إلى غرفة النوم، ثم عادت تحمل بيدها محفظة رجالية بنية اللون. بحثت في المحفظة، ثم أخرجت ورقة نقدية جديدة من فئة مئة دولار. وضعت الورقة في يدي. قالت لي: «خذي. إنها لك».

«لا. لا يمكنني أن...».

«لن يلاحظ غيابها. وحتى إذا لاحظ غيابها، فما الذي يستطيع فعله؟ هل يقتلني؟».

نظرت إلى الورقة النقدية في يدي: جديدة، خفيفة كأنها ريشة. أفلحت أخيرًا في النطق: «شكرًا». كان صوتي هامسًا. هذا أكبر بقشيش تلقيته حتى الآن.

أجابت جيزيل: «هذا لا شيء. لا حاجة إلى الشكر».

هكذا بدأ الأمر. هكذا بدأت الصداقة بيننا، جيزيل وأنا. استمرّت الصداقة ونمَت مع كل يوم من أيام إقاماتها الطويلة في الفندق. وخلال سنة واحدة، نشأ بيننا تقارب كبير. صارت ترسلني أحيانًا في مهمّات خارج الفندق، حتى لا تكون مضطرة إلى مواجهة المصورين، الذين يحدث كثيرًا أن تجدهم في انتظارها عند باب الفندق.

«مولي... لقد كان يومي عصيبًا. اتصلت ابنة تشارلز وقالت إنني طامعة في ثروته. وقالت لي زوجته السابقة إن ذوقي في الرجال سيئ جدًا. هل تذهبين وتشترين لي شرائح اللحم المشوية مع كوكا كولا؟ يكره تشارلز أن أتناول مأكولات من هذا النوع، لكنه سيكون في الخارج طيلة فترة بعد الظهر. خذي».

ناولتني خمسين دولارًا. وعندما عدت إليها بما طلبت شراءه، قالت ما تقوله دائمًا: «أنت هي الأفضل، يا مولي، احتفظي ببقية النقود».

كان يبدو لي أنها تدرك حقيقة أنني لا أعرف دائمًا كيف أهتدي إلى التصرف الصحيح، أو إلى ما ينبغي أن أقول. ذات مرة، أتيت في الموعد المعتاد لكي أنظّف الشقّة، فوجدت السيد بلاك جالسًا إلى المكتب الصغير عند الباب يقرأ أوراقًا ويدخن سيجارًا قذرًا.

سألته: «سيدي... هل الوقت الآن مناسب لكي أعيد شقتك إلى حالتها المثالية؟».

نظر إليَّ السيد بلاك من فوق نظارته. سألني: «ماذا تعتقدين؟». ومثلما يفعل تنّين، نفث الدخان في وجهي.

أجبته: «أعتقد أنه وقت مناسب». ثم شغلت المكنسة الكهربائية. اندفعت جيزيل من غرفة النوم. أحاطتني بذراعها، وأشارت إليَّ بأن أوقف المكنسة.

قالت لي: «مولي. يحاول تشارلز القول لك إن الوقت غير مناسب أبدًا. أعني أنه يريد أن تغربي عن وجهه».

كان إحساسًا فظيعًا. وجدت نفسي غبية جدًا. قلت: «أعتذر».

أمسكَتْ بيدي وقالت بصوت منخفض حتى لا يسمعها السيد بلاك: «لا بأس. أنت لم تتعمَّدي إزعاجه». رافقتني إلى الباب وقالت شفتاها، آسفة، قبل أن تفتحه، فأدفع عربتي وأخرج إلى الممر.

هكذا هي جيزيل، طيّبة. تساعدني في فهم الأشياء بدلًا من أن تجعلني أرى نفسي غبيّة. «مولي... أنت تقفين على مقربة شديدة من الناس، هل تعرفين هذا؟ عليك أن تتراجعي قليلًا وألّا تكوني أمام وجه الشخص عندما تخاطبينه. تخيّلي أن عربتك تفصل بينك وبينه... حتى إذا لم تكن العربة موجودة معك».

وقفتُ على مسافة قدّرتُ أنها مناسبة، وسألتها: «أهكذا؟».

قالت: «تمامًا! هذا ممتاز... »، أمسكَت بذراعيَّ الاثنتين وشدّت عليهما... «قفي دائمًا على هذه المسافة إلّا إذا كنت واقفة معي أو مع أي أصدقاء مقربّين آخرين».

أصدقاء مقرّبون آخرون! ما أقل ما تعرفه جيزيل! إنها صديقتي الوحيدة.

بعض الأيام، عندما أنظف الشقة، يكون لديّ إحساس بأنها تشعر بالوحدة على الرغم من كونها متزوجة من السيد بلاك. أحسّ كأنها توّاقة إلى صحبتي مثلما أتوق إلى صحبتها.

صاحت ذات يوم مرحّبة بي عند الباب: «مولي!». كانت ترتدي بيجاما حريرية مع أن النهار قارب منتصفه... «أنا سعيدة جدًا بوجودك هنا. نظّفي الغرف سريعًا حتى نغيّر مظهرك قليلًا». صفّقت بيديها فرحة.

قلت لها: «عفوًا؟».

«سوف أعلّمك كيف تضعين الماكياج. أنت جميلة جدًا، يا مولي. هل تعرفين هذا؟ جلدك رائع. لكن وجهك يبدو شاحبًا بسبب شعرك الداكن. المشكلة هي أنك لا تبذلين جهدًا في هذا. عليك أن تعززي ما وهبتك إياه الطبيعة».

نظّفتُ الشقة سريعًا. يصعب فعل هذا من غير التغاضي عن بعض الأشياء. لكني أفلحت في الانتهاء سريعًا. حان وقت استراحة الغداء. لذا، قلت في نفسي إن من المناسب الآن أن أحظى باستراحة. أخرجت جيزيل حقيبة مستلزمات التجميل. أعرف هذه الحقيبة جيدًا لأنني أرتّب محتوياتها كل يوم وأعيد الأغطية إلى الزجاجات التي تتركها مفتوحة، ثم أضع كل زجاجة أو علبة في مكانها الصحيح في الحقيبة.

شمّرت كمَّيْ بيجامتها، ووضعت يديها الدافئتين على كتفيّ. نظرت إليّ في المرآة. كان إحساسًا سارًا، إحساسي بيديها المستقرّتين على كتفيّ. ذكّرتني بجدتي.

حملت فرشاة الشعر وبدأت تسرّح شعري. قالت: «شعرك... إنه كالحرير. هل تستخدمين شيئًا لكي يصير ناعمًا هكذا؟».

قلت، «لا. لكني أغسله. أغسله بانتظام، وبشكل جيد. إنه نظيف جدًا».

ضحكت وقالت: «بالتأكيد، هو نظيف».

سألتها: «هل تضحكين معي، أم تضحكين مني؟ تعرفين أنهما شيئان مختلفان كثيرًا».

قالت: «أوه، أعرف هذا. يحدث كثيرًا أن يضحكوا مني. لكني أضحك معك، يا مولي. لا يمكن أبدًا أن أضحك منك».

قلت: «شكرًا. أقدّر لك هذا. اليوم، كان موظفو الاستقبال في الأسفل يضحكون مني. شيء متعلّق بالاسم الذي أطلقوه عليَّ. إن أردت الصدق، أنا لا أستطيع فهم ذلك الاسم».

«ما الاسم الذي أطلقوه عليك؟».

قلت: «رومبا. كثيرًا ما كنت أشاهد مع جدتي فيلم الرقص مع النجوم. الرومبا رقصة جميلة جدًا».

تأوّهت جيزيل: «لا أظنّهم يعنون الرقصة، يا مولي، بل مكنسة رومبا الآلية ذاتية الحركة».

فهمتُ أخيرًا! نظرتُ إلى يديَّ المستقرّتين في حجري حتى لا تنتبه جيزيل إلى الدموع التي طفرت من عينَيَّ. لكن محاولتي لم تنجح. توقفَت عن تسريح شعري ووضعت يديها على كتفي. قالت: «مولي، لا تصغي إلى ما يقولون. إنهم حمقى».

قلت: «شكرًا».

جلستُ على الكرسي متيبّسة، محدّقة في صورتي في المرآة وفي جيزيل التي بدأت تعمل على وجهي. أقلقني احتمال أن يدخل شخص فيجدني جالسة مع جيزيل بلاك... أن يجدها تعمل على

تجميلي. كيف يكون التعامل مع نزلاء يضعونك في هذا الموقف؟ دروس التطوير المهني التي يلقيها علينا السيد سنو لا تتطرق إلى هذا الأمر.

قالت جيزيل: «أغمضي عينيك».

مسحت عيني ثم استخدمت إسفنجة تجميل جديدة لكي تضع كريم الأساس على وجهي كله.

قالت لي: «أخبريني، يا مولي. أنت تعيشين وحدك، أليس كذلك؟ ألست وحدك في البيت؟».

قلت: «أنا الآن وحدي. ماتت جدتي منذ بضعة شهور. قبل ذلك، كنا معًا، نحن الاثنتين».

تناولت علبة البودرة والفرشاة. أوقفتُها قبل أن تضع الفرشاة على وجهي، وسألتُها: «أهي نظيفة؟ هذه الفرشاة».

أطلقت جيزيل تنهيدة. قالت: «نعم، إنها نظيفة. أنت لست الشخص الوحيد في العالم الذي يهتم بتعقيم الأشياء».

سرّني هذا كثيرًا لأنه أكدّ لي ما كنت أعرفه في قلبي. أنا وجيزيل مختلفتان، لكننا -من حيث الأساس- متشابهتان كثيرًا.

بدأت استخدام الفرشاة على وجهي. كانت الفرشاة مثل منفضة الغبار المصنوعة من الريش، لكنها أصغر قليلًا. كأن جناحَي عصفور دوري صغير يرفرفان عند وجنتَي.

«أليس أمرًا صعبًا أن تعيشي وحدك، هكذا؟ يا إلهي... لو كنت مكانك لما استطعت العيش. لا أعرف كيف أتدبّر أموري بمفردي».

الحقيقة أن ذلك كان شديد الصعوبة. لا أزال ألقي التحيّة على جدّتي كلما وصلت إلى البيت مع إدراكي أنها ليست هناك. أسمع صوتها في رأسي، وأسمع وقع خطواتها في الشقة، أسمعها كل يوم. أتساءل كثيرًا إن كان هذا أمرًا طبيعيًا، أم إنني بدأت أفقد عقلي.

قلت لها: «إنه صعب. لكنك تعتادين الأمر».

توقّفت جيزيل عن العمل ونظرت إلى عينيّ في المرآة. قالت: «كم أحسدك! أن تكوني قادرة على العيش هكذا، وأن تكون لديك الشجاعة الكافية لهذا الاستقلال التام من غير مبالاة بما يراه الآخرون... أن تكوني قادرة على السير في الشارع من غير أن يهاجمك الصحافيون».

ما كانت لديها أية فكرة عما أواجه من مشقات. ما كانت لديها أيّة فكرة على الإطلاق. قلت لها: «إنها ليست طريقًا مفروشًا بالورود».

قالت: «لعلها ليست كذلك! لكنك، على الأقل، لست معتمدة على أحد. أما أنا وتشارلز! يبدو الأمر رائعًا عندما تنظرين إليه من الخارج، لكنه... أحيانًا، لا يكون كذلك. ثم إن أطفاله يكرهونني. هم قريبون من سنّي. أعترف بأن هذا أمر غريب بعض الشيء. وأما زوجته السابقة! إنها لطيفة معي بطريقة غريبة. هذا أسوأ من أي شيء آخر. كانت هنا منذ أيام. أتعلمين ما قالته لي لحظة ابتعد تشارلز وصار غير قادر على سماعها؟ قالت لي، اتركيه ما دمت قادرة على تركه! أسوأ ما في الأمر هو أنها محقّة. أعرف أنها محقّة. أتساءل أحيانًا إن كان خياري صائبًا. هل تعرفين هذا؟».

قلت: «في واقع الأمر، أفهم هذا». لقد أقدمتُ على خيار خاطئ - إنه ويلبور! هذا شيء لا أزال أندم عليه في كل يوم يمرّ.

تناولت جيزيل ظلّ العيون. «أغمضي عينيكِ من جديد». فعلتُ مثلما قالت لي. تابعت كلامها أثناء عملها... «منذ بضع سنين، كان لي هدف واحد، هدف واحد أوحد. أردت أن يقع في حبي رجل ثريّ يكون هو من يرعاني. وقد التقيت تلك الفتاة - لنقل إنها مرشدتي. جعلتني أرى كيف يمكن أن يتمّ لي ما أردت. ذهبت إلى الأماكن الصحيحة كلّها، واشتريت بضع قطع من الملابس الصحيحة. كانت تقول لي، إن آمنت بشيء، فسوف تحصلين عليه! لقد تزوجَتْ ثلاثة رجال مختلفين، وطلّقَتْ ثلاث مرات. أخذَت من كل واحد منهم نصف ثروته. أليس هذا أمرًا عجيبًا. تدبّرَت أمرها بأحسن ما يكون. بيت في سان تروبيز، وبيت
على شاطئ البندقية. تعيش وحدها، ولديها خادمة وطباخ وسائق. ليس عندها من يقول لها ما ينبغي فعله. ما من أحد يصدر أوامره. أنا مستعدة لفعل أي شيء حتى أحصل على هذه الحياة. من لا

يريدها؟

سألتها: «هل أستطيع فتح عينيَّ الآن؟».

«ليس بعد. لكن، كدنا ننتهي». انتقلت إلى استخدام فرشاة صغيرة جدًا أحسستها لطيفة على أجفاني. برودتها منعشة.

قالت جيزيل: «على الأقل، ليس عندك رجل يملي عليك ما ينبغي فعله، رجل منافق. هل تعلمين أن تشارلز يخونني؟ يغار حتى إذا ألقيت نظرة سريعة على رجل آخر، لكنْ، لديه عشيقتَان، على الأقل. لديه عشيقتان في مدينتَين مختلفتَين. إنهما العشيقتان اللتان علِمْت بهما، وقد يكون له غيرهما. لديه عشيقة هنا أيضًا. عندما اكتشفت الأمر، وددت أن أخنقه. يدفع للصحافيين مالًا حتى لا ينشروا ما يعرفونه عنه. مع هذا، يكون عليَّ أن أقدّم إليه تقريرًا شاملًا كلما خرجت، وأن أخبره بالمكان الذي أريد الذهاب إليه».

فتحتُ عينيَّ وبقيت جالسة على الكرسي، منتصبة الظهر. ساءني كثيرًا أن أعرف هذا عن السيد بلاك. قلت: «أكره الخوَنة. أحتقرهم. لا يجوز أن يفعل بك هذا. جيزيل، هذا ليس صوابًا».

لا تزال يداها قريبتين من وجهي. لقد طوت كمَّيْ بيجامتها إلى فوق مرفقيها. رأيت كدمات على ذراعيها. وعندما انحنت صوبي، انحسرت ياقتها قليلًا فرأيت علامة بنّية مصفرّة فوق عظم ترقوتها.

سألتها: «من فعل بك هذا؟».

هزت كتفيها: «مثلما قلت لك... بيني وبين تشارلز، لا تكون الأمور جيدة دائمًا».

أحسست انقباضًا في معدتي، انقباضًا أعرفه... مرارة وغضب يغليان تحت السطح مباشرة، بركان لا أسمح له بأن ينفجر... ليس بعد.

قلت لها: «تستحقين معاملة أفضل، يا جيزيل. أنت إنسانة طيّبة».

قالت: «أنا! لست طيبة بالقدر الذي تظنين. أحاول، لكني... أحيانًا... أحيانًا، من الصعب أن تكوني طيبة. من الصعب أن تفعلي ما هو صحيح». انتقت إصبع أحمر الشفاه، لون أحمر كالدم، وبدأت تطلي شفتيّ.

«لكنك محقّة في أمر واحد. أستحق ما هو أفضل. أستحق رجلًا ساحرًا، أمير السحر. في آخر المطاف، سوف أجعل هذا يتحقّق. إنني أعمل عليه. إن آمنتِ بشيء، فسوف تحصلين عليه، أليس كذلك؟». وضعَت إصبع أحمر الشفاه من يدها، والتقطت ساعة رملية كبيرة كانت على طاولة الزينة. رأيت هذه الساعة مرات كثيرة. لمّعتُ انحناءاتها الزجاجية بالأمونيا، ولمّعتُ نحاسها بسائل تنظيف المعدن حتى يعود متألقًا. كانت شيئًا جميلًا، كلاسيكيًا، جليلًا، شيئًا يسرني أن أمسّه، أن أحمله.

رفعَت الساعة الرملية أمامي، وقالت: «هل ترين هذه الساعة؟ المرأة التي التقيتها، مُشرفتي، إنها هدية منها. كانت فارغة عندما أعطتني إياها. قالت لي أن أملأها رملًا من شاطئي المفضل. قلت لها، هل أنت مجنونة؟ لم أر المحيط في حياتي كلّها! لماذا تظنين أنني سأذهب إلى شاطئ من الشواطئ في وقت قريب؟».

«اتّضح لي بعد ذلك أنها كانت محقّة. رأيت شواطئ كثيرة خلال السنوات الماضية. أُخذت إلى شواطئ كثيرة، حتى قبل أن ألتقي تشارلز - الريفييرا الفرنسية، بولينيزيا، جزر المالديف، جزر كايمان. جزر كايمان هي المفضلة عندي. أتمنى أن أعيش دائمًا هناك. يملك تشارلز فيلّا في جزر كايمان. عندما أخذني إليها آخر مرة ملأت هذه الساعة رملًا من شاطئها. أقلّبها أحيانًا وأرقب جريان الرمل عبر الثقب. إنه الزمن، صحيح؟ عليك أن تجعلي الأمور تحدث. اجعلي حياتك مثلما تريدين قبل أن يفوت الأوان... وينتهي الأمر». قالت هذا وتراجعَت إلى الخلف خطوة حتى أستطيع رؤية صورتي في المرآة.

وقفت خلفي، ومن جديد وضعت يدَيها على كتفيّ.

قالت: «هل رأيتِ؟ قليل من التجميل جعلك تبدين مثيرة».

أدرت وجهي هذه الناحية وتلك. كدت أعجز عن رؤية ذاتي القديمة. كنت أدرك أنني صرت أبدو «أفضل» على نحو ما... أو، على الأقل، صرت أكثر شبهًا بغيري. لكن ذلك التغيّر كان فيه شيء غير سارٍّ أبدًا.

«هل يعجبك هذا؟ إنه مثل تحوّل بطة صغيرة إلى بجعة جميلة، مثل ساندريلا عندما ذهبت إلى الحفلة الراقصة».

أعرف كيف ينبغي أن أتصرف في هذا الموقف. كانت تلك المعرفة راحة لي. عندما يمتدحك أحدهم، فعليك أن تعبّري عن شكرك. وعندما يفعل أحدهم شيئًا لطيفًا من أجلك -حتى إن كنت لا تريدين أن يفعل ذلك الشيء- فإن عليك أن تشكريه.

قلت لها: «أقدّر كل ما فعلته».

أجابت: «أهلًا بك. وأيضًا، خذي هذه...». أمسكت بالساعة الرملية الجميلة. «إنها هدية. هدية منّي إليك، يا مولي». وضعَت الساعة اللامعة بين يدي. كانت هذه أول هدية تأتيني منذ موت جدتي. لم أستطع تذكّر آخر مرة تلقيت فيها هدية من شخص غير جدّتي. قلت لها: «أحبّها كثيرًا». كنت أعني ما قلت. في نظري، كانت تلك الساعة أكبر قيمة من أي تجميل. لم أستطع تصديق أنها صارت ملكًا لي، وأنني صرت قادرة على الإعجاب بها وتلميعها منذ تلك اللحظة فصاعدًا. كان فيها رمل من مكان غريب، بعيد جدًا، من مكان لن أراه أبدًا. كانت هدية سخيّة من صديقة.

قلت لها: «سأحتفظ بها هنا، في خزانتي في الفندق، فقد تودّين استعادتها». الحقيقة هي أنني وجدت نفسي غير قادرة على أخذها إلى البيت، مع أني أحببتها كثيرًا. لا أريد أن تكون في بيتي أشياء غير أشياء جدتي. «... صدقًا، يا جيزيل، أحبّها. سوف أتأمّلها كل يوم».

«أتظنين نفسك قادرة على خداعي؟ أنت تتأملين هذه الساعة وتعجبين بها كل يوم».

ابتسمتُ: «صحيح. أنت محقّة في هذا. هل أستطيع أن أقترح شيئًا؟».

وقفت إلى جانبي واضعة يدها على خصرها، في حين بدأت ترتيب مستحضرات التجميل في أماكنها ومسح سطح طاولة الزينة.

«لعل عليك التفكير في ترك السيد بلاك. إنه يؤذيك. وسوف تكونين أحسن حالًا من غير وجودك معه».

قالت: «ليت الأمر سهل هكذا. لكنه الزمن، يا آنسة مولي. الزمن يشفي الجروح، مثلما يقولون».

كانت محقّة. مع مرور الزمن، لا يظل ألم الجرح مثلما كان في البداية. هذا أمر مفاجئ، دائمًا... تشعر بأنك تحسّنت قليلًا، لكنك تظل مشتاقًا إلى الماضي.

ما إن خطرت هذه الفكرة لي حتى أدركتُ أن الوقت قد تأخّر. نظرت إلى الساعة في هاتفي. إنها الواحدة وثلاث دقائق. انتهت ساعة استراحة الغداء منذ بضع دقائق.

«جيزيل، عليَّ أن أذهب. سوف تغضب المسؤولة عني -تشيريل- إن تأخرت».

«أوه، هي! يوم أمس، كانت تتشمّم المكان هنا. أتت وسألتني إن كنا راضين عن خدمات التنظيف. قلت لها، إن لديّ أفضل خادمة غرف، فكيف لا أكون مسرورة؟ ظلت واقفة... تلك النظرة الغبية على وجهها. قالت لي، أستطيع خدمتك أفضل من مولي. أنا المسؤولة عنها! لكني قلت لها لا. أخرجت من حقيبتي عشرة دولارات وأعطيتها لها. قلت لها، لا أريد غير مولي. أشكرك! وعندها، ذهبت تشيريل. إنها شخصية غريبة، تلك المرأة... تمنحُ تعبير ‘وجه العاهرة’ معنى جديدًا، إن كنت تدركين ما أعنيه».

علّمتني جدتي ألا أستخدم كلمات نابية. لا أستخدم تلك الكلمات إلّا في ما ندر. لكني وجدت نفسي غير قادرة على إنكار أن جيزيل استخدمت ذلك التعبير استخدامًا صائبًا في هذه الحالة.

من غير أن أنتبه إلى نفسي، بدأت أبتسم.

«مولي! مولي!». إنه صوت المحقّقة ستارك.

قلت لها: «آسفة. هل تكرّرين السؤال، من فضلك؟».

«سألتك إن كنت على معرفة بجيزيل بلاك. هل جرى أي شيء بينكما؟ أحاديث؟ هل قالت لك أي شيء عن السيد بلاك، أي شيء فاجأتك غرابته؟ هل ذكرت أمامك شيئًا يمكن أن يفيدنا في التحقيق؟».

«تحقيق!».

«مثلما قلت لك، من المرجح أن يكون موت السيد بلاك ناتجًا عن أسباب طبيعية. لكن مهمّتي أن أستبعد الاحتمالات الأخرى. هذا هو سبب حديثي معك اليوم». مرّت المحقّقة بيدها على حاجبها... «لذا، أسألك من جديد: هل جرت أية أحاديث بينك وبين السيدة بلاك؟».

«أيتها المحققة، أنا خادمة غرف، فمن عساه يتحدّث معي؟».

فكرت المحقّقة في ما سمعتْه، ثم أومأت برأسها. واضح أنها وجدت إجابتي مرضية تمامًا.

قالت لي: «شكرًا، يا مولي. أعرف أن يومك كان صعبًا. دعيني الآن آخذك إلى بيتك».

وهكذا فعلَت... أخذتني إلى بيتي.

الفصل الخامس

أدرتُ المفتاح وفتحت باب شقتي. عبرت العتبة، ثم أغلقت الباب من خلفي. أقفلت الباب بالمزلاج. بيتي... بيتي الحلو!

أنظر إلى الوسادة على كرسي جدتي العتيق عند الباب. لقد طرّزتْ عليه صلاة السكينة: اللهم امنحني سكينةً لأتقبل ما لا أستطيع تغييره، وامنحني شجاعة لأغير ما أستطيع تغييره، وامنحني حكمة التمييز بين هذا وذاك.

أتناول هاتفي من جيب بنطلوني وأضعه على الكرسي. أفك رباط حذائي، وأمسح أسفل نعليَه بخرقة قبل أن أضعه في الخزانة.

أصيح: «جدتي، لقد عدت!». رحلت جدتي منذ تسعة شهور، لكني لا أزال أحسّ بأن علي المناداة هكذا والإعلان عن وصولي... هذا اليوم خاصة.

من غير جدتي، ما عاد نظامي المسائي مثلما كان. في حياتها، كنا نمضي وقت فراغنا كلّه معًا. وفي المساء، يكون أول ما أفعله هو إكمال مهمات التنظيف اليومية. وبعدها، نعدّ طعام العشاء معًا - سباغيتي أيام الأربعاء، وأسماك كل جمعة، شريطة أن نستطيع العثور على عرض سعر جيّد على شرائح الأسماك في متجر البقالة. ثم نتناول عشاءنا جالستين على الأريكة جنبًا إلى جنب ونتابع إعادة مسلسل كولومبو.

كانت جدتي تحب كولومبو، وكنت أحبّه أيضًا. كثيرًا ما تعلّق قائلة إن في وسع بيتر فولك(5) أن يستعين بامرأة مثلها لكي ترتّب مظهره.

«انظري إلى ذلك المعطف. إنه في حاجة ماسّة إلى غسل وكيّ». تهز رأسها وتخاطبه في شاشة التلفزيون كأنه شخص حقيقي واقف أمامها. «أتمنى ألا تدخن السيجار، يا عزيزي. هذه عادة قذرة».

لكن، على الرغم من عادته القذرة تلك، كانت كلّ منا معجبة بقدرة كولومبو على اكتشاف الشراك التي يحوكها المجرمون، وكذلك على التأكّد من تلقيهم جزاء أعمالهم.

ما عدت أتابع مسلسل كولومبو. هذا أمر آخر صار يبدو غير صائب بعد رحيل جدتي. لكني أحاول أن أبقى ملتزمة بنظام التنظيف الليلي الذي وضعناه معًا.

الاثنين، الأرضيّات والأعمال الصغيرة.

الثلاثاء، تنظيف عميق حقيقي.

الأربعاء، الحمام والمطبخ.

الخميس، إزالة الغبار.

الجمعة، يوم غسل الملابس وتجفيفها.

السبت، مهمات طارئة.

الأحد، التسوق وتحضير المشتريات.

كانت جدتي تزرع في ذهني دائمًا أهميّة البيت النظيف المرتب.

«بيت نظيف، جسد نظيف، صحبة نظيفة. هل تعلمين ما يقود إليه هذا كله؟».

لا أظنني كنت قد تجاوزت الخامسة من عمري عندما علّمتني هذا. رفعت رأسي ناظرة إليها، مصغية إلى كلماتها. سألتها: «ما الذي يؤدي إليه، يا جدتي؟».

«يؤدي إلى ضمير نظيف. يؤدي إلى حياة حسنة، نظيفة».

سوف تمرّ سنين قبل أن أفهم هذا حقّ الفهم. لكن، يفاجئني الآن كم كانت جدتي محقّة.

أُخرج المكنسة والمجرفة والممسحة والدلو، أخرجها كلها من خزانة مستلزمات التنظيف في المطبخ. أبدأ بأن أكنس البيت جيدًا اعتبارًا من الزاوية القصيّة في غرفة نومي. ليست المساحة الخالية في غرفتي كبيرة، لأن سريري المزدوج العريض يحتلّ القسم الأكبر منها. لكن للأوساخ أساليبها في الاختباء تحت الأشياء، وفي الاستقرار في الشقوق. أرفع أطراف ملاءات السرير وأكنس الأرض تحته. أدفع بالغبار أمامي إلى أن يصير خارج الغرفة. لوحات جدتي التي تمثّل مناظر طبيعية من الريف الإنكليزي معلّقة على كل جدار. كل لوحة منها تذكّرني بجدتي.

يا لهذا اليوم الذي عشته... يا لهذا اليوم! إنه يوم أفضّل نسيانه على تذكّره؛ لكن الأمور لا تجري على هذا النحو. ندفن الذكريات السيئة عميقًا، لكنها لا تختفي ولا تزول. لا نستطيع التخلّص منها. تظلّ معنا طيلة الوقت.

أتابع الكنس في الممر. أتجه إلى الحمام. بلاطات الأرضية قديمة، متشقّقة، بيضاء وسوداء، لكنها تتألق لامعة بعد تنظيفها جيدًا. أحيانًا، أنظّفها مرتين كل أسبوع. أكنس عنها بضع شعرات سقطت منّي، ثم أخرج من الحمام.

صرت الآن أمام باب غرفتي. الباب مغلق. أتوقّف لحظة. لن أدخل الغرفة. لم أعبر هذه العتبة منذ شهور. لن أعبرها اليوم.

أبدأ كنس الباركيه من آخر غرفة المعيشة... حول الخزانة التي وضعت جدتي تحفها فيها، تحت الأريكة، وصولًا إلى المطبخ الضيّق، ثم عودة إلى باب الشقة. لقد تركت خلفي كومات صغيرة من الغبار - واحدة عند باب غرفتي، وأخرى أمام باب الحمام، وثالثة هنا عند باب الشقة، ورابعة في المطبخ. أكنس كل كومة منها إلى المجرفة، ثم أنظر إلى ما اجتمع فيها. أسبوع نظيف تمامًا. ليس في المجرفة إلّا بضع قطع صغيرة من فتات الكعك، وقليل من الغبار والأوبار المتساقطة من الملابس، وبضع شعرات من شعري الداكن. ليس باقيًا من جدتي ما أستطيع رؤيته... لا شيء أبدًا.

أُفرغ الأوساخ في سلّة القمامة في المطبخ. ثم أملأ الدلو ماء دافئًا وأضيف إليه قليلًا من سائل التنظيف «مستر كلين» برائحة «نسيم ضوء القمر» (النوع المفضّل عند جدتي). أحمل الدلو

والممسحة إلى غرفتي، وأبدأ المسح من الزاوية البعيدة. أحرص على ألّا يصيب الماء أطراف الملاءات المتدليّة من السرير. وبالتأكيد، أحرص على ألّا يصيب لحافي ذا النجمة الكبيرة الوحيدة، اللحاف الذي صنعته لي جدتي منذ سنين. صارت نجمته الآن باهتة لكثرة استعماله؛ لكنه يظل كنزًا.

أكمل الدورة وأنتهي، من جديد، عند باب الشقة حيث أصادف أثرًا جافًا أسود اللون عند الباب. لا بد أنه أثر خلّفه حذاء العمل، حذائي ذو النعل الأسود. أدعك البقعة، وأدعكها. أخاطبها بصوت مسموع: «اذهبي، أيتها البقعة اللعينة». أخيرًا، تتلاشى البقعة أمام عينيَّ ويظهر بريق الباركيه من تحتها.

غريب كيف تنبثق الذكريات في ذهني كلما انهمكت في التنظيف. لست أدري إن كان هذا يحدث مع الجميع - أعني مع من ينظفون جميعًا. مع أن يومي كان حافلًا، فأنا لا أفكر الآن في هذا اليوم، ولا في السيد بلاك وذلك الأمر بشع كلّه، لكني أفكر في يوم صار بعيدًا جدًا، يوم كنت في حدود الحادية عشرة من عمري. كنت أسأل جدتي عن أمي (مثلما أفعل من وقت إلى آخر) - أي نوع من الأشخاص هي أمي؟ أين ذهبت، ولماذا؟ أعرف أنها هربت مع أبي الذي كان رجلًا تصفه جدتي بأنه «بيضة فاسدة»، وبأنه «حشرة في الليل».

سألتها: «وماذا كان في النهار؟».

ضحكت جدتي.

«هل تضحكين معي، أم منّي؟».

«معك، يا فتاتي الغالية! أضحك معك دائمًا».

قالت لي إنها لم يفاجئها أن تتعلّق أمي بـ«ذبابة ليل» لأن جدتي نفسها قد ارتكبت أخطاء عندما كانت صغيرة السنّ. لقد أنجبت أمي نتيجة واحد من تلك الأخطاء.

في ذلك الوقت، كان كل ما سمعته محيّرًا. وما كانت لديّ أية فكرة عن أي شيء منه. لكنه صار اليوم مفهومًا أكثر من ذي قبل. كلما كبرت، كلما فهمت. وكلما فهمت، كلما صارت لدي أسئلة أكثر أطرحها على جدتي... أسئلة ما عادت جدتي قادرة على الإجابة عنها.

سألتها في ذلك الوقت: «هل ستعود إلينا يومًا؟... أمي؟».

زفرة طويلة: «لن يكون هذا سهلًا. عليها أن تهرب منه. وعليها أن تكون راغبة في الإفلات».

لكنها ما كانت راغبة! لم تعد أمي أبدًا. لكن، لا مشكلة عندي في هذا. لا معنى للحزن على شخص لم تعرفه في حياتك كلها. تكفيني مشقّة الحزن على جدتي التي عرفتها، على جدتي التي لن أراها بعد الآن أبدًا، على جدتي التي أشتاق إليها، أفتقدها على نحو مخيف.

كانت جدتي مجدّة في عملها؛ وقد اعتنت بي جيدًا. علّمتني أمورًا كثيرة. كانت تحتضنني وتهتمّ بكل أمر من أموري، وتجعل الحياة جديرة بأن تعاش. جدتي كانت خادمة أيضًا، لكنها خادمة في البيوت. كانت تعمل لدى أسرة ميسورة الحال، لدى آل كولدويل. تمشي نصف ساعة حتى تجتاز المسافة من شقتنا إلى بيتهم ذي الحديقة الكبيرة. كانوا معجبين بعملها. لكنهم لا يكتفون مهما بذلت من جهد.

«هل تستطيعين تنظيف البيت بعد سهرتنا ليلة السبت؟».

«هل تستطيعين إزالة هذه البقعة عن السجادة؟».

«هل تعرفين أيضًا كيف تعتنين بالحديقة؟».

كانت جدتي مستعدة دائمًا، طيبة القلب دائمًا، تجيب بنعم كلما طلبوا منها شيئًا جديدًا بصرف النظر عما يفرضه عليها ذلك من مشقة. ولأنها تفعل هذا، تمكّنت على مرّ السنين من توفير مبلغ محترم من المال... ادخرته للمستقبل. كانت تدعوه «المطمورة».

«ابنتي العزيزة، ألا تذهبين سريعًا إلى المصرف لإيداع هذا المال في المطمورة؟».

أقول لها: «بالطبع، يا جدتي». ثم آخذ بطاقتها المصرفية وأنزل الطوابق الخمسة، ثم أخرج من البناء وأسير كتلتَيْن سكنيّتَين حتى أصل إلى آلة النقود.

ولما صرت أكبر سنًا، بدأت أقلق على جدتي، أقلق لأنها تعمل كثيرًا، أكثر مما ينبغي. لكنها ظلّت تقلل من شأن مخاوفي.

«يستغل الشيطان الأيدي العاطلة. فضلًا عن هذا، سيأتي يوم تجدين نفسك وحيدة، من غيري. عندما يأتي هذا اليوم، ستكون المطمورة قادرة على رعايتك».

ما كنت أريد التفكير في هذا اليوم. يصعب عليَّ العيش من غير جدتي... خاصة لأن المدرسة كانت في نظري نوعًا خاصًّا من أنواع التعذيب. كانت سنوات المدرستَين الابتدائية والثانوية سنوات وحْدةٍ ومشقّة. درجاتي الجيدة في المدرسة جعلتني معتزة بنفسي، لكن زملائي ما كانوا زملاء أبدًا. لم يفهموني أبدًا في تلك الأيام؛ ونادرًا ما يفهمونني هذه الأيام. عندما كنت أصغر سنًا، كان هذا يضايقني أكثر مما يضايقني الآن.

أقول لجدتي عندما تأتي لأخذي من المدرسة: «لا يحبّني أحد هنا».

توضح لي السبب: «هذا لأنك مختلفة».

«يقولون إنني ذات شخصية غريبة».

«ليست شخصيتك غريبة. كل ما في الأمر هو أنك روح طيّبة. ينبغي أن تكوني معتزّة بهذا».

مع اقترابي من إنهاء المدرسة الثانوية، بدأت أحاديث كثيرة تدور بيني وبين جدتي، أحاديث عن المهن المختلفة وعما أريد فعله عندما أصير كبيرة. لكن أمرًا واحدًا كان يستهويني ويثير اهتمامي. أقول لجدتي: «أريد أن أصير خادمة».

«يا ابنتي العزيزة، إن في وسعك أن تضعي لنفسك هدفًا أعلى من هذا... لأن المطمورة موجودة».

لكني بقيت مصرّة؛ وأظن أن جدتي كانت -في أعماقها- مدركة حقيقتي أكثر مما أدركها أي شخص غيرها. كانت مدركة قدراتي ونقاط قوتي. كان لديها أيضًا إدراك واضح لمواطن ضعفي، لكنها تقول لي دائمًا إنني في تحسّن متواصل - كلما عشت زمنًا أطول، كلما تعلّمت أكثر.

قالت لي جدتي: «إن كنت مصممة على أن تعملي خادمة، فليكن ذلك. أنت في حاجة إلى قدر من الخبرة العمليّة قبل التحاقك بمعهد مهني».

بدأت جدتي تتقصّى الأمور، فعلِمت عن طريق شخص تعرفه منذ زمن طويل (يعمل بوابًا في فندق ريجنسي غراند) أن في الفندق وظيفة خادمة شاغرة. كنت متوتّرة أثناء المقابلة، وأحسست بالعرق ينبع تحت إبطي عندما وقفت أمام درجات باب الفندق الفخمة بسجادتها الحمراء، ومن فوقي مظلة كبيرة عليها خطوط سوداء وذهبية.

«جدتي، لا أستطيع الدخول. لا أستطيع العمل في هذا المكان... إنه فخم جدًا».

«كلام فارغ! تستحقين دخول هذا الباب مثلما يستحقّه أي شخص غيرك. وسوف تدخلين. هيا، انطلقي!».

دفعتني إلى الأمام. بادرني صديقها البوّاب، السيد برستون، بالتحية.

قال لي مع انحناءة خفيفة ويد مرفوعة إلى حافة قبعته، «يسرني لقاؤك». نظر إلى جدتي بطريقة غريبة لم أستطع أن أفهمها تمامًا. قال: «مرّ زمن طويل، يا فلورا. ما ألطف أن أراك من جديد».

أجابت جدتي: «لطيف أيضًا أن أراك».

قال السيد برستون: «هيا يا مولي. فلتدخلي الآن».

قادني عبر الباب الدوار اللامع فكانت تلك أول مرة ترى فيها عينَاي ردهة فندق ريجنسي غراند. كانت جميلة جدًا، فخمة جدًا، فكاد مرآها يجعلني أفقد وعيي - الأرضية الرخامية، والسلم الرخامي، والدرابزين الذهبي اللامع، وموظفو مكتب الاستقبال مرتدين ملابس العمل كأنهم طيور بطريق صغيرة أنيقة. رأيت كيف يهتمون بنزلاء الفندق الأنيقين المنتشرين في تلك الردهة الضخمة الباهرة.

سرتُ مبهورة الأنفاس يقودني السيد برستون عبر ممرات أرضها مزخرفة وجدرانها مغلّفة بالخشب الداكن... حوامل مصابيح جداريّة بلون الأصداف، وسجادة كثيفة تمتص الأصوات كلها تاركة صمتًا مشعًّا يمتع الأذن.

انعطفنا يمينًا، ثم يسارًا، ثم يمينًا، ومررنا بمكتب تلو مكتب حتى وصلنا آخر الأمر إلى باب خشبي ذي مظهر متقشّف له لوحة نحاسية كتب عليها: سنو، مدير فندق ريجنسي غراند. نقر السيد برستون على الباب نقرتين ثم فتحه على اتساعه. اعترتني دهشة كبيرة عندما وجدت نفسي في عرين من جلد قاتم الألوان، وورق جدران تزيّنه خطوط بنية بلون الخردل. رأيت رفوف الكتب على الجدران. غرفة مكتب أستطيع، من غير صعوبة، تصديق أنها مكتب شارلوك هولمز نفسه، مكتبه الواقع في 221 ب، بيكر ستريت.

كان السيد سنو القصير جالسًا خلف طاولة مكتب عملاقة من خشب الماهوغني. نهض واقفًا لتحيّتي لحظة دخولي الغرفة. وعندما انسلّ السيد برستون خارجًا من غرفة المكتب، تاركًا إيانا لإجراء مقابلتنا، كنت قادرة على الإقرار سريعًا بأنني وقعت في حبّ فندق ريجنسي غراند، على الرغم من تعرّق يديَّ ومن خفقان قلبي العنيف. منذ تلك اللحظة، كنت قادرة على القول إنني صرت مصممة على الفوز بالوظيفة المرجوّة، وظيفة الخادمة في هذا الفندق.

إن أردتُ الصدق، أقول إنني لا أستطيع تذكّر الكثير عن مقابلتنا نفسها. لا أستطيع تذكّر غير أن السيد سنو استفاض في حديثه عن أنظمة وقواعد السلوك فيه، عن أصول اللباقة.
كان كلامه موسيقى في أذني، بل كان ترنيمة سماوية مقدسة. وبعد حديثنا، قادني عبر الممرات الكثيرة - يسارًا، يمينًا، يسارًا، حتى عدنا إلى ردهة الفندق، ونزلنا سلمًا درجاته من رخام أفضى بنا إلى قبو الفندق الذي يضمّ -هكذا قال لي السيد سنو- قسمَي خدمة الغرف وتنظيف الملابس

والملاءات، فضلًا عن مطبخ الفندق. وفي غرفة مكتب مكتومة الهواء، ضيّقة كأنها خزانة كبيرة، تفوح برائحة الرطوبة والطحالب والنشاء، عرّفني على كبيرة العاملات في خدمة الغرف، الآنسة تشيريل غرين. نظرت إليّ من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ثم قالت: «أظنها تفي بالغرض».

بدأت تدريبي في اليوم التالي، وسرعان ما صرت أعمل دوامًا كاملًا. كان العمل أفضل كثيرًا من الذهاب إلى المدرسة. إن أراد أحد مضايقتي في العمل، تكون تلك المضايقة خفيّة بحيث أستطيع تجاهلها ونسيان أمرها. امسحي، امسحي، فتزول الإساءة أيضًا! كانت الإثارة هائلة عندما تلقيت أجري أوّل مرة.

«جدّتي!». صحت هكذا عند عودتي إلى البيت بعد إيداعي أول مبلغ مالي كسبته بنفسي في «المطمورة». أعطيتها إيصال الإيداع فابتسمت لي ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. قالت لي: «ما كنت أظن أبدًا أنني سأرى هذا اليوم. أنت نعمة في حياتي. هل تعرفين هذا؟».

شدّتني جدتي إليها واحتضنتني. ما من شيء في العالم كله يعادل أن تحتضنني جدتي. لعل هذا أكثر ما أفتقده بعد رحيلها... احتضانها لي، وصوتها.

سألتها بعد أن فكّت ذراعيها عني: «هل في عينيك شيء، يا جدتي؟».

«لا، لا، أنا بخير تمامًا».

مع مرور الزمن على عملي في فندق ريجنسي غراند، ازداد المال الذي أضعه في «المطمورة». بدأنا نتحدث، أنا وجدتي، في احتمالات متابعتي الدراسة. حضرت جلسة غير رسمية تناولَت، بالشرح والتوضيح، برنامج إدارة الفنادق والضيافة في معهد مهني قريب. وجدت في ما سمعته قدرًا هائلًا من الإثارة. شجّعتني جدتي على التقدم إلى ذلك البرنامج، وكانت المفاجأة أن قبلوني فيه. لن يقف الأمر في ذلك المعهد عند تعليمي كيف أنظف فندقًا كاملًا وأحافظ عليه في حالٍ جيدة فحسب، بل أيضًا كيف أدير العاملين... تمامًا مثلما يفعل السيد سنو.

لكني ذهبت لحضور جلسة توجيهية قبيل بدء الدراسة في المعهد، فالتقيت هناك ويلبور. اسمه ويلبور براون. كان يقف أمام واحدة من طاولات العرض يقرأ مطبوعات كانت عليها. كانت أقلام

الحبر الجاف والدفاتر الصغيرة متاحة مجانًا. تناول ويلبور عددًا كبيرًا منها ودسّه في حقيبته الظهرية. وددت كثيرًا أن أتمكن من تصفح المطبوعات الموضوعة على الطاولة، لكن ويلبور لم يتزحزح ولم يفسح لي طريقًا. قلت: «عفوًا، هل أستطيع الوصول إلى الطاولة؟».

التفت إلي. كان ممتلئ الجسد وعلى وجهه نظارة سميكة جدًا. كان شعره أسود اللون، خشنًا.

قال: «آسف، لم أنتبه إلى أنني أقف في طريقك». نظر إلي بعينَين ثابتتين... «أنا ويلبور، ويلبور براون. سوف أبدأ في الخريف دراسة المحاسبة. هل تبدأين في الخريف دراسة المحاسبة أيضًا؟». مدّ لي يده. هزّ يدَي وظلّ يهزها إلى أن اضطررت إلى سحبها حتى يتوقّف.

قلت له: «سوف أدرس إدارة الفنادق».

«تعجبني الفتيات الذكيات. أي نوع من الفتيان يعجبك؟ المولعون بالرياضيات؟».

أبدًا لم أفكر قبل ذلك في نوع الفتيان الذين يثيرون إعجابي. في العمل، كان رودني يعجبني. كان من ذلك النوع الذي يصفونه في التلفزيون بأنه «تيّاه بنفسه»... مثل ميك جاغر. ما كانت هذه صفة موجودة عند ويلبور؛ لكنه كان متميّزًا بأمر آخر: كان شخصًا من النوع المباشر، المألوف، الذي لا يصعب التعامل معه. لم يُثر في نفسي تلك الخشية التي يثيرها أكثر الفتيان والرجال. لعله كان من الأجدر بي أن أخشاه.

بدأت أخرج مع ويلبور في مواعيد. كانت جدتي مسرورة بذلك. قالت لي: «يسعدني كثيرًا أنك عثرت على شخص. ببساطة، هذا مصدر بهجة لي».

كنت أعود إلى البيت وأحكي لها كل شيء عنه... كيف ذهبنا إلى متجر البقالة معًا، وكيف استخدمنا الكوبونات، أو كيف سرنا في الحديقة وأحصينا الخطوات بين التمثال والنافورة فكانت 1203 خطوات. لم تسألني جدتي أبدًا عن الجوانب الأكثر شخصية في علاقتنا الرومانسية؛ وكنت ممتنّة لأنها لم تسألني، فأنا غير واثقة من أنني كنت أعرف كيف أشرح لها إحساسي في ما يخص الجوانب الجسديّة، في ما عدا أنها كانت سارّة جدًا على الرغم من من كونها جديدة ومختلفة.

وذات يوم، طلبت مني جدتي أن أدعو ويلبور إلى شقتنا، فدعوته. إن كان أمل جدتي فيه قد خاب، فمن المؤكد أنها أخفت عني خيبتها.

قالت لي: «صاحبك مرحّب به هنا في كل وقت».

بدأ ويلبور يأتينا في زيارات منتظمة، ويأكل معنا، ويبقى بعد العشاء لمتابعة مسلسل كولومبو. تعليقاته وأسئلته المستمرة عما يدور أمامنا على شاشة التلفزيون ما كانت تعجبني، وما كانت تعجب جدتي، لكننا بقينا صابرتَين عليها.

كان يسأل: «ما هذه القصة التي يكشفون فيها عن هوية القاتل منذ البداية؟». أو: «ألا تريان أن النادل هو القاتل؟». كان يفسد الحلقة كلها بكثرة كلامه، وكثيرًا ما يخطئ في استنتاج هويّة المجرم. لكن، حتى أكون منصفة، لا بدّ لي من القول إنني شاهدت، مع جدتي، كل حلقة مرّات كثيرة. لذا، ما كانت للأمر أيّة أهمية حقيقية.

وفي يوم من الأيام، ذهبت مع ويلبور إلى متجر يبيع المواد والتجهيزات المكتبيّة لأنه يريد شراء آلة حاسبة جديدة. في ذلك اليوم، بدا لي ويلبور في حالة غريبة جدًا، لكني لم أطرح عليه أية أسئلة حتى عندما قال لي: «أسرعي، هيا!». مع أنني كنت أحاول مواكبة خطواته الواسعة. دخلنا المتجر فبدأ يتناول الآلات الحاسبة واحدة تلو أخرى ويجربها كلها ويشرح لي وظيفة كل مفتاح من مفاتيحها. بعد ذلك، بعد أن وقع اختياره على الآلة الحاسبة التي أعجبته أكثر من غيرها، دسّها في حقيبته الظهرية.

سألته: «ماذا تفعل؟».

أجابني: «ألن تطبقي فمك الكريه؟».

لست أدري أيهما صدمني أكثر، أسلوب كلامه أم حقيقة أننا خرجنا من المتجر من غير أن ندفع ثمن الآلة الحاسبة. لقد سرقها، بكل بساطة.

ما كان هذا كل شيء.

في يوم من الأيام، عدت إلى البيت بعد انتهاء عملي أحمل معي راتبي. زارنا ويلبور في المساء. في ذلك الوقت، كانت صحّة جدتي قد بدأت تتراجع. بدأت تفقد وزنها، وصارت أكثر ميلًا إلى الصمت. «جدتي، سوف أنزل لإيداع المال في المطمورة».

قال ويلبور: «سوف أذهب معك».

أجابت جدتي: «إن لديك هنا شابًا مهذبًا، يا مولي. هيا، اذهبا».

وعند آلة النقود، راح ويلبور يطرح عليّ أسئلة كثيرة عن الفندق وعن طبيعة العمل في تنظيف الغرف. كنت سعيدة جدًا بأن أشرح له المتعة الكبيرة التي أجدها في وضع الملاءات المكوية على الأسرّة، وترتيب حوافها حتى تصير مستقيمة كل الاستقامة، وكيف تلْمع مقابض الأبواب النحاسية النظيفة تحت نور الشمس، فتجعل العالم كله ذهبيًا. اندفعت في ذلك الشرح اندفاعًا كبيرًا فلم أنتبه أن ويلبور كان ينظر إليَّ عندما أدخلت الرقم السري لبطاقة جدتي المصرفية.

في تلك الليلة، انصرف انصرافًا مفاجئًا، تمامًا قبل بدء مسلسل كولومبو. بقيت أيامًا أكتب إليه رسائل نصية من غير أن أتلقى منه إجابة. كنت أتصل به، وأترك له رسائل صوتية، لكنه لا يجيبني. أمر غريب. لكن، لم أنتبه أبدًا إلى أنني لا أعرف مكان سكنه، إذ إنني لم أذهب أبدًا إلى بيته، وإنني لا أعرف حتى عنوانه. كان على الدوام يجد سببًا يقنعني بأن من الأفضل أن نذهب إلى بيتنا. ومن تلك الأسباب قوله إنه يحب رؤية جدتي.

وبعد أسبوع من ذلك، ذهبتُ حتى أسحب مالًا لدفع الإيجار. لم أجد بطاقتي المصرفية، وكان هذا أمرًا غريبًا. لذا، طلبت من جدتي أن تعطيني بطاقتها، ذهبت إلى آلة النقود. اكتشفت عندها أن «مطمورتنا» خالية من المال. لا شيء فيها أبدًا. أدركت لحظتها أن ويلبور ما كان لصًا فحسب بل خائنٌ أيضًا. لقد كان «بيضة فاسدة» بكل ما في الكلمة من معنى... كان من أسوأ أنواع الرجال.

أخجلني كثيرًا أنني خُدعت هكذا، وأنني وقعت في أحابيل شخص كاذب. خجلت حتى أعماقي. فكّرت في الاتصال بالشرطة لرؤية إن كانوا قادرين على تعقبه. لكنني أدركت بعد ذلك أن هذا

سيكون معناه إخبار جدتي بما جرى. ما كنت قادرة على إخبارها. ما كنت قادرة على كسر قلبها بتلك الطريقة. انكسار قلب واحد أكثر من كافٍ... شكرًا جزيلًا!

سألتني جدتي بعد مرور عدة أيام لم تر فيها ويلبور: «أين هو صاحبك؟».

قلت: «الحقيقة، يا جدتي... يبدو لي أنه قرر الذهاب في حال سبيله». لا أحب أن أكذب كذبًا مباشرًا. ما قلته لجدتي لم يكن كذبة مباشرة، بل هو حقيقة يمكن أن تظلّ حقيقة شريطة ألا يعقبها سؤال عن مزيد من التفاصيل. لم تطرح عليَّ جدتي أية أسئلة أخرى.

قالت: «أمر مؤسف. لكن، لا تقلقي يا عزيزتي. إن في البحر أسماكًا كثيرة».

قلت: «هكذا أفضل». أظن أن جدتي فوجئت بأنني لم أكن أكثر حزنًا. لكن الحقيقة هي أنني كنت حزينة. كنت في غاية الغضب، لكني بدأت أتعلم كيف أخفي مشاعري. صرت قادرة على إبقاء غضبي مختبئًا تحت السطح حتى لا تراه جدتي. كانت معاناتها كبيرة. وأردت أن تظلّ طاقتها كلّها متركزة على التعافي من وعكتها.

في سرّي، كنت أتخيّل نفسي أتعقب ويلبور وأوقع به. خيالات محمومة أرى فيها نفسي أصادفه في مبنى المعهد وأخنقه بأحزمة حقيبته الظهرية. تخيّلت أنني أسكب سائل تنظيف المغاسل في حلقه حتى يعترف بما فعله، بما فعله بي، وبجدتي.

يوم سلبنا ويلبور مالنا، كان لدى جدتي موعد مع طبيبها. ذهبتْ إلى عدّة أطباء خلال الأسابيع التي سبقت ذلك، لكن كل واحد منهم قال لها شيئًا مختلفًا عما قاله الآخرون.

«جدتي، ألدينا نتائج جديدة هذه المرّة؟ هل صرت الآن تعرفين سبب توعكك؟».

«ليس بعد. لعل الأمر كله في رأس جدتك العجوز، لا أكثر».

سرّني سماع هذا لأن مرضًا كاذبًا يظل أقل إثارة للخوف من مرض حقيقي. مع هذا، لم تفارقني الريبة. صار جلدها مثل الورق الخفيف، وما عادت لديها شهية للأكل.

«مولي، أعرف أننا في يوم الثلاثاء. هذا يوم التنظيف العميق. لكن، ألّا تظنين أننا نستطيع تأجيل هذه المهمة إلى يوم آخر؟». كانت هذه أول مرة تقترح فيها جدّتي تأجيل عمل من أعمال التنظيف.

«لا تقلقي، يا جدتي. عليك أن تستريحي. وسوف أقوم بالعمل».

«يا ابنتي العزيزة، ماذا أفعل من غيرك؟».

لم أقل هذا بصوت مسموع، لكني بدأت أتساءل عما أستطيع فعله إن عشت من غير جدّتي.

مرّت بضعة أيام، وكان لدى جدتي موعد آخر مع الطبيب. عندما عادت إلى البيت، رأيت أن هناك شيئًا مختلفًا. رأيت هذا في وجهها. بدت لي متورّمة، متوترة.

قالت: «يبدو في نهاية المطاف أنني مريضة قليلًا».

سألتها: «أي مرض هو؟».

قالت بصوت خافت، «البنكرياس». لم تحد عيناها عن عينَيّ.

«هل أعطوك دواء؟».

قالت: «نعم. أعطوني دواء. المؤسف هو أن هذا المرض يسبب ألمًا. لذا، أعطوني دواء من أجل تخفيف الألم».

لم يسبق أبدًا أن أتت على ذكر الألم، لكني أظنني كنت أعرف هذا. كنت أراه في مشيتها، وفي صعوبة جلوسها على الأريكة كل يوم، وفي تقبّض وجهها كلما نهضت.

سألتها: «لكن، ما هو المرض على وجه التحديد؟».

لم تجب عن هذا السؤال. بدلًا من ذلك قالت: «أنا في حاجة إلى الاستلقاء. كان يومي طويلًا».

قلت: «سأعد لك الشاي، يا جدتي».

«رائع. شكرًا».

انقضت أسابيع، وصارت جدتي أكثر صمتًا مما هو معتاد. ما عادت تدندن وهي تعدّ طعام الإفطار. صارت تعود من عملها في وقت مبكر. بدأت تفقد وزنها سريعًا وتتناول المزيد والمزيد من الأدوية في كل يوم.

لم أفهم شيئًا. إن كانت تتناول أدويتها، فلماذا لا يظهر عليها أيّ تحسن؟

بدأت أسألها: «جدتي، ما المرض الذي أصابك؟ لم تذكري لي شيئًا عن هذا».

كنا في المطبخ آنذاك ننظف الطاولة ونغسل الأطباق بعد وجبة العشاء. قالت جدتي: «دعينا نجلس، يا ابنتي العزيزة». جلسَت كل منا في مكانها إلى طاولة الطعام التي تتّسع لجلوس شخصيَن، طاولة وجدناها منذ سنين ملقاة عند حاوية القمامة أمام بنايتنا.

انتظرتُ أن تقول جدّتي شيئًا.

صمتت طويلًا، ثم قالت: «كنت أحاول منحك وقتًا، وقتًا حتى تستوعبي الفكرة».

سألتها: «أستوعب أية فكرة؟».

«مولي. يا عزيزتي، إن مرضي خطير».

«كيف هذا؟».

«نعم. أنا مصابة بسرطان البنكرياس».

فهمتُ الأمر في تلك اللحظة، وظهرت لي الصورة الكاملة واضحة، خرجت من الظلال. هذا يفسر فقدان الوزن وانخفاض الطاقة. فقدت جدتي نصف وزنها. ولهذا، كانت في حاجة إلى رعاية صحية كاملة حتى تستطيع التعافي من مرضها.

سألتها: «متى يظهر مفعول الدواء؟ لعل عليك أن تذهبي لرؤية طبيب آخر!». لكنها راحت تحكي لي التفاصيل، فبدأت أفهم. أدوية مسكنة. كلمة طنانة قد يكون نطقها مريحًا. لكن استيعاب حقيقة الأمر كلها صعب، بل صعب جدًا.

بقيتُ مصرّة: «هذا غير ممكن، يا جدتي. سوف تتحسّن صحتك. علينا أن نتخلّص من هذا كله».

«أوه، يا مولي. ثمة أمور لا تستطيعين التخلص منها. لقد عشت حياة جيدة، جيدة جدًا. ليست لدي أية شكوى غير أنني لن أستطيع البقاء معك وقتًا أطول».

قلت: «لا. لا أقبل هذا».

عندها، نظرَت إليَّ نظرة لم أستطع قراءتها. أمسكت بيدَي. ضمّتها بين كفّيها. كان جلدها ناعمًا جدًا، رقيقًا جدًا كأنه من ورق، لكن لمستها دافئة. ظلت دافئة حتى النهاية.

قالت جدتي: «فلنكن واضحين في هذا الأمر. سوف أموت».

أحسست الغرفة تطبق عليّ. أحسست بالغرفة تميل وتميل. مرّت لحظة صرت فيها عاجزة عن التنفّس، صرت عاجزة عن الحركة. كنت واثقة من أنني سأفقد وعيي، وأنا جالسة هناك إلى طاولة المطبخ.

«قلت لآل كولدويل إنني لا أستطيع الاستمرار في العمل لديهم. لكن، لا تتركي هذا الأمر يقلقك. لا تزال لدينا مطمورتنا. آمل أن يأخذني الرب الرحيم سريعًا عندما يحين أجلي، أن يأخذني من غير أن أعاني ألمًا أشد مما أطيق. وأما إذا ازداد الألم، فإن لدي دواء يساعدني في تخفيفه. وأنت لديّ أيضًا... ».

قلت: «جدتي، لا بد أن يكون هناك... ».

قالت: «عليك أن تعديني بأمر واحد. لا أريد الذهاب إلى المستشفى في ظل أي ظرف من الظروف. لا أريد قضاء أيامي الأخيرة في مؤسسة طبيّة بين بشر غرباء لا أعرفهم. ما من شيء يعادل الأُسرة. ما من شيء يعادل من يحبهم الإنسان. ما من شيء يعادل راحة البيت. إن كان هناك من أريد أن يكون إلى جانبي عندما أموت، فهو أنتِ، هل تفهمين هذا؟».

يا للحزن! كنت أفهم هذا! حاولت جاهدة أن أتجاهل الحقيقة، حاولت ما وسعتني المحاولة، لكن هذا صار الآن مستحيلًا. جدتي في حاجة إليَّ. فماذا أستطيع غير أن أكون معها؟

في ذلك المساء، خارت قوى جدتي قبل وقت طويل من بدء مسلسل كولومبو. لذا، وضعتها في فراشها، وطبعت قبلة على خدها، وتمنيت لها ليلة طيبة، ثم ذهبت فنظّفت خزائن المطبخ وغسلت أطباقنا كلها. غسلتها طبقًا طبقًا. لم أستطع منع انهمار دموعي وأنا ألمّع كل قطعة من أدوات الطعام الفضية التي لدينا. لا أعني أنها كانت كثيرة، بل القطع القليلة التي كانت لدينا. صار المطبخ فائحًا برائحة الليمون عندما فرغت من ذلك، لكني لم أستطع أن أنفض عن نفسي هاجس أن الأوساخ لا تزال قابعة في الثنايا وفي الشقوق... إن لم أنظف ذلك كله، فسوف تنتشر العدوى وتغزو كل وجه من وجوه حياتنا.

حتى ذلك الوقت، لم أقل لجدتي شيئًا عن المطمورة وعما فعله ويلبور بها. لم أقل لها إنه تركنا مفلستَين تمامًا. لم أقل لها إنني ما عدت قادرة على دفع أقساط المعهد المهني. ولم أقل شيئًا عن الصعوبة التي أجدها في تأمين مالٍ كافٍ لدفع إيجار الشقة. بدلًا من ذلك، زدت نوبات عملي في فندق ريجنسي غراند، وصرت أعمل ساعات أطول حتى أجني ما يكفي لدفع ثمن كل شيء... بما في ذلك مشتريات البقالة والأدوية المسكّنة التي تستخدمها جدتي. بدأنا نتأخّر في دفع الإيجار؛ وكان ذلك أمرًا آخر لم أقله لجدتي. كلما التقيت في الممر السيد روسو، مالك شقتنا، أرجوه أن يمنحني مزيدًا من الوقت لدفع الإيجار. وأقول له إن جدتي مريضة وإنه لم يعُد لدينا إلّا دخل واحد.

في غضون ذلك، ومع تدهور صحة جدتي، كنت أجلس معها وأقرأ لها نشرات المعهد

المهني، وأشرح تفاصيل الاختصاصات وورشات العمل التي تثير اهتمامي. لكني كنت مدركة أنني لن أستطيع الالتحاق بها. تغمض جدتي عينَيها، لكني أعرف أنها تصغي إليَّ عندما أرى تلك الابتسامة الوادعة على وجهها.

«بعد رحيلي، عليك أن تستخدمي المطمورة كلما وجدت نفسك في حاجة إلى استخدامها. إذا واصلت العمل بوقت جزئي، فسوف يظلّ لديك مالٌ كافٍ لدفع الإيجار مدّة لا تقل عن سنتين، فضلًا عن دفع رسوم المعهد. المال كله لك فاستفيدي منه لجعل حياتك أكثر سهولة».

«نعم، يا جدتي. أشكرك».

كان ذلك حلم يقظة، لكني لم أدرك أنني أحلم. أنا واقفة عند باب الشقة، باب شقتنا. ممسحتي مستندة إلى الجدار، ويداي تضمان إلى صدري وسادة جدتي، الوسادة التي طرّزت عليها صلاة السكينة. لا أعرف متى وضعت ممسحتي وحملت هذه الوسادة. أرضية الباركيه نظيفة، لكنْ، عليها ندوبٌ وآثارٌ كثيرة خلّفها وقع الأقدام عبر عشرات السنين، آثار التآكل والبلى التي خلّفتها عليها حياتنا في هذا البيت. ضوء المصباح المعلّق فوقي شديد السطوع، شديد الدفء.

أنا وحدي. لا أحد معي. منذ متى أنا واقفة هنا؟ الأرض جافة! هاتفي يرن. أنحني وألتقط الهاتف الذي تركته على كرسي جدتي.

«مرحبًا، أنا مولي غراي».

لحظة صمت قصيرة على النهاية الأخرى من الخط. «مولي، أنا ألكساندر سنو من الفندق، يسرني أنك عدت إلى بيتك».

«أشكرك. هذا صحيح. أنا في البيت منذ بعض الوقت. بعد أن استجوبتني المحققة، أعادتني إلى البيت بسيارتها. أظن أن هذا كان لطفًا كبيرًا منها».

«صحيح. أشكرك لأنك وافقت على التحدّث إليها. أنا واثق كل الثقة من أن المعلومات التي لديك ستكون مفيدة في التحقيق».

من جديد، يصمت قليلًا. أستطيع سماع أنفاسه القصيرة في الهاتف. ليست هذه أول مرة يكلمني فيها عندما أكون في البيت. مع هذا، تظل مكالمة من السيد سنو أمرًا استثنائيًا.

يقول لي من جديد: «مولي، أعرف أن يومك كان شديد الصعوبة. كان يومًا صعبًا علينا كلنا، على السيدة بلاك خاصة. لقد ذاع نبأ... وفاة... السيد بلاك. أنت تدركين أن العاملين هنا جميعًا قد حزنوا واضطربوا لهذا الخبر».

أقول: «نعم. أستطيع إدراك هذا».

«أعرف أن يوم غد سيكون أول يوم إجازة لك منذ أسابيع كثيرة، وأنك عانيت اليوم كثيرًا، لكن الظاهر أن وقع نبأ موت السيد بلاك على تشيريل كان شديدًا. تقول إن ذلك كان ‘صدمة كبيرة جدًا’ جعلتها غير قادرة على العمل غدًا».

أقول له: «لكنها ليست من وجده ميتًا».

يجيبني: «يستجيب الناس للشدائد بطرق مختلفة كثيرة، على ما أظن».

أجيبه: «نعم، بالطبع».

«مولي، هل تظنين أنك تستطيعين الحلول محلها وتولّي نوبة العمل يوم غد؟ من جديد أقول إنني آسف لهذا الـ...»

أقول: «بالطبع، يوم عمل إضافي لن يقتلني».

فترة صمت طويلة أخرى.

أسأله: «أهذا كل شيء، يا سيد سنو؟».

«نعم، هذا كل شيء. أنا أشكرك كثيرًا. إذًا، سنراك صباح يوم غد».

أقول: «سوف ترونني. تصبح على خير، يا سيد سنو. لا تترك الأحلام المزعجة تفسد ليلتك».

«تصبحين على خير، يا مولي».

---

(5) بيتر فولك: ممثل أدى دور البطولة في مسلسل كولومبو البوليسي.

الثلاثاء

الفصل السادس

سوف أعترف بأن أحلامًا سيئة زارتني تلك الليلة. رأيت في نومي أنني أبصرت السيد بلاك يدخل باب شقتنا. كان رمادي اللون، مثل الموتى الأحياء. كنت أجلس على الأريكة أتابع مسلسل كولومبو. التفتُّ إليه وقلت: «لا أحد يأتي هنا منذ أن ماتت جدتي». بدأ يضحك... يضحك من كلماتي. لكني صوّبت إليه نظرة ليزرية استحالت أطرافه غبارًا، تستحيل ذرّات فحم دقيقة تنتشر في الغرفة كلها وتدخل رئتيّ. أختنق بها. أسعل كثيرًا.

أصيح: «لا! لست أنا من فعل هذا بك! لست أنا! اخرج من هنا!».

لكن الأوان قد فات. صار رماده في كل مكان. أستيقظ متقطّعة الأنفاس.

الساعة الآن السادسة صباحًا. حان وقت النهوض والإشراق... أو، النهوض فقط.

أنهض من فراشي. أرتبه ترتيبًا حسنًا وأحرص على وضع لحاف جدتي بحيث تشير النجمة التي في وسطه صوب الشمال تمامًا. أذهب إلى المطبخ حيث أضع مريلة جدتي ذات النقوش الهندية، ثم أعدّ الشاي والفطائر. أعدّ الشاي والفطائر لشخص واحد. الصباحات هادئة أكثر مما ينبغي. صرير السكين على الفطائر المحمَّصة يؤذي أذنيّ. آكل سريعًا، ثم أستحم سريعًا، ثم أذهب إلى عملي.

لحظة أغلقت باب الشقة من خلفي، سمعت صوت أحدهم يتنحنح في الممر. إنه السيد روسو.

أستدير فأصير قبالته. «مرحبًا، يا سيد روسو. أرى أنك استيقظت اليوم باكرًا!».

أتوقّع تلقّي الحد الأدنى من المجاملات الصباحية، لكني لا أسمع منه غير: «لقد تأخرت عن دفع الإيجار. متى ستدفعين؟».

أضع المفتاح في جيبي وأقول له: «سوف أدفع الإيجار في غضون أيام قليلة. عندها، سأسدد كل ما لك عليَّ من مال حتى آخر قرش. لقد عرفْتَ جدتي. وأنت تعرفني. نحن من المواطنين الذين

يحترمون القانون ويؤمنون بأن على كل شخص أن يسدّد ما هو مترتب عليه. وسوف أفعل هذا عما قريب».

يقول: «من الأفضل أن تفعلي هذا»، ثم يعود إلى شقته متثاقل الخطى، ويغلق الباب من خلفه.

أتمنى لو أن الناس يرفعون أقدامهم عن الأرض عندما يمشون. عادة بشعة جدًا أن يجرجر المرء قدميه مثلما يفعل السيد روسو. هذه مشية تترك انطباعًا رديئًا جدًا.

الآن، الآن... دعينا لا نبالغ في القسوة عندما نحكم على الناس! أسمع صوت جدتي في رأسي، فيذكّرني بأن أكون متسامحة، مترفّعة. هذا واحد من عيوبي فأنا أتسرّع في الحكم على الناس، أو... أريد أن يسير العالم وفق قوانيني.

علينا أن نكون من الخيزران. علينا أن نتعلّم كيف ننحني ونتمايل مع الريح.

ننحني ونتمايل. ليس هذا من أبرز صفاتي.

أنزل درجات السلم، وأخرج من البناية. أقرّر أن أذهب إلى الفندق سيرًا على الأقدام - مسيرة عشرين دقيقة أمر ممتع إلى حدّ معقول عندما يكون الطقس لطيفًا. لكن هذا اليوم غيومه كثيفة واطئة، منذرة بالمطر. أتنفس الصعداء لحظة تقع عينَاي على الفندق من بعيد. أنا عاملة محترفة، أصِل إلى مكان عملي قبل نصف ساعة من نوبتي... هذا هو أسلوبي.

أحيي السيد برستون عند مدخل الفندق.

«أوه، مولي! لا تقولي لي إنك تعملين اليوم».

«سأعمل اليوم. اتصلت تشيريل ليلة أمس وقالت إنها مريضة».

يهز السيد برستون رأسه. «طبعًا! مولي، هل أنت بخير؟ سمعت أنك ذعرت ذعرًا شديدًا يوم أمس. يؤسفني هذا كثيرًا، يؤسفني ما رأيتِه».

تنبثق صورة حلمي من جديد، وأرى معها السيد بلاك الحقيقي نفسه ميتًا في سريره. «لا حاجة إلى الأسف، يا سيد برستون. أنت لست مذنبًا في شيء. لكني سأعترف بأن هذا الأمر كله كان... كان صعبًا بعض الشيء. سأتمالك أعصابي وأواصل سيري». فكرة خطرت في ذهني... «سيد برستون، هل تلقى السيد بلاك أي زائرين يوم أمس، أصدقاء... أو غير ذلك؟».

يعدل السيد برستون وضع قبعته على رأسه. يقول لي: «لم ألحظ شيئًا من هذا. لماذا تسألين؟».

أقول: «أوه، لا سبب. أنا واثقة من أن الشرطة سوف تتحرّى هذا الأمر... خاصة إذا اكتشفت أن هناك عنفًا».

«عنف!؟». رمقني السيد برستون بنظرة جادة... «مولي، إذا كنت في حاجة إلى أي شيء -إلى أية مساعدة، مهما تكن- فلا تنسي صديقك القديم السيد برستون. هل تسمعين هذا؟».

لست ممن يحبّون أن يثقلوا على الآخرين. من المؤكد أن السيد برستون صار الآن يعرف هذا. وجهه جاد، وحاجباه منعقدان قلقًا. حتى أنا أستطيع قراءة القلق في وجهه بكل وضوح.

أقول له: «أشكرك، يا سيد برستون. أقدّر عرضك اللطيف. والآن، إن لم يكن لديك مانع، فأنا واثقة من أن عليَّ اليوم أن أقوم بقدر أكبر من التنظيف لأن كثرة من عناصر الشرطة والعاملين الطبيين كانت تتجوّل في هذا الفندق يوم أمس. أظن أن أحذيتهم ليست نظيفة مثل حذائك».

يرفع لي قبّعته، ثم يتحول انتباهه إلى بضعة نزلاء يحاولون إيقاف سيارة تاكسي من غير نجاح.

أسمعه يصيح: «تاكسي!»، ثم يعود إليَّ لحظة واحدة... «اهتمي بنفسك جيدًا، يا مولي. من فضلك».

أومئ برأسي وأتابع سيري صاعدة درجات مدخل الفندق ذات السجادة الحمراء. أعبر الباب الدوّار المتألق، وأمرّ بنزلاء داخلين وخارجين. أرى السيد سنو في ردهة الفندق

الخارجية. أراه واقفًا عند مكتب الاستقبال. نظارته ناتئة من جانبي وجهه، وخصلة متدلية أفلتت من شعره الذي يسرحه بالجل إلى الخلف. أرى تلك الخصلة تتأرجح متقدّمة متراجعة كأنها إصبع تهتزّ محذرة.

يقول لي: «مولي، ما أسعدني بأنك هنا! أشكرك كثيرًا». في يده صحيفة. فيها عنوان كبير يصعب ألّا تلاحظه العين: العثور على رجل الأعمال الثري الكبير تشارلز بلاك ميتًا في فندق ريجنسي غراند. يسألني السيد سنو: «هل قرأت هذا؟».

يناولني الصحيفة فأقرأ المقالة بنظرة سريعة. تقول المقالة إن خادمة في الفندق عثرت على السيد بلاك ميتًا في فراشه. أشكر الرب لأنهم لم يذكروا اسمي. ثم تنتقل إلى الحديث عن أسرة بلاك والنزاع بين ولديه وزوجته السابقة. «تدور منذ سنوات شائعات عن مدى مشروعيّة شركة بلاك للاستثمارات والعقارات، ومعها مزاعم بأن هناك صفقات احتيالية واختلاس أموال، لكن بلاك كان يُخرسها من خلال فريق المحامين القوي العامل لديه».

ألمحُ اسم جيزيل في منتصف المقالة فأقرأ بمزيد من الانتباه: «زوجة السيد بلاك الثانية، جيزيل بلاك، أصغر منه بخمسة وثلاثين عامًا. إنها الوارثة المنتظرة لثروته التي كانت موضوعًا للخلافات العائلية في السنوات الماضية. بعد العثور على زوج جيزيل بلاك ميتًا، شوهدت خارجة من الفندق وعلى عينيها نظارة سوداء. كان معها رجل غير معروف. قال عدد من العاملين في الفندق إن السيد والسيدة بلاك كانا كثيرَي التردد على فندق ريجنسي غراند. وعند سؤال مدير الفندق، السيد ألكساندر سنو، عما إذا كان السيد بلاك يتابع أعماله انطلاقًا من الفندق، رفض أن يعلّق بشيء. تقول المحقّقة ستارك التي تتحرّى الأمر، إن احتمال أن تكون وفاة السيد بلاك ناتجة عن فعل جرمي ليست مستبعدة حتى هذه اللحظة». أنتهي من قراءة المقالة، وأعيد الصحيفة إلى السيد سنو. أشعر فجأة بأن الأرض غير مستقرة تحت قدميّ فقد بدأ معنى السطر الأخير يتضح لي.

«هل ترين، يا مولي؟ هناك إيحاء بأن هذا الفندق... بأن الفندق...».

أحاول مساعدته: «موبوء؛ غير نظيف».

«صحيح، صحيح تمامًا».

يحاول السيد سنو تعديل نظارته، لكنه لا ينجح في ذلك كثيرًا. يقول لي: «مولي، لا بد لي من سؤالك إن كنت تلاحظين، أو إن كنت قد لاحظت في وقت من الأوقات، أية... أية نشاطات مشبوهة في هذا الفندق. أعني، في ما يخص السيد والسيدة بلاك، أو أي نزلاء غيرهم».

أقول: «نشاطات مشبوهة!؟».

يقول موضحًا: «غير سليمة».

أجيبه: «لا. قطعًا لا. لو لاحظت شيئًا من هذا، لكنتَ أول من يعلم بالأمر».

يطلق السيد سنو زفرة طويلة. أشعر بالأسف عليه لأنه يحمل عبئًا ثقيلًا - سمعة فندق ريجنسي غراند نفسها قائمة على كتفَيه الهزيلتين.

«سيدي، هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا؟».

«بالطبع».

«تشير المقالة إلى جيزيل بلاك. هل تعلم إن كانت لا تزال مقيمة هنا؟ أعني... في الفندق؟».

تنظر عينا السيد سنو يمينًا ويسارًا، يخطو مبتعدًا عن مكتب الاستقبال وعن طيور البطريق ذات الملبس الأنيق. يشير إليَّ بأن أفعل مثله. أسراب من النزلاء تتجول في الردهة. المكان مزدحم ازدحامًا غير معتاد، هذا الصباح. يحمل كثيرون من النزلاء صحفًا. أظن أن ألسنة كثيرة تتحدث الآن عن السيد بلاك.

يشير السيد سنو إلى كنبة زمرديّة اللون في زاوية خافتة الإنارة عند السلّم العريض. نسير إلى الأريكة. هذه أول مرة أجلس على واحدة من هذه الأرائك. أغوص في مخملها الناعم. ما من نوابض ينبغي تفاديها... مثل نوابض أريكتنا في البيت.

يجلس السيد سنو إلى جانبي ويكلّمني همسًا. «إجابة عن سؤالك، لا تزال جيزيل مقيمة هنا، في هذا الفندق. لكن عليكِ ألّا تقولي هذا لأي شخص. ليس لديها مكان آخر تذهب إليه. هل تفهمين هذا؟ وهي في حالة اضطراب شديد نتيجة ما حدث. نقلتها إلى طابق آخر. من الآن فصاعدًا، سوف تتولى سونيثا مهمّة تنظيف غرفتها».

أحس رفرفة عصبية في معدتي. أقول له: «حسنًا جدًا. من الأفضل أن أذهب الآن. لن ينظف هذا الفندق نفسه بنفسه».

يقول السيد سنو: «أمر آخر واحد، يا مولي. جناح السيد والسيدة بلاك. أظن من الواضح لك أنه لن يكون اليوم مستخدمًا. لا تزال الشرطة تجري تحرياتها في تلك الشقة. سوف ترين الشريط الأمني هناك. وسوف ترين حارسًا من الشرطة واقفًا أمام الباب».

«إذًا، متى أنظف تلك الشقة؟».

ينظر إليَّ السيد سنو نظرة طويلة، ثم يقول: «لن تنظّفي تلك الشقة، يا مولي. هذا ما أحاول قوله لك».

«حسنًا جدًا. لن أنظّفها. إلى اللقاء».

أقول ذلك، ثم أنهض واقفة وأستدير. أمضي صوب السلم الرخامي، وأنزل إلى خزانتي في القبو، في قسم خدمة الغرف. تستقبلني ملابس عملي الأنيقة، نظيفة، مكويّة، مغلفة بالنايلون، معلّقة على باب خزانتي. وكأن ما شهده يوم أمس من اضطراب لم يحدث أبدًا. وكأن كل يوم يأتي يمسح اليوم الذي قبله. أبدّل ملابسي سريعًا. أترك الثياب التي كنت أرتديها في خزانتي. ثم أمسك مقبض عربة الخدمة، عربتي المجهّزة بكل ما أحتاج إليه - أعجوبة الأعاجيب (لا شك في أن سنشاين قد جهّزتها، أو سونيثا. بكل تأكيد، ليست تشيريل).

أسير عبر متاهة الممرات ذات الإنارة الشديدة، إلى أن أصل المطبخ، حيث أجد خوان مانويل يُفرغ بقايا طعام الإفطار في سلّة مهملات ضخمة، ثم يضع الأطباق الفارغة في آلة

الغسل الصناعية الضخمة. لم أزر حمام ساونا من قبل، لكنّي أظنّه مثل هذا المكان... باستثناء رائحة بقايا الطعام الواخزة.

ما إن يراني خوان مانويل حتى يضع أداة التنظيف من يده، وينظر إليَّ نظرة ناطقة بالاهتمام.

يصلّب على صدره ويقول: «باركك الرب. أنا سعيد لرؤيتك. هل أنت بخير؟ لقد كنت قلقًا عليك، يا آنسة مولي».

بدأت تزعجني هذه الجلبة التي يثيرها الجميع من حولي هذا اليوم. لست أنا من مات!

أقول له: «أنا في أحسن حال، أشكرك يا خوان مانويل».

تتّسع عيناه ويهمس لي: «لكنك وجدته... وجدته ميتًا».

«هذا ما حدث».

«لا أستطيع تصديق أنه رحل حقًا. أتساءل عمّا يعنيه هذا».

أقول: «يعني هذا أنه مات».

«ما أقوله هو... ماذا يعني هذا بالنسبة إلى الفندق؟» يقترب مني بضع خطوات، يقترب كثيرًا حتى تصير المسافة بيننا أقل من نصف عرض عربتي.

يقول هامسًا: «مولي... ذلك الرجل... السيد بلاك. لقد كان بالغ النفوذ. كان قويًا جدًا. من سيحتل موقع الزعيم الآن؟».

أقول: «الزعيم هنا هو السيد سنو».

يرمقني بنظرة غريبة: «أهو كذلك؟ هل هو الزعيم هنا؟».

أجيبه بثقة تامة: «نعم. بكل تأكيد، السيد سنو هو من يرأس هذا الفندق. والآن، ألا نستطيع الكف عن الحديث في هذا الأمر؟ إن عليَّ أن أذهب إلى عملي. سأعمل اليوم على ترتيبات جديدة من أجل قضاء الليل. سمعت قبل قليل أن الطابق الرابع تحت المراقبة. لا تزال الشرطة هناك. أريدك أن تنام الليلة في الغرفة رقم 202، هل اتفقنا؟ في الطابق الثاني، لا في الرابع، من أجل تفادي الشرطة».

«لا بأس. لا تقلقي. سأظل بعيدًا عنهم».

«وأيضًا، يا خوان مانويل. لا ينبغي أن أقول لك هذا، لكن جيزيل بلاك مقيمة في مكان ما من ذلك الطابق نفسه، الطابق الثاني. لذا، عليك أن تكون حذرًا. قد يكون هناك محقّقون من الشرطة، حتى في طابقها. عليك أن تحرص على عدم الظهور إلى أن ينتهي هذا التحقيق. هل فهمت؟».

أناوله بطاقة مفتاح الغرفة رقم 202. «نعم، يا مولي. فهمت كل شيء. وأنت أيضًا، حاولي ألّا تظهري كثيرًا. أنا قلق عليك».

أقول: «لا شيء يدعوك إلى القلق. من الأفضل أن أذهب الآن». وعندها، أغادر المطبخ دافعة عربتي إلى مصعد الخدمة. أدخل المصعد. الهواء هنا أكثر نظافة، أكثر برودة. أصعد حتى ردهة الفندق حيث سأستلم حزمة الصحف اليومية من بار مطعم «سوشال».

حتى من مسافة بعيدة، أستطيع رؤية رودني واقفًا خلف البار. يراني فيندفع صوبي لتحيّتي.

«مولي! أنت هنا!». يضع يديه على كتفيَّ. أحسهما وأحس تيارًا كهربائيًا يدفئني حتى أعماقي... «هل أنت بخير؟».

أقول: «كل من أراه يسألني هذا السؤال. أنا في أحسن حال. هل يكون كثيرًا أن أطلب منك احتضاني؟».

يقول: «طبعًا، سأحتضنك. الحقيقة أنك من أردتُ رؤيتها اليوم». يضمني إلى صدره. أريح رأسي على كتفه وأستنشق عبيره.

مرّ زمن طويل جدًا منذ آخر مرة عانقني فيها أحد الناس، زمن طويل إلى حدّ يجعلني الآن لا أعرف ما أفعله بيدي. اخترت أن أطوّق بهما ظهره واضعة كفيَّ على لوحَيْ كتفيه. وجدت كتفيه أكثر قوة حتى مما كنت أتخيل.

يبتعد عني قبل أن أكون جاهزة لأن يبتعد عني. عندها، أنتبه إلى عينه اليمنى. أراها متورمة، بنفسجية، كأن أحدًا لكمه عليها. أسأله: «ماذا أصابك؟».

«أوه، هذا شيء غبي. كنت أساعد خوان مانويل في حمل الحقيبة في غرفته، ثم.. اصطدمت بالباب. اسأليه. سوف يحكي لك القصة».

«ضع عليها قطعة ثلج. تبدو متورمة».

«كفانا كلامًا عني. أريد أن أسمع كيف حالك أنت». ينظر من حوله وهو يقول لي هذا. جماعات من نساء في أواسط العمر تتناولن طعام الإفطار معًا. ملاعق الشاي ترن على أطباق السيراميك، وضحكاتهن تتردّد في المكان وهن تمضين ساعات الصباح هنا قبل ذهابهن إلى السينما لحضور فيلم فترة الظهيرة. بضع أُسر تنتظر الحصول على أكداس من فطائر المقلاة قبل أن تبدأ نهارًا حافلًا بزيارات المتاحف ورؤية مناظر المدينة. رجلا أعمال منفردان يتناولان إفطارًا خفيفًا. أعينهما متعلّقة بهاتفيهما أو بصحف مبسوطة أمامهما. عمن يبحث رودني هناك؟ بكل تأكيد، هو لا يبحث عن أحد من أولئك النزلاء. ولكن، إن لم يكونوا هم، فعن من؟

يقول رودني بصوت خافت: «اسمعي. علمت أنك عثرت على السيد بلاك يوم أمس؛ وعلمت أنهم أخذوك إلى مركز الشرطة لكي يطرحوا عليك أسئلة هناك. لا أستطيع الكلام الآن. لكن، لماذا لا تأتين بعد انتهاء عملك؟ يمكننا أن نجلس في مكان هادئ حيث تحكين لي كل شيء. ستحكين لي التفاصيل كلها. ما رأيك؟». يلتقط يدي ويشد عليها بيده. عيناه بركتان زرقاوان عميقتان. إنه قلق. إنه قلق عليَّ. للحظة واحدة، أتساءل إن كان سيقبّلني. لكنني لا ألبث أن أدرك مقدار السخف في هذه الفكرة... تقبيل موظفة زميلة أمام البار، في هذا المطعم! لن يفعل، بالطبع. لكن هذا يظل مؤسفًا.

أقول، محاولة إظهار قدر من اللامبالاة الخجول: «سيكون لطيفًا أن أقابلك في وقت لاحق. إذًا، هل نلتقي في الخامسة؟ في الخامسة تمامًا؟ هل هذا موعد بيننا؟».

«آ آ، نعم. اتفقنا».

أقول: «أراك في الخامسة». ثم أسير مبتعدة.

يقول لي: «لا تنسي صحفك». يتناول حزمة صحف كانت على الأرض ويضعها على طاولة البار.

«أوه، يا لسخفي!». ألقى صعوبة في حمل رزمة الصحف إلى عربتي. إنه الآن خلف البار، منشغل عنّي بصب القهوة لأربعة نزلاء. أحاول التقاط عينيه مرة أخيرة، لكن عبثًا.

لا بأس في هذا! لدينا الليلة متّسع من الوقت لتَلاقي أعيننا.

الفصل السابع

الحياة أمر غريب. يأتي أحد الأيام حاملًا مفاجأة كبيرة، ويأتي اليوم الذي بعده بمفاجأة كبيرة أخرى. لكنّ المفاجأتين قد تكونان مختلفتَين أشد الاختلاف، مختلفتين اختلاف الليل والنهار، اختلاف الأبيض والأسود، اختلاف الخير والشر. يوم أمس، عثرت على السيد بلاك ميتًا؛ واليوم، طلب رودني مني أن نخرج في موعد. من الناحية الشكلية، أظننا لن «نخرج» في موعد، بل «سنمكث» في موعد لأن هذا سيكون في مكان عملنا. لكنها مسألة متعلّقة بدلالات الكلمات، لا أكثر. الشيء المهم هو أننا سنلتقي في موعد.

انقضى سبعة وثلاثون يومًا منذ خرجت مع رودني في آخر موعد لنا. تأتي الأمور الطيبة لمن يعرف كيف ينتظرها. هكذا كانت جدتي تقول دائمًا. صحيح، يا جدتي... كنت محقّة في هذا. فعندما بدأت أظن أن رودني غير مهتم بي، أجده يعرب عن اهتمامه بي. ثم إن توقيته ممتازٌ أيضًا. كان يوم أمس هزّة كبيرة بالنسبة لي. اليوم هزة أيضًا، لكنها هزة أكثر بهجة، هزّة ممتعة. هذا ما يبين لك أنك لا تعرف أبدًا أية مفاجآت تخبئها الحياة من أجلك.

أدفع عربتي عبر الردهة متّجهة إلى المصعد. مجموعة أخرى من السيدات تندفع فتتجاوزني (لعلهنّ في «لقاء بنات» بعيدًا عن الآخرين). تغلق السيدات باب المصعد في وجهي، لكني ألفت هذا الأمر. تستطيع الخادمة أن تنتظر. الخادمة آخر من يصعد. أخيرًا، أحظى وحدي بالمصعد كلّه. أدخل المصعد، وأضغط على مفتاح الطابق الرابع. يتوهّج المفتاح بلون أحمر. ينتابني شعور بالغثيان لعودتي إلى الطابق الرابع بعد اكتشافي السيد بلاك ميتًا في فراشه. أقول لنفسي، تمالكي أعصابك. لست مضطرة اليوم إلى دخول تلك الشقة.

يطلق الباب صفيره، ثم ينفتح. أدفع عربتي خارج المصعد. لكنني أصطدم بشيء. أرفع رأسي فأكتشف أنني اصطدمت بعنصر شرطة. عيناه متعلقتان بهاتفه إلى حدّ جعله غير منتبه أبدًا إلى أنه يسد الطريق. بصرف النظر عمن يكون مخطئًا في هذه الحالة، أعرف تمام المعرفة ما يتعيّن عليَّ فعله. تعلمت هذا في واحدة من جلسات التدريب الأولى مع السيد سنو: النزيل على حق دائمًا حتى عندما لا يبالي أدنى مبالاة بمن يزعجهم، أو يضايقهم.

أقول له: «أعتذر، يا سيدي. هل أصابك شيء؟».

«لا، أنا بخير. لكن، عليك أن تنتبهي أين تدفعين هذا الشيء».

«أشكر نصيحتك. الشكر لك». أقول هذا وأدور بعربتي من حوله. ما أوده حقًا هو أن أمر بعجلاتها فوق أصابع قدمه لأنه رفض أن يفسح لي الطريق. لكن من شأن هذا أن يكون سلوكًا غير مقبول. أتجاوزه، ثم أتوقف وأقول: «هل أستطيع مساعدتك بأية طريقة؟ ربما منشفة حارّة... شامبو؟».

يقول لي: «لست في حاجة إلى شيء. أعذريني».

يدور من حولي ويمضي مبتعدًا. أنظر إليه متّجهًا صوب شقة بلاك. على بابها شريط تحذير بلون أصفر لامع. يقف إلى جوار الباب مستندًا إلى الجدار واضعًا قدمًا أمام الأخرى. أرى على الفور أنه إذا ظل طيلة النهار مستندًا إلى الجدار بهذا الاسترخاء، فسوف يترك عليه
بقعة تصعب إزالتها. أتمنّى أن أتناول مكنستي وأزيحه بها عن الجدار. لكن، لا أهميّة لهذا. المكان ليس مكاني.

أتجه صوب نهاية الممر حتى أبدأ عملي في تنظيف الغرفة رقم 407. أجدها خالية، فيسرني أن النزلاء الذين كانوا فيها قد غادروا الفندق. أجد على الوسادة ورقة نقدية من فئة خمسة دولارات. ألتقطها عن الوسادة وأضعها في جيبي شاكرة من تركها هنا من أجلي. لكل قرش أهميته! هكذا كانت جدتي تقول. أشغل نفسي بنزع ملاءات السرير ووضع ملاءات جديدة. اليوم، يداي مرتعشتان قليلًا. لا بد لي من الإقرار بهذا. ومن حين إلى حين، تعبر ذهني صورة السيد بلاك، فيسري في جسدي كلّه شيء كأنه شحنة كهربائية - وجهه الشاحب، وملمسه البارد، وكل ما شهدته هناك. مع هذا، ما من شيء يدعو إلى القلق. اليوم ليس الأمس. إنه يوم جديد تمامًا. أحاول إراحة أعصابي فأصرف تركيز ذهني إلى أفكار سعيدة. الآن، لا شيء عندي أسعد من تفكيري في رودني.

أتابع التنظيف، وأعيد في ذهني شريط علاقتنا الناشئة. أتذكّر عندما كنت في بداية عملي في الفندق، أي قبل أن أعرفه معرفة جيّدة. في كل يوم، كنت أحاول التلكؤ قليلًا هناك عندما أذهب

لاستلام الصحف في بداية نوبة عملي. على نحوٍ بطيء، مع مرور الوقت، صارت العلاقة بيننا ودّيّة... ألا أجرؤ على القول إنها صارت علاقة انسجام؟ إلّا أن علاقتنا لم تلبث أن توطدت ذات يوم: توطّدت منذ سنة ونصف السنة.

في ذلك اليوم، كنت في الطابق الثالث أنظّف الغرف المخصّصة لي. كان على سنشاين أن تنظّف نصف ذلك الطابق، في حين أنظّف النصف الآخر. دخلت الغرفة رقم 305 التي لم تكن على جدول عملي في تلك النوبة، لأن مكتب الاستقبال في الفندق أخبرني بأن الغرفة خالية. قالوا لي إن عليَّ تنظيفها. لم أحفل حتى بأن أطرق باب الغرفة قبل الدخول نتيجة قولهم لي إنها خالية. فتحت الباب دافعة عربتي أمامي فوجدت نفسي في مواجهة شخصين ضخمين جدًا.

علّمتني جدتي أن أحكم على الناس استنادًا إلى أفعالهم، لا إلى مظاهرهم. لذا نظرت إلى هذين العملاقَين صاحبَي الرأسين الحليقين والوشوم المتداخلة على وجهيهما، فما كان من ذهني إلّا أن اتجه إلى أفضل الظنون، لا إلى أسوأها. لعل هذين الشخصين من مشاهير نجوم الروك، لكني لا أعرفهما! أو، لعلهما من فناني الوشوم الرائجة! أو مصارعان شهيران على مستوى العالم! كيف لي أن أعرف؟ أنا ميّالة إلى تفضيل الفنون التقليدية على ثقافة البوب.

قلت: «أعتذر أشد الاعتذار، أيها السيدان. قالوا لي إن نزلاء هذه الغرفة قد رحلوا. آسفة كثيرًا لأنني أزعجتكما».

ابتسمت بعد ذلك، كما تقتضي قواعد البروتوكول، ثم انتظرت ردًّا من الرجلين. لكنّ أيًا منهما لم ينطق بكلمة. كانت على السرير حقيبة رياضية بلون أزرق داكن. عندما دخلت عليهما، كان واحد من العملاقين موشكًا على وضع آلةٍ في تلك الحقيبة، شيءٍ كأنه آلة أو ميزان. والآن، كان واقفًا أمامي في سكون تام حاملًا ذلك الشيء الغريب بإحدى يديه.

تمامًا عندما بدأت أشعر بشيء من الاضطراب نتيجة امتداد فترة الصمت الثقيل، خرج شخصان من الحمام الواقع خلف الرجلين. كان رودني واحدًا منهما، وكان يرتدي قميصه الأبيض المنشّى، وقد طوى كمّيه كاشفًا عضلات ذراعيه الجميلة. وكان الرجل الآخر خوان مانويل. رأيت في يده شيئًا مغلّفًا بورق بني... لعله وجبة غدائه، أو عشائه! كانت قبضتا رودني

مشدودتَيْن. وكان واضحًا أن رودني وخوان مانويل فوجئا عندما شاهداني. إن أردت قول الحقيقة كما هي، فعليَّ ألّا أنسى أنني فوجئت بهما أيضًا.

قال خوان مانويل: «مولي، لا! لماذا أنت هنا؟ من فضلك، عليك أن تنصرفي فورًا».

التفت رودني إلى خوان مانويل وقال: «ماذا؟ هل صرت الآن زعيمًا؟ فجأة، صرت أنت من يتولى الأمر هنا».

تراجع خوان مانويل إلى الخلف خطوتين وصار شديد الانشغال بموضع قدميه على الأرض.

رأيت أن عليَّ في تلك اللحظة أن أتدخّل وأن أصلح بينهما. قلت: «من الناحية الفنية، رودني هو مدير البار. يعني -من حيث التراتب الوظيفي- هو الموظف الأعلى مرتبة بيننا في اللحظة الراهنة. لكن، فلنتذكر جميعًا أننا أشخاص مهمّون كلنا، كل واحد منا».

راحت أعين العملاقين تنتقلان من خوان مانويل إليّ. انتقلت أعينهما بيننا مرات كثيرة في تعاقب سريع.

قال رودني: «مولي. ماذا تفعلين هنا؟».

أجبته: «أليس ما أفعله واضحًا؟ أنا هنا لكي أنظّف هذه الغرفة».

«نعم، فهمت هذا الجزء. لكن هذه الغرفة ليست من ضمن مجموعة الغرف المخصّصة لك اليوم. لقد قلت لهم في الأسفل...».

سألته: «قلت لمن؟».

«انظري... لا أهمية لهذا. المسألة ليست هنا».

على نحو مفاجئ، اندفع خوان مانويل متجاوزًا رودني وأمسك بذراعي: «مولي، لا تقلقي عليَّ. انزلي الآن سريعًا واذهبي لإخبار...».

قال رودني: «واو! اترك ذراعها. اتركها الآن!». ما كان هذا اقتراحًا، ولا طلبًا. كان أمرًا.

قلت له: «أوه، لا مشكلة في هذا. يعرف كل منا الآخر، أنا وخوان مانويل، وأنا لا أحس بأيّ انزعاج». فهمت في تلك اللحظة ما حدث. فهمته تمام الفهم. غار رودني من خوان مانويل. لقد كان هذا عرضًا ذكوريًا لمنافسة عاطفية بينهما. اعتبرت ذلك إشارة جيّدة جدًا لأنها كشفت العمق الحقيقي لما يحسّه رودني نحوي.

حدّق رودني في خوان مانويل بطريقة أظهرت انزعاجه الشديد. لكنه قال بعد ذلك شيئًا فاجأني إلى أقصى حدّ. قال له: «كيف حال أمك، يا خوان مانويل؟ عائلتك في مازاتلان، أليس هذا صحيحًا؟ تعرف أن لديّ أصدقاء في المكسيك. أصدقاء جيّدين. وأنا واثق من أن ذهابهم لتفقد أحوال عائلتك سيسرهم كثيرًا».

أفلت خوان مانويل ذراعي. قال له: «لا حاجة إلى ذلك. إنهم بخير».

أجابه: «هذا جيد. فلنحرص على أن يظلوا بخير».

ما أجمل أن يكون رودني قلقًا على أحوال عائلة خوان مانويل! هكذا قلت في نفسي. كلما عرفته أكثر، كلما كشفَتْ طبيعته الخيّرة عن نفسها أكثر.

نطق العملاقان في تلك اللحظة. كنت أتوقّع أن يجري بيننا تعارف حتى أستطيع أن أسجّل اسمَيْهما في ذاكرتي، فقد ألتقيهما مرة أخرى في المستقبل، بل يمكن أيضًا أن يتم تقديم الشوكولاته إليهما في المساء.

سأل واحد منهما رودني: «بحق الجحيم، ما هذا الذي يحدث هنا؟».

أضاف الآخر: «ومن تكون هذه؟».

تقدم رودني إلى الأمام خطوة. قال لهما: «لا مشكلة. لا تقلقا. سوف أصلح الأمر».

من الأفضل أن تصلحه. ومن الخير لك أن تسرع في ذلك.

الآن، لا بد لي من القول إن مخاطبتهما رودني بهذه الطريقة الفظّة قد فاجأتني. لكني مدرّبة على التصرّف في كل وقت مثلما يتصرّف أي محترف بارع مهما يكن نوع الأشخاص الذين يتعامل معهم... مهذبون أو غير مهذبين، نظيفون أو يرتدون ملابس قذرة، لبقون في الكلام أو غير لبقين.

أتى رودني ووقف أمامي. قال لي بصوت خفيض: «ما كان ينبغي أن تري شيئًا من هذا».

سألته: «أرى ماذا؟ هل تعني الفوضى الرهيبة التي أحدثتموها في هذا الغرفة؟».

عندها، خاطبني واحد من العملاقين: «يا سيدة، لقد نظفنا كل شيء تنظيفًا ممتازًا».

قلت: «نعم، كان عملكم دون المستوى المطلوب. فكما ترى، هذه السجادة في حاجة إلى مكنسة كهربائية. آثار أقدامكم واضحة عليها. أرأيت هذا؟ ألا ترى أوبارها مشوّشة عند الباب، وهناك أيضًا، عند الحمام؟ تبدو السجادة كأن قطيع أفيال قد مرّ فوقها. هذا إذا لم أقل شيئًا عن تلك الطاولة الصغيرة. من أكل فوقها فطائر بالسكر من غير طبق؟ وهذه الآثار الكبيرة، آثار الأصابع. لا أريد الإساءة إلى أحد، لكن... كيف لم تلاحظوا هذه الآثار؟ إنها منتشرة في كل مكان من سطح الطاولة الزجاجي. وإن عليَّ أيضًا أن ألمّع مقابض الأبواب كلّها».

أخذت من عربتي منديلًا ورقيًا وعبوة سائل التلميع، ثم بدأت أرش الطاولة. نظّفت الطاولة كلّها بلمح البصر. «هل ترون؟ أليس هذا أفضل؟».

كان وجه كل من العملاقين صورة للآخر: فمان كبيران مفتوحان دهشة. كان واضحًا أن أسلوبي الفعّال في التنظيف أثار دهشتهما. إلّا أن خوان مانويل كان في حالة حرج واضح. لا يزال محدّقًا في حذائه!

ظلوا صامتين جميعًا. صمتوا زمنًا طويلًا، طويلًا جدًا. أدركت أن هناك أمرًا في غير مكانه، لكني وجدت صعوبة في تحديد ذلك الأمر. كان رودني من كسر الصمت أخيرًا. أدار ظهره إليّ وخاطب صديقَيْه. قال لهما: «هذه مولي... إنها فتاة خاصّة جدًا. تستطيعون رؤية هذا، بالطبع. ترون كيف هي... إنها فريدة».

ما أجمل أن يقول هذا عني. اعتبرت ما قاله إطراء حقيقيًا، وتجنّبت النظر في عينَي أحد منهم لخشيتي من أن يكون وجهي قد احمرّ قليلًا. قلت: «يسرني أن أنظّف غرفة أصدقائك في أي وقت. الحقيقة أنني سأكون سعيدة بذلك. ليس عليك إلّا أن تقول لي رقم الغرفة التي ينزلون فيها، وسوف أطلب إضافتها إلى قائمة عملي».

خاطب رودني صديقيه من جديد: «ألا ترون كم هي مستعدة لمدّ يد المساعدة؟ ثم إنها فتاة كتومة. أليس هذا صحيحًا يا مولي، ألست كتومةً؟».

«الكتمان شعاري. خدمة النزلاء الخفيّة هدفي».

على غير انتظار، تحرّك الرجلان في اتجاهي مزيحين رودني وخوان مانويل من طريقيهما.

«إذًا، أنت لست ممن يكثرون الجعجعة! أهذا صحيح؟ لن تقولي شيئًا!؟».

«أنا خادمة، ولست ممن ينقلون الكلام. شكرًا جزيلًا. يدفعون لي حتى أبقي فمي مطبقًا وأعيد الغرف إلى حالة الكمال. أعتزّ بأنني أنجز عملي على أحسن وجه ثم أختفي من غير أثر».

تبادل الرجلان نظرة سريعة ثم رفعا أكتافهما.

سألهما رودني: «ألا يعجبكما هذا؟». أومأ الرجلان برأسيهما، ثم عادا إلى الحقيبة التي كانت على السرير. سأل رودني خوان مانويل: «وماذا عنك أنت؟ هل أنت راضٍ الآن؟».

أومأ خوان مانويل برأسه، لكنّ شفتيه كانتا متوترَتين.

قال رودني ناظرًا إليّ بتلك العينين الزرقاوين الثاقبتين: «لا بأس، يا مولي. سيكون كل شيء على أحسن ما يرام. ما عليكِ إلّا أن تقومي بعملك مثلما تفعلين عادة. اجعلي هذا المكان نظيفًا لا تشوبه شائبة بحيث لا يستطيع أحد معرفة أن خوان مانويل وصديقيه كانوا هنا. ولن تقولي شيئًا عن هذا كله».

«بالطبع. إذا سمحتم لي، فإن عليَّ الآن أن أباشر عملي».

اقترب رودني مني. همس لي: «أشكرك. سوف نتابع الكلام في هذا الأمر لاحقًا. ما رأيك في أن نلتقي اليوم؟ سأشرح لك كل شيء».

كانت تلك أول مرة يقترح عليَّ لقاء بيننا. كدت أعجز عن تصديق ما سمعته أذناي. قلت له: «يسعدني هذا. إذًا، أهو موعد بيننا؟».

«نعم، طبعًا. نلتقي في ردهة الفندق، الساعة السادسة. سنذهب إلى مكان نستطيع فيه أن نتكلّم على انفراد».

في تلك اللحظة، حمل العملاقان الحقيبة الزرقاء، وسارا فتجاوزاني، ثم فتحا باب الغرفة. نظرا في الممر يمينًا ويسارًا، ثم أشارا إلى رودني وخوان مانويل بأن يلحقا بهما. خرج الأربعة من الغرفة سريعًا.

انقضت بقية ذلك الصباح في موجة من النشاط. كنت أنظف متحمسة، توّاقة إلى أن تبلغ الساعة السادسة. ثم أدركت فجأة أنني ارتديت بنطلونًا قديمًا -وإن يكن صالحًا للاستعمال- ومعه واحدة من بلوزات جدتي ذات الياقة المرتفعة. ارتديت تلك الملابس قبل مجيئي إلى العمل هذا الصباح. لكنها ملابس غير مناسبة أبدًا، غير مناسبة لموعدي الأول مع رودني.

أنهيت الغرفة التي كنت أنظّفها، ثم جررت عربتي إلى الممر. فتشت عن سونيثا في الناحية الأخرى من الطابق.

وجدت الغرفة التي كانت تنظّفها. باب الغرفة مفتوح على اتساعه. توقّفت سونيثا عما كانت تفعله. نظرت إليّ. قلت: «أنا في حاجة إلى الخروج قليلًا. إذا أتت تشيريل، فهل تقولين لها... إنني سأعود سريعًا؟».

«نعم، يا مولي. حان وقت استراحة الغداء منذ زمن، لكنك لم تتوقّفي. تعلمين أن من حقّك أن ترتاحي». تابعت التنظيف وبدأت تدندن لنفسها.

قلت: «أشكرك»، ثم اندفعت خارجة من الغرفة. سرت في الممر حتى بلغت المصعد. نزلت وخرجت من باب الفندق مسرعة.

سألني السيد برستون عندما مررت به: «مولي، هل كل شيء على ما يرام؟».

صحت من فوق كتفي: «كل شيء رائع». سرت على الرصيف، هرولت. أسرعت إلى زاوية الشارع حيث أعرف متجر ملابس صغيرًا أمرّ به كل يوم في طريقي إلى العمل. كنت معجبة دائمًا بلافتته الصفراء وبالمانوكانات في واجهته، تلك المانوكانات التي يضعون عليها كل يوم ملابس أنيقة جديدة. ليس هذا مكانًا من الأماكن التي أقصدها عادة من أجل التسوّق. إنه من أجل نزلاء الفندق، لا من أجل خادمتهم.

أدرت مقبض الباب، ثم دخلت. أتتني البائعة على الفور.

قالت لي: «يبدو أنك في حاجة إلى شيء من العون».

أجبتها متقطّعة الأنفاس قليلًا: «صحيح. أريد ملابس جديدة بأقصى سرعة. لديّ الليلة موعد مع شخص يحتمل أن تكون لي معه علاقة رومانسية».

قالت البائعة: «واو! أنت محظوظة. أنا متخصّصة في ما هو مناسب للعلاقات الرومانسية».

بعد ذلك بنحو اثنتين وعشرين دقيقة، خرجت من المتجر حاملة كيسًا كبيرًا ذا لون أصفر ليموني فيه بلوزة منقّطة، وشيء يدعونه «جينز ضيق جدًّا»، وزوج من «حذاء القطة الصغيرة» ليست

عليه أية قطط، على حدّ علمي. كاد أن يغمى عليَّ عندما ذكرت لي البائعة المبلغ المطلوب دفعه. لكن، بدا لي عدم الدفع، والعدول عن شراء تلك الأشياء أمرًا غير منسجم مع قواعد السلوك الصحيح، لأنها صارت في الكيس. دفعت مستخدمة بطاقتي المصرفية. واندفعت عائدة إلى الفندق. حاولت ألّا أفكر في المال الذي دفعته الآن، ولا في ما قد أستطيع فعله لتعويضه.

في تلك الليلة، في الساعة السادسة تمامًا، كنت في ردهة الفندق مرتدية ملابسي الجديدة. بل إنني نجحت في تصفيف شعري قليلًا مستخدمة مكواة شعر وجدتها حيث
يحتفظون بالأشياء التي نسيها النزلاء في غرفهم عندما غادروا الفندق. جعلت شعري منسدلًا، صقيلًا مثلما رأيت جيزيل تفعل عندما تستخدم مكواة الشعر. رأيت كيف دخل رودني الردهة ونظر إليَّ، لكنّ عينَيه تجاوزتاني قبل أن تعودا إليَّ من جديد لأنه لم يعرفني من النظرة الأولى.

اقترب مني. قال لي: «مولي! أنت تبدين... مختلفة».

سألته: «اختلاف حسن أم سيئ؟ وضعت ثقتي في بائعة في متجر ملابس قريب من الفندق. آمل أنها لم تخدعني. حسن اختيار الملابس ليس من نقاط القوة عندي».

«أنت تبدين... رائعة». جالت عينا رودني في الردهة، «دعينا نخرج من هنا. ما رأيك؟ نستطيع الذهاب إلى مطعم حديقة الزيتون. إنه في هذا الشارع».

لم أستطع تصديق ما سمعته. لقد كان قدَرًا. كان علامة. حديقة الزيتون مطعمي المفضل. كان أيضًا المطعم المفضل عند جدتي. في كل سنة، يوم عيد ميلادها ويوم عيد ميلادي، كنا نجهّز نفسينا لقضاء ليلة كبيرة معًا في الخارج، ليلة لا تكتمل إلّا بعدد كبير جدًّا من شرائح الخبز بالثوم وطبق السلطة المجاني. ذهبنا إلى مطعم حديقة الزيتون معًا آخر مرة عندما بلغت جدتي الخامسة والسبعين. طلبنا كأسي نبيذ «شاردونيه» حتى نحتفل بذلك اليوم.

«في صحتك، يا جدتي. أنهيتِ الآن ثلاثة أرباع القرن، وما زال لديك ربع القرن، على أقل تقدير».

قالت جدتي: «نعم، نعم».

أليس عجيبًا أن يختار رودني مكاني المفضل لتناول العشاء؟ نجمانا متلاقيان. مُقدّر لنا أن نكون معًا.

حدّق فينا السيد برستون عند خروجنا من الفندق. «مولي، هل أنت على ما يرام؟». قال هذا وهو يقدّم إليَّ ذراعه حتى أستند إليها، لأن خطواتي اضطربت عندما بدأت أنزل الدرجات بحذائي الخفيف الجديد. كان رودني قد سبقني ونزل قبلي. وقف على الرصيف منتظرًا وصولي. كان ينظر في هاتفه.

قلت: «لا تقلق، يا سيد برستون. أنا في أحسن حال».

بلغنا الدرجة الأخيرة، فقال لي السيد برستون بصوت منخفض: «أنت خارجة معه، أليس هذا صحيحًا؟».

همست له: «في الواقع، نعم. أنا خارجة معه. لذا، اعذرني الآن... ». ضغطت على ذراعه ضغطة خفيفة، ثم سرت صوب رودني المنتظر على الرصيف.

«أنا جاهزة. فلنذهب». بدأ رودني السير من غير أن يرفع رأسه عن الأمر المهم الطارئ الذي كان يتابعه في هاتفه. ما إن ابتعدنا عن الفندق حتى وضع هاتفه في جيبه وأبطأ خطواته.

قال لي: «أنا آسف لهذا. لكن عمل موظف البار لا ينتهي أبدًا».

أجبت: «لا مشكلة في الأمر. عملك مهمّ جدًا. أنت جزء لا يتجزأ من خلية النحل».

أملت أن تنال إعجاب رودني هذه العبارة التي اقتبستها من دورة تدريب العاملين التي أقامها لنا السيد سنو. لكن، إن كان ذلك قد أثار إعجابه، فهو لم يبد لي شيئًا من ذلك.

طيلة طريقنا إلى المطعم، كنت أثرثر وأتكلّم في كل ما استطعت الاهتداء إليه من مواضيع تثير الاهتمام - مزايا منفضة الغبار المصنوعة من الريش الحقيقي بالمقارنة مع تلك المصنوعة من

مواد تركيبية، والنادلة التي تعمل معه في البار، تلك التي لا تستطيع تذكر اسمي إلّا في ما ندر... وبطبيعة الحال، شدة حبّي لمطعم حديقة الزيتون.

بعد ما بدا لي زمنًا طويلًا جدًا، لكن لعله لم يتجاوز ست عشرة دقيقة ونصف الدقيقة، صرنا عند مدخل مطعم حديقة الزيتون.

قال رودني وهو يفتح الباب أمامي بكل تهذيب: «من بعدك».

أجلستنا نادلة شابة لطيفة في مقصورة رومانسية تمامًا كانت في نقطة جانبية منعزلة في المطعم.

سألني رودني: «ألا تشربين شيئًا؟».

«فكرة لطيفة جدًا. سوف أطلب كأس نبيذ شاردونيه. هل تشاركني وتتناول الشاردونيه مثلي؟».

«أنا شخص يفضل البيرة».

أتت النادلة فطلب كل منا شرابه. سألها رودني: «هل نستطيع طلب الطعام منذ الآن؟»... نظر إلي وقال: «هل أنت مستعدة؟».

الحقيقة أنني مستعدة، مستعدة لكل شيء. طلبت ما أطلبه دائمًا. قلت للنادلة: «من فضلك، أريد طبق ‘الجولة الإيطالية’... إذ كيف يمكن أن يكون المرء مخطئًا إذا تناول هذا الطبق الثلاثي، لازانيا وفيتوتشيني ودجاج بجبنة البارميجان». ابتسمت لرودني ابتسامة رجوت أن تكون لعوبًا.

نظر رودني في قائمة الطعام. قال للنادلة: «سباغيتي مع كرات اللحم».

«نعم، يا سيدي. هل آتيكم بطبق السلطة المجاني وشرائح الخبز بالثوم؟».

أجابها رودني: «لا، هذا كافٍ». لا بد لي من القول إن إجابته كانت خيبة أمل صغيرة.

انصرفت النادلة وصرنا وحدنا تحت النور الدافئ المنبعث من مصباح معلّق على مقربة منا. الكلام مع رودني على هذه المسافة القريبة جعلني أنسى حزني كله، حزني على طبق السلطة وشرائح الخبز بالثوم.

استند إلى الطاولة بمرفقيه... مخالفة لقواعد الإتيكيت التي صفحت عنها هذه المرة لأنها أتاحت لي رؤية ساعديه الجميلين على مقربة شديدة منّي.

«مولي، أظنك تتساءلين عما كان جاريًا في الغرفة اليوم... مع الرجلين اللذين كانا هناك، في غرفة الفندق. أردت ألّا تذهبي وأنت تحملين في ذهنك فكرة سيئة عما كان جاريًا هناك، فتخبري أحدًا بما رأيته. أردت أن أحظى بفرصة لشرح الأمر».

عادت النادلة تحمل البيرة وكأس النبيذ.

رفعت كأسي ممسكة ساقها الدقيقة بإصبعين اثنين مثلما علّمتني جدتي («لا تمس سيدة حقيقية الكأس ذاتها لأن أثر الأصابع عليها يكون قبيحًا»). قلت لرودني: «في صحتنا».

رفع رودني كأس البيرة الضخمة وقرعها بكأسي. لشدة ظمأه، أفرغ نصف الكأس قبل أن يضعها من يده.

قال: «مثلما كنت أقول لك، أريد تفسير ما شاهدتِه اليوم».

قلت: «إن عينَيك الزرقاوين آسرتان حقًا. آمل ألّا تعتبر كلامي هذا غير مناسب».

«غريب! قال لي أحد غيرك هذا الكلام منذ فترة وجيزة. على أيّة حال، إليكِ ما أحبّ أن تعرفيه: الرجلان اللذان كانا في غرفة الفندق. ليسا صديقيَّ؛ إنهما صديقا خوان مانويل، هل تفهمين هذا؟».

قلت: «هذا شيء لطيف. يسعدني أنه عثر على أصدقاء هنا. عائلته كلها في المكسيك، كما تعلم. وأظنه يشعر بالوحدة من وقت إلى آخر. هذا شيء أستطيع فهمه لأنني، أنا أيضًا، أشعر بالوحدة من وقت إلى آخر. ليس الآن، بالطبع! لا أشعر بالوحدة أبدًا في هذه اللحظة».

رفعت كأسي وتناولت منها رشفة لذيذة، عميقة.

قال رودني: «هناك أمر أظنّ لا علم لك به... أمر عن صديقي خوان مانويل. في واقع الأمر، هو مهاجر غير مسجّل في الآونة الراهنة. انتهى تصريح عمله منذ زمن، وهو يعمل الآن ‘تحت الطاولة’ في فندقنا. السيد سنو لا علم له بهذا. إذا قبضوا على خوان مانويل فسوف يطردونه من البلاد، فلا يعود قادرًا على إرسال المال إلى أهله. تعرفين كم هو مهتم بعائلته، أليس كذلك؟».

قلت: «أعرف هذا. العائلة مهمّة جدًا. ألا توافقني الرأي؟».

قال رودني: «ليس كثيرًا. نبذتني عائلتي منذ سنين». رفع كأس البيرة وابتلع جرعة جديدة، ثم مسح فمه بظهر يده.

قلت له: «يؤسفني سماع هذا، يؤسفني كثيرًا». ما كنت قادرة على تخيل السبب الذي قد يجعل أي شخص يفوّت على نفسه فرصة البقاء على علاقة وثيقة برجل ممتاز مثل رودني.

قال: «نعم. والآن، ماذا عن الرجلين اللذين رأيتهما في تلك الغرفة؟ وماذا عن الحقيبة التي كانت معهما؟ إنها حقيبة خوان مانويل. ليست حقيبتهما. وبالتأكيد، ليست حقيبتي. كانت حقيبة خوان مانويل. هل فهمت هذا؟».

«نعم، فهمت. لدى كل منا ما يشقى بحمله». توقّفت لحظة حتى أتيح لرودني وقتًا يسمح له بإدراك المعنى المزدوج لعبارتي الذكية. قلت موضحة: «هذه نكتة. كان مع الرجلين حقيبة حقيقية يحملانها، لكن التعبير الذي استخدمته يشير إلى الأحمال النفسية، هل فهمت؟».

«نعم. لا بأس. كما كنت أقول لك، المشكلة هي أن صاحب البيت الذي كان فيه خوان مانويل اكتشف أن إقامته قد انتهى أمدها. طرده من الشقة منذ فترة. والآن، لا مكان لديه للعيش. إنني أساعد خوان مانويل في تدبر أموره... أعني، في ما يخص الأمور القانونية،
فأنا أعرف بعض الأشخاص. أفعل ما أستطيع فعله لمساعدته في حلّ مشكلاته. لكن هذا كلّه سرّ يا مولي. هل أنت ممن يحفظون السر؟». نظر في عينيّ فأحسست بأنني حصلت على امتياز عظيم

عندما جعلني موضع ثقته.

أجبته: «بالطبع، أستطيع حفظ الأسرار، أسرارك خاصة. لديّ صندوق مقفل أخبئ فيها أسرارك كلّها، صندوق إلى جوار قلبي». قلت هذا وأنا أحرّك أصابعي كأنني أقفل صندوقًا في صدري.

أجابني: «جميل. لكن، هناك المزيد. الأمر على هذا النحو: في كل ليلة، أضع خوان مانويل -سرًّا- في غرفة جديدة من غرف الفندق حتى لا يجد نفسه مضطرًا إلى النوم في الشوارع. لكن، لا يجوز أن يعلم أحد بهذا. إذا اكتشف أحد ما أفعله، فـ-... ».

قلت: «ستجد نفسك واقعًا في مشكلات كبيرة. وسوف يصير خوان مانويل مشردًا».

أجابني: «صحيح. هكذا تمامًا».

من جديد، كان رودني يبرهن على أنه رجل جيد جدًا. كان يساعد صديقه انطلاقًا من طيبة قلبه. تأثرت كثيرًا فعجزت عن العثور على كلمات أقولها.

من حسن حظي، أتت النادلة وملأت الصمت بطبق «الجولة الإيطالية» وبطبق «السباغيتي مع كرات اللحم» الذي طلبه رودني.

قلت: «شهية طيّبة!»

تناولت بضع لقمات لذيذة جدًا، ثم وضعت شوكتي من يدي. قلت له: «رودني، أنا معجبة بك كثيرًا. أنت رجل جيد».

كرة لحم يمضغها في فمه جعلت وجنته ناتئة. قال: «إنني أحاول». مضغ اللقمة، ثم ابتلعها «لكنني في حاجة إلى مساعدتك، يا مولي».

سألته: «كيف أساعدك؟».

«ألاقي صعوبات متزايدة في معرفة الغرف التي تكون شاغرة في الفندق. فلنقل إن واحدًا من المسؤولين عن المفاتيح كان يزودني بالمعلومات الضروريّة، لكني أظنه سيكف عن مساعدتي في أية لحظة. وأما أنتِ... أنت لست موضع شك أبدًا. وأنت تعرفين الغرف التي تكون شاغرة في كل ليلة. ثم إنك بارعة جدًا في تنظيف الغرف وإزالة أية آثار، تمامًا مثلما فعلت اليوم. سيكون أمرًا رائعًا إذا استطعت إرشادي، كل ليلة، إلى واحدة من الغرف الخالية في الفندق، وإذا استطعت ضمان أن تكوني أنت من ينظفها قبل ذلك وبعده... أعني بعد أن ينام فيها خوان مانويل وصديقاه. أنت تدركين ضرورة ألّا يبقى في الغرفة شيء أو أثر يشير إلى أن أحدًا قد نام في الغرفة».

بحذر، أضع الشوكة والسكين على حافة طبقي. أتناول رشفة نبيذ أخرى. أستطيع الآن أن أحسّ بأثر الشراب في أطرافي، وفي وجنتي، أثر يجعلني أحسّ بنفسي متحررة، منطلقة من غير قيود. أمران لم أحسّهما منذ... لا أستطيع تذكر متى أحسستهما آخر مرة.

قلت لرودني: «يسعدني أن أساعدك بأية طريقة أستطيعها».

يضع شوكته فتقعقع على الطبق. يمدّ يده إلى يدي. إحساس كهربائي سارّ. قال لي: «مولي، كنت واثقًا من أنني أستطيع الاعتماد عليك».

كانت تلك ملاطفة جميلة. من جديد، وجدت نفسي عاجزة عن الكلام إذ تهت في زرقة عينيه العميقة.

«هناك أمر آخر أيضًا. لا أريد أن يعلم أحد بشيء من هذا كله. لا أريد أن تخبري أحدًا عما رأيته اليوم. لن تقولي أية كلمة، لسنو خاصة، أو برستون، أو حتى تشيرنوبيل».

«لا حاجة إلى قول هذا، يا رودني. ما تفعله هو إحلال العدل عندما يغيب العدل. إنك تفعل ما هو صائب في عالم يحدث كثيرًا أن يكون ظالمًا. أفهم هذا. كان روبن هود مضطرًا إلى فعل أشياء استثنائية حتى يساعد الفقراء».

«صحيح، وهكذا أنا. أنا روبن هود». التقط شوكته من جديد ووضع في فمه كرة لحم، «مولي، أود أن أقبّلك. أود تقبيلك حقًا».

«سيكون هذا رائعًا. ألا ننتظر إلى أن تبلع لقمتك؟».

ضحك رودني، ثم أجهز سريعًا على ما بقي في طبقه. ما كنت في حاجة إلى طرح السؤال. أعرف أنه يضحك معي، لا منّي.

تمنيت أن يطول جلوسنا، وأن نطلب تحلية. لكن رودني نادى النادلة وطلب الفاتورة فور انتهاء طبقه.

فتح لي الباب عندما خرجنا من المطعم. يا له من رجل شهم! صرنا في الخارج فقال لي: «إذًا، لقد اتفقنا. أليس كذلك؟ صديق يساعد صديقًا».

«نعم. في بداية نوبة عملي، سأخبر خوان مانويل برقم الغرفة التي يستطيع أن يقضي ليلته فيها. سأعطيه بطاقة المفتاح ورقم الغرفة. وفي كل صباح، سأنظف الغرفة التي يبيت فيها مع صديقَيه. تشيريل تتأخر دائمًا. لن تلاحظ أي شيء».

«هذا ممتاز، يا مولي. أنت فتاة خاصة بكل معنى الكلمة».

أدركت أن اللحظة قد حانت. كنت أعرف هذا من فيلمي «كازابلانكا» و«ذهب مع الريح». ملت إليه قليلًا حتى يستطيع تقبيلي. أظنّه همّ بتقبيل خدّي، لكنني أدرت رأسي بطريقة توحي بأنني لا أمانع في أن يقبلني على فمي. للأسف، كانت حركتي غير دقيقة تمامًا، لكن أنفي فرح كثيرًا بتلك اللمسة العاطفية غير المتوقّعة.

في تلك اللحظة، عندما قبّلني رودني، ما كان يهمني أين تستقر شفتاه. في الحقيقة، ما كان يهمني شيء أبدًا غير تلك القبلة نفسها... لا بقعة الصلصة الحمراء على ياقة قميصه، ولا كيف أخرج هاتفه بعد ذلك على الفور، ولا حتى قطعة الحبق الرخوة الصغيرة العالقة بين أسنانه.

الفصل الثامن

كادت نوبة عملي تبلغ نهايتها. لقد جعلتني إعادة تفاصيل موعدنا الأول في ذهني لا أحس مضي ساعات النهار. انقضت الساعات سريعًا، وازدادت لهفتي إلى أن يأتي وقت لقائنا هذه الليلة. أعانني هذا أيضًا على تفادي استحضار ذكريات يوم أمس. في أكثر الأوقات، نجحت في إبقاء صور ما رأيته البارحة هاجعة. مرّة واحدة تذكّرت فيها السيد بلاك ميتًا في سريره. ولسبب من الأسباب، في ذهني، على غير انتظار، رأيت وجه رودني على جثة السيد بلاك كأنهما شخص واحد، كأنهما متّصلان اتصالًا وثيقًا.

ما أسخف هذا! كيف أتخيلهما متصلين هكذا؟ كيف أتخيلهما هكذا مع أنهما مختلفان تمام الاختلاف في أمور كثيرة جدًا - عجوز وشاب؛ ميت وحيّ؛ شرير وخيّر! هززت رأسي أمامًا وخلفًا حتى أزيح تلك الصورة البشعة. مثلما يحدث في لعبة «إتش آ سكتش»، كانت هزة قوية واحدة كافية لأن تمسح ذلك كلّه من ذهني فيعود نقيًا مثلما كان.

كانت الأفكار التي ظلت تعاودني في ذلك اليوم أفكارًا عن جيزيل. أعرف أنها لا تزال تقيم في الفندق، لكني لا أعرف أين. لا أعرف رقم غرفتها في الطابق الثاني. أتساءل عن حالها بعد أن مات زوجها. هل سرّها هذا التحوّل المفاجئ؟ أم هي حزينة؟ هل أراحها تحررها منه أم هي قلقة على مستقبلها؟ كم يكون نصيبها من إرثه... إن نالت منه شيئًا؟ إن كانت الصحف محقّة، فهي من يرث ثروة الأسرة. لكن، لا شك أبدًا في أن زوجة السيد بلاك الأولى وابنته وولديه لن يقبلوا بهذا. إن كنت أعرف شيئًا عما يفعله المال، فهو أنه ينجذب إلى من يولدون وهم يمتلكون المال، ويبتعد عمن هم في أمسّ الحاجة إليه.

أفكار تثقل على نفسي - ماذا سيحلّ بجيزيل؟ هذه هي مشكلة الصداقة! أحيانًا، تعرف أمورًا لا ينبغي أن تعرفها. أحيانًا، تحمل أسرار الناس على عاتقك، تحملها عنهم. وأحيانًا، يكون عبء حملها ثقيلًا.

صارت الساعة الرابعة وثلاثين دقيقة. نصف ساعة فقط إلى أن يأتي وقت التقائي برودني في البار من أجل موعدنا. إنه موعدنا الثاني. الأمر في تقدّم مستمرّ!

أسير في الممر مسرعة دافعة عربتي أمامي حتى تعرف سنشاين بأنني فرغت من تنظيف غرفي كلّها بما فيها الغرفة التي بات فيها خوان مانويل ليلة أمس.

تقول لي سنشاين: «أنت سريعة جدًا، يا آنسة مولي! وأما أنا، فلا يزال أمامي تنظيف بضع غرف».

أودّعها، ثم أمرّ برجل الشرطة في طريقي إلى المصعد، لكنه لا يكاد يلحظ وجودي. أدخل المصعد وأهبط إلى القبو. أخلع ملابس العمل، وأرتدي ملابسي العاديّة: بنطلون جينز وبلوزة عليها أزهار. ليس هذا ما أفضّل ارتداءه من أجل موعدي مع رودني. لكن، لا مال عندي أنفقه على أمور زائدة، على «أحذية القطط» و«البلوزات المنقطة». فضلًا عن هذا، إذا كان رودني رجلًا جيدًا حقًا، فسوف يحكم على الجوهر، لا على المظهر.

عند الساعة الخامسة إلا خمس دقائق، صرت في الطابق الأول أمام مطعم وبار «سوشال».
انتظرت عند لافتة «تفضلوا بالجلوس»، وبحثت عيناي عن رودني. كان في آخر
المطعم فرآني وأتى إليَّ. وقف أمامي.

«أرى أنك أتيت في الموعد تمامًا».

أجبته: «أفخر بدقة مواعيدي».

«فلنذهب إلى مقصورة في الخلف».

«الخصوصية... نعم، يبدو هذا مناسبًا».

نعبر المطعم إلى أن نبلغ طاولة منعزلة في آخره، طاولة رومانسية.

أقول: «الجو هنا شديد الهدوء الآن». أنظر إلى الكراسي الخالية وإلى النادلتَين الواقفتَين عند طاولة الخدمة تتبادلان الحديث لأن المكان شبه خالٍ من النزلاء.

«صحيح. لكن المطعم لم يكن هكذا في وقت سابق. مراسلون صحافيون، ورجال شرطة». ينظر في الصالة، ثم ينظر إليَّ. تبدو الكدمة على عينه أحسن حالًا مما كانت هذا الصباح. لكنها لا تزال متورّمة.

«اسمعي، يؤسفني كثيرًا ما وقع لك ليلة أمس. أعني عثورك على جثة السيد بلاك، وتلك الأمور كلها. أعرف أيضًا أنهم أخذوك إلى مركز الشرطة. لا بد أن ذلك كان مزعجًا».

«لقد كان يومًا مرهقًا. لكن هذا اليوم أفضل كثيرًا، الآن خاصة».

«أخبريني إذًا، عندما كنت مع الشرطة... آمل أنك لم تَقُلِي لهم شيئًا عن خوان مانويل».

ضايقني هذا السؤال. قلت له: «لا. لا علاقة لهذا بقصة السيد بلاك».

«صحيح. لا علاقة بين الأمرين، بالطبع. لكنك تعرفين كيف تحب الشرطة أن تدسّ أنفها في كل شيء. لا أريد إلّا الاطمئنان إلى أنه في أمان». تعبث أصابع إحدى يديه بشعره الكثيف المتموّج، «ألا تستطيعين إخباري عما جرى، وعما رأيته في ذلك الجناح يوم أمس؟ أعني، أنا واثق من أن ذلك قد جعلك مذعورة حقًا؛ وقد يكون مفيدًا لك أن تقوليه بصوت مسموع، أن تقوليه أمام صديق».

يمد يده كي يمس يدي. أمر مدهش ما تفعله اليد البشرية وكيف تستطيع نقل هذا الدفء كله. صرت في شوق إلى التواصل الجسدي بعد غياب جدتي عن حياتي. كانت تفعل مثله تمامًا، تضع يدها على يدي حتى تخرجني مما أنا فيه، حتى تجعلني أتكلّم. كانت يدها قادرة على أن تخلق في نفسي إحساسًا بأن كل شيء سيكون على ما يرام... مهما حدث.

أقول لرودني: «أشكرك». تفاجئني رغبتي الملحّة في البكاء... لست أدري مصدرها. أقاومها وأحدّثه عما جرى ليلة أمس. «بدا يومًا عاديًا من كل ناحية إلى أن ذهبت لكي أنهي تنظيف شقة السيد والسيدة بلاك. دخلت الشقة فرأيت غرفة الجلوس في حالة فوضى. كان عليَّ أن أنظّف الحمام فقط، لكني دخلت غرفة النوم لأرى إن كانت في حالة فوضى مماثلة فرأيته هناك، رأيته ممدّدًا على السرير. ظننته غفى قليلًا، لكن، تبين لي أنه ميت. كان ميتًا تمامًا».

في تلك اللحظة، يمدّ رودني يده الأخرى فتحتضن كفّاه الاثنتان يدي. تصير يدي بين كفيه. يقول لي: «أوه، يا مولي. هذا فظيع، فظيع جدًا. وأيضًا... هل رأيت في الغرفة شيئًا
آخر؟ أي شيء غير طبيعي، أو مريبًا؟».

أحكي له كيف رأيت الخزنة مفتوحة وقد اختفى المال منها. اختفت أيضًا وثيقة الملكية التي رأيتها بارزة من جيب السيد بلاك في وقت سابق من ذلك اليوم.

«أهذا كل شيء؟ ألم تلاحظي شيئًا غريبًا غير هذا؟».

أقول: «في الحقيقة، رأيت شيئًا». أقول له كيف كانت أقراص دواء جيزيل متناثرة على الأرض.

يسألني: «أية أقراص؟».

«كانت لدى جيزيل عبوة دواء ليس مكتوبًا عليها أي شيء. كانت زجاجة دواء. وكانت محتوياتها متناثرة إلى جوار سرير السيد بلاك».

«عجيب! لا بد أنك تمزحين».

«ليس هذا مزاحًا».

«وأين كانت جيزيل؟».

«لست أدري. بدت لي شديدة الانزعاج عندما رأيتها في الصباح. أعرف أنها كانت تعتزم الذهاب في رحلة لأنني رأيت بطاقة الطائرة بارزة من حقيبة يدها». أنزلقُ قليلًا في الكرسي، وأستندُ بذقني على يدي بحركة لعوب... مثلما تفعل نجمة سينمائية في فيلم قديم.

«هل أخبرت الشرطة بهذا؟ بطاقة الطائرة في حقيبة جيزيل؟ أو، أقراص الدواء؟».

أضيق ذرعًا بهذه الأسئلة المتتالية، لكني أعرف أن الصبر فضيلة. أعرف أنه فضيلة من بين فضائل أخرى كثيرة أتمنى أن يراني تجسيدًا لها.

أقول: «أخبرتهم عن تلك الأقراص. لكني ما كنت راغبة في قول المزيد. إذا أردت الصدق -وآمل أن يظل هذا سرًا بيننا- فإن جيزيل أهم كثيرًا من نزيلة عادية. إنها... الحقيقة إنها صارت صديقتي. وأنا قلقة عليها أشد القلق. طبيعة الأسئلة التي طرحتها الشرطة... لقد كانوا...».

«ماذا؟ ماذا كانوا؟».

«كانوا كأنهم في شك... كأنهم يرتابون فيها».

«لكن، هل مات السيد بلاك موتًا طبيعيًا، أم ماذا؟».

«كانت الشرطة شبه واثقة من أن موته طبيعي. لكنهم ليسوا واثقين من ذلك تمامًا».

«هل طرحوا أية أسئلة أخرى؟ عن جيزيل؟ أو عني؟».

أحس كأن شيئًا يجرح أحشائي، كأن تنينًا نائمًا يستيقظ من سباته. أقول بصوت فيه نبرة حادّة أجد صعوبة في إخفائها: «رودني! لماذا يطرحون عليَّ أسئلة عنك؟».

يقول لي: «كان هذا سؤالًا غبيًا. لست أدري ما جعلني أقول ذلك. سامحيني».

يسحب يدَيه فأتمنى -على الفور- أن يعيدهما إلى حيث كانتا.

«أظنني قلقًا فحسب. هذا كل شيء. أنا قلق على جيزيل، وعلى الفندق. الحقيقة هي أنني قلق علينا جميعًا».

يخطر لي في تلك اللحظة أن هناك شيئًا لا أفهمه، أو شيئًا لا أنتبه له. في عيد الميلاد من كل سنة، كنت أضع الطاولة في غرفة الجلوس، وأعكف مع جدتي على تجميع أجزاء أحجية ونحن نستمع

إلى ترانيم عيد الميلاد في الراديو. كلما كانت الأحجية أكثر صعوبة كلما كنا أكثر سعادة. أحس الآن بذلك الإحساس نفسه الذي كان يأتيني عندما أجد نفسي، مع جدتي، في مواجهة أحجية صعبة حقًا. أحس الآن كأنني لا أعرف كيف أجمع القطع المختلفة على نحو سليم.

ثم أَنتبه إلى أمر. «قلتَ لي إنك لا تعرف جيزيل معرفة جيدة. أليس هذا صحيحًا؟».

يتنهّد رودني. أعرف ما يعنيه ذلك. لقد أغضبته مع أنني لم أرد إغضابه.

يسألني: «ألا يحق للإنسان أن يقلق على شخص يعتبره لطيفًا؟».

أسمع شيئًا مبتورًا في مخارج الحروف في صوته. يذكرني بصوت تشيريل عندما تعتزم فعل شيء غير نظيف.

عليَّ أن أصحّح مساري قبل أن أجعل رودني ينفر مني. أقول له: «أنا آسفة». ثم أبتسم ابتسامة عريضة وأنحني فوق الطاولة... «لديك كل الحق في أن تقلق عليها. هكذا أنت دائمًا. يهمّك ما يصيب الآخرين».

يمد يده إلى جيب بنطلونه الخلفي ويتناول هاتفه. يقول لي: «تمامًا. مولي، خذي رقمي».

تومض في داخلي شرارة من إثارة تزيل أية شكوك باقية عندي. أسأله: «هل تريد أن أحتفظ برقم هاتفك؟». لقد نجحت. لقد أصلحت ما بيننا. عاد لقاؤنا إلى مساره الصحيح.

«إن حدث أي شيء -كأن تضايقك الشرطة من جديد، أو أن تطرح عليك مزيدًا من الأسئلة- فما عليك إلّا أن تحيطيني علمًا بذلك. سوف أسرع إلى مساعدتك».

أُخرج هاتفي من حقيبة يدي، ونتبادل رقمَيّ هاتفَينا. عندما أكتب رقمي في هاتفه، أحس بأن عليَّ أن أضيف شيئًا يُعرّفني. أكتب: «مولي، خادمة في الفندق وصديقة». وأضيف أيضًا في النهاية صورة قلب كي يكون تعبيرًا عن نواياي الغرامية.

ترتعش يدي عندما أعيد إليه هاتفه. أتمنى أن ينظر إلى ما كتبته فيه، وأن يرى القلب. لكنه لا ينظر.

في تلك اللحظة، يدخل السيد سنو المطعم. أراه واقفًا عند البار. يأخذ بضع أوراق، ثم يذهب. أرى رودني يتململ في كرسيه، قبالتي. ليس له أن يخجل من وجوده في مكان عمله بعد انتهاء نوبته. يقول السيد سنو إن من يتأخر في مكان عمله يكون موظفًا متميّزًا.

يقول رودني: «اسمعي، عليَّ الآن أن أذهب. هل تتصلين بي إن استجد شيء؟».

أقول: «سأتصل. بكل تأكيد، سأكلمك».

ينهض فأتبعه. نخرج من المطعم إلى الردهة، ثم نعبر باب الفندق. أرى السيد برستون أمام مدخل الفندق تمامًا.

ألوّح له، فيرفع يده إلى حافّة قبعته.

يسأل رودني: «ألا يوجد هنا سيارات تاكسي؟».

يقول السيد برستون: «بالطبع».

ينزل إلى الشارع وينفخ في صفارته، ثم يشير إلى سيارة تاكسي. تتوقف السيارة، فيفتح السيد برستون بابها. يقول لي: «تفضّلي، يا مولي».

يقول روني: «لا، لا. التاكسي من أجلي. أنت ذاهبة، في اتجاه آخر. أليس كذلك يا مولي؟».

أقول: «أنا ذاهبة شرقًا».

«تمامًا. وأنا ذاهب غربًا. أتمنى لكِ ليلة طيبة».

يجلس رودني في السيارة فيغلق السيد برستون بابها. ومع انطلاقها يلوّح لي رودني بيده عبر النافذة. أصيح في إثره: «سوف أتصل».

السيد برستون واقف إلى جانبي. يقول لي: «مولي، كوني حذرة مع ذلك الشخص».

أسأله: «مع رودني، لماذا؟».

«لأنه ضفدع، يا فتاتي العزيزة. لا يتحوّل كل ضفدع إلى أمير».

الفصل التاسع

أسير إلى البيت بخطوات سريعة. أسير ممتلئة طاقة. فراشات ترفرف بعد لقائي مع رودني. يعود ذهني إلى ملاحظة السيد برستون غير الوديّة، إلى ما قاله عن الضفادع والأمراء. أنتبه إلى أن من السهل كثيرًا أن يخطئ المرء الحكم على الناس. حتى شخص متميّز مثل السيد برستون يمكن، أحيانًا، أن يخطئ الحكم. في ما عدا صدره الصقيل، ليس في رودني أي شيء من خصائص البرمائيات. أكبر آمالي هو أن يتحوّل رودني -مع أنه ليس ضفدعًا- إلى أمير قصتي الخياليّة، قصتي أنا.

أسأل نفسي عما قد تكونه الأصول المتّبعة في ما يخص الوقت المستحسن مروره قبل أن أطلب رقم هاتف رودني. هل أتصل به الآن، على الفور، حتى أشكره على لقائنا، أم من الأفضل أن أنتظر حتى الغد؟ لعل من الأفضل أن أكتب إليه رسالة نصّية! لا خبرة لي في هذه الأمور إلّا مع ويلبور الذي كان يكره الكلام في الهاتف ويستخدم بدلًا من ذلك الرسائل النصية... يستخدمها من أجل تحديد الوقت أو من أجل مهمات بعينها: «وقت الوصول المتوقع: 7:03». يبيعون الموز بسعر منخفض 0,49 سنتًا. اشتري قبل أن تنفذ الكمية». لو كانت جدتي لا تزال معي، لطلبت نصيحتها. لكن هذا ما عاد خيارًا متاحًا لي.

مع اقترابي من بنايتي، أرى شخصًا أعرفه واقفًا أمام بابها. أكون واثقة كل الثقة من أنني أهلوس. لكنني أقترب أكثر فأرى أنها هي بالفعل. نظارتها الشمسية الكبيرة الداكنة على وجهها، وفي يدها حقيبتها الصفراء الأنيقة.

أقول عند اقترابي منها: «جيزيل!».

«أوه، الشكر للرب! مولي، ما أسعدني لرؤيتك». قبل أن أفلح في قول شيء لها، تفتح ذراعيها وتحتضنني بقوة. لا أجد كلمات أقولها لأنني... لأنني لا أكاد أستطيع التنفس. تفلتني من بين ذراعيها. تزيح نظارتها فأرى عينيها المحمرّتين. تقول: «هل أستطيع الدخول؟».

أقول: «بكل تأكيد. لا أستطيع تصديق أنك هنا. إنني... أنا مسرورة جدًا لرؤيتك».

تقول: «ليس بقدر ما أنا مسرورة لرؤيتك».

أبحث في جيوبي إلى أن أعثر على مفاتيحي. ترتعش يدي قليلًا عندما أفتح الباب وأدعوها إلى دخول بنايتي.

تتقدّم بخطوات حذرة، وتجيل نظرها في ردهة المدخل. منشورات دعائية متناثرة على الأرض ومن حولها آثار موحلة لأقدام، وأعقاب سجائر. يا لهذه العادة القذرة! أرى الاستياء في وجهها... استياء شديد أستطيع قراءته بكل وضوح.

«شيء مؤسف، أليس كذلك؟ أتمنّى أن يساهم كل واحد من السكان في المحافظة على نظافة المدخل. أظن أنك ستجدين شقة جدّتي... شقتي... أنظف كثيرًا من هذا المدخل».

أقودها عبر ردهة المدخل، صوب السلم.

ترفع رأسها ناظرة إلى السلم من فوقنا. تسألني: «في أي طابق أنت؟».

أقول: «في الطابق الخامس».

«ألا نستطيع استخدام المصعد؟».

«أعتذر. ليس لدينا مصعد».

تقول: «واو!»، لكنها تنضم إليَّ في صعود السلم بهمّة مع أن حذاءها عالي الكعب إلى حدّ غير معقول. نبلغ الطابق الخامس فأسبقها حتى أفتح لها باب الحريق المكسور. يصُرّ الباب ويقرقع عندما أجذبه. نعبر الباب، ومنه إلى طابقي. أنتبه فجأة إلى الإنارة الخافتة، إلى المصابيح المحترقة، إلى ورق الجدران المتقشر، وإلى مظهر هذه الممرات المهلهل كلّه. وبطبيعة الحال، يسمعنا مالك شقتي، السيد روسو، يسمع صوت خطواتنا مقتربة، فيختار هذه اللحظة تحديدًا حتى يخرج من شقته.

يخاطبني قائلًا: «مولي، أستحلفك بقبر جدتك الطيبة، متى ستدفعين لي المال المستحق عليك؟».

أحس باندفاع الحرارة إلى وجهي. أقول له: «هذا الأسبوع. كن مطمئنًا. سوف يصلك ما هو آتٍ إليك». أتخيل دلوًا كبيرًا أحمر ممتلئًا ماء فيه صابون؛ وأتخيل نفسي أدفع برأسه الشبيهة بالبصلة في ذلك الدلو.

نتابع سيرنا ونتجاوزه، أنا وجيزيل. بعد ابتعادنا عنه قليلًا، تفتح عينيها بطريقة مضحكة، فيريحني هذا كثيرًا لأنني قلقت من احتمال أن تأخذ عني فكرة سيئة، وتظن أنني ممن يتخلفون عن دفع إيجارات بيوتهم. صار واضحًا لي أنها لا تراني هكذا.

أضع مفتاحي في قفل الباب، ثم أفتح بابي بيد راعشة. أقول لها: «من بعدك».

تدخل جيزيل وتنظر من حولها. أدخل من خلفها، لكني لا أعرف أين أقف. أطبق الباب، وأدفع المزلاج فأغلقه من الداخل. أراها تنظر إلى لوحات جدّتي في المدخل. سيدات جالسات عند شاطئ نهر كسول، تأكلن أطايب النزهة من سلة من أغصان مضفورة. ترى كرسي جدتي الخشبية العتيقة عند الباب، وترى عليها الوسادة التي طرزتها بالإبرة. تحمل الوسادة بيديها الاثنتين. تتحرك شفتاها عندما تقرأ صلاة السكينة.

تقول: «هه! شيء جميل!». وعلى غير انتظار، هناك في مدخل الشقة، يتقلص وجهها مكشرًا، وتمتلئ عيناها دموعًا. تحتضن الوسادة وتشدها إلى صدرها. تنتحب بصوت خفيض.

يزداد ارتعاشي. أنا في حيرة تامة. لماذا هي في بيتي؟ ولماذا تبكي الآن؟ وما الذي يتعيّن عليَّ فعله؟

أضع مفاتيحي على الكرسي حيث كانت الوسادة.

أبدًا لا تستطيعين فعل شيء غير أن تبذلي جهدك كله! أسمع صوت جدتي في رأسي.

أسألها: «جيزيل، هل أنت حزينة لأن السيد بلاك مات؟». لكني أتذكّر في تلك اللحظة أن هذا النوع من الكلام المباشر لا يحبه أكثر الناس. أصحح لنفسي وأقول: «آسفة. ما أريد قوله هو إنني آسفة لخسارتك زوجك».

تسأل بين شهقتين: «أنت آسفة! لماذا؟ أنا لست آسفة عليه. لست آسفة أبدًا». تعيد الوسادة إلى مكانها وتربت عليها مرة، ثم تأخذ نفسًا عميقًا.

أخلع حذائي وأمسح أسفله بخرقة أتناولها من خزانة الأحذية، ثم أضع حذائي في تلك الخزانة.

أراها تنظر إليَّ. تقول لي: «أوه، أظن أن عليَّ أيضًا أن أخلع حذائي». تخلع حذاءها الأسود اللامع ذا النعل الأحمر. كعباه عاليان جدًا. لا فكرة عندي كيف استطاعت صعود السلم حتى الطابق الخامس بهذا الحذاء.

تشير إليَّ بأن أناولها الخرقة.

أقول لها: «لا، لا. أنت ضيفتي». آخذ حذاءها الفاخر الصقيل الذي يُفرح ملمسه القلب، ثم أضعه في الخزانة. تنظر في أرجاء شقتنا المهلهلة. ترتفع عيناها إلى سقف غرفة المعيشة المتقشّر الذي ارتسمت عليه بقع رطوبة دائرية آتية من الشقة التي في الأعلى.

أقول لها: «لا تهتمي بالمظهر. ما من شيء أستطيع فعله عندما يكون ما ترينه ناتجًا عن طريقة عيش أولئك الساكنين فوقي».

تومئ برأسها، ثم تمسح الدموع عن عينيها.

أندفع إلى المطبخ. أتناول منديلًا ورقيًا. أجلبه إليها. أقول لها: «منديل من أجل مشكلتك».

تجيبني: «أوه، يا إلهي... مولي! عليك أن تكفي عن قول هذا لشخص حزين لأنه سوف يسيء فهمك ويظن أنك تسخرين منه».

«لم أرد القول إلّا... ».

«أعرف ما أردت قوله. لكن غيري لا يعرفه».

أصمت لحظة ريثما أستوعب ما قالته لي. أودِعُ هذا الدرس في خزانة عقلي.

لا نزال واقفتين في مدخل الشقة. أنا متجمّدة في مكاني، لا أعرف ما أفعله بعد ذلك... أو ما ينبغي قوله. آه، ليت جدتي كانت هنا!

تقول جيزيل: «هذه هي اللحظة التي تدعونني فيها إلى دخول غرفة المعيشة في بيتك. تقولين لي أن أعتبر نفسي في بيتي، أو أي شيء من هذا القبيل».

أحسّ فراشات ترفرف في معدتي. أقول لها: «نحن لا... أنا لا يأتيني ضيوف إلّا في ما ندر. لا يأتيني ضيوف أبدًا. من وقت إلى آخر، كانت جدّتي تدعو بعض الأصدقاء المختارين. وأما بعد أن ماتت، فقد عم الهدوء هذا المكان». لا أقول لها إنها أول زائر يعبر هذا الباب منذ تسعة شهور.
لكن تلك هي الحقيقة الخالصة. جيزيل أيضًا أول ضيفة أستقبلها وحدي.

تلمع في ذهني فكرة فأقول: «كانت جدتي تقول دائمًا، فنجان شاي جيد قادر على شفاء العلل كلّها. وإذا لم يشف العلل كلها، فاشربي فنجانًا آخر! ألا تودّين تناول فنجان شاي؟».

تُجيبني: «بالتأكيد، لا أستطيع تذكّر آخر مرة شربت فيها الشاي».

أذهب إلى المطبخ مسرعة حتى أشغّل الغلاية. أسترق النظر إلى جيزيل عبر الباب فأراها تجول في غرفة المعيشة. يسرّني أننا في يوم الثلاثاء، فقد غسلت الأرضية ليلة أمس. على الأقل، أعرف أنها نظيفة تمامًا. تسير جيزيل إلى النافذة في آخر غرفة المعيشة. أراها تمسّ
ستائر جدتي المزركشة المزينة بالأزهار... ستائر خاطتها بنفسها منذ سنين طويلة.

أضع الشاي في الإبريق وأرى جيزيل تنتقل إلى خزانة التحف، خزانة جدتي. تجثو على الأرض قبالة واجهتها، وتتأمل معجبة مجموعة تحف من صنع شواروفسكي، ثم ترفع عينيها وتنظر إلى

الصور ذات الإطارات الموضوعة فوق الخزانة. يشعرني وجودها في بيتي بقدر طفيف من عدم الراحة، لكنني سعيدة أيضًا لأنها هنا. صحيح أن شقتي نظيفة، لكنها ليست معدّة على نحو اعتادته أية امرأة في مستوى جيزيل بلاك. لا فكرة عندي عما يجول في رأسها. لعل رؤية كيفيّة عيشي قد هالتها! هذا ليس مثل الفندق، ليس مثله أبدًا. هذا ليس شيئًا عظيمًا. لقد كان على الدوام مرضيًا لي، لكنه لا يكون مرضيًا لها. أف، يا لها من فكرة مزعجة!

أمدّ رأسي من الباب: «أرجو أن تكوني مطمئنة إلى أنني أحافظ على أعلى مستويات النظافة في هذه الشقة في كل وقت. لسوء الحظ، لا يسمح لي راتب خادمة غرف في الفندق بشراء أشياء ثمينة، ولا بمواكبة أساليب الديكور الحديثة. أعرف أن هذا البيت يبدو لك قديمًا، عتيق الطراز. لعله مهترئ أيضًا... بعض الشيء!».

«مولي، لا فكرة لديك أبدًا كيف تبدو لي الأمور. الحقيقة أنك لا تعرفين عنّي الكثير. هل تحسبين أنني عشت حياتي كلّها مثلما أعيش الآن؟ هل تعلمين من أين أنا؟».

أقول: «أنت من مارثاز فينيارد».

«لا. هذا ما كان يقوله تشارلز للجميع. الحقيقة أنني من ديترويت. أعني أنها كانت موطني منذ زمن بعيد. كانت موطني قبل أن أجد نفسي وحيدة، كانت موطني قبل أن أفرّ منها ولا أعود إليها».

أراقبها من باب المطبخ فأراها تنتحي جانبًا كي تنظر عن كثب إلى صورتي مع جدتي، صورة ملتقطة منذ أكثر من خمس عشرة سنة. في هذه الصورة، نحن نعتمر قبعتين كبيرتين من قبعات الطهاة. وجه جدتي ضاحك، لكنني أبدو في غاية الجد. أتذكّر كيف أزعجني تناثر الدقيق على طاولة صنع المعجنات. تناثر الدقيق على يدَي، وعلى مريلتي. تحمل جيزيل الصورة المجاورة لتلك الصورة الأولى.

تقول: «واو! هل هذه شقيقتك؟».

أقول لها: «لا. هذه هي أمي. الصورة ملتقطة منذ زمن بعيد جدًا».

«أنت تشبهينها كثيرًا».

أعرف تمامًا أننا متشابهتان، في هذه الصورة خاصّة، شعرها داكن اللون يبلغ كتفيها ويؤطّر وجهها المدور. أحبّت جدتي هذه الصورة طيلة عمرها. كانت تدعوها «الصورة المزدوجة»، لأنها تذكّرها بابنتها التي فقدتها وبالحفيدة التي كسبتها.

«مولي، أين تعيش أمك الآن؟».

أقول: «هي لا تعيش. لقد ماتت. ماتت أمي، وماتت جدّتي أيضًا».

الماء يغلي. أطفئ الغلاية وأسكب الماء في إبريق الشاي.

تقول جيزيل: «أمي وجدتي ماتتا أيضًا. هذا ما جعلني أترك ديترويت».

أضع إبريق الشاي على أفضل صينية تقديم فضية لدى جدتي -هي الصينية الفضية الوحيدة- وأضع إلى جانبه فنجانين حقيقيين من البورسلين وملعقتي شاي لامعتين. أضع أيضًا وعاء السكر ذا الأذنين، الوعاء المصنوع من كريستال منحوت. أضيف إلى الصينية دورق الحليب العتيق الجميل. إن في هذه الأشياء كلها ذكريات كثيرة - أتذكر كيف بحثنا عنها، جدتي وأنا، في متاجر السلع المستعملة أو في صناديق المواد المتروكة أمام صف من فيلات صارمة المظهر في الشارع حيث يعيش آل كولدويل.

تقول جيزيل: «يؤسفني أن أمك قد ماتت، وجدّتك أيضًا».

«ما من شيء يدعوك إلى الأسف. ما كانت لك أية صلة بذلك».

«أعرف أن لا صلة لي بذلك، لكن الناس يتكلّمون بهذه الطريقة. تمامًا مثلما قلت لي عند الباب. قلت إنك آسفة لموت تشارلز. كنت تحاولين تعزيتي».

«مات السيد بلاك يوم أمس، لكن أمي ماتت منذ سنين طويلة».

تقول جيزيل: «لا أهمية لهذا. هكذا يتكلّم الناس».

«أشكرك. أشكرك على هذا التوضيح».

«أهلًا وسهلًا. تعالي في أي وقت!».

أنا ممتنّة حقًا لما زوّدتني به من شرح وإرشاد. فبعد رحيل جدتي، أحسّ بنفسي معظم الوقت كأنني شخص أعمى سائر وسط حقل ألغام. أتعثر دائمًا بحالات كثيرة من جهلي أصول السلوك الاجتماعي التي تكون خبيئة تحت ظاهر الأشياء. لكني عندما أكون قريبة من جيزيل أحس كأنني أرتدي درعًا واقيةً، كأنني محاطة بحراس مسلحين يحمونني. من بين أسباب محبتي العمل في ريجنسي غراند هو أن فيه نظام سلوك واضحًا. أستطيع الاعتماد على التدريب الذي يقدّمه السيد سنو حتى أعرف كيف أتصرّف، وماذا أقول، ومتى، ولمن. أرتاح عندما يكون لديَّ من يوجّهني.

أحمل صينية الشاي وآخذها إلى غرفة الجلوس. تهتز الصينية بين يدي. جيزيل جالسة على الجزء السيئ من الأريكة حيث النوابض الناتئة قليلًا مع أن جدتي غطتها ببطانية من الكروشيه. أجلس إلى جانبها.

أصبّ فنجانَيّ شاي. أحمل فنجاني، الفنجان ذا الإطار الذهبي المزيّن بسلاسل من أزهار الأقحوان، ثم أنتبه إلى غلطتي. «آسفة. هل تفضّلين هذا الفنجان، أم ذاك؟ لقد اعتدت تناول الشاي في فنجان الأقحوانات. كانت جدتي تستخدم الفنجان الثاني، هذا الفنجان الذي عليه كوخ إنجليزي. يمكنك القول إنني مخلوق تسيطر عليه عاداته».

تقول جيزيل: «لا تهتمي لهذا الأمر»، ثم تحمل فنجان جدتي. تضيف إلى فنجانها ملعقتيّ سكر مليئتين وقليلًا من الحليب. تقلّب المحتويات. أبدًا، لا تؤدي جيزيل أعمالًا منزلية كثيرة. هذا واضح جدًا. يداها ناعمتان لا عيب فيهما، وأظافرها المعتنى بها طويلة، لامعة، حمراء بلون الدم.

تأخذ رشفة من فنجانها. تبتلعها. «اسمعي... أدرك أنك تتساءلين عن سبب وجودي هنا».

أقول لها: «كنت قلقة عليك، يسعدني وجودك هناك».

«مولي، كان يوم أمس أسوأ يوم في حياتي كلّها. كان عناصر الشرطة في كل مكان. أخذوني إلى مركز الشرطة. استجوبوني هناك كأنهم يستجوبون واحدًا من المجرمين».

«كنت أعرف أن هذا ما سوف يحدث. وقد قلقت. أنت لا تستحقين هذا».

«أعرف. وأما هم، فلا يعرفون. سألوني إن كان احتمال وراثتي الفيلا التي يملكها تشارلز يثير حماستي كثيرًا. قلت لهم أن يسألوا محاميّ عن هذه الأمور... مع أنه لا محامين عندي. كان تشارلز يهتم بتلك الأشياء كلها. يا إلهي. كان ذلك فظيعًا. أمر فظيع أن تجدي نفسك متّهمة بأمر من هذا القبيل. وبعد ذلك، فور عودتي إلى الفندق، اتصلت ابنة تشارلز، فيكتوريا».

أحس برعدة تسري في جسدي عندما أحمل فنجاني وأتناول منه رشفة. «آه، نعم... إنها تملك تسعة وأربعين بالمئة من الأسهم».

«هذا ما كانت تملكه سابقًا. لكنها الآن ستصير مالكة أكثر من نصف كل شيء. هذا ما أرادته أمها دائمًا. يقول تشارلز: 'النساء غير صالحات للأعمال' هكذا كان يقول. ففي رأيه، لا تستطيع النساء تولّي عمل قذر».

أقول: «هذا غباء»، ثم أنتبه وأستدرك، «أعتذر. ليس لائقًا أن يقول المرء كلامًا سيئًا عندما يذكر من ماتوا».

«لا بأس، لا بأس. إنه يستحق هذا. على أية حال، كان ما قالته لي ابنته في الهاتف أسوأ من ذلك كثيرًا. هل تعرفين ماذا دعتني؟ قالت إنني متطفلة على والدها، وإنني غلطة منتصف عمره، قالت أيضًا إنني قتلته. كانت غاضبة، غاضبة كثيرًا. أخذت أمها الهاتف منها. بهدوء شديد، قالت لي السيدة بلاك -أعني السيدة بلاك الأولى- 'أعتذر عما قالته ابنتي. لكل إنسان ردّة فعل مختلفة عندما يكون حزينًا'. هل تصدقين هذا؟ ابنتها المعتوهة تصرخ في الخلفية وتقول لي إن عليَّ أن أنتبه إلى نفسي!».

أقول: «ليس عليك أن تتركي فيكتوريا تسبب لك أي قلق».

«أوه، يا مولي. أنت شديدة الثقة بالناس. لا فكرة عندك أبدًا عن ضراوة ما يصادفه الإنسان في العالم الحقيقي. يودّ الجميع رؤيتي أتهاوى. لا أهمية لأن أكون بريئة. إنهم يكرهونني. لماذا يكرهونني؟ الشرطة قالوا إني قد أكون عنيفة مع تشارلز! شيء لا يصدق!».

أنظر إلى جيزيل مليًّا. أتذكّر يوم أخبرتني عن عشيقات السيد بلاك، وكيف غضبَتْ كثيرًا وتمنّت، تمنّت فعلًا، أن تقتله. مع ذلك، الأفكار شيء والأفعال شيء آخر. الأفكار والأفعال من طبيعتين مختلفتين كل الاختلاف. إن كان هناك من يعرف هذا فهو أنا.

تقول لي: «تظن الشرطة أنني قتلت زوجي».

«وأما أنا، فأعرف أنك لم تقتليه».

تقول: «أشكرك كثيرًا، يا مولي».

يداها مرتعشتان مثلما ترتعش يداي. تضع فنجانها على الطاولة. «لا أستطيع أبدًا فهم كيف أن امرأة محترمة مثل زوجة تشارلز السابقة يمكن أن تنجب تلك الابنة العاهرة».

أقول: «لعل فيكتوريا تشبه أباها». أتذكّر الكدمات التي رأيتها على جسد جيزيل، وأتذكّر سبب تلك الكدمات. تتوتّر أصابعي وتشد على مقبض الفنجان الرقيق. إن ضغطت عليه أكثر من هذا فسوف يتشظى إلى مليون قطعة. تنفسي، يا مولي... تنفسي!

أقول لها: «السيد بلاك... لم يكن طيبًا معك. في تقديري، كان زوجك بيضة فاسدة جدًا».

تنظر جيزيل إلى حجرها. تسوّي أطراف تنورة الساتان. كاملة تامة، كأنها صورة. كأنها نجمة سينما من العصر الذهبي خرجت من شاشة تلفزيون جدتي وجلست إلى جانبي، بأعجوبة من أعاجيب السحر، على هذه الأريكة. بدت لي هذه الفكرة أكثر واقعية من فكرة أن تكون جيزيل حقيقية، من أن تكون امرأة حلوة المعشر نشأت صداقة بينها وبين خادمة وضيعة الشأن.

«لم يكن تشارلز يعاملني هكذا دائمًا، بل إنه كان يحبني، يحبني بطريقته الخاصة. وأنا أحببته بطريقتي الخاصة أيضًا. لقد أحببته». ملأت الدموع عينيها الكبيرتين الخضراوين.

أفكر في ويلبور، وفي إقدامه على سرقة «المطمورة». تحوّلت مشاعري الرقيقة نحوه إلى مرارة، تحوّلت كلها في لحظة واحدة. كنت مستعدّة لسلقه في برميل كبير إن استطعت فعل هذا من غير أن يرتدّ الأمر عليَّ. مع ذلك، ها هي جيزيل التي لديها سبب وجيه يحملها على كره تشارلز، ها هي باقية على حبها لزوجها الذي مات. ما أغرب هذا التباين بين ردود أفعال الناس إزاء دوافع متماثلة.

أتناول رشفة شاي. أقول لها: «كان زوجك يخونك. وكان يضربك أيضًا».

«واو! هل أنت واثقة من أنك لا تريدين ذكر الأمور على حقيقتها؟».

قلت: «هذا ما فعلتُه الآن».

تومئ برأسها وتقول: «عندما التقيت تشارلز، ظننت أنني حققت حلم حياتي. ظننت أنني وجدت آخر الأمر شخصًا يهتم بأمري ويعتني بي، شخصًا لديه كل شيء لكنه يهيم بي حبًا. جعلني أحسّ بنفسي متميزة كأنني المرأة الوحيدة في العالم. سارت الأمور على خير ما يرام حينًا من الزمن. ثم صارت غير ذلك. يوم أمس، جرت بيننا مشادة كبيرة، تمامًا قبل دخولك لتنظيف الشقة. قلت له إنني ضقت ذرعًا بحياتنا، ضقت ذرعًا بالسفر من مدينة إلى مدينة ومن فندق إلى فندق من أجل 'أعماله'. قلت له: 'لماذا لا نستطيع أن نستقر في مكان من الأماكن كتلك الفيلّا في جزر كايمان؟ لماذا لا نستطيع العيش والتمتّع بالحياة مثلما يفعل بقية الناس؟'. الناس لا يعلمون هذا، لكنه جعلني أوقّع -عندما تزوجنا- على شيء يسمونه 'اتفاق ما قبل الزواج'. بموجب هذا الاتفاق، لا أملك شيئًا من أمواله أو عقاراته. آلمني أنه غير واثق بي، لكنني وضعت توقيعي على تلك الورقة مثلما تفعل أية امرأة معتوهة. ومنذ ذلك الحين صارت الأمور بيننا مختلفة. لحظة تزوجنا، ما عدت امرأة متميّزة. كان له مطلق الحريّة في أن يعطيني ما يريد إعطائي إياه، وفي أن يأخذه متى أراد. هذا ما فعله طيلة عمر زواجنا الذي استمر سنتين. إن أعجبه سلوكي، تنهمر الهدايا عليَّ انهمارًا -ماس وأحذية

من صنع كبار المصممين ورحلات إلى أماكن بعيدة- لكنه كان رجلًا غيورًا. إذا ضحكت لنكتة قالها رجل في حفلة، فهو يعاقبني. وعندما يعاقبني، لا يكتفي بأن يغلق صنبور المال... ». ارتفعت إحدى يديها إلى عظم ترقوتها، «كان عليَّ أن أعرف هذا. لا أستطيع القول إن أحدًا لم يحذّرني».

تصمت جيزيل لحظة. تنهض واقفة. تجلب حقيبة يدها من عند الباب. تبحث فيها، ثم تُخرج يدها حاملة قرصَيّ دواء. تضع الحقيبة على الكرسي عند الباب، ثم تعود إلى الأريكة، ثم تضع القرصين الأبيضين في فمها وتتناول جرعة شاي لكي تبتلعهما.

... «سألت تشارلز يوم أمس إن كان يقبل إلغاء اتفاق ما قبل الزواج وتسجيل الفيلا في جزر كايمان، على الأقل، باسمي. نحن متزوجان منذ سنتين؛ وينبغي الآن أن يكون واثقًا بي، أليس هذا صحيحًا؟ كل ما أردته هو أن يكون لي مكان ألجأ إليه عندما أكون غير قادرة على احتمال مزيد من الضغوط. قلت له: تستطيع أن تتابع تنمية أعمالك، إن كان هذا ما تريد فعله... تستطيع مواصلة تنمية إمبراطورية بلاك. لكن، على الأقل، أعطني وثيقة ملكية الفيلا. أعطني وثيقة يكون اسمي مكتوبًا فيها. أعطني مكانًا يكون لي أنا، يكون بيتًا لي».

يعود تفكيري إلى بطاقة الطائرة التي رأيتها بارزة من حقيبة يدها. إن كانت تلك رحلة لها وللسيد بلاك، فلماذا تكون في اتجاه واحد؟

«غضب مني كثيرًا عندما نطقت كلمة 'بيت'. قال إن الجميع يكذب عليه دائمًا، ويحاول سرقة ماله. يحاول استغلاله. كان ثملًا، فراح يسير في الغرفة بخطوات حانقة ويقول إنني مثل زوجته السابقة، مثلها تمامًا. دعاني بصفات كثيرة: ساعية خلف المال، باحثة عن الذهب، عاهرة رخيصة. بلغ غضبه حدًّا جعله يخلع خاتم الزواج من إصبعه ويرميه على الأرض. قال لي: 'لا بأس، فليكن ما تريدين!'، ثم فتح خزنة النقود وبحث بين محتوياتها. أخرج منها ورقة وضعها في جيب سترته، ثم دفعني جانبًا وانطلق خارجًا من الغرفة».

أدركت ما تكونه تلك الورقة. لقد رأيتها في جيبه - وثيقة ملكية الفيلا التي في جزر كايمان.

«مولي، كان ذلك لحظة دخولك الشقة. ألا تتذكّرين؟».

أتذكّر هذا. أتذكّر كيف تجاوزني السيد بلاك في اندفاعه كأنني لست أكثر من عقبة بشريّة مزعجة اعترضت طريقه.

«آسفة لأن تصرفاتي وقتها كانت شديدة الغرابة. لكنك صرتِ الآن مدركة سبب ذلك».

أقول: «لا مشكلة في هذا. كان السيد بلاك أشد فظاظة منك. إن أردت الحقيقة، فقد ظننتك حزينة، لا غاضبة».

تبتسم وتقول لي: «أتعرفين ماذا، يا مولي؟ أنت تفهمين الأمور أكثر مما يظن الناس أنك تفهمينها».

أقول: «نعم».

«لست أبالي بما يظنه أي إنسان. أنت هي الأفضل».

أحسّ بحرارة في وجهي بعد سماعي هذا المديح. وقبل أن تسنح لي فرصة لسؤالها عما يظنّه بي الآخرون، أرى تحوّلًا غريبًا في وجه جيزيل. مهما تكن طبيعة القرصين اللذين ابتلعتهما قبل قليل، فقد كان التغير سريعًا. كانت كأنها تتحول من صلب إلى سائل، أمام عينَيّ. استرخى كتفاها ورَقّ وجهها. أتذكّر جدتي عندما كانت مريضة، وكيف يخفف الدواء ألمها على نحو يشبه كثيرًا ما أراه الآن. أتذكّر كيف يتحوّل وجهها -حينًا من الزمن، على الأقل- من تكشيرة شديدة متحجّرة إلى سكينة هادئة. تحوّل شديد الوضوح. حتى أنا أستطيع قراءته على الفور. كان لتلك الأقراص فعل السحر على جدتي. إلى أن ما عاد لها أثر عليها... إلى أن صارت غير كافية... إلى أن ما عاد أي شيء كافيًا.

تستدير جيزيل في اتجاهي وتجلس على الأريكة متربّعة. تضع بطانية جدتي فوق ساقيها. «أنت من عثر عليه، أليس كذلك؟ أعني، تشارلز. أنت أول من وجده».

«صحيح، أنا التي وجدته».

«وقد أخذوك إلى مركز الشرطة كما سمعت».

«صحيح».

«إذًا، ماذا قلت لهم؟».

ترفع يدها إلى شفتيها وتقضم أسنانها أطراف جلد سبابتها. أود أن أقول لها إن قضم الأظافر عادة بشعة، وإن عليها ألّا تفسد طلاء أظافرها الجميل، لكني أعدل عن ذلك وأمسك لساني.

«أخبرت المحققة بما رأيته. حكيت لها كيف دخلتُ الشقة حتى أنظفها وأعيدها إلى حالة الكمال، وكيف أحسست بأن أحدًا قد يكون فيها، وكيف دخلت غرفة النوم ووجدت السيد بلاك راقدًا على السرير. وعندما دققت أكثر وجدت أن السيد بلاك كان ميتًا».

«هل كان في الشقة شيء غريب، أو غير طبيعي؟».

«لقد كان يشرب. يؤسفني القول إنني لا أجد هذا أمرًا غير طبيعي في ما يخص السيد بلاك».

تقول لي: «أنت محقّة في هذا».

«لكن أقراصك... أقراص الدواء. تكون عادة في الحمام. لكني وجدتها على الطاولة إلى جانب السرير. كانت العلبة مفتوحة، بضعة أقراص متناثرة، ساقط على السجادة».

يتجمّد جسدها كله: «ماذا تقولين؟».

«نعم. بضعة أقراص كانت مسحوقة كأن أحدًا قد داس عليها. كانت متغلغلة في السجادة، وهذه مشكلة بالنسبة إلى من يكون عليه أن ينظف المكان بعد ذلك». ليتها لا تقضم أظافرها كأنها تقضم كوز ذرة!

تسألني جيزيل: «هل رأيت أي شيء آخر؟».

«كانت الخزنة مفتوحة».

«بالطبع، كان يحرص دائمًا على أن تظل مقفلة، ولم يعطني رقمها السري أبدًا. وأما في ذلك اليوم فقد أخذ منها ما أراد أخذه وتركها مفتوحة عندما خرج من الشقة مسرعًا».

ترفع فنجان الشاي إلى شفتيها وتتناول رشفة مهذّبة: «مولي، هل قلت للشرطة شيئًا عني وعن تشارلز؟ أعني... عن طبيعة العلاقة بيننا؟».

أقول: «لا».

«وهل أخبرتهم... هل قلت لهم أي شيء عني؟».

«لم أحاول إخفاء الحقيقة. لكني لم أتطوع أيضًا، ولم أذكر لهم شيئًا لم يسألوني عنه».

تحدّق جيزيل فيّ لحظة، ثم تميل إليّ كأنها تقفز قفزًا، ثم تحتضنني. يفاجئني هذا كثيرًا. أشم رائحة عطرها الثمين. غريب كيف يكون للرفاهية عبير لا يخطئه الأنف، رائحة مميزة مثل رائحة الخوف، أو رائحة الموت.

«مولي، أنت فتاة متميزة جدًا. هل تعرفين هذا؟».

أقول: «نعم، أعرف. سمعت هذا من قبل».

«أنت شخص جيد. أنت صديقة جيدة. لا أظنني قادرة أبدًا على أن أكون جيدة مثلك طيلة عمري. لكني أريد أن تعرفي شيئًا واحدًا: مهما حدث، لا تظني لحظة أنني لا أقدّرك كثيرًا».

تبتعد عني، ثم تقفز واقفة على قدميها. قبل دقائق قليلة، كانت مسترخية، ذابلة؛ وأما الآن، فهي تفيض طاقة.

«ماذا ستفعلين الآن؟... أعني، بعد أن مات السيد بلاك».

تقول: «لديّ الكثير مما أفعله. لن تسمح لي الشرطة بالذهاب إلى أي مكان قبل صدور نتائج التشريح وفحص السموم. هذا لأنهم إذا عثروا على شخص ثري ميتًا، فمن الواضح أن زوجته هي التي قتلته. ألا ترين هذا؟ لا يمكن أن يكون قد مات موتًا طبيعيًا. لا يمكن أن يكون قد مات نتيجة التوتر الذي يسببه لنفسه ويسببه له المحيطون به. إنه التوتر الذي كانت زوجته تحاول تخفيفه وإراحته منه حتى لا ينتهي به الأمر إلى أن يسقط ميتًا».

«أهذا ما تظنينه قد حدث؟ هل سقط ميتًا؟ هكذا فقط؟».

تتنهّد. تفيض عيناها دموعًا: «هناك أسباب كثيرة يمكن أن تجعل القلب يتوقّف».

أحسّ بغصة في حلقي. أفكر في جدتي وفي قلبها الطيب، وكيف توقّف.

أسألها: «هل ستظلّين مقيمة في الفندق إلى أن تصدر نتائج الفحوص؟».

«ليست لدي خيارات أخرى. ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. ولا أكاد أستطيع الخروج خطوة واحدة من الفندق من دون أن يحيط بي المراسلون الصحافيون. لا أملك أي عقار. لا أملك أي شيء لي، لي وحدي، يا مولي. لا أملك حتى شقة بائسة مثل هذه الشقة». تشهق وتقول: «آسفة، هل رأيتِ؟ لست الوحيدة التي يزلّ لسانها من وقت إلى آخر!».

«لا مشكلة أبدًا. لم يزعجني ما قلته».

تمدّ يدها وتضعها على ركبتي. تقول لي: «مولي، سوف يمرّ زمن قبل أن أعرف ما كتبه تشارلز في وصيته. يعني هذا أن زمنًا سيمر قبل أن أعرف مصيري. سأظلّ مقيمة في الفندق حتى ذلك الوقت. فعلى الأقل، الفاتورة هناك مدفوعة مسبقًا».

تصمت لحظة وتنظر إليَّ: «ألا تعتنين بي؟ هنا، في الفندق. هذا ما أعنيه. هل ستكونين خادمتي؟ سونيتا لطيفة جدًا، لكنها ليست مثلك. أنت كأنك أختي. هل تفهمين هذا؟ أنت أخت تقول أشياء

مجنونة، بعض الأحيان، وتحب أن تبالغ في التنظيف؛ لكنها أخت، مع ذلك كله».

أشعر بالإطراء لأن جيزيل تنظر إليَّ هذه النظرة الإيجابية... ترى أكثر مما يراه الآخرون... تعتبرني من أفراد أسرتها.

أقول لها: «يشرّفني أن أعتني بك، إذا وافق السيد سنو على هذا».

«عظيم. سأخبره عندما أعود إلى الفندق». تنهض واقفة، وتسير إلى الباب. تتناول حقيبة يدها الصفراء. تأتي بها إلى الأريكة، ثم تُخرج منها كدسة من أوراق نقدية... كدسة يبدو لي شكلها مألوفًا. تأخذ منها ورقتين جديدتين من فئة مئة دولار وتضعهما في صينية جدّتي الفضية.

تقولي لي: «إنها لك. أنت تستحقينها».

«ماذا؟ هذا مال كثير، يا جيزيل».

«لم أعطك بقشيشًا يوم أمس. اعتبريها بقشيشًا لك».

«لكني لم أنهِ تنظيف الشقة يوم أمس».

«تلك لم تكن غلطتك. ما عليك إلّا أن تحتفظي بهذا المال لنفسك. دعينا نتظاهر بأن هذا الحديث لم يجر بيننا أبدًا».

من ناحيتي، لن أستطيع أبدًا نسيان هذا الحديث، لكني لا أقول لها شيئًا، لا أبوح لها بهذا.

تنهض وتتجه إلى الباب، لكنها تتوقّف وتلتفت إليّ. تقول لي: «شيء آخر، يا مولي. أريد أن أطلب منك معروفًا».

على الفور، أتساءل في نفسي إن كان ما ستطلبه متعلّقًا بغسل الملابس، أو كيّها؛ لكن ما يأتي بعد ذلك يفاجئني تمامًا.

«هل تظنين أنك لا تزالين قادرة على دخول جناحنا؟ إن الشرطة تحظّر عليّ دخوله الآن. لكني تركت في الشقة شيئًا، شيئًا لا بد لي من استعادته. لقد وضعته في مروحة التهوية في الحمام».

هذا يفسر الأمر، يفسر الصوت الغريب الذي سمعته عندما كانت جيزيل في الحمام... عندما كانت تستحم.

«ما الذي تريدين أن أستعيده لك؟».

تقول: «إنه مسدسي...». صوتها، طبيعي، هادئ، «أنا في خطر، يا مولي. أنا الآن، معرّضة لكل شيء بعد رحيل السيد بلاك. يريد الجميع أخذ قطعة مني. أنا في حاجة إلى حماية».

أجيبها: «أفهم هذا». وأما في الحقيقة، قد أثار طلبها قلقًا شديدًا في نفسي. أحس بتقلُّص حلقي. أحس بالعالم يميد بي. أفكر في نصيحة السيد سنو: «عندما يطلب واحد من النزلاء شيئًا مبالغًا فيه، فعليكم أن تعتبروا هذا الطلب تحدّيًا لكم. لا تتقاعسوا. كونوا على مستوى الموقف**!**».

أقول لها: «سأفعل ما أستطيعه لكي أعيد إليك...»، تعلق الكلمة في فمي «ذلك الشيء». أقف أمامها مثل جندي متأهب.

تقول جيزيل: «فليبارك الرب قلبك، يا مولي». ومن جديد، تطوّقني ذراعاها «لا تصدقي ما يقوله لك أي إنسان. أنت لست غريبة الأطوار. لست إنسانًا آليًا. لن أنسى لك هذا ما حييت. وسوف ترين. أقسم أنني لن أنسى لك هذا».

تسير مسرعة إلى باب الشقة. تخرج من الخزانة حذاءها اللامع عالي الكعب وتضعه في قدميها. لقد تركت فنجانها على الطاولة بدلًا من أخذه إلى المطبخ مثلما كانت تفعل جدتي. إلّا أنها لم تنس حقيبة يدها الصفراء. علّقتها من كتفها. تفتح باب الشقة وترمي لي قبلة من بعيد. تلوّح بيدها مودعة.

فكرة تخطر في ذهني. أقول لها: «انتظري... ». صارت في الممر. كادت تبلغ السلم «جيزيل، كيف استطعتِ معرفة مكان شقتي؟ من أعطاك عنواني؟».

تلتفت إليَّ. تقول: «أوه، أحدهم أعطاني العنوان، في الفندق».

أسألها: «من هو؟».

تضيّق عينيها: «هممم... لا أستطيع تذكّر ذلك. لكن، لا تتركي هذا الأمر يقلقك فأنا لن أواصل إزعاجك طيلة الوقت. لن أفعل شيئًا من هذا القبيل. وأيضًا، أشكرك يا مولي، أشكرك على الشاي، أشكرك على حديثنا. أشكرك لأنك أنت... كما أنت».

تقول هذا، وتضع النظارة الشمسية على عينيها. تفتح باب الحريق المكسور، ثم تذهب.

الأربعاء
الفصل العاشر

ترن ساعتي المنبهة صباح اليوم التالي. إنه صوت ديك يصيح. حتى بعد انقضاء هذه الشهور كلها، لا أزال أسمع صوت خطوات جدتي في الممر، وأسمع قرع أصابعها اللطيف على بابي.

انهضي وأشرقي، يا فتاتي! إنه يوم جديد.

خطوات، خطوات، خطوات. تنشغل جدتي في المطبخ بإعداد شاي الفطور الإنجليزي وفطائر المرملاد.

لكن لا. هذا ليس حقيقيًا. إنها ذكريات فحسب. أضغط مفتاح الساعة المنبهة حتى أسكت صوت الديك، ثم أسرع إلى تفقد هاتفي، فقد أجد فيه رسالة بعث بها رودني في الليل. الرسائل الواردة: لا شيء.

أضع قدمَي الاثنتين على باركيه الأرضية. لا مشكلة في هذا. سوف أذهب اليوم إلى العمل. وسوف أرى رودني هناك. سوف أقيس حرارة علاقتنا. وسوف أجعل الأمور تتحرّك، أدفعها إلى الأمام. سوف أساعد جيزيل، لأنها صديقتي، لأنها في حاجة إلى مساعدة منّي. وسوف أعرف كيف أفعل ذلك.

أتمطّى، ثم أنهض عن السرير. قبل فعل أي شيء آخر، أنزع الملاءات عن فراشي، وأنزع اللحاف حتى أعيد ترتيب السرير كما ينبغي.

إذا فعلت شيئًا من الأشياء، فافعليه على أحسن وجه!

صحيح تمامًا، يا جدتي. ابدأ بالملاءة التي توضع على الفراش. أنفضها جيدًا، ثم أمدّها فوقه. أُدخل أطرافها تحت الفراش من هذه الناحية، وتلك. يسمونها «زوايا المستشفى». وبعد ذلك أرتّب لحاف جدتي، أمسّده جيدًا، وأجعل نجمته مشيرة صوب الشمال مثلما تكون دائمًا. أدعك الوسائد وأنفشها،

ثم أضعها مستندة إلى رأس السرير، أرتّبها مائلة خمسًا وأربعين درجة. وسادتان ممتلئتان لهما حواشٍ من الكروشيه.

أذهب إلى المطبخ وأبدأ بإعداد الفطائر والشاي لنفسي. أنتبه إلى صوت صرير أسناني على قشرة الفطيرة المحمّصة كلما أخذت منها لقمة. لماذا كنت لا أسمع هذا الصوت الفظيع الذي أُحدثه عندما كانت جدتي حيّة؟

آه، يا جدتي! كم كانت تحب الصباحات! كانت تدندن بلحن أغنية تحبها وتتحرّك نشطة في المطبخ. كنا نجلس معًا إلى طاولة المطبخ الريفية المعَدّة لشخصين. وكما يفعل عصفور الدوري تحت ضياء شمس صباحية، كانت تزقزق وتزقزق وتأكل من طعامها لقمات صغيرة كأنها تنقره نقرًا.

مولي، سوف أنظف اليوم غرفة المكتبة في بيت آل كولدويل. آه، يا مولي! ليتك تستطيعين رؤيتها. سوف أسأل السيد كولدويل ذات يوم إن كنت أستطيع إحضارك معي كي تزوري ذلك المكان. إنها غرفة باذخة، كلها جلد داكن وخشب بنّي صقيل. كتب كثيرة،
كثيرة جدًا. لن تصدّقي أبدًا أنهم لا يدخلون تلك الغرفة إلّا في ما ندر. أحب تلك الكتب كأنها كتبي. واليوم، سوف أزيل الغبار عنها. مهمّة غير سهلة -دعيني أقول لك هذا- مهمة إزالة الغبار عن الكتب. لا تستطيعين الاكتفاء بنفض الغبار عنها مثلما تفعل خادمات كثيرات رأيتهن في حياتي. هذا ليس تنظيفًا، يا مولي. هو ليس أكثر من نقل الغبار من....

تثرثر جدتي وتثرثر، وتعِدُّ نفسها من أجل بدء النهار. تُعِدّني أيضًا.

أسمع الآن كيف أشرُق الشاي من فنجاني. صوت مقرف! أتناول لقمة أخرى من الفطيرة، فأجد أنني ما عدت قادرة على الأكل. أرمي بقيتها مع أن هذا هدر بغيض. أنظف الأطباق، ثم أذهب إلى الحمام لكي آخذ دوشًا. منذ موت جدتي، أفعل كل شيء في الصباح بسرعة أكثر قليلًا لأنني أريد مغادرة الشقة في أسرع وقت ممكن. أريد الخروج لأن الصباحات شديدة الصعوبة من غيرها.

أنا الآن جاهزة. أخرج من شقتي وأسير في الممر متجهة إلى شقة السيد روسو. أدق الباب بعزم. أسمع حركته خلف الباب. صوت المفتاح. ينفتح الباب.

يقف أمامي طاويًا ذراعيه على صدره. يقول لي: «لا تزال الساعة السابعة والنصف صباحًا. من الأفضل أن يكون الأمر خيرًا».

المال في يدي. أقول له: «سيد روسو، هذه مئتا دولار من الإيجار».

يطلق زفرة، ثم يهز رأسه رافضًا، «الإيجار ألف وثمانمئة. أنت تعرفين هذا».

«نعم، أنت محق. محق في ما يخص قيمة الإيجار الذي أنا مدينة به، ومحق عندما تقول إنني أعرف هذا. سوف أعطيك بقية المبلغ في آخر النهار. أعدك يا سيد روسو».

يهز رأسه رافضًا من جديد. يقول: «يا مولي، لولا ما أكنّه لجدتك من احترام كبير... ».

أقول له: «في آخر النهار، سوف ترى».

«في آخر النهار، وإلّا فسوف أقوم بالخطوة التالية. سوف أجعلك تخلين الشقة، يا مولي».

«لن يكون هذا ضروريًا. ألا تعطيني إيصالًا بهذا المبلغ، بمئتي دولار؟».

«تريدين الإيصال الآن!؟ لديك الجرأة لأن تطلبي الإيصال الآن، في هذا الوقت! ما رأيك في أن أعطيك الإيصال غدًا بعد أن تسدّدي لي كل ما هو مترتب عليك؟».

«هذا معقول. أشكرك. أتمنى لك يومًا طيبًا، يا سيد روسو». أقول هذا، ثم أستدير وأمضي.

أصل مكان عملي قبل التاسعة بوقت طويل. وعلى مألوف عادتي، أمشي المسافة كلها حتى أتفادى دفع أجرة المواصلات: نفقات غير ضرورية. ها هو السيد برستون واقف عند أعلى درجات مدخل الفندق، خلف منصته الصغيرة. يتكلّم في الهاتف. يراني فيعيد السماعة إلى مكانها، ثم يبتسم لي.

مدخل الفندق مزدحم هذا الصباح، أكثر ازدحامًا مما هو معتاد. حقائب كثيرة تنتظر أمام الباب الدوار، تنتظر حملها إلى غرفة المستودع. نزلاء مسرعون، داخلون وخارجون. يلتقط كثيرون

منهم صورًا ويخوضون في أحاديث مختلفة عن السيد بلاك. أسمع تعبير «جريمة قتل» أكثر من مرة. أسمعهم يقولون ذلك بطريقة غريبة كأنهم يتحدّثون عن معرض أو عن نوع جديد من الآيس كريم.

يقول السيد برستون: «صباح الخير، يا آنسة مولي. هل أنت على ما يرام؟».

أقول: «أنا في أحسن حال».

«آمل أن تكوني قد وصلت بيتك سالمة ليلة أمس».

«وصلت سالمة. أشكرك».

يتنحنح السيد برستون، ثم يقول: «أتعرفين، يا مولي؟ إذا وقعت في أية مشكلة، في أية مشكلة مهما يكن نوعها، فتذكري أنك تستطيعين الاعتماد على مساعدة السيد برستون العجوز». تتغضّن جبهته بطريقة غريبة.

«سيد برستون، هل أنت قلق؟».

«لن أقول لك إنني قلق. لكني أريدك أن... أتمنى أن تكوني مع أشخاص جيدين. وأريد أن تعرفي أنك إذا احتجت شيئًا، أي شيء، فسوف أكون إلى جانبك. ما عليك إلّا أن تومئي برأسك للسيد برستون إيماءة صغيرة حتى أفهم. كانت جدتك امرأة جيدة. كنت معجبًا بها كثيرًا، وكانت في غاية اللطف مع ميري العزيزة، زوجتي. أنا واثق من أن أمورك ليست سهلة من غير جدتك».

ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى. تمر لحظة لا يكون له فيها مظهر السيد برستون، البواب المهيب، بل يصير أشبه بطفل كبير الحجم.

«أشكرك وأقدِّر عرضك يا سيد برستون، لكني في أحسن حال».

«حسنًا». يقول هذا ويرفع يده إلى حافة قبعته. في تلك اللحظة يسترعي انتباهه رجل وامرأة معهما ثلاثة أطفال وست حقائب. يستدير إليهم قبل أن أفلح في وداعه وداعًا لائقًا.

أشق طريقي عبر جماعات النزلاء، وأعبر الباب الدوّار فأصير في ردهة الفندق. أتجه إلى الأسفل، إلى قسم خدمة الغرف. ملابس عملي معلّقة إلى باب خزانتي، نظيفة، مغلّفة بالنايلون الواقي. أُدخل رقم خزانتي فينفتح بابها. على رفّها العلوي الساعة الرملية التي أعطتني إياها جيزيل. ذلك الرمل كله، الرمل الآتي من مكان بعيد غريب جدًا، والنحاس الذهبي يشعُّ أملًا في ظلمة الخزانة. أحس بوجود أحد خلفي. ألتفت فأرى تشيريل تحاول النظر داخل الخزانة. وجهها شرس، منكمش - بكلمات أخرى، هذا هو تعبير وجهها المعتاد.

أحاول أن أكون متفائلة. أقول لها: «صباح الخير. آمل أن تكوني اليوم في حالٍ أفضل، وأن تكوني قد استطعت الاستفادة من استراحتك يوم أمس».

تتنهّد وتقول: «أشك في أنك تفهمين الأمر حقًا، يا مولي. أنت لا تفهمين طبيعة الحالة الصحيّة التي عندي. لديّ مشكلات في الأمعاء. وهي مشكلات يؤدّي التوتر إلى تفاقمها... توتر كذلك الذي ينشأ عند العثور على رجل ميت في مكان عملي. توتر يسبب اضطرابات في المعدة والأمعاء».

أقول لها: «يؤسفني أنك لست في صحة جيدة».

أتوقّع أن تنصرف بعد ذلك، لكنها لا تنصرف. تظل واقفة في طريقي. تَصدر عن غلاف ملابس عملي خشخشة مشؤومة عندما يحتك جسدها به.

تقول لي: «مؤسفة جدًا أخبار آل بلاك».

أقول: «تقصدين أخبار السيد بلاك. صحيح. إنه أمر مخيف».

«لا. أعني... أمر سيئ جدًا أنك لن تحصلي منهما على بقشيش بعد اليوم، بعد موت بلاك».
يذكرني وجهها ببيضة - وجه لا ملامح له ولا تعبير فيه.

أقول: «في الحقيقة، أظن أن السيدة بلاك لا تزال مقيمة في الفندق».

تتنشق بأنفها وتقول: «سونيتا تهتم بجيزيل في غرفتها الجديدة. وبطبيعة الحال، سوف أشرف على عملها».

«بالطبع». أنا أفهم هذا. إنها أيضًا حيلة أخرى لسرقة البقشيش؛ لكنها لن تستمر طويلًا. سوف تكلّم جيزيل السيد سنو. سوف تطلب منه أن أعود مسؤولة عن العناية بغرفتها. لذا، سأمسك لساني الآن.

تقول تشيريل: «أنهت الشرطة عملها في شقة بلاك السابقة. لقد قلبوها رأسًا على عقب. يا لها من فوضى! سيكون عليك أن تبذلي جهدًا كبيرًا حتى تعيديها كما كانت. وفوق هذا، لن تتلقي بقشيشًا لأن عناصر الشرطة هم من فعل ذلك بالشقة. من الآن فصاعدًا، سوف أهتم بأمر السيد والسيدة تشن. لا أريد أن أثقل عليك بأعباء العمل».

أقول لها: «هذا لطف كبير. شكرًا، يا تشيريل».

تظل واقفة هناك لحظة، تنظر في خزانتي. أراها تحدّق في ساعة جيزيل. أود أن أقتلع عينَيها لأنها تلوثها بنظراتها، تلوّثها لأنها تنظر إليها بذلك الحسد كله. هذه ساعتي. إنها هدية لي. إنها هدية من صديقتي... صديقتي أنا.

أقول لها: «أعذريني»، ثم أغلق باب خزانتي.

تجفل تشيريل.

أقول: «من الأفضل أن أذهب. عليَّ الاهتمام بعملي».

تدمدم بشيء لا أفهمه بينما أتناول ملابس عملي وأذهب إلى غرفة تبديل الملابس.

بعد أن صرت مرتدية ملابس العمل، أعيد تموين عربتي وتزويدها بما ينقصها. أذهب إلى الردهة الكبرى. أرى السيد سنو واقفًا عند مكتب الاستقبال. يبدو جامدًا كأنه فطيرة مغلّفة بالسكر تذوب في

يوم حار. يستدعيني إليه.

أظل منتبهة إلى وجوب ترك أفواج النزلاء تمرّ قبلي وقبل عربتي. أحني رأسي لكل منهم، لكن أحدًا لا يعيرني أي اهتمام. أقول: «من بعدك يا سيدي/ من بعدك يا سيدتي». أقولها مرة بعد مرة. أستغرق زمنًا طويلًا جدًا في شق طريقي واجتياز المسافة القصيرة من المصعد حتى مكتب الاستقبال.

أقول عندما أبلغ المكتب: «أعتذر يا سيد سنو. المكان شديد الازدحام اليوم».

«مولي، جميل أن أراك. أشكرك من جديد لأنك أتيت إلى العمل يوم أمس. أتيت اليوم أيضًا. يعمد كثيرون من العاملين هنا إلى اتخاذ ما جرى مؤخّرًا ذريعة للتظاهر بالمرض، للتهرب من أداء عملهم».

«أنا لا يمكن أبدًا أن أفعل هذا، يا سيد سنو. لكل نحلة عاملة مكانها في خلية النحل! أنت من علّمني هذا».

«هل علمتك هذا؟».

«نعم، علمتني. كانت هذه العبارة جزءًا من كلمتك خلال يوم التطوير المهني في السنة الماضية. الفندق خلية نحل. وكل من يعمل فيه نحلة. من غير كل نحلة منا، لن يكون هناك عسل أبدًا».

تتجاوزني نظرات السيد سنو متّجهة إلى ردهة الفندق الغاصّة بالناس. أستطيع رؤية شيء مما يشد انتباهه. طفل ترك كنزته على واحدة من الكراسي ذات المسند المرتفع. كيس نايلون ملقى على الأرض يرتفع صاعدًا عندما يمر به حمّال منشغل بما بين يديه، ثم يعود ساقطًا إلى الأرض الرخامية. يمضي الحمّال جارًّا خلفه حقيبة تُصدر عجلاتها صريرًا واضحًا.

«هذا عالم غريب، يا مولي. كنت يوم أمس قلقًا من أن يعمد النزلاء إلى إلغاء حجوزاتهم بعد الحوادث المؤسفة الأخيرة فيغدو فندقنا خاليًا. وأما اليوم، فقد تبيّن أن عكس ذلك هو ما حدث. مزيد من النزلاء يحجزون غرفًا لدينا. مجموعات من السيدات تأتي لتناول شاي المساء حتى تتشمّم

الأخبار. غرفة الاجتماعات لدينا محجوزة الآن، محجوزة طيلة أيام الشهر القادم. الظاهر أن الجميع صاروا من هواة التحرّي. يظنون جميعًا بأنهم يستطيعون القدوم إلى الفندق وحل لغز وفاة السيد بلاك غير المتوقّعة. انظري إلى مكتب الاستقبال. لا يكادون يستطيعون مواكبة تدفق الناس عليهم».

إنه محق. أرى طيور البطريق خلف طاولة مكتب الاستقبال تنقر بضراوة على شاشاتها وتصدر الأوامر إلى الحمّالين والسائقين، وإلى البواب.

يقول السيد سنو: «لقد صار فندق ريجنسي غراند كأنه نقطة تجمّع. يعود الفضل في هذا إلى السيد بلاك».

أقول: «أمر غريب. كنت أفكر الآن في كيف يكون يوم من الأيام كالحًا إلى أقصى حدّ، ثم يأتي بعد يوم مبارك. في هذه الحياة، لا تستطيع أبدًا تخيّل ما ينتظرك خلف المنعطف، فقد يكون رجلٌ ميتٌ أو موعدٌ غراميٌّ جديدٌ».

يسعل السيد سنو حاجبًا فمه بيده. آمل ألا يكون قد أصابه زكام. يقترب مني ويكلّمني هامسًا، «اسمعي، يا مولي. أحيطك علمًا بأن الشرطة أنهت الآن تحرّياتها في شقة السيد والسيدة بلاك. آمل ألا يكونوا قد اكتشفوا شيئًا غير حسن».

«إن اكتشفوا شيئًا غير حسن، فسوف أنظّفه. قالت لي تشيريل إن عليَّ أن أبدأ عملي اليوم بتنظيف تلك الشقة. سوف أذهب إليها فورًا، يا سيدي».

«ماذا؟ قلت لتشيريل بكل وضوح أن تتولّى أمر الشقة بنفسها. لا نريد الاستعجال في تأجير تلك الشقة. علينا أن نترك الأمور تهدأ قليلًا، إن صح التعبير. لا أريد أن أسبّب لك أي قدر إضافي من التوتر، فقد عانيتِ توترًا كبيرًا».

أقول: «لا مشكلة عندي، يا سيد سنو. تُسبب لي توترًا أكبر معرفتي أن تلك الشقة لا تزال في حالة فوضى. سأكون في حال أحسن كثيرًا بعد أن تعود إلى حالتها المثالية، عندما تصير نظيفة كأن ما من أحد قد مات في ذلك الفراش».

يقول السيد سنو: «هشش! علينا ألّا نخيف النزلاء». أنتبه عندها إلى أنني لا أكلّمه بصوت منخفض.

أهمس قائلة: «أعتذر، يا سيد سنو». ثم أضيف بصوت مرتفع حتى يبلغ مَن لعله كان يحاول الاستماع إلى حديثنا: «سوف أبدأ التنظيف الآن. لن أنظف أيّة شقة بعينها، بل الشقق الموجودة في جدول المهمات لهذا اليوم».

يقول السيد سنو: «نعم، نعم. من الأفضل أن تنطلقي، يا مولي».

وهكذا أتركه. أشق طريقي ماضية بين نزلاء كثيرين، متّجهة إلى البار لكي أستلم صحف الصباح آملة أن أرى رودني هناك.

أصل فأجده خلف البار يلمّع الصنابير المصنوعة من نحاس. أحس بموجة دفء لحظة تقع عيناي عليه.

يلتفت إليَّ. يقول مبتسمًا تلك الابتسامة التي أعرف أنها لي فقط، لي وحدي: «أوه، مرحبًا!». بين يديه منشفة شاي ناصعة البياض، لا بقعة عليها.

أقول له: «لم أتصل بك، ولم أكتب لك رسالة نصية. رأيت أن في وسعنا الانتظار إلى أن نتحدّث مواجهة... مثلما نفعل الآن. لكني أريد أن تعرف أنني، إذا لم أتقيد بالسلوك المتوقّع، سوف أكون سعيدة بأن أكتب إليك أو أتصل بك في أي وقت من أوقات الليل أو النهار. ما عليك إلّا أن تقول لي ما يعجبك، وسوف أتصرف تبعًا لذلك. لن يكون هذا مشكلة».

يقول: «واو! إذًا، لا بأس». يرفع المنشفة البيضاء النظيفة ويلقيها على كتفه، ثم يقول: «هل صادفت ليلة أمس أي شيء أثار اهتمامك؟».

أقترب من البار. هذه المرة، سأحرص على أن أكلمه همسًا. أقول له: «لن تستطيع تصديق هذا».

يجيبني: «جرّبيني».

«أتت جيزيل حتى تراني! أتت إلى بيتي! وجدتها في انتظاري أمام بنايتي عندما عدت إلى البيت. هل تستطيع تصديق هذا؟».

يقول: «هممم! يا لها من مفاجأة!». لكن في صوته نغمة غريبة... كأن ما قلته الآن لم يفاجئه أبدًا. يلتقط واحدة من كؤوس البار ويبدأ تلميعها. مع أنهم يعقّمون الكؤوس كلها، في الأسفل، في المطبخ، فهو حريص على إزالة أية بقعة قد تكون باقية عليها. ما أشد التزامه بمعايير الكمال! إنه أعجوبة حقيقية.

يسألني: «وبعد ذلك، ماذا أرادت جيزيل منك؟».

أقول: «الحقيقة أن هذا سرّ بين أصدقاء». أتوقّف لحظة وأنظر من حولي، أنظر في المطعم المزدحم حتى أتأكد من أن أحدًا ليس منتبهًا إلينا. لا أرى أحدًا منتبهًا إلى وجودي، ولا أرى أحدًا ينظر في اتجاهي.

يقول لي: «أأنت متوترة؟». على وجهه ابتسامة لعوب. لعله يحاول مغازلتي! الفكرة في حدّ ذاتها تقذف بقلبي إلى مكان لا أعرفه... يكاد يتوقف عن الخفقان.

أجيبه: «طريف أن تقول لي هذا». وقبل أن أستطيع التفكير في شيء آخر أقوله له، يبادرني رودني: «علينا أن نتكلّم عن خوان مانويل».

سرعان ما يغمرني إحساس بالذنب. «أوه، بالطبع!». لشدّة تركيزي على رودني، ولشدة إثارة هذه العلاقة الناشئة بيننا، نسيت كل شيء، نسيت خوان مانويل. من الواضح أن رودني شخص أفضل مني لأنه يفكّر في الآخرين دائمًا ويضع نفسه في المرتبة الأخيرة، لا الأولى. هذه تذكرة لي بالأمور الكثيرة التي أستطيع تعلّمها منه... ما أكثر ما يلزمني تعلمه!

أسأله: «كيف أستطيع تقديم المساعدة؟».

«سمعت أن عناصر الشرطة قد ذهبوا، وأن جناح السيد والسيدة بلاك صار خاليًا، أهذا صحيح؟».

أقول: «أستطيع تأكيد هذا. الحقيقة أن تلك الشقة لن تؤجّر من جديد إلّا بعد مرور وقت. سوف أنظفها في بداية عملي لهذا اليوم».

يقول رودني: «هذا ممتاز». يضع من يده الكأس الملمّعة، ثم يتناول كأسًا أخرى: «أظن أن تلك الشقة هي المكان الأكثر أمانًا من أجل خوان مانويل. ذهب عناصر الشرطة، ولن تؤجّر الشقة في وقت قريب مع أن قلّة النزلاء ليست هي السبب في ذلك. هل رأيت هذا المكان اليوم؟ كل سيدة في أواسط العمر، كل ما في المدينة من سيدات في أواسط العمر من المولعات بالمسلسلات البوليسية أتين للتجول في ردهة الفندق علّهن تلمحن جيزيل، أو علّهن تكتشفن أمرًا من الأمور. الحقيقة أن هذا يثير الشفقة».

أقول له: «أعدك بهذا: لن يدخل تلك الشقة أيّ فضولي. لدي عمل أنجزه؛ وسوف أنجز عملي. سوف أخبرك عندما تصير الشقة نظيفة، عندما تصير جاهزة لأن يستخدمها خوان مانويل».

يقول رودني: «عظيم. هل أستطيع أن أطلب منك أمرًا آخر؟ أعطاني خوان مانويل الحقيبة التي فيها ملابسه. أيزعجك أن تضعيها في الشقة؟ ضعيها تحت السرير، أو في مكان من الأماكن. وسأقول له إنها هناك».

أقول: «بكل تأكيد. أفعل أي شيء من أجلك... ومن أجل خوان مانويل».

يُخرج رودني الحقيبة الرياضية المألوفة، الحقيبة ذات اللون الأزرق الداكن، من خلف برميل البيرة، ثم يناولني إياها.

يقول لي: «أشكرك، يا مولي. يا إلهي! ليت النساء جميعًا رائعات مثلك. أكثرهن معقَّدات كثيرًا».

تتضاعف سرعة نبض قلبي، أحسّه خفيفًا يعلو ويهبط في الهواء. أسأله: «رودني... كنت أقول في نفسي... قد نستطيع الخروج معًا في يوم من الأيام حتى نتناول الآيس كريم... إلّا إذا كنت من محبي الأحاجي. هل تحب الأحاجي؟».

«الأحاجي؟».

«نعم... الأحاجي التي نجمّع أجزاءها».

«ممم... إن كان أمامي هذان الخياران، فأنا رجل يفضل الآيس كريم. مشاغلي كثيرة هذه الأيام. لكن، نعم. سوف نخرج في وقت من الأوقات. بالتأكيد، سنخرج معًا».

أحمل حقيبة خوان مانويل. أعلقها على كتفي وأبدأ السير مبتعدة.

أسمع صوته من خلفي: «مولي... ». ألتفت إليه «نسيتِ أن تأخذي الصحف».

يضع على البار رزمة صحف كبيرة فأحملها بين ذراعي.

«شكرًا، يا رودني. ما ألطفك!».

يغمز لي بعينه ويقول: «أوه، أعرف هذا». يستدير صوب نادلة أتت تطلب شيئًا من البار.

أصعد إلى الأعلى بعد تلك اللحظات اللذيذة مع رودني. أحس بنفسي محلّقة في الهواء، لكني لا ألبث أن أصير أمام باب الشقة التي كان فيها السيد بلاك، فيعيدني ثقل الذكرى إلى الأرض. مرّ يومان منذ كنت في هذه الشقة. بدا لي الباب أكبر مما كان من قبل، أكثر مهابة. أستنشق نفسًا عميقًا، ثم أطلقه. أستجمع قواي قبل الدخول. ثم أستخدم بطاقة المفتاح فأفتح الباب وأدخل جارّة عربتي من خلفي. أسمع صوت لسان القفل يستقر في مكانه بعد دخولي.

تكون الرائحة أول ما يلفت انتباهي... أو انعدام الرائحة. لا أشم ذلك المزيج من عطر جيزيل وكولونيا الحلاقة التي يستخدمها السيد بلاك. تجول عيناي في المشهد الذي أمامي. أرى الدروج في كل قطعة أثاث مفتوحة. وسائد الأريكة على الأرض، سحّاباتها مفتوحة. الطاولة في غرفة الجلوس يغطيها المسحوق الذي تستخدمه الشرطة في كشف بصمات الأصابع. لا تزال البصمات واضحة. يبدو سطح الطاولة شديد الشبه بلوحات الرسم بالأصابع التي كنت مرغمة على صنعها في حضانة

الأطفال مع أنني لا أحب أن تتلوث أصابعي بالألوان. بكرة من الشريط التحذيري الأصفر الذي تضعه الشرطة متروكة هنا، راقدة على الأرض أمام باب الحمام.

أستنشق نفَسًا عميقًا آخر وأسير مبتعدة عن الباب، أسير في غرفة الجلوس. أقف عند عتبة غرفة النوم. السرير عارٍ من كل شيء: لا ملاءات، ولا غلاف على الفراش. لست أدري إن كانت الشرطة قد أخذت الملاءات معها. يعني هذا أنه سيكون لديَّ نقص في الملاءات! عليَّ أن أشرح سبب النقص لتشيريل. الوسائد ملقاة كيفما اتفق، سحّابات أغلفتها مفتوحة. بقع واضحة كأنها أعين تنظر إليّ. لا أرى أربع وسائد... ثلاث فقط!

وعلى غير توقّع، ينتابني دوار. أستند إلى إطار الباب حتى لا أقع على الأرض. الخزنة مفتوحة، لكنها الآن خالية من كل شيء. الدروج خالية من ملابس جيزيل والسيد بلاك.
أُفرغت كلها. مسحوق كشف البصمات منتشر أيضًا على الطاولتين الصغيرتين إلى جانبي السرير، وآثار الأصابع البشعة التي أظهرها المسحوق لا تزال ظاهرة. لعل من بينها آثار أصابعي!

أقراص الدواء اختفت. حتى الأقراص المسحوقة على الأرض ما عادت موجودة. يبدو لي أن أرض الشقة وسجادها هي الأشياء الوحيدة التي نُظّفت تنظيفًا جيدًا. لعل الشرطة استخدمت مكنسة كهربائية حتى تلتقط البقايا كلها - زغابات وجزئيات من حياة الزوجين الخاصة صارت كلها مجتمعة في كنف فيلتر واحد.

أحس برعشة باردة تتخلّل جسدي وكأن السيد بلاك نفسه، بخاره الشبحي، يدفعني جانبًا. ابتعدي عن طريقي! أتذكّر الكدمات على ذراعي جيزيل. أتذكّر كلماتها: أوه، هذه ليست مشكلة، فأنا أحبه، كما تعلمين.

كان ذلك الرجل الضخم يخيفني كلما صادفته في الشقة، أو في الممرات... كأنني حشرة تستحق أن يدوسها. أراه بعين عقلي مخلوقًا شريرًا لامع العينين يدخن سيجارًا شريرًا كريه الرائحة.

أحسّ بنبضة غضب تصفع صدغيّ. أين يفترض أن تذهب جيزيل الآن؟ ما الذي يفترض أن تفعله؟ أفكر في جيزيل بقدر ما أفكر في نفسي. لقد أطلق السيد روسو تهديدات جديدة هذا الصباح. ادفعي

الإيجار وإلّا فسوف أخليك من الشقة! بيتي، وهذه الوظيفة، هما كل ما لديّ. أحس وخزة الدمع، وخزةً ليس لديَّ الآن وقت لها.

تأتي الأمور الحسنة لمن هم مجدّون في عملهم. ضمير نظيف، حياة نظيفة.

دائمًا، تهبّ جدتي إلى نجدتي.

أعمل بنصيحتها. أعود مسرعة إلى عربتي، وأضع قفازين مطاطيين. أرش محلولًا معقمًا على الطاولات والنوافذ وقطع الأثاث. أزيل آثار الأصابع كلها. أزيل كل ما خلّفه الدخلاء الذين كانوا في هذه الشقة. بعد ذلك، أنظف الجدران تنظيفًا جيدًا، وأعالج البقع والأوساخ التي أعرف تمام المعرفة أنها ما كانت هنا قبل وصول محققي الشرطة المزعجين. أكسو الفراش ملاءة ناصعة البياض. أرتب السرير، وأمدّ عليه ملاءات نظيفة مكوية. ألمِّع مقابض الأبواب. ألمّع طاولة القهوة. ألمع كؤوس الشرب بمناديل ورقية حتى أضمن نظافتها. أعمل وفق تسلسل منهجي ويتحرك جسدي من تلقاء نفسه. لقد فعلت هذا مرات كثيرة. في أيام كثيرة. غرف كثيرة ونزلاء كثر يختلطون ويتداخلون جميعًا في غمامة غير واضحة المعالم. ترتعش يداي عندما أمسح المرآة المذهّبة قبالة السرير. علي أن أركّز على الحاضر، لا على الماضي. أمسح وأمسح إلى أن تشعّ صورتي في المرآة أمامي. إلى أن تشع واضحة نقية لا شائبة فيها.

الآن، ما عاد في الشقة غير مكان واحد لم أنظفه: الزاوية المعتمة إلى جانب خزانة ملابس جيزيل. آتي بالمكنسة الكهربائية وأنظف السجادة التي هناك. أفحص الجدران فحصًا دقيقًا. أمسح الجانبين بمادة مطهرة. تم الأمر. أزلت كل شيء.

أتفحّص عملي كله فأرى الشقة قد صارت في أحسن حال. هواء المكان عابق الآن بشذى الليمون اللطيف.

حان الوقت.

حتى الآن، تجنّبت دخول الحمام. لكني ما عدت قادرة على التأجيل. هو أيضًا في حالة فوضى شاملة. المناشف غير موجودة. المناديل غير موجودة. حتى لفافات ورق المرحاض غير موجودة -

اختفت كلها. مسحوق كشف البصمات متناثر على المرآة وعلى المغسلة أيضًا. أرشّ سائل التنظيف، وأمسح، وألمّع. في هذا الحيّز الصغير الذي لا بد من تعقيمه تعقيمًا تامًا -بسبب وظيفته- تفوح رائحة المحلول المعقّم الحارقة، تملأ الهواء، تجعلني أحس وخزًا في أنفي. أضغط مفتاح المروحة فأسمع ذلك الصوت نفسه، صوت قرقعة. على الفور، أوقف المروحة.

حان الوقت.

أنزع القفاز المطاطي وألقي به في سلة القمامة. في عربتي سلم صغير أتناوله وأنصبه تحت المروحة. أصعد عليه. غطاء المروحة قابل للنزع بكل سهولة. أضغط الملقطين على جانبيه حتى أحرره. أضع الغطاء إلى جوار المغسلة، أضعه بكل حذر. أعود إلى السلم. أصعد. أمدّ يدي داخل فتحة المروحة المظلمة، أمدها في المجهول إلى أن تمس أصابعي جسمًا معدنيًا. أسحب الجسم. أحمله بين يدي. إنه أصغر مما توقّعت: رشيق، أسود اللون، لكن ثقله مفاجئ، محسوس بين يدي. مقبضه خشن مثل ورق الرمل، أو مثل لسان قطة. ماسورته ناعمة، لامعة، نظيفة، مصقولة، خالية من أية لطخة.

مسدس جيزيل!

في حياتي كلّها، لم أحمل شيئًا مثل هذا. أحسّه حيًا، لكني أعرف أنه ليس كذلك.

من يستطيع لومها على امتلاك هذا المسدس؟ لو كنت مكانها، ولو كان هناك من يعاملني مثلما كان يعاملها السيد بلاك وغيره، نعم... نعم... لا عجب في هذا! أستطيع الإحساس بذلك الشعور، الإحساس بالقوة بين يدَي. إحساس يجعلني، على الفور، أكثر أمانًا، يجعلني منيعة. لكنها لم تستخدمه؛ لم تستخدم هذا السلاح، لم تستخدمه ضد زوجها. أين ستذهب الآن؟ ماذا ستفعل الآن؟ وأنا، ماذا سأفعل الآن؟ أحس بثقل المكان من حولي، وأحس بثقل كل شيء يحطّ فوق كتفيَّ. أضع المسدس على المغسلة، ثم أرتقي السلم من جديد. أعيد تثبيت غطاء المروحة. أنزل، وأتناول المسدس مرة أخرى. أحمله إلى غرفة المعيشة. يستقر بين كفّي استقرارًا لطيفًا. ماذا أفعل به؟ كيف أوصله إلى جيزيل؟

ثم يتضح لي الأمر. يقولون إن التلفزيون مضيعة للوقت، لكني مصرّة على أن مسلسل كولومبو علمني دروسًا كثيرة.

خبئيه في مكان ظاهر!

بكل حرص، أضع المسدس على الطاولة الزجاجية، ثم أعود إلى عربتي. أتناول حقيبة خوان مانويل الرياضية. أعود إلى غرفة النوم وأضع الحقيبة تحت السرير. أعود إلى غرفة الجلوس.

أنظر إلى مكنستي الكهربائية على الأرض، إلى جانبي. راسخة، جاهزة للعمل. أنزع الكيس منها، ثم أخرج الفيلتر المتسخ. أتناول من عربتي فيلترًا جديدًا وأضع المسدس فيه. أثبت الفيلتر الجديد في مكانه داخل المكنسة. أغلق الفتحة. بعيدٌ عن العين، بعيدٌ عن الذهن. أحرّك المكنسة جيئة وذهابًا فلا يصدر عنها أي صوت... إنها صديقتي الصامتة، كاتمة السر.

أرفع الفيلتر المتّسخ وأهم برميه في سلة القمامة فتسقط منه كتلة أوساخ، تسقط على السجادة، تصطدم بها مصدرة صوتًا مكتومًا. أنظر إلى السجادة عند قدمي. صارت الآن متسخة... غبار وقاذورات. وسط كومة الأوساخ التي تشبه عش عصفور، أرى شيئًا لامعًا. أجثو وتلتقط أصابعي ذلك الشيء. أمسح عنه الغبار. ذهب ثقيل مرصع بماسات وجواهر أخرى. إنه خاتم. خاتم رجل. خاتم زواج السيد بلاك. إنه هنا، في راحة يدي.

الرب الطيب يعطي، والرب الطيب يأخذ.

أطبق أصابعي على الخاتم... كأن دعواتي قد لقيت استجابة. أقول في سرّي: «أشكرك يا جدتي».

أقول هذا لأنني عرفت في تلك اللحظة ما سوف أفعله.

الفصل الحادي عشر

المسدس مستقر في أحشاء مكنستي الكهربائية. والخاتم ملفوف بمنديل ورقي خبأته في الناحية اليسرى من حمالة الثديين، عند قلبي تمامًا.

أنظف غرفًا أخرى. أنظف أقصى ما أستطيع تنظيفه منها، بأقصى سرعة أستطيعها. أستخدم مكنستي اليدوية بدلًا من المكنسة الكهربائية. وفي لحظة من اللحظات، أصادف سونيثا في الممر. تجفل عندما تراني. هذا ليس من عادتها. تقول لي: «أوه، آسفة جدًا».

أسألها: «سونيثا، هل لديك أية مشكلة؟ هل ينقصك شيء من مواد التنظيف؟».

تمسك سونيثا ذراعي. «أنت التي وجدته. وجدته ميتًا. أنت فتاة لطيفة جدًا. كوني حذرة. أحيانًا، يمكن أن يبدو مكان من الأماكن نظيفًا في مثل نظافة ثلج هطل قبل قليل، لكنه لا يكون نظيفًا. هذه خدعة، لا أكثر. هل تفهمين؟».

على الفور، أفكر في تشيريل التي رأيتها تنظّف المغاسل بالخرق التي تستخدمها لتنظيف المراحيض.

«طبعًا يا سونيثا. أفهم هذا. علينا دائمًا أن نحرص على النظافة».

تهمس لي: «لا. عليك أن تكوني أكثر حذرًا. العشب أخضر، لكن الأفاعي مختبئة فيه».

مع قولها هذا، تقذف بمنشفة بيضاء في الهواء، ثم تسقطها في كيس المناشف المتّسخة. تنظر إليَّ فأرى في وجهها تعبيرًا لا يوافق شيئًا أفهمه. ماذا دهاها؟ قبل أن أفلح في سؤالها، تدفع عربتها أمامها وتدخل الغرفة المجاورة.

أحاول وضع ذلك اللقاء الغريب خلف ظهري. أركز على إنهاء عملي في أسرع وقت ممكن حتى أستطيع الخروج قبل موعد استراحة الغداء ببضع دقائق. سوف أكون في حاجة إلى كل دقيقة من

وقت الاستراحة.

حان الوقت.

أدفع عربتي إلى المصعد. وأقف منتظرة وصوله. ينفتح باب المصعد ثلاث مرات، وينظر من فيه من النزلاء في اتجاهي من غير أن يتحركوا أدنى حركة حتى يسمحوا لي بالدخول... مع أن في المصعد متسع كافٍ تمامًا. الخادمة آخر من يستخدم المصعد.

في نهاية المطاف، ينفتح باب المصعد أمامي فأجده خاليًا. يظل لي وحدي إلى أن يصل القبو. أخرج مسرعة، جارّة عربتي، فأكاد أصطدم بتشيريل عندما انعطف في الممر قاصدة خزانتي.

تسألني تشيريل: «أين أنت ذاهبة بهذه السرعة كلها؟ هل يعقل أن تكوني قد أنهيت تنظيف تلك الغرف بهذه السرعة؟».

أجيبها: «أنا سريعة في عملي. آسفة لا أستطيع الانتظار. لديّ أمر أقوم به خلال استراحة الغداء».

«أمرٌ تقومين به؟ لكنك عادة ما تواصلين العمل خلال الاستراحة. كيف تستطيعين المحافظة على ‘درجة الإنتاجية الاستثنائية A+’ إن كنت خارجة وقت الاستراحة؟».

أنا فخورة جدًا بدرجة الإنتاجية الاستثنائية A+. ففي كل سنة أحصل على شهادة التميّز من السيد سنو نفسه. أبدًا لا تنجز تشيريل حصتها اليومية من العمل، لكن تميّزي يعوِّض تقصيرها، يسد الثغرة.

لكني أنظر إلى تشيريل فألتقط تعبيرًا يكون موجودًا دائمًا، لكنه اليوم شديد الوضوح - انحناءة شفتها العليا، وذلك الازدراء... وشيء آخر. أسمع في رأسي صوت جدّتي عندما علمتني كيف أتعامل مع من يتنمّرون عليَّ في المدرسة.

لا تسمحي لهم بأن يضغطوا على مفاتيحك!

في ذلك الوقت، لم أفهم أن كلمة «مفاتيح» غير مستخدمة هنا بمعناها الحرفي. لكني أفهم الأمر الآن. تتجمع أجزاؤه في عقلي مثلما تتجمع أجزاء أحجية.

أقول لها: «تشيريل، أنا أدرك حقّي القانوني في استراحة الغداء، وسوف أستخدم اليوم هذا الحق. سأستخدمه في أي يوم آخر أختاره. هل هذا مقبول، أم إن عليَّ أن أكلم السيد سنو؟».

تجيبني: «لا، لا. لا مشكلة أبدًا. لم أقصد أبدًا أن أشير إلى أن هناك شيئًا... غير قانوني. لكن عليكِ أن تكوني هنا عند الساعة الواحدة».

أقول: «سأكون هنا».

بعد هذا، أتركها وأنطلق مسرعة. أوقف عربتي أمام خزانتي. أتناول من الخزانة محفظتي، ثم أجري عائدة إلى المصعد. أخرج من باب الفندق المزدحم.

أسمع السيد برستون مناديًا من خلفي: «مولي، أين أنت ذاهبة؟».

«سأعود في غضون ساعة واحدة».

أعبر الشارع، وأسير أمام المقهى المقابل للفندق. أنعطف وأدخل شارعًا جانبيًا. حركة السيارات في هذا الشارع قليلة، والسائرون على الرصيف قلائل. وجهتي على مسيرة سبع عشرة دقيقة. أحس بالحرارة تتصاعد في صدري، أحس بساقيّ تحترقان وأنا أدفع بهما قدمًا. لكن، لا مشكلة. إن كانت الإرادة موجودة، فالطريق موجودة... كانت جدتي تحب قول هذه الجملة.

أمرّ بمكتب في الطابق الأول فأرى العاملين جالسين في صفوف يصغون إلى رجل في بدلة رسمية يحدّثهم، وتتحرّك يداه حركات عنيفة في الهواء أمام منبره. مخططات ورسوم بيانية ظاهرة على شاشة من خلفه. أبتسم لنفسي. أعرف تمامًا كيف يكون إحساس الموظف المعتز بنفسه عندما يواتيه الحظ ويحضر جلسة تطوير مهني. أترقّب بفارغ الصبر حلول موعد جلسة التطوير المهني التالية التي يقدّمها السيد سنو بعد شهر من الآن.

لا أستطيع أبدًا فهم ما يحمل بعض العاملين على التذمّر من تلك الجلسات كأنها عبء ثقيل مفروض عليهم... كأن تطوير الذات وفرصة تلقي تعليم مجاني في ما يخص خدمة العملاء ونظافة الفندق ليست مزية إضافية يتمتع بها العاملون في فندق ريجنسي غراند!
أجد في هذه الفرص متعة كبرى لأنني لم أستطع تحقيق حلمي في متابعة الدراسة في ميدان الضيافة وإدارة الفنادق. هذه فكرة رديئة تأتي في غير وقتها، فكرة غير مرحَّب بها الآن. أرى وجه ويلبور يظهر في ذهني ظهورًا خاطفًا، فتنتابني رغبة مفاجئة في أن أسدّد إلى ذلك الوجه لكمة. لكني لا أستطيع أن ألكم فكرة. حتى إذا استطعت، فلن تغيّر اللكمة في الواقع شيئًا.

تقرقع معدتي أثناء سيري. ليس لديّ طعام لغدائي لأنني لم أحضّر في الصباح شيئًا من أجل وجبة الغداء. ما في خزانة المطبخ عندي قليل جدًا. ثم إنني لا أكاد أطيق تناول أي شيء على الإفطار. توقّعت أن أجد معجنات لم يمسّها أحد، أو ربما علبة مربى صغيرة غير مفتوحة في واحدة من صواني الإفطار المتروكة أمام أبواب الغرف في الفندق... ربما أجد قطعة فاكهة أستطيع غسلها وأخذها من غير أن يراني أحد. لكن نزلاء اليوم لم يتركوا لي إلّا أقل القليل، ويا للأسف!

بلغ مجموع البقشيش الذي حصلت عليه اليوم عشرين دولارًا وخمسة وأربعين سنتًا. بكل تأكيد، هذا مبلغ له قيمته، لكنه غير كافٍ أبدًا لتهدئة غضب مالك البيت أو لملء البراد بأي شيء. ليس كافيًا إلّا لشراء كمية محدودة جدًا من المأكولات الأساسية. لا أهمية لهذا!

يأتي العسل من خلية النحل. تعكف النحلات على إنتاج العسل.

إنه صوت السيد سنو في رأسي هذه المرة. في آخر يوم من أيام التطوير المهني، تطرّق حديثه إلى موضوع فائق الأهمية: كيف تؤدي عقلية خلية النحل إلى زيادة الإنتاجية. كنت أسجل الملاحظات في دفتر جديد لا يزال خاليًا. وقد تأملت مطولًا في التفاصيل. في محاضرته التي استمرت ساعة كاملة، حدّثنا السيد سنو عن عمل الفريق مستخدمًا في ذلك محاكاة شديدة الجاذبية.

قال وهو ينظر إلى العاملين من فوق نظارته التي تشبه عينَيْ بومة، وكنت أصغي إلى كلماته بكل انتباه، «اعتبروا الفندق خلية نحل. واعتبروا أنفسكم نحلات في تلك الخلية».

كتبت في دفتري: اعتبروا أنفسكم نحلات في الخليّة.

تابع السيد سنو كلامه: «نحن فريق، وحدة متكاملة، أسرة، خليّة نحل. عندما نتبنى عقلية خليّة النحل يعني هذا أننا نعمل جميعًا من أجل هدف أكبر، من أجل مصلحة هذا الفندق. وعلى غرار النحلات، ندرك أهمية الفندق، أهمية خليّتنا. علينا أن نرعى الخلية، أن ننظّفها، أن نهتم بها، لأننا نعرف أن العسل لن يأتي إذا لم نفعل ذلك».

سجلت في دفتري: الفندق = خليّة النحل. خليّة النحل = العسل.

عند هذه النقطة، اتخذت محاضرة السيد سنو منعطفًا مفاجئًا تمامًا. قبضت يداه على حافتَيّ المنصة التي أمامه وقال: «فلنفكر في تراتبية الأدوار في خلية النحل وفي أهمية كل نحلة من النحلات بصرف النظر عن مرتبتها، فهي كلها تعمل بأقصى طاقتها. في الخلية نحلات مراقبات (هنا، أصلَح السيد سنو وضع ربطة عنقه)، وفيها نحلات عاملات. فيها نحلات تقدّم إلى رفيقاتها خدمة مباشرة، وفيها نحلات تقدّم خدمات غير مباشرة. لكن، ما من نحلة أكثر أهمية من نحلة أخرى. هل تفهمون هذا؟».

تكوّرت قبضتا السيد سنو مدللتين على أهمية تلك النقطة الأخيرة. كنت أكتب في دفتري بسرعة شديدة وأسجل كل كلمة بأفضل ما أستطيع عندما أشار السيد سنو بيده، أشار إليّ وسط الجميع فكان هذا مفاجئًا جدًا.

«فلنأخذ واحدة من خادمات الغرف مثالًا على هذا. من الممكن أن تكون أية خادمة، في أي مكان، في فندقنا، هي النموذج الأمثل للنحلة العاملة. إنها تتعب وتكدح حتى تجهّز كل قرص من أقراص الشمع بحيث يصير جاهزًا لاستقبال العسل. هذا عمل يتطلّب الكثير، من الناحية الجسدية. وهو مكوّن من مهمات متكررة مرهقة، تخدّر العقل. مع هذا، تعتزّ خادمة الغرف بعملها. تؤدّي عملها جيدًا في كل يوم يمرّ. وإلى حدّ كبير، يظل عملها غير مرئي. لكن، أيجعلها هذا أقلّ قيمة من المراقبات، أو من ملكة النحل؟ هل يجعلها هذا أقل أهمية بالنسبة إلى خلية النحل؟ لا! فالحقيقة هي أن الخلية لا يمكن أن تكون موجودة من غير هذه النحلة العاملة. نحن لا نستطيع العمل من غيرها».

ضرب السيد سنو المنبر بيده مشدّدًا على فكرته. نظرت من حولي فرأيت عيونًا كثيرة مسلطة عليّ. سنشاين وسونيثا الجالستان في الصف الذي أمامي استدارتا وابتسمتا لي وأشارتا بأيديهما. وأما تشيريل التي كانت تفصلني عنها بضعة مقاعد، فكانت تستند بظهرها إلى مسند الكرسي، مضيّقة عينيها، طاوية ذراعيها على صدرها. من خلفي، كان رودني وعدد من نادلات «سوشال». عندما التفتّ ونظرت من فوق كتفي، رأيتهم يتهامسون في ما بينهم ويضحكون لسبب لم أفهمه.

وفي كل مكان من حولي، رأيت عاملين في الفندق أعرفهم (لكن أكثرهم لم يكلمني أبدًا من قبل)، رأيتهم ينظرون في اتجاهي.

واصل السيد سنو كلامه: «لدينا الكثير مما نستطيع تحسينه في هذه المؤسسة. وقد صرت مدركًا، أكثر فأكثر، أن خليّتنا لا تعمل دائمًا بمثابة وحدة منسجمة. نحن نصنع العسل حتى يتمتع به نزلاؤنا، لكن ما يحدث أحيانًا هو أن هناك من يسبق إلى أخذ حلاوة العسل، فلا توزّع على الجميع توزيعًا منصفًا. يُستغَلّ قسم من خليتنا استغلالًا شائنًا من أجل مصالح شخصية بدلًا من أن يعمّ الخير على الجميع... ».

توقّفت عن تسجيل الملاحظات في تلك اللحظة لأن تشيريل بدأت تسعل بطريقة شتّتت انتباهي تمامًا. التفت إلى الخلف مرة أخرى فرأيت رودني غاطسًا في مقعده.

تواصل كلام السيد سنو: «أنا هنا حتى أذكركم بأنكم جميعًا أفضل من ذلك، وبأننا قادرون معًا على العمل من أجل إنجاز ما هو أكثر. إن خليَّتنا قادرة على أن تصير أعظم خليّة، أصلحُ خليّة، أنظف خليّة، أفخم خليّة بين خلايا النحل كلها في كل مكان. لكن هذا في حاجة إلى تعاون وانسجام في ما بيننا. يتطلّب هذا التزامًا بعقلية خليّة النحل. وأنا أطلب منكم أن تساعدوا هذه الخلية من أجل هذه الخلية. أريدكم أن تفكّروا في المستوى المهني الرفيع، في المكانة اللامعة. أريدكم أن تنظّفوا هذا المكان كله».

عند هذه النقطة، قفزت من مقعدي، قفزت واقفة على قدميّ. توقّعت أن يكون العاملون جميعًا قد أعجبوا بالخاتمة الرائعة لكلمة السيد سنو، وأن يصفّقوا له كلهم. لكني كنت الوحيدة التي نهضت واقفة. وجدت نفسي واقفة وحدي في غرفة حلّ عليها صمت مطبق.

أحسست بأنني تحوّلت إلى حجر. أدركت أن عليَّ أن أجلس. لكنني لم أستطع. لقد تجمدت. كنت مصعوقة.

بقيت كذلك زمنًا طويلًا جدًا. ظل السيد سنو خلف منبره دقيقة أو دقيقتين، ثم عدّل وضع نظارته على وجهه وجمع أوراقه وسار عائدًا إلى مكتبه. وما إن صار خارج الغرفة حتى بدأ زملائي يتحركون في مقاعدهم ويتكلمون في ما بينهم. كنت أسمع الهمسات من حولي. هل ظنّوا حقًا أنني لا أستطيع سماعها؟

مولي الممسوخة.

رومبا الآلية.

مجنونة الأنظمة.

في آخر المطاف، نهض الحمّالون وطيور البطريق في مكتب الاستقبال والنادلات والسائقون، نهضوا جميعًا وراحوا يغادرون الغرفة في زُمر صغيرة. بقيت حيث كنت إلى أن صرت في تلك الغرفة وحدي.

سمعت صوتًا من خلفي: «مولي!» أحسست لمسة يد مألوفة على ذراعي «مولي، هل أنت بخير؟».

استدرت فرأيت السيد برستون واقفًا أمامي. نظرت في وجهه باحثة عن إشارة: أصديق هو أم خصم؟ يحدث هذا أحيانًا. أتجمّد في مكاني لحظة لأن كل ما تعلمته قد ضاع، قد مُحي.

قال لي: «لم تكوني مقصودة بذلك».

أجبته: «عفوًا، ماذا قلت؟».

«ما كان السيد سنو يقوله من أن هذا الفندق قد لا يكون نظيفًا تمامًا، ومن أن هناك من العاملين من يسرق حلاوة العسل... لم تكوني مقصودة بهذا الكلام، يا مولي. تحدُث في هذا الفندق أشياء لا أستطيع، أنا نفسي، أن أفهمها فهمًا تامًا. لكن ليس لك أن تتركي هذا الأمر يثير قلقك. يعرف الجميع أنك تبذلين أقصى جهدك كل يوم».

«لكنهم لا يحترمونني. لا أظن أن زملائي يحبونني. لا يحبونني أبدًا».

كانت قبّعته بين يديه. تنهد وأطرق برأسه ناظرًا إليها. قال لي: «أنا أحترمك. وأنت تعجبينني كثيرًا جدًا».

شعّت عيناه دفئًا عندما نظر إليَّ. لست أدري كيف فتّتت نظرته أقفالي. كيف أذابت تجمّدي. صارت ساقاي قادرتين على الحركة من جديد.

قلت له: «أشكرك كثيرًا، يا سيد برستون. أظن أن عليَّ الآن أن أعود إلى عملي. خليّة النحل لا تستريح أبدًا».

تركته مبتعدة عنه وعدت إلى عملي من غير تأخير.

كان ذلك منذ شهور. أنا الآن واقفة أمام واجهة متجر لا يبعد عن الفندق إلّا بضع كتل سكنية. ساقاي متجمدتان من جديد، تمامًا مثلما تجمدتا في ذلك اليوم.

دخلت المتجر. عرضت ما معي على الرجل الجالس خلف الطاولة فقدّم لي سعرًا. قبلت السعر. في حمالة الثديين، بدلًا مما كان هناك قبل قليل، رزمة نقود ثخينة ملفوفة بمنديل ورقيّ صارت مستقرة عند قلبي.

أتفقّد الوقت في هاتفي. استغرقت هذه العملية كلها، بما فيها السير إلى المتجر، خمسًا وعشرين دقيقة. هذا أقل من تقديري الأصلي بخمس دقائق؛ وهو يعني أنني أستطيع العودة إلى الفندق قبل الساعة الواحدة بنحو خمس دقائق، أي قبل أن يبدأ النصف الثاني من نوبة عملي لهذا اليوم مثلما ذكّرتني تشيريل بكل لطف.

تتقلّص معدتي وكأن التنين الساكن فيها قد نشر ذيله وبثّ ناره الحارقة في كل مكان. لعله ما كان عليَّ أن أفعل هذا! لعله غير صائب!

أرى صورتي منعكسة على الزجاج. أتذكّر وجه السيد بلاك المتجهّم، وأرى الكدمات الداكنة التي سببها، الألم الذي سببه.

يتكوّر الوحش الذي في معدتي، يتكوَّر على نفسه ويرقد هادئًا.

ما حصل قد حصل.

تحلّ عليَّ خفّة وسكينة. أستنشق الهواء ملء رئتيّ. يعجبني مظهر صورتي المنعكسة على الزجاج - خادمة غرف مرتدية قميصًا أبيض مكويًا ياقته منشّاة. أشد قامتي. أقف منتصبة بطريقة تجعل جدتي معتزة بي.

من خلف صورتي المنعكسة على الزجاج، أرى السلع المعروضة بسعر مخفّض في واجهة المتجر - ساكسوفون برّاق في علبة من مخمل أحمر، وبضع قطع من العدد الآلية القوية، أسلاكها الكهربائية مربوطة ربطًا أنيقًا، مشدودة بشرائط من المطاط. بضعة هواتف خليوية عتيقة، تعبة. وبضع قطع مجوهرات معروضة في علبة. إن في وسط هذه العلبة إضافة جديدة، خاتمًا، خاتم رجل، خاتم زواج مرصع بالألماس وبمجوهرات أخرى. خاتم لامع، شيء ناطق ببحبوحة قلّ وجودها - كنز ثمين. أعرف أن صاحب المتجر شعر بالأسف عليَّ عندما ناولني المبلغ الذي استقر عليه اتفاقنا. شفتاه المشدودتان. ابتسامته التي ما كانت ابتسامة. لقد بدأت أفهم تنوّع الابتسامات. بدأت أفهم وفرة معانيها، كثرتها. أحفظ كل ابتسامة في سجل حسن التصنيف على رفّ في عقلي.

قال لي ذلك الرجل: «يؤسفني أن الأمور لم تجر مثلما كنت تأملين. أعني، مع رجلك».

أجيبه: «مع رجلي! على العكس تمامًا. لأول مرة في هذه الحياة الطويلة، تتخذ أموري مسارًا حسنًا. تتخذ مسارًا حسنًا جدًا، في واقع الأمر».

الفصل الثاني عشر

أسير مسرعة طيلة المسافة حتى الفندق. أتفقد الساعة مرة بعد مرة. إنني أحقّق تقدمًا طيبًا. الساعة الآن الواحدة إلّا خمس دقائق. وقد كدت أبلغ الفندق. كان تقديري الوقت اللازم لهذه المهمة دقيقًا إلى حدّ معقول. جعلني السير السريع أشعر بالحر قليلًا. صارت رزمة النقود عند قلبي رطبة بعض الشيء. لكن، لا أهمية لهذا.

يبدو لي أن زحام الفندق قد تراجع قليلًا مقارنة بما كان عليه هذا الصباح. عدد النزلاء الذين أراهم صار أقل. السيد برستون وحيد عند منصة البواب. يراني أقترب فيخرج من خلف المنصة. ذراعاه متدليتان، متيبستان تيبسًا غريبًا. ألوّح له بيدي وأجري صاعدة درجات المدخل، لكن السيد برستون يناديني قبل أن أبلغ الدرجة العليا.

يقول لي: «مولي. اذهبي إلى البيت». صوته هامس، متوتر.

أتوقّف على الدرجة الثالثة. تعبير وجهه غير طبيعي كأنه في حاجة ماسّة إلى استخدام المرحاض.

«يا سيد برستون، لا أستطيع الذهاب إلى بيتي الآن. لم أنه بعد إلّا نصف نوبة عملي».

يقول لي من جديد: «مولي، استخدمي الباب الخلفي، من فضلك».

«هل أنت على ما يرام، يا سيد برستون؟ هل أنت في حاجة إلى عون؟».

في تلك اللحظة، أرى الأمر واضحًا - أرى أن ما من نزلاء في مدخل الفندق، وأن السيد برستون واقف عند منصته وقفةً رسمية جدًا. أسمع أوامره الغريبة، المهموسة. عبر زجاج الباب الدوار، أستطيع رؤية السيد سنو، وإلى جانبه شخص غير واضح المعالم. إنها المحقّقة ستارك.

يقول السيد برستون: «يا فتاتي العزيزة، لا تدخلي».

أصعد الدرجات الباقية وأقول: «لا مشكلة أبدًا. لن تقتلني بضعة أسئلة إضافية».

أعبر الباب داخلة بهو الفندق. لا أتقدّم أكثر من خطوة واحدة في البهو حتى أجد السيد سنو والمحقّقة ستارك يعترضان طريقي. رأيت في وقفة المحققة ستارك شيئًا لم يعجبني - ذراعاها مثنيتان، ويداها ممتدتان صوبي كأنني مجرمة وضيعة تريد الإمساك بها قبل أن تفرّ. رأيت تشيريل أيضًا، رأيتها من طرف عيني واقفة على مسافة تعادل طول عدّة عربات. هي أيضًا، رأيت فيها شيئًا مختلفًا. هذه أول مرة أراها مبتسمة ابتسامة حقيقية. إثارة وترقب ظاهران على وجهها.

قلت للسيد سنو والمحقّقة ستارك، «أعذراني فليس لدي وقت أضيعه. لا أستطيع أن أتأخر. يبدأ الجزء الثاني من نوبة عملي بعد نحو ثلاث دقائق».

تقول المحققة: «أخشى أنه لن يبدأ».

أنظر إلى السيد سنو، لكنه لا يكاد ينظر إليّ. نظّارته منحرفة جانبًا. قطرات عرق ظاهرة على صدغيه. يقول لي: «مولي، سوف تأخذك المحققة إلى مركز الشرطة لطرح مزيد من الأسئلة عليك».

«ألا أستطيع الإجابة عن الأسئلة هنا، ثم العودة إلى عملي؟ لديّ اليوم عمل كثير».

تقول المحقّقة ستارك: «لن يكون هذا ممكنًا. هناك طريقتان اثنتان لفعل أي شيء: طريقة سهلة وطريقة صعبة. الطريقة السهلة هي الأفضل».

ملاحظة ذكية، لكنها خاطئة تمامًا. في ميدان عملي، الطريقة السهلة هي الطريقة الأكثر كسلًا... ليست أبدًا أفضل الطرق للقيام بالعمل. لكن، بما أننا في الفندق، وبما أن هذا يجعل المحقّقة ستارك بمثابة واحد من النزلاء هنا، فسوف أكون مهذبة وأمسك لساني.

تجول عيناي في الردهة مرة أخرى، فألاحظ أن أشخاصًا جددًا قد تجمعوا فيها. هم لا يتحرّكون هنا وهناك، لا يجيئون ويذهبون كما يرى المرء في الأحوال العادية. إنهم واقفون في جماعات صغيرة - عند مكتب الاستقبال، وعند مقاعد الانتظار، وعلى الأرض الرخامية أسفل السلم العريض.

ساكنون كأن على رؤوسهم الطير. صامتون أيضًا. ينظرون في اتجاهي، كلّهم. عيونهم الباردة مصوّبة عليّ.

أقول: «لا بأس، أيتها المحقّقة ستارك. أقبل الطريقة السهلة». أنظر إلى السيد سنو، ثم أضيف: «لكني أقبلها هذه المرة فقط».

تشير المحقّقة ستارك إليّ بأن أسير أمامها وأخرج من الباب الدوار. أفعل ذلك فتسير خلفي مباشرة، تسير على مسافة قريبة جدًا مني. وعند مروري، ألتفت فأرى العيون كلّها ترقب خروجي.

السيد برستون واقف أمام الباب، في أعلى درجات السلم. يمسك بمرفقي ويقول لي: «تعالي. دعيني أساعدك، يا مولي».

أكاد أقول له إنني في أحسن حال، لكني أنظر إلى درجات السلم أمامي فأرى السجادة الحمراء متموّجة... أراها متموّجة على نحو يسبب لي دوارًا. أتمسك بذراع السيد برستون. أحسّها دافئة. أحسّها تطمئنني.

صرنا في أسفل السلم.

تقول المحققة ستارك: «فلنذهب. حان الوقت».

يقول السيد برستون: «مولي، انتبهي إلى نفسك».

أجيبه: «هذا ما أفعله دائمًا». لكني لا أصدق كلماتي.

الفصل الثالث عشر

صمتٌ مطبق في السيارة. تُجلسني المحققة هذه المرة في مقعد سيارة الشرطة الخلفي بدلًا من مقعدها الأمامي. لا يعجبني الجلوس في المقعد الخلفي. المقعد المغلف بالفينيل يزقزق من تحتي كلما أتيت بأدنى حركة. حاجز زجاجي واقٍ من الرصاص يفصلني عن المحققة ستارك. حاجز ملوث بآثار أصابع قذرة وبقع دم بنية داكنة.

تخيّلي أنك جالسة في سيارة فاخرة، في مقعدها الخلفي. تخيّلي أن السيارة ذاهبة بك إلى حفلة أوبرا.

تذكّرني جدتي بأن الاحتجاز حالة ذهنية، وبأن هناك دائمًا سبيلًا إلى الخروج منها. أضم يدَيّ في حجري وأتنفّس بعمق. سوف أتابع المناظر الجميلة من نافذة السيارة. نعم، سوف أركّز انتباهي عليها.

نصل مركز الشرطة سريعًا. أحسّ بأن رحلتنا لم تستغرق إلّا بضع ثوانٍ. نصير في الداخل، فتقودني المحققة ستارك إلى الغرفة البيضاء نفسها التي استجوبتني فيها من قبل. في طريقنا إلى تلك الغرفة، أحسّ مزيدًا من الأعين مصوبة إليَّ عناصر الشرطة في ملابسهم الرسمية ينظرون إليَّ نظرات بلهاء وأنا ماضية في طريقي. بعضهم يومئ برأسه تحية. لا يومئون إليَّ، بل إلى المحقّقة ستارك. أسير مرفوعة الرأس.

تقول المحقّقة ستارك: «اجلسي».

أجلس على المقعد نفسه الذي جلست عليه من قبل، وتجلس المحقّقة ستارك قبالتي. تغلق الباب. لا تعرض عليَّ قهوة، ولا حتى كأس ماء. أمر مؤسف. يسرّني أن أشرب ماء. لكن، إذا طلبت الماء، فسوف يأتيني في كأس الستيروفوم الكريه مثلما أتى في المرة الأولى.

الكتفان إلى الخلف، الذقن مرفوعة، تنفّسي.

لم تقل المحقّقة ستارك أية كلمة حتى الآن. إنها جالسة هناك، قبالتي، تنظر إليَّ. عين الكاميرا الحمراء الوامضة في زاوية الغرفة مصوبة عليّ.

أكون أول من يكسر الصمت. أسألها: «كيف أستطيع خدمتك، أيتها المحقّقة ستارك؟».

«كيف تستطيعين خدمتي؟ لا بأس، يا مولي. يمكنك البدء بأن تقولي لي الحقيقة».

أقول: «كانت جدتي تقول إن الحقيقة أمر موضوعي، لكني لست مقتنعة تمامًا بهذه الفكرة. أرى أن الحقيقة أمر مطلق».

تجيبني المحقّقة ستارك: «إذًا، لدينا ما نحن متفقتان عليه». تميل صوبي وتضع مرفقيها على الطاولة الفاصلة بيننا، تستند بهما إلى الطاولة التي بلي سطحها لكثرة الاستناد إليها. ليتها لا تفعل هذا. لست موافقة على الاستناد إلى الطاولة بالمرفقين. لكني لا أقول شيئًا.

إنها قريبة منّي إلى حدّ يمكنني معه رؤية شذرات ذهبية في بؤبؤَي عينَيْها الزرقاوين.

أسمعها تقولي لي: «بما أننا نتكلم على الحقيقة، فسوف أطلعك على نتائج تقرير فحص السموم الذي أجريناه على السيد بلاك. لم تظهر نتائج التشريح حتى الآن، لكننا سنحصل
عليها عما قريب. وجدنا مخدرات في جسد السيد بلاك. هي المادة نفسها التي كانت على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره وكانت أقراصها متناثرة على أرض غرفة نومه».

أقول: «دواء جيزيل».

«دواء! بنزودايازيبين مع بضعة أنواع أخرى من المخدرات التي تباع في الشوارع».

كان لا بد لي من لحظة قبل أن أتمكّن من تغيير الصورة التي في ذهني، صورة جيزيل تشتري الدواء من صيدلية، إلى جيزيل وهي تستلم شيئًا محظورًا في زقاق خلفي معتم. هناك شيء غير سليم. لا أجد لهذا أي معنى.

تقول المحقّقة ستارك: «على أية حال، لم تقتله تلك الأقراص. وجدنا في جسده كمية كبيرة من المادة المخدرة، لكنها غير كافية لقتله».

أسألها: «إذًا، ما الذي تظنون أنه قتله؟».

«لا نعرف ذلك بعد. لكنني أؤكّد لك من أننا سنصل إلى حقيقة الأمر. سوف يحدّد تقرير التشريح النهائي إن كان النزيف النمري ناتجًا عن أزمة قلبية أو أن أمرًا أكثر سوءًا قد وقع».

تعود الصورة في لمح البصر. تدور الغرفة بي. أرى السيد بلاك؛ أرى جلده الرمادي المشدود والكدمات الصغيرة من حول عينيه كأنها وخزات دبوس. أرى جسده متيبّسًا، لا حياة فيه. يومها، رفعت رأسي ونظرت بعد اتصالي بمكتب الاستقبال. رأيت انعكاس صورتي في المرآة على الجدار قبالة السرير.

أحسّ بردًا مفاجئًا، أحسّ شيئًا رطبًا، كأنني أوشك على فقدان الوعي.

تشد المحقّقة ستارك على شفتيها. تنتظر قليلًا. تقول لي آخر الأمر، «إن كنت تعرفين شيئًا، فهذه هي فرصتك لأن تقفي في صفّ الخير. هل تدركين أن السيد بلاك كان شخصًا مهمًّا جدًا؟».

أقول: «لا».

تجيبني المحقّقة ستارك: «عفوًا، ماذا قلت؟».

«لست مؤمنة بأن من الناس من هم أكثر أهمية من الآخرين. نحن مهمّون جميعًا. كل منا مهمٌ بطريقته، أيتها المحقّقة. على سبيل المثال، أنا جالسة معك هنا -أنا خادمة فندق بسيطة الشأن- لكن من الواضح أن هناك شيئًا مهمًا جدًا في ما يتعلق بي. لولا هذا، لما أتيت بي اليوم إلى مركز الشرطة».

المحقّقة ستارك تصغي إليّ بكل انتباه. أراها تدقّق في كل كلمة من كلماتي.

تقولي لي: «دعيني أطرح عليك سؤالًا. هل يحدث أحيانًا أن يجعلك هذا غاضبة؟ أعني كونك خادمة في فندق تنظّفين ما يخلفه أشخاص أثرياء وتعالجين ما يسببونه من فوضى؟».

يفاجئني هذا الاتجاه في أسئلتها. ليس هذا ما توقّعت سماعه عندما أتت بي إلى هذا المكان.

أجيبها صادقة: «نعم. ينتابني الغضب أحيانًا. ينتابني خاصة عندما يكون النزلاء لا مبالين. عندما ينسون أن لأفعالهم آثارها على الآخرين. عندما يعاملونني كأنني لا قيمة لي».

لا تقول المحقّقة ستارك شيئًا. يظل مرفقاها مستندين إلى الطاولة، ويظل هذا ثقيلًا على أعصابي مع أنه ليس أكثر من خرق لقواعد الإتيكيت عندما يكون على الطاولة طعام.

أقول: «اسمحي لي الآن بأن أطرح عليك سؤالًا. ألا يضايقك هذا؟».

«ما الذي يضايقني؟».

«تنظيف ما يتركه الناس الأثرياء. معالجة ما يخلّفونه من فوضى».

ترتد المحقّقة إلى الخلف كأن رأسي صارت رأس ميدوزا، كأن مئة أفعى تفحّ في وجهها. مع ذلك، يسرني هذا لأن مرفقيها ما عادا مستندين إلى الطاولة.

«أهكذا ترين الأمر؟ أترين أن عملي محقّقة هو التنظيف بعد أن مات رجل؟».

«ما أقوله هو أننا لسنا مختلفتين كثيرًا من حيث جوهر الأمر».

«أهذا ما تظنين؟».

«أنت تريدين الانتهاء من هذه الفوضى. وأنا أريد هذا. كل منا تريد الوصول إلى خاتمة سليمة لهذا الوضع المؤسف... عودة إلى الوضع الطبيعي».

«ما أريد الوصول إليه هو الحقيقة، يا مولي. أريد معرفة حقيقة موت السيد بلاك. وفي هذه اللحظة، أريد أيضًا، معرفة حقيقتك أنت. لقد توصّلنا خلال اليومين الماضيين إلى معلومات مهمة. عندما تحدّثنا ذلك اليوم، قلت لي إنك لست على معرفة جيّدة بجيزيل بلاك. لكن ما اتضح بعد ذلك هو أن ما قلته لي كان غير صحيح».

لن أجعلها مسرورة بأن تراني أجفل لسماع كلماتها. جيزيل صديقتي. أبدًا ما كانت لدي صديقة مثلها قبل الآن. وأنا مدركة تمام الإدراك أن من الممكن جدًا، وبكل سهولة، أن أخسرها. أفكر في طريقة لحمايتها وقول الحقيقة في الوقت نفسه.

في الماضي، أسرّت إليَّ جيزيل ببعض الأشياء. لا يعني هذا أنني أعرفها معرفة وثيقة مثلما أحب أن أعرفها. كان السيد بلاك صاحب مزاج صعب، بكل تأكيد. وكان صعبًا ألّا ألاحظ الكدمات التي أصابت جيزيل. قالت لي إنه من سبّبها لها.

«هل تدركين حقيقة أننا تحدّثنا إلى عاملين آخرين في الفندق؟».

أقول لها: «نعم، هذا ما أتوقّعه. وأنا واثقة من أنكم وجدتموهم متعاونين ومفيدين في التحقيق».

«لقد قالوا لنا الكثير، لا عن جيزيل والسيد بلاك فحسب، بل عنك أيضًا».

أحسّ انقباضًا في معدتي. لا بد أن من تحدّث مع المحقّقة ستارك قد كان منصفًا في ما قاله، حتى إن لم يكن مولعًا بي كثيرًا. لو كانت المحقّقة قد سألت السيد سنو أو السيد برستون أو رودني، فمن المؤكد أنها تلقّت إفادة لامعة عن مسلكي الوظيفي وعن مصداقيتي بشكل عام.

خطرت في ذهني فكرة. تشيريل! لقد كانت مريضة، يوم أمس. لكنها، على الأرجح، لم تكن مريضة إلى حدّ يجعلها غير قادرة على المجيء إلى مركز الشرطة.

تقول لي المحققة وكأنها قرأت أفكاري: «مولي، لقد تحدّثنا مع المشرفة عليك في العمل، مع تشيريل».

أجيبها: «آمل أن حديثكم معها كان مفيدًا»؛ لكني أشك كثيرًا في هذا.

«سألنا تشيريل إن كانت هي من تنظف شقة السيد والسيدة بلاك أثناء إقامتهما في الفندق. قالت إنها كانت تشاركك، حينًا من الزمن، في تنظيف شقتهما. كانت تلك طريقتها في المحافظة على مستوى الجودة وفي متابعتها عمل الخادمات اللواتي هن تحت إشرافها».

يزداد انقباض معدتي. أقول لها: «كانت تلك طريقتها في الحصول على البقشيش الذي يتركه النزلاء لمن يقومون بالعمل الحقيقي، لا لمن يكتفون بالوقوف ومراقبتهم».

تتجاهل المحقّقة كلماتي تجاهلًا تامًا. «قالت تشيريل إنها لاحظت وجود علاقة مودّة بينك وبين جيزيل... نوع من رفقة ليس مألوفًا وجودها بين نزيلة وخادمة في الفندق... أنت خاصة لأنك ليس لك أصدقاء في حقيقة الأمر. هكذا قيل لي».

كنت أعرف أن تشيريل تراقبني، لكني ما كنت منتبهة إلى شدّة مراقبتها. أصمت لحظة ريثما أستجمع أفكاري قبل أن أجيبها. أقول لها: «كانت جيزيل ممتنّة لما أقوم به من خدمة. كان هذا أساس علاقتنا».

تسألني: «أخبريني... هل كنت تتلقّين بقشيشًا من جيزيل؟ أو مبالغ مالية كبيرة؟».

أجيبها: «كلاهما، هي والسيد بلاك، كانا يعطيانني بقشيشًا طيبًا». لن أخوض في تفاصيل أخرى، ولن أقول شيئًا عن المرات الكثيرة التي دسّت جيزيل فيها أوراقًا نقدية جديدة من فئة مئة دولار في يدي حتى تشكرني على جهدي في المحافظة على الشقة نظيفة. لن أتطرّق إلى ذكر زيارتها لي في البيت، ولا إلى ذكر هديتها المالية اللطيفة ليلة أمس. هذه أشياء تخصّني وحدي. لا شأن لأحد بها.

«هل أعطتك جيزيل أي شيء غير المال؟».

اللطف. الصداقة. المساعدة. الثقة. أقول لها: «لا شيء غير عادي».

«لا شيء أبدًا!؟».

تبحث المحقّقة ستارك في جيبها، ثم تخرج مفتاحًا صغيرًا، تفتح درجًا في الطاولة التي بيننا. تخرج من الدرج الساعة الرملية، ساعة جيزيل، الهدية الجميلة التي قدّمتها إليَّ. تضع المحققة الساعة على الطاولة.

أحسّ بموجة حرارة تعلو، تصعد إلى وجهي. «لقد فتحت لك تشيريل خزانتي في الفندق. إنها خزانتي، مكان شخصي خاص بي. هذا غير سليم. اقتحام خصوصيات الآخرين ومدّ اليد إلى أشيائهم من غير استئذانهم».

تجيبني: «هذه الخزائن ملك للفندق، يا مولي. تذكّري من فضلك أنك لست إلا واحدة من العاملين. تذكّري أنك لست مالكة الفندق. والآن، قولي لي: هل أنت مستعدة للاعتراف
بحقيقة العلاقة التي بينك وبين جيزيل؟».

العلاقة بيني وبين جيزيل أمر لا أكاد أفهمه. علاقة غريبة في مثل غرابة علاقة تنشأ بين وحيد قرن صغير وبين سلحفاة تبنّته. كيف يكون منتظرًا مني أن أستطيع شرح أمر من هذا النوع؟

أقول لها: «لست أدري ما أستطيع قوله لك».

تجيبني المحقّقة ستارك وقد أعادت الاستناد إلى الطاولة بمرفقيها: «إذًا، دعيني أقول لك شيئًا. أنت تصيرين سريعًا شخصًا يثير اهتمامنا الشديد. هل تدركين معنى ما أقوله لك؟».

أحس كأنها بدأت تنظر إليَّ نظرة متعالية، كأنها تزدريني. صادفني هذا الأمر من قبل - أشخاص يظنونني غبيّة تمامًا لمجرد أنني لا أستطيع فهم أشياء لا يجدون صعوبة في فهمها.

تضيف المحققة ستارك: «أنت تصيرين شخصًا مهمًا جدًّا، يا مولي. لا يعني أنك تصيرين كذلك على نحو حسن. لقد أثبتّ لي أنك قادرة على كتم معلومات مهمة وعلى لَيّ عنق الحقيقة بما يناسبك. سوف أسألك مرة أخرى: هل أنت على صلة بجيزيل بلاك؟».

أفكر في الأمر مرّة أخرى فأجد نفسي غير مضطرّة إلى تقديم إجابة صادقة مئة بالمئة. أقول لها: «في الوقت الراهن، أنا لست على صلة بجيزيل، لكني على علم بأنها لا تزال مقيمة في الفندق».

«فلنأمل، من أجلك أنت، أن تكون هذه هي الحقيقة. ولنأمل أيضًا في أن يبيّن تشريح الجثة أن سبب الوفاة كان طبيعيًا. حتى ذلك الوقت، لا يحق لك أن تغادري البلاد، ولا أن تحاولي الاختباء منا بأية طريقة من الطرق. أنت لست رهن الاعتقال».

«آمل كثيرًا ألّا أكون رهن الاعتقال. لم أفعل شيئًا سيئًا».

«هل لديك جواز سفر ساري المفعول؟».

«لا».

تميل برأسها جانبًا. تنظر إلي وتقول: «إذا كنت كاذبة، فسوف نكتشف الأمر. تعلمين أنني أستطيع التحقق من ذلك».

أقول لها: «عندما تتحقّقين، ستجدين أنه ليس لديّ جواز سفر لأنني لم أغادر البلاد طيلة حياتي. وأيضًا، سوف تجدين أنني مواطنة مثالية، وأن سجلّي نظيف تمامًا».

«لا تذهبي إلى أي مكان. هل تفهمين هذا؟».

هذه هي المشكلة على وجه التحديد، هذه هي اللغة التي تحيّرني دائمًا ولا أفهم منها شيئًا. أسألها: «هل أستطيع الذهاب إلى بيتي؟ هل أستطيع الذهاب إلى المتجر؟ إلى المرحاض؟ وماذا عن العمل؟».

تتنهّد المحقّقة وتقول: «نعم. بطبيعة الحال، تستطيعين الذهاب إلى بيتك وإلى الأماكن التي تذهبين إليها عادة، وأيضًا، نعم، تستطيعين الذهاب إلى العمل. ما أحاول قوله لك هو أننا نراقبك».

ها هي تلك اللغة الغامضة من جديد. أسألها: «تراقبونني عندما أفعل ماذا؟».

تغرس عينَيها في عينَي: «نراقب كل ما تحاولين إخفاءه عنا، وكل ما تحاولين حمايته، سنكتشفه. إن كنتُ قد تعلّمت شيئًا من عملي فهو أن المرء يستطيع إخفاء الأوساخ بعض الوقت، لكنها لا تلبث أن تظهر على السطح في لحظة من اللحظات. هل تفهمين ما أقول؟».

تسألينني إن كنت أفهم الأوساخ، أليس كذلك؟ لطخات على مقابض الأبواب. أثار أحذية على الأرض. حلقات غبار على سطوح الطاولات. السيد بلاك ميتٌ في فراشه.

«نعم، أيتها المحقّقة. أفهم الأوساخ أكثر مما أفهم أي شيء آخر».

الفصل الرابع عشر

تكون الساعة قد بلغت الثالثة وثلاثين دقيقة عندما تسمح لي المحقّقة ستارك بالخروج من الغرفة البيضاء. أخرج من باب مركز الشرطة. هذه المرة، ما من سيارة توصلني إلى بيتي على سبيل المجاملة. لم آكل شيئًا منذ الصباح، ولم أتناول حتى فنجان شاي يسندني.

تضطرب معدتي، تتقلّب. يستيقظ التنين فيها. أجد نفسي محتاجة إلى التوقف لحظة على الرصيف أمام بنايتي حتى لا أفقد وعيي.

هذا ليس جوعًا. إنه إحساس بالضياع. هو الإحساس بالضياع وأثره المؤذي، أثره الذي يتلف أعصابي. الحقيقة أنني لم أقل كل شيء عن جيزيل ولا عمّا خبأته في قلبي. هذا ما يجعلني في هذه الحالة.

الصدق هو السياسة الوحيدة.

أستطيع رؤية وجه جدتي. أستطيع رؤية عدم رضاها عندما كنت في الثانية عشرة وعدت من المدرسة إلى البيت فسألتني كيف كان يومي. قلت لها إنه كان يومًا عاديًا ليس فيه ما يستحق الذكر. ذلك أيضًا، كان كذبًا. كانت الحقيقة هي أنني هربت من المدرسة وقت استراحة الغداء. كان هذا أمرًا غير عادي على الإطلاق. اتصلت المدرسة بجدتي. اعترفت لها بالسبب الذي جعلني أهرب. تحلّق زملائي في الصف من حولي في باحة المدرسة وأمروني بأن أتدحرج على الوحل، وبأن آكل الوحل. راحوا يرفسونني عندما أطعتهم ونفذت أوامرهم. كانوا مبدعين حقًّا عندما يتصل الأمر بتعذيبي. وما كانت تلك الحادثة استثناء.

بعد انقضاء تلك المحنة، ذهبت إلى المكتبة المحليّة وأمضيت ساعات في الحمام حيث غسلت الأوساخ عن وجهي وفمي، وأزلت التراب من تحت أظافري. وقفت أنظر راضية إلى تلك الأدلة على عذابي تنساب مع الماء وتختفي في مصرف المغسلة. كنت واثقة كل الثقة من أن أمري لن ينكشف، ومن أن جدتي لن تعرف شيئًا.

لكنها اكتشفت الأمر. ما كان لديها غير سؤال واحد بعد اعترافي بأن زملائي تنمّروا عليّ. «يا فتاتي الغالية، لماذا لم تتقولي الحقيقة على الفور؟ لماذا لم تقولي للمعلمة؟ لماذا لم تقولي لي؟ لماذا لم تخبري أحدًا؟». ثم بكت جدتي وعانقتني بقوة شديدة جعلتني غير قادرة حتى على الإجابة عن سؤالها. لكن، كانت لديّ إجابة عن سؤالها. كانت لديّ إجابة عن ذلك السؤال. لم أخبر أحدًا بالحقيقة لأن الحقيقة مؤلمة. ما جرى في المدرسة كان بالغ السوء، لكن عِلم جدتي بمعاناتي كان معناه أنها ستعيش عذابي بدورها.

هذه هي مشكلة الألم. الألم معدٍ، مثله مثل المرض. ينتقل من الشخص الذي عاناه أولًا إلى أولئك الذين يحبهم ذلك الشخص أكثر من غيرهم. لا تكون الحقيقة دائمًا مثالًا أعلى؛ ففي بعض الأحيان، لا بد من التضحية بها من أجل منع انتقال الألم إلى من تحبهم. حتى الأطفال يعرفون هذا بحدسهم.

يهدأ اضطراب معدتي. يعود إليَّ ثباتي. أجتاز الشارع، وأدخل البناية. أصعد السلم سريعًا إلى طابقي. أتجه مباشرة إلى باب السيد روسو. أخرج رزمة الأوراق النقدية التي وضعتها عند قلبي حتى تظل آمنة. كنت أحسّ وجودها طيلة الوقت الذي أمضيته في مركز الشرطة،
لكنه ما كان وجودًا مزعجًا: أحسستها تحميني كأنها درع.

قرعت الباب بقوة. سمعت وقع قدمي السيد روسو في الممر، خلف الباب. ثم سمعت صرير القفل عندما أدار المفتاح. ظهر وجه مالك الشقة محمرًّا. من جديد، ذكّرني ببصلة. كانت النقود في يدي.

قلت له: «ها هي بقية إيجار الشهر. كما ترى، أنا مثل جدتي. أنا امرأة ملتزمة بوعدها».

يأخذ النقود مني، ثم يحصيها. أقول له: «هذا هو المبلغ كاملًا، لكني أقدر حرصك على الدقة».

ينتهي من عد النقود، ثم يومئ برأسه بطيئًا. يقول لي: «مولي، لا يجوز أن يتكرّر هذا كل شهر. هل اتفقنا؟ أعرف أن جدتك قد رحلت. لكن عليك تسديد الإيجار في موعده. عليك أن تحرصي على تنظيم حياتك».

أقول: «أنا مدركة هذا تمام الإدراك. وأما التنظيم، فما أتمناه هو أن أعيش حياة منظّمة إلى أقصى حدود التنظيم، لكن العالم ممتلئ فوضى عشوائية يحدث كثيرًا أن تحبط محاولتي تنظيم حياتي. من

فضلك، ألا تعطيني إيصالًا بالمبلغ كله؟».

يتنهّد. أعرف ما يعنيه هذا. إنه غاضب. لا يبدو لي غضبه محقًا. إن وضع أحدهم رزمة أوراق نقدية في يدَي، فمن المؤكد أنني لن أتنهد مثلما فعل السيد روسو، بل سأكون شاكرة جدًا.

يقول لي: «سأكتب الإيصال الليلة وأعطيك إياه غدًا».

أفضل كثيرًا أن آخذ الإيصال في الحال، لكني أقبل إجابته وأقول له: «لا بأس بهذا. أشكرك. أتمنى لك أمسية طيبة».

يغلق بابه من غير أن يحفل بأن يجيبني إجابة لطيفة، إجابة من قبيل: «أتمنى لك أمسية طيبة أيضًا».

أذهب إلى بابي. أضع المفتاح في القفل، ثم أديره. أخطو عبر العتبة، ثم أقفل الباب من خلفي. بيتنا. بيتي. تمامًا مثلما تركته هذا الصباح. نظيف. مرتّب. هادئ هدوءًا يثير الأعصاب على الرغم من صوت جدتي في رأسي.

إن في الحياة لحظات توجب علينا فعل أمور لا نريد أن نفعلها. لكن علينا أن نفعلها.

في الأحوال العادية، أحسّ بموجة ارتياح تسري في نفسي لحظة أغلق الباب من خلفي. أنا آمنة هنا. ما من شيء أفسّره. ما من حديث أجد نفسي مضطرة إلى فك رموزه. ما من طلبات. ما من أوامر.

أخلع حذائي. أمسحه من الأسفل. أضعه في خزانة الأحذية، في الموضع الصحيح تمامًا. أربّت على وسادة جدتي، وسادة صلاة السكينة الجاثمة على الكرسي عند الباب. أجلس على الأريكة في غرفة المعيشة ريثما أستجمع أفكاري. أنا في تشوّش تام، حتى هنا، حتى في سلام بيتي وأمانه. أعرف أن عليَّ التفكير في خطواتي اللاحقة... فهل أتصل بجيزيل؟ أو من الممكن أن أكلّم رودني طالبة مساندته ونصحه. أأكلم السيد سنو معتذرة لأنني تغيّبت فترة

بعد الظهر، لأنني تركت غرفي من غير إنجاز حصتي من العمل هذا اليوم؟ لكني أجد التفكير في هذه الأشياء كلّها ثقيلًا عليَّ، ثقيلًا كثيرًا.

أحسّ اضطرابًا لم أحسه منذ زمن، منذ حكاية ويلبور والمطمورة، منذ ماتت جدتي.

اليوم، في تلك الغرفة ذات الإنارة الساطعة كثيرًا في مركز الشرطة، ألقت المحققة ستارك باللائمة عليّ وعاملتني كأنني واحدة من أولئك الذين اعتادوا ارتكاب الجرائم، لكني لست منهم أبدًا. لا أريد شيئًا غير أن ألتفت فأجد جدتي جالسة على الأريكة، إلى جواري. لا أريد غير سماع جدتي تقول لي، يا ابنتي العزيزة، لا تستسلمي للذعر. إن للحياة أسلوبها في ترتيب أمورها بنفسها.

أذهب إلى المطبخ وأضع الماء في الغلاية. أشغّلها. يداي مرتعشتان. أفتح البراد فأجده شبه خالٍ - ليس فيه غير فطيرتين صغيرتين باقيتين، لكن لا بد لي من توفيرهما اليوم حتى تكونا طعام إفطار صباح غد. أجد في الخزانة بضع قطع من البسكويت فأضعها في طبق، أرتّبها ترتيبًا أنيقًا. وعندما يغلي الماء، أحضّر الشاي لنفسي، وأضيف ملعقتين من السكر تعويضًا عن الحليب. أنوي التلذّذ بكل قضمة من البسكويت، لكني أجد نفسي ألتهما التهامًا، واحدة تلو الأخرى، وأبتلعها بمساعدة جرعات كبيرة من الشاي وأنا واقفة عند طاولة المطبخ. يفرغ فنجان الشاي من غير أن أنتبه. وعلى الفور، أحس بأن الشاي يبدأ بأخذ مفعوله. طاقة دافئة تسري في جسدي من جديد.

عندما لا يجدي شيء فتيلًا، نظّفي ورتّبي.

هذه فكرة حسنة. ما من شيء يرفع معنوياتي مثلما يرفعها ترتيب جيّد لكل ما هو حولي. أغسل فنجان الشاي، أجفّفه، ثم أعيده إلى مكانه. إن خزانة التحف التي تركتها جدتي في غرفة المعيشة في حاجة إلى شيء من العناية. أفتح بابها الزجاجي بكل حرص، وأخرج منها كنوز جدتي الثمينة - مجموعة حيوانات الكريستال من صنع شواروفسكي، كل قطعة منها مدفوع ثمنها ساعات عمل إضافية تكسر الظهر في فيلا آل كولدويل. في الخزانة أيضًا ملاعق، أكثرها من الفضة، ملاعق مجموعة من متاجر الأشياء المستعملة، مجموعة على مرّ السنين. والصور - جدتي وأنا نخبز؛ جدتي وأنا أمام نافورة في الحديقة؛ جدتي وأنا في مطعم حديقة الزيتون، كأسا نبيذ شاردونيه مرفوعتان في يدينا. ثم الصورة الوحيدة التي ليست لنا: صورة أمي عندما كانت صبية.

أحمل الصورة بين يديّ. لا تزال يداي غير ثابتتين تمامًا. عليَّ أن أنتبه جيدًا عندما أزيل الغبار عنها وألمّع إطارها الزجاجي. إذا انزلقت من بين أصابعي، فسوف يسقط الإطار على الأرض، وسوف يتشظّى الزجاج إلى مئات القطع القاتلة. أركع على ركبتيَّ حتى أصير أكثر قربًا من الأرض. هذه الطريقة أكثر أمانًا. أحمل الصورة بين يدَيّ وأمعن النظر في وجه أمي. أنا محاطة بكل ما كان لدى جدتي من أشياء جميلة.

تطفو ذكرى أخرى إلى سطح وعيي. ليست ذكرى قريبة العهد. بل شيء لم أفكر فيه منذ زمن بعيد. كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما دخلت البيت ذات يومٍ قادمة من المدرسة، فوجدت جدتي راكعة على الأرض مثلما أنا الآن. كان يوم خميس -يوم إزالة الغبار- وكانت جدتي قد بدأت القيام بتلك المهمة. رأيت مجموعة تحَفها منتشرة من حولها، وفي
يدها خرقة تلميع. في يدها الأخرى هذه الصورة، صورة أمي. لحظة عبوري العتبة، أدركت أن هناك شيئًا ليس على ما يرام. كانت جدتي مضطربة الحال. شعرها الذي تحرص دائمًا على أن يكون مسرّحًا، مموّجًا، كان في حالة فوضى، كان مشعّثًا. بقع على وجنتيها. عيناها منتفختان.

سألتها حتى قبل أن أمسح أسفل حذائي: «جدتي، هل أنت بخير؟».

لم تجبني. لم تفعل شيئًا غير أن نظرت إليَّ بعينَين زجاجيتين. رأيت في عينَيها نظرة بعيدة. قالت لي بعد ذلك: «يا ابنتي العزيزة، سوف أخبرك بالأمر مثلما هو. أمك. لقد ماتت».

وجدت نفسي أتجمّد حيث كنت واقفة. كنت أعرف أن أمي هناك، في مكان ما من هذا العالم، لكنها كانت بالنسبة إليّ شخصية مجرّدة، مثل الملكة. في ما يخصني، كانت كأنها ميتة منذ زمن بعيد. وأما في نظر جدتي، كانت تعني الكثير. هذا ما أثار قلقي عليها.

مع اقتراب عيد الأم من كل سنة، كانت جدتي تبدأ مشاويرها إلى صندوق بريدنا، ثلاثة مشاوير خلال اليوم. كانت تنتظر أن تصلها بطاقة من أمي. كانت البطاقات تصل في السنوات الأولى، تصل حاملة كلمات مكتوبة بيد مرتعشة. وكانت جدتي تسعَد بها كثيرًا.

تقول لي: «لا تزال هناك، في مكان من الأماكن، ابنتي الصغيرة».

لكن سنين كثيرة مرّت بعد ذلك، يوم عيد الأم تلو يوم عيد الأم الذي قبله، ولا تصل أية بطاقات. تظلّ جدتي كئيبة طيلة ما بقي من الشهر. كنت أحاول تعويضها بأن أنفق المال بسخاء على شراء أجمل بطاقات أستطيع العثور عليها، أكثرها بهجة، ثم أضيف كلمة «جدتي» بدلًا من «أمي»، وأملأ البطاقة رموز قبلات ومعانقات تفصل بينها مسافات متساوية، ثم أضيف قلوبًا حمراء ووردية ألوّنها بنفسي محاذرة أن ينشز قلمي خارج حدودها.

عندما قالت لي جدتي إن أمي ماتت، لم يكن الألم الذي أحسسته ألمي. كان ألم جدتي.

بكت جدتي، وبكت، وبكت، وكان ذلك أمرًا ليس من عادتها أبدًا. كان أمرًا أثار اضطرابي الشديد وهزّني حتى أعماقي.

هرعت إليها، وقفت إلى جانبها ووضعت يدي على ظهرها.

قلت لها: «ما يلزمك هو فنجان شاي جيد. تقريبًا، ما من شيء لا يستطيع فنجان شاي جيد شفاءه».

اندفعت إلى المطبخ مسرعة، فشغلت غلاية الماء. يداي مرتعشتان. كنت أسمع صوت بكاء جدتي الجالسة على أرض غرفة المعيشة. وما إن بدأ الماء يغلي حتى أعددت فنجانَيّ شاي ممتازَين، حملتهما إلى غرفة المعيشة على صينية جدّتي الفضية.

قلت لها: «ها هو الشاي. لماذا لا نجلس قليلًا على الأريكة».

لكن جدتي لم تتحرّك من مكانها. كانت خرقة التلميع مكوّرة في قبضة يدها.

خطوت عبر صفوف الكنوز المنتشرة على الأرض، ثم أخليت لنفسي بقعة إلى جوار جدتي. وضعت الصينية إلى جانبي، وحملت فنجانَيّ الشاي. وضعتهما أمامنا. ومن جديد، وضعت إحدى يدَيَّ على كتف جدتي.

قلت لها: «يا جدتي. ألا تجلسين معي؟ ألا تشربين معي فنجان شاي؟». كان صوتي مرتجفًا. وكنت مذعورة. في حياتي كلّها، لم أر جدتي ضعيفة إلى هذا الحد، متضائلة إلى هذا الحد، هشّة ضعيفة

مثل عصفور صغير.

آخر الأمر، استوت جدتي في جلستها. مسحت عينَيها بخرقة التلميع. قالت لي: «آه، الشاي!».

بقينا جالستَيْن مثلما كنا، جدتي وأنا، بقينا جالستَيْن على الأرض، نشرب الشاي ومن حولنا حيوانات شواروفسكي الكريستاليّة وملاعق الفضة. كانت صورة أمي إلى جانبنا... الشخص الثالث الغائب في حفلة الشاي تلك.

عندما تكلّمت جدتي بعد ذلك، كان صوتها قد عاد ثابتًا، متوازنًا. قالت لي: «يا ابنتي العزيزة، يؤسفني أنني كنت حزينة هكذا. لكن، لا تقلقي. أنا الآن في حالٍ أفضل كثيرًا». تناولَتْ رشفة شاي صغيرة من فنجانها ثم ابتسمت لي. ما كانت تلك ابتسامتها المعتادة، بل ابتسامة غطّت نصف وجهها فقط.

عنّ على بالي سؤال: «هل سألَتْ عني في يوم من الأيام؟ أعني أمي... ».

«بالطبع، بالطبع، سألت يا عزيزتي. لمّا كانت تتّصل بي من غير أن أتوقّع اتصالها، كان ذلك حتى تسألني عنك. وبطبيعة الحال، كنت أوافيها بآخر أخبارك. أحدّثها عنك طالما بقيَتْ مصغية. بعض الأحيان، ما كان إصغاؤها يطول كثيرًا».

سألتها: «ألأنها كانت غير معافاة؟». هذا هو التعبير الذي كانت جدتي تستخدمه دائمًا حتى تشرح لي السبب الذي جعل أمي ترحل أصلًا.

«صحيح، لأنها كانت غير معافاة، غير معافاة إلى حدٍّ مخيفٍ. عندما كانت تتصل بي، يكون اتصالها من هاتف في الشارع. وأما عندما توقفتُ عن إرسال المال إليها، فقد كفّت عن الاتصال».

سألتها: «وماذا عن أبي؟ ماذا جرى له؟».

«مثلما قلت لك من قبل، لم يكن أبوك بيضة جيدة. حاولتُ مساعدة أمك في رؤية هذا. بل إنني تواصلت مع أصدقاء قدامى طالبة منهم مساعدتي في إقناعها بتركه. إلّا أن هذا لم يجدِ نفعًا».

صمتت جدتي لحظة وأخذت من فنجانها رشفة شاي أخرى، «عليك أن تعديني، يا ابنتي العزيزة، بألّا تتورطي في المخدرات أبدًا». امتلأت عيناها دموعًا.

قلت لها: «أعدك بهذا، يا جدتي».

لم أدرِ ما أقوله بعد هذا. لذا، فتحت ذراعيَّ واحتضنتها. أحسستها ملتصقة بي على نحو جديد كل الجدّة. كانت تلك المرّة الوحيدة التي أحسّ فيها أنني أنا التي أحتضنها، لا العكس. قلت لها: «تذكري ما تقولين دائمًا، يا جدتي: عندما يفشل كل شيء آخر، نظّفي ورتّبي».

أومأت جدتي برأسها. قالت لي: «يا ابنتي الغالية. أنت كنزي. هكذا أنت. هيا نقوم الآن معًا حتى نرتب هذه الفوضى».

مع هذه الكلمات، عادت جدتي إلى حالها. لعلها تصنّعت تلك العودة إلى حالتها الطبيعية، لكننا انكببنا على ترتيب تحَفها بعد تنظيفها وتلميعها، وإعادتها إلى خزانة التحف. وكانت جدتي تثرثر وتزقزق مثلما تفعل في أي يوم من الأيام العادية.

لم نعد إلى ذكر أمي بعد ذلك أبدًا.

وها أنا الآن هنا، في البقعة نفسها حيث كنت ذلك اليوم، ومن حولي تحف الماضي. لكني، هذه المرة، وحيدة إلى حدّ مخيف.

أقول مخاطبة الغرفة الخالية: «جدتي. أظنني واقعة في مشكلة».

أرتب الصور فوق خزانة التحف. ألمّع كل كنز من كنوز جدتي، ثم أضعها كلها في مكانها الآمن خلف الزجاج. أقف أمام الخزانة وأنظر إلى كل ما فيها. لست أدري ما أفعله الآن.

أنت لست وحيدة أبدًا طالما بقي لديك أصدقاء.

كنت أتدبر أموري بنفسي خلال القسم الأكبر مما حدث حتى الآن. لكن، لعل وقت طلب المساعدة قد حان!

أذهب إلى باب الشقة حيث تركت هاتفي. أحمل الهاتف وأطلب رقم رودني.

يرد على الهاتف بعد الرنة الثانية: «مرحبًا!».

أقول، «رودني، مرحبًا. أرجو ألّا يكون الوقت غير مناسب لاتصالي».

يجيبني: «لا بأس. ماذا لديك؟ رأيتك خارجة من الفندق مع الشرطة. يتكلّم الجميع عن ذلك. يقولون إنك واقعة في مشكلة».

«يؤسفني القول إن ما تسمعه من الناس، في هذه الحالة تحديدًا، قد يكون صحيحًا».

«ماذا أرادت الشرطة منك؟».

«أرادت الحقيقة. أرادت الحقيقة عني، وعن جيزيل. لم يكن موت السيد بلاك ناجمًا عن جرعة مخدرات زائدة... ليس تمامًا».

«أوه، الشكر للرب على هذا. ما سبب موته؟».

«لا يعرفون ذلك حتى الآن. لكن من الواضح أن شكوكهم متجهة إليَّ. لعلهم يشكّون في جيزيل أيضًا».

«لكن، أنت لم تقولي لهم أي شيء عن جيزيل، أليس كذلك؟».

أجيبه: «لم أقل الكثير».

«وأنت لم تذكري خوان مانويل، ولا أي شيء من ذلك. هل هذا صحيح؟».

«ما علاقة خوان مانويل بأي شيء من هذا كله».

«لا شيء. لا شيء على الإطلاق. لكن، لماذا تكلمينني الآن؟».

«رودني، أنا في حاجة إلى عون». يتكسّر صوتي وأجد صعوبة في المحافظة على رباطة جأشي.

يصمت رودني هنيهة، ثم يسألني: «هل أنت... هل أنت من قتل السيد بلاك؟».

«لا، بالطبع لا. كيف يمكن لك حتى أن...».

«آسف. آسف. انسي حتى إنني قلت هذا. ولكن، ما معنى قولك إنك واقعة في مشكلة؟».

«جيزيل... لقد جعلتني أعود إلى الشقة لأنها تركت فيها... تركت فيها شيئًا. إنه مسدس. وهي تريد استعادته. إنها صديقتي. لذا فقد...».

«يا إلهي!... ». صمت قصير في نهاية الخط الآخر «فهمت».

«رودني!».

يقول: «نعم، أنا معك. إذًا، أين ذلك المسدس الآن؟».

«في مكنستي الكهربائية. عند خزانتي».

يقول رودني: «علينا أن نخرج ذلك المسدس من هناك...». أستطيع سماع نبرة اضطراب في صوته، «علينا أن نجعله يختفي».

أقول: «صحيح. بالضبط. آه، يا رودني. آسفة جدًا لأنني أورطك في هذا كله. ومن فضلك، إذا سألتك الشرطة عني فعليك أن تقول لهم إنني لست شخصًا سيئًا. عليك إفهامهم بأنني لا أسبب أي

أذى لأي إنسان».

«لا تقلقي، يا مولي. سوف أهتم بكل شيء».

أحسّ عرفانًا هائلًا يملأ صدري ويهدد بأن يتفجر دموعًا غزيرة تنسكب من عينيَّ، لكنني لن أسمح بحدوث هذا إن كان رودني يجده منفّرًا. أريد لهذه التجربة أن تقرّب ما بيننا، لا أن تباعدنا. أستنشق نفسًا عميقًا، ثم أزيح مشاعري جانبًا.

أقول له: «أشكرك، يا رودني. أنت صديق جيّد. بل أنت أكثر من هذا. لست أدري ما أستطيع فعله من غيرك».

يقول: «أنا من يحمي ظهرك».

لكن لديَّ المزيد. أخشى أن يسمع بقية كلامي فيبتعد عني، ويتركني إلى الأبد.

أقول له: «هناك شيء آخر أيضًا. إنه خاتم زواج السيد بلاك. وجدت الخاتم في الشقة. و... نعم... يصعب عليَّ كثيرًا أن أعترف بهذا، لكني أجد نفسي، في الآونة الأخيرة، واقعة في ضيق مالي شديد. أخذت الخاتم اليوم إلى متجر رهونات حتى أستطيع دفع إيجار بيتي».

«أنتِ... ماذا فعلت؟».

«إنه معروض في واجهة متجر في قلب المدينة».

يجيبني: «لا أستطيع تصديق هذا. حقًا، لا أستطيع تصديق هذا».

أكاد أسمعه يضحك. وكأن هذا أعجب خبر يسمعه. من المؤكد أنه لا يجد هذا الأمر طريفًا. تفاجئني حقيقة أن الضحكات مثل الابتسامات تمامًا. يستخدم الناس الضحكات للتعبير عن مجموعة مشاعر متضاربة.

أقول: «لقد ارتكبت غلطة فظيعة. لم أتخيّل أبدًا أنهم سوف يستجوبونني مرة أخرى. ظننت أن دوري في هذه الحكاية كلّها قد انتهى. إذا عرفت الشرطة أنني رهنت خاتم السيد بلاك فسوف أبدو في نظرهم أنني قتلته من أجل تحقيق كسب مالي. هل تفهم هذا؟».

يقول رودني: «أفهمه، بكل تأكيد. يا إلهي! هذا لا يصدَّق! اسمعي، سوف يصل كل شيء إلى نهاية حسنة. اتركي كل شيء لي».

«هل ستجعل المسدس يختفي؟ وماذا عن الخاتم؟ أبدًا، ما كان ينبغي أن آخذه. كان ذلك خاطئًا. هل تشتري الخاتم، وتحرص على ألّا يراه أحد بعد ذلك أبدًا. سوف أسدّد لك المال في يوم من الأيام. أعدك بهذا».

«مثلما قلت لك، يا مولي. اتركي كل شيء بين يديّ. هل أنت في البيت الآن؟».

أقول: «نعم».

«لا تخرجي الليلة، هل اتفقنا؟ لا تذهبي إلى أي مكان».

أقول: «أنا لا أخرج أبدًا. رودني، لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر».

«هذه فائدة الأصدقاء، أليس كذلك؟ أن يساعد واحدهم الآخر في الملمّات».

أقول: «هذا صحيح. هذا ما يفعله الصديق».

ثم أقول في الهاتف: «يا رودني...». كنت أوشك على إضافة أنني شديدة التوق إلى ما يتجاوز الصداقة معه، لكني تأخّرت كثيرًا. لقد أنهى المكالمة من غير أن يودّعني. وضعت أمامه فوضى كبيرة عليه أن يتولّى أمرها وأن يرتبها. وهو لا يضيّع وقتًا.

عندما ينتهي هذا كله، سوف آخذه إلى «الجولة الإيطالية» وأدفع النفقات كلّها، سوف نجلس في مقصورتنا الخاصة في مطعم حديقة الزيتون تحت الألق الدافئ المنسكب من المصباح المعلّق

فوقنا. وسوف نأكل جبالًا من السلطة والخبز، ومن بعدها تشكيلة من الباستا تليها مجموعة غنيّة من الحلويات. وعندما ننتهي من ذلك، سأجد طريقة لكي آخذ فاتورة الحساب من النادلة.

سوف أسدّد ثمن هذا كله. أعرف أنني سأفعل.

الخميس الفصل الخامس عشر

يأتي صباح اليوم التالي، فأكون في الفندق. تأخّرت في الوصول... أوه، تأخّرت كثيرًا جدًا.

مهما بذلت من جهد في عملي، ومهما أنجزت تنظيف غرف كثيرة، أظل غير قادرة على مواكبة ما يترتب عليّ إنجازه. أنتهي من العمل في واحدة من الغرف فينفتح باب من زجاج قاتم، ينفتح مثل فمّ ضخم فاغر، على الغرفة التالية في ذلك الممر. أوساخ في كل مكان - أتربة كامنة في وبر كل سجادة، وتشقّقات في المرايا كلّها، ولطخ دهنية على سطوح الطاولات، وآثار أصابع مدمّاة على الملاءات الملقاة كيفما اتفق. وعلى حين غرّة، أرى نفسي نازلة درجات السلم الكبير في الفندق، توّاقة إلى الخروج، إلى الإفلات. يدي ممسكة بالدرابزين المصنوع من أفاعٍ ذهبية تنزلق كل واحدة منها تحت لمسة كفّي. تبدو عيون تلك الزواحف، عيونها الخرزية، تبدو مألوفة. لكنها لا تلبث أن تتحرّك وتدبّ فيها الحياة تحت أصابعي. تستيقظ أفعى جديدة مع كل خطوة أخطوها - تشيريل، السيد سنو، ويلبور، العملاقان بوشومهما، السيد روسو، المحقّقة ستارك، رودني، جيزيل... وأخيرًا السيد بلاك.

أصرخ: «لا!»، لكنني أسمع قرعًا على الباب. أستوي جالسة في سريري. قلبي يضطرب صاخبًا في صدري.

أصيح: «جدتي!». أتذكّر الحقيقة مثلما أتذكّرها كل صباح. أنا وحيدة في هذا العالم.

طرق على الباب. طرق. طرق.

أنظر إلى هاتفي. لم تبلغ الساعة السابعة صباحًا. يعني هذا أن ساعتي المنبّهة لم تنطلق بعد. أيمكن أن يأتي شخص سليم العقل ويدق بابي في هذه الساعة المبكرة؟ ثم أتذكر السيد روسو. سوف يعطيني إيصالًا بمبلغ الإيجار الذي استلمه.

أتحامل على نفسي وأخرج من فراشي. أضع قدميّ في شبشبي البيتي. أقول: «آتية! لحظة واحدة فقط!».

أنفض عن ذهني آثار الكابوس، وأمشي في الممر حتى أبلغ باب الشقة. أزيح المزلاج الصدئ، ثم أدير المفتاح في القفل وأفتح الباب على وسعه.

«يا سيد روسو، مع أنني أقدر لك جلب هذا...». لكني أصمت في منتصف جملتي لأن من أراه واقفًا بالباب ليس السيد روسو.

شرطي شاب ضخم واقف هناك، مباعد بين قدميه، يسد فتحة الباب كلها. ومن خلفه شرطيان آخران، واحد منهما في أواسط العمر يصلح تمامًا للظهور في مسلسل كولومبو، ومعهم المحقّقة ستارك.

أقول: «اعذروني، من فضلكم. لست مرتدية ملابس لائقة». تطبق يدي على ياقة بيجامتي التي كانت بيجامة جدتي - قماش قطني وردي اللون عليه مجموعة فرحة من أباريق شاي متعددة الألوان. لا يصح استقبال الزائرين هكذا حتى إن كانت قلّة تهذيبهم قد جعلتهم يأتون من غير موعد في هذه الساعة غير الملائمة، في هذه الساعة المبكرة من الصباح.

تخطو المحقّقة ستارك وتقف أمام الشرطي الشاب. تقول لي: «مولي، أنت موقوفة لحيازتك سلاحًا ناريًا بشكل غير قانوني، ولحيازتك مخدرات، ولارتكابك جريمة قتل من الدرجة الأولى. من حقّك أن تلزمي الصمت، وأن ترفضي الإجابة عن أية أسئلة. أي شيء تقولينه يمكن أن يُستخدم ضدك في المحكمة. من حقك أن تستعيني بمحامٍ قبل الحديث مع الشرطة، وأن يكون معك محامٍ يمثّلك أثناء الاستجواب، الآن وفي المستقبل».

دوار في رأسي، والأرض تميد تحت قدميّ. أباريق شاي صغيرة تدور أمام عيني. «أيحبّ أحدكم تناول فنجان...». لكني أعجز عن إكمال السؤال لأن عينَيَّ تظلمان. لا أتذكّر شيئًا بعد ذلك غير أن ركبتَيَّ تحولتا إلى مارملاد، وصار العالم كله سوادًا.

أستعيد وعيي فأجد نفسي في زنزانة توقيف، مستلقية على سرير رمادي صغير. أتذكّر باب شقتي، وكيف فتحته، وصدمة قراءة حقوقي عليَّ تمامًا مثلما أراها تُقرأ في التلفزيون. هل كان هذا حقيقة؟ أستوي جالسة. حركتي بطيئة. أتأمل الغرفة الصغيرة ذات القضبان. نعم. هذا حقيقي. أنا في زنزانة توقيف لعلّها في قبو مركز الشرطة الذي زرته مرتين قبل الآن من أجل استجوابي.

أستنشق بضعة أنفاس عميقة وأستنجد بإرادتي حتى أظلّ هادئة. المكان يفوح برائحة جافّة، مغبرّة. لا أزال أرتدي بيجامتي. يصدمني هذا لأن ملابسي غير مناسبة أبدًا لهذا الوضع الذي أنا فيه. بقع على السرير الذي أجلس عليه، بقع من تلك التي تسميها جدتي «أوساخ لا حل لها» - لطخات دم وبقع دائرية صفراء من الممكن أن تكون ناجمة عن أشياء كثيرة لا أريد التفكير فيها. هذا السرير مثال على قطعة أثاث ينبغي التخلص منها على الفور لأن -بكل بساطة- ما من طريقة تسمح بإعادتها إلى حالتها المثاليّة.

ما مدى نظافة بقية هذه الزنزانة؟ أتساءل في نفسي فيخطر في ذهني أن عمل المرء حارسًا في هذا المكان أسوأ كثيرًا من وظيفة خادمة الغرف في الفندق. يكفي تخيّل هذه الكمية الهائلة من البكتيريا والأوساخ المتراكمة هنا على مرّ السنين. لا، لا أستطيع ترك عقلي يفكر في هذا.

أضع على الأرض قدمَيَّ اللتين لا تزالان في شبشبي المنزلي.

عليكِ أن تتلي صلواتك!

صلواتي! أكاد أبدأ تلاوة الصلاة الأولى، لكنني أنظر إلى يدَيَّ فأراهما ملوَّثَتين. عليهما بقع. علامات حبر سوداء داكنة على كل إصبع من أصابعي. عندها، أتذكّر ما جرى. أتذكر كيف كنت مستلقية على هذا السرير في هذه الزنزانة الضيقة العامرة بالجراثيم، وكيف كان اثنان من عناصر الشرطة يغمسان كل إصبع من أصابعي في محبرة سوداء. ما كان لديهما حتى الحدّ الأدنى من اللياقة فلم يتركاني أغسل يدَيّ بعد ذلك... مع أنني طلبت هذا منهما. لكنني لا أتذكّر الكثير مما أعقب ذلك. لعلي فقدت الوعي من جديد. يصعب القول كم مر من الزمن - لعلها خمس دقائق! أو، لعلها خمس ساعات!

قبل أن أفلح في التفكير في أي شيء آخر، يظهر خلف قضبان الزنزانة الحديدية الشرطي الشاب الذي رأيته عندما فتحت باب شقتي.

يقول لي: «أنت مستيقظة. أنت الآن في مركز الشرطة. هل تفهمين هذا؟ فقدت وعيك عند باب شقتك. ثم فقدت وعيك هنا أيضًا. قرأنا عليك حقوقك. أنت رهن الاعتقال. أنت متهمة بأمور كثيرة. هل تتذكّرين شيئًا من هذا؟».

أقول: «نعم»، لكني لا أستطيع تذكّر السبب الذي اعتقلوني من أجله. مع هذا، أنا واثقة تمام الثقة من أن للأمر علاقة بموت السيد بلاك.

تظهر المحققة ستارك إلى جوار الشرطي الشاب. هي الآن في ملابس مدنيّة، لكن هذا لا يقلّل حجم الذعر الذي أحسسته عندما لاقت عيناها عينَيّ. تقول للشرطي: «سوف أتولى الأمر اعتبارًا من هذه النقطة»، ثم تخاطبني: «مولي، تعالي معي».

يدير الشرطي الشاب مفتاحًا في قفل الزنزانة، ثم يفتح الباب حتى أخرج منها.

أقول عند خروجي: «شكرًا».

تتقدّمني المحقّقة ستارك. ومن خلفي، يسير الشرطي الشاب حتى يضمن أنني سائرة خلفها. يقودني الاثنان في ممر فيه ثلاث زنزانات أخرى. أحاول ألّا أنظر في تلك الزنزانات، لكن عبثًا. ألمح رجلًا متسخ الوجه، على وجهه ندوب. أراه ممسكًا قضبان زنزانته، قبالته شابة في ملابس ممزقة تبكي راقدة على سريرها.

عليكِ أن تتلي صلواتك!

نصعد بضع درجات. أتفادى لمس الدرابزين لأنه قذر، عليه أوساخ كثيرة. نصل أخيرًا إلى تلك الغرفة التي زرتها مرتين من قبل. تضغط المحقّقة ستارك على مفتاح النور.

تأمرني: «اجلسي. أتيت إلى هذه الغرفة مرات كثيرة. صارت الآن مألوفة مثل بيتك».

أقول لها: «ليس فيها ما يشبه بيتي». صوتي كأنه نصل سكين... قاطع، حاد. أجلس على الكرسي المترنّحة من خلف الطاولة البيضاء الوسخة. أحاذر أن يمس مسند الكرسي ظهري. قدماي باردتان مع أنهما في شبشبي البيتي ذي الزغب الدافئة.

يدخل الغرفة الشرطي الشاب نفسه حاملًا قهوة في كأس من الستيروفوم، ومعها ظرفان من مبيّض القهوة، وقطعة مافن في طبق من الكرتون. معه أيضًا ملعقة معدنية. يضع ذلك كلّه على الطاولة، ثم يخرج. تغلق المحقّقة ستارك الباب بعد خروجه.

تقول لي: «كلي. لا نريد أن تفقدي وعيك مرة أخرى».

أقول: «هذه فطنة كبيرة من جانبك». أقول ذلك لأن على المرء أن يقول شيئًا لطيفًا عندما يقدّمون إليه طعامًا. لا أصدق أنها مهتمّة بي اهتمامًا حقيقيًا؛ لكن هذا لا أهمية له. أنا جائعة جدًّا. جسدي في حاجة إلى ما يقيم أوده. لا بد لي من الأكل حتى أستطيع المتابعة، حتى أستطيع ملاقاة ما سوف يأتي.

أتناول الملعقة وأديرها بين أصابعي. أرى على الجانب السفلي منها كتلة جافة من مادة رمادية. على الفور، أضع الملعقة من يدي.

تسألني المحققة ستارك: «هل تحبّين إضافة المبيّض إلى قهوتك؟». إنها جالسة إلى الناحية الأخرى من الطاولة، قبالتي.

أجيبها: «واحد فقط. أشكرك».

تمدّ يدها إلى ظرف المبيّض. تفتحه. تفرغه في الفنجان. أراها تهمّ بتناول الملعقة القذرة ووضعها في كأس القهوة.

أقول لها: «لا! أفضّل أن أشربها هكذا، من غير تقليب».

تحدّق فيّ بتلك النظرة التي صرت أجد تفسيرها أكثر سهولة - نظرة تعالٍ وازدراء. تناولني كأس الستيروفوم. يصدر الكأس ذلك الصوت الكريه عندما أتناوله بيدي، صوت صرير. لا أستطيع إلّا أن أنكمش على نفسي.

تدفع المحقّقة ستارك طبق المافن صوبي. تقول لي من جديد: «كلي». يبدو هذا أمر... ليس دعوة.

أقول لها: «أشكرك جزيل الشكر». ثم أنزع غلاف قطعة المافن الورقي، أنتزعه بكل أناقة، ثم أقسمها إلى أربع قطع. أضع ربعها في فمي. مافن بالزبيب. النوع المفضّل عندي - كثيف، غني، مغذٍّ، فيه انفجارات حلاوة عارضة. وكأن المحقّقة ستارك تعرف ما أفضّله. لكنها، بطبيعة الحال، لا تعرف. وحده كولومبو يمكن أن يعرف هذا، لو كان مكانها.

أبتلع اللقمة، ثم أتناول رشفتين من قهوتي المرّة. أقول: «لذيذ».

تقهقه المحقّقة ستارك. نعم، كانت قهقهة حقيقية. لا تصلح أية كلمة أخرى لوصف ذلك. تطوي ذراعيها على صدرها. قد تعني حركتها أنها تحسّ بردًا، لكني أشك في هذا. إنها غير واثقة بي. شعور متبادل.

تقول لي: «أنت تدركين أننا وجّهنا إليك عددًا من الاتهامات: حيازة سلاح ناريٍّ بشكل غير قانوني، وحيازة مخدرات، وجريمة قتل من الدرجة الأولى».

أكاد أختنق بجرعة القهوة الثانية. أقول لها: «هذا مستحيل. طيلة عمري، لم أقدم على إيذاء روح حيّة، فكيف أقتل روحًا؟».

تقول لي: «انظري. نعتقد أنك قتلت السيد بلاك، أو أن لك يدًا في قتله... أو أنك تعرفين من قتله. لقد صدر تقرير التشريح. إنه تقرير قاطع، يا مولي. لم يمت نتيجة نوبة قلبية. هناك من خنقه. هكذا مات».

أضع في فمي قطعة مافن أخرى، وأركز انتباهي على مضغها. من المستحسن دائمًا مضغ اللقمة من عشر مرات إلى عشرين مرة. كانت جدّتي تقول إن هذا مفيد من أجل الهضم. أبدأ العد في

ذهني.

تسألني المحقّقة ستارك: «ما عدد الوسائد التي تضعينها على كل سرير عندما ترتبين الغرف في الفندق؟».

أعرف الإجابة عن هذا السؤال. هذا واضح. لكن اللقمة في فمي. ليس من التهذيب في شيء أن أجيبها الآن.

تقول المحقّقة ستارك قبل أن أصير جاهزة للإجابة عن سؤالها: «أربع وسائد. أربع وسائد لكل سرير. لقد طرحت هذا السؤال على السيد سنو، وعلى عدد من خادمات الغرف في الفندق. إنها أربع وسائد. لكننا لم نجد غير ثلاث وسائد على سرير السيد بلاك عندما وصلنا مسرح الجريمة. أين ذهبت الوسادة الرابعة، يا مولي؟».

ست مضغات، سبعٌ، ثمانٍ. أبتلع اللقمة، وأهم بالكلام، لكن المحقّقة تضرب بكفيها على الطاولة الواصلة بيننا قبل أن أتكلّم. أجفل عند ذلك وأكاد أقفز عن الكرسي.

تنبح قائلة: «مولي! لقد قلت لك بكل وضوح إنك متّهمة بقتل رجل خنقًا بالوسادة، بدم بارد. لكنك باقية في مكانك تأكلين المافن بكل هدوء».

أصمت لحظة حتى يهدأ نبض قلبي الصاخب. لم أعتد أن يصرخ عليّ هكذا أي إنسان. لم أعتد أن يتّهمني أحد بارتكاب جرائم شنيعة. هذا يجعلني في اضطراب شديد. رشفة قهوة حتى تهدأ أعصابي المتوتّرة. ثم أتكلّم. أقول لها: «أيتها المحققة، سأقول لك ذلك بطريقة جديدة. أنا لم أقتل السيد بلاك. ومن المؤكد تمامًا أنني لم أخنقه بوسادة. وأريد أيضًا تسجيل أنه لا يمكن أن تكون في حوزتي مخدرات. لم أر مخدرات في حياتي كلّها، ولم أجرّبها في حياتي كلّها. فضلًا عن هذا، لقد قتلت المخدرات أمي. ومنذ وقت قصير جدًا، قتلت أيضًا جدتي لأن قلبها انكسر حزنًا على أمي».

«لقد كذبت علينا، يا مولي. كذبت في ما يخص الصلة التي بينك وبين جيزيل. قالت لنا إنك كثيرًا ما كنت تظلّين في شقتهما زمنًا طويلًا بعد انتهائك من تنظيفها، وإنك تخوضين معها في أحاديث شخصية. قالت لنا أيضًا إنك أخذت مالًا من محفظة السيد بلاك».

«ماذا؟ ليس هذا ما كانت تعنيه! أرادت القول إنني قبلت ذلك المال. هي التي أعطتني إياه». تنتقل عيناي من المحققة إلى الكاميرا الوامضة في زاوية الغرفة... «تعطيني جيزيل دائمًا بقشيشًا سخيًا. هي التي أخرجت المال من محفظة السيد بلاك، لا أنا».

شفتا المحقّقة ستارك مشدودتان. أصلح وضع بيجامتي وأنصب قامتي في جلستي على الكرسي.

«أَبَعْدَ ما قلته لك كله، تكون هذه هي النقطة التي تودين توضيحها؟».

أرى زوايا الغرفة القائمة تنحني وتعوجّ. أستنشق نفَسًا عميقًا حتى أُهدّئ نفسي، وأنتظر إلى أن تصير خطوط الطاولة مستقيمة، لا منحنية.

هذه معلومات كثيرة جدًا. أنا غير قادرة على فهمها كلّها. لماذا لا يستطيع الناس الاكتفاء بقول ما يعنون؟ أفهم أن المحققة تحدّثت مع جيزيل مرة أخرى. لكن من المستحيل تصديق أن جيزيل تكلّمت عني بالسوء. لا يمكن أن تفعل شيئًا مثل هذا... لا يمكن أن تفعل هذا بصديقتها!

رعشة تبدأ من يدي، ثم تسري في جسدي. أمدّ يدي إلى كأس الستيروفوم فأكاد أدلقه في غمرة استعجالي حمله إلى شفتي.

أتخذ قرارًا سريعًا، وأقول للمحققة: «لديّ أمر واحد أريد توضيحه. صحيح أن جيزيل أسرّت لي بأمور كثيرة وأنني أعتبرها -كنت أعتبرها- صديقتي. آسفة لأنني لم أوضح لك هذا توضيحًا تامًا قبل الآن».

تومئ المحققة ستارك برأسها، «لم توضحي لي هذا توضيحًا تامًّا! هه. وهل هناك أي شيء آخر مما قررت ألا توضيحنه توضيحًا تامًا؟».

«نعم. في الحقيقة، هناك شيء آخر. كانت جدتي تقول دائمًا إنه إذا لم يكن لدى المرء شيء لطيف يقوله عن واحد من الناس، فمن الأفضل ألّا يقول شيئًا أبدًا. هذا ما جعلني أقول القليل عن السيد بلاك نفسه. لكني أقول لك الآن إن السيد بلاك كان بعيدًا كل البعد عن صورة الشخص المهم

الممتاز، عن الصورة التي يبدو أن الناس جميعًا يتخيّلونها. ربما ينبغي لكم أن تتحرّوا أعداءه. قلت لك من قبل إنه أوقع بجيزيل أذىً جسديًا. لقد كان رجلًا خطيرًا جدًا».

«هل كان خطيرًا إلى الحدّ الذي يجعلك تقولين لجيزيل إن من الأفضل لها أن تتخلّص منه؟».

«لم أقل أبدًا إن...»، لكني أتوقّف عن الكلام بعد ذلك لأنني قلت هذا. أتذكّر الآن. وقتها، كنت مقتنعة بما قلته، ولا أزال مقتنعة به الآن.

أضع قطعة مافن في فمي. أمر مريح أن يكون لديَّ سبب مشروع للتوقّف عن الكلام. أعود إلى تعليمات جدّتي في ما يخص مضغ اللقمة. واحد، اثنان، ثلاثة...

«مولي، لقد تحدثنا مع عدد كبير من زملائك في الفندق. هل تعرفين كيف وصفوك لنا؟».

أتوقّف عن المضغ حتى أهز رأسي نفيًا.

«يقولون إنك غريبة الأطوار. منعزلة. شديدة الدقة. معتوهة. شخصية غريبة. وأشياء أخرى أسوأ من هذا كلّه».

يصل العدّ إلى عشرة. أبتلع اللقمة، لكنها لا تفلح في تخفيف الغصة التي أحسّها في حلقي.

«هل تعلمين ما قاله أيضًا بعض زملائك عنك؟ قالوا لنا إنهم قادرون تمامًا على تخيّل أن من الممكن أن تقدمي على القتل».

تشيريل. بالطبع، تشيريل. هي الوحيدة التي تستطيع أن تقول عني أمرًا شنيعًا إلى هذا الحد.

أجيبها: «لا أحب الكلام على الناس بالسوء. لكن، بما أنك مصرّة على سماع إجابة... إن تشيريل غرين، كبيرة الخادمات، تنظف المغاسل بالخرقة التي تستخدمها لتنظيف المراحيض. هذا ليس مُجازًا. أعني ما قلته حرفيًا. تتغيّب عن العمل زاعمة أنها مريضة في حين تكون معافاة. تتجسّس

على خزائن الناس. وهي تسرق البقشيش. إن كانت قادرة على السرقة، وعلى ارتكاب جرائم صحيّة، فأي دَرْكٍ يمكن أن تبلغه؟».

«أيّ درك يمكن أن تبلغيه أنت، يا مولي؟ لقد سرقت خاتم زواج السيد بلاك، ثم رهنتيه».

أقول: «ماذا؟ أنا لم أسرق الخاتم. لقد وجدته. من قال لك هذا؟».

«لقد تتبعتك تشيريل وسارت خلفك حتى وصلتِ متجر الرهونات. كانت تدرك أنك قد اعتزمت أمرًا. وجدنا الخاتم نفسه في واجهة ذلك المتجر. مولي، لقد وصفك صاحب المتجر لنا وصفًا دقيقًا. قال إنك من أولئك الأشخاص القادرين على البقاء في الخلفية من غير أن
يلاحظ أحد وجودهم إلّا إذا تكلموا. قال إنك من الأشخاص الذين ينساهم المرء سريعًا، أكثر الأحيان».

نبضي صاخب. لا أستطيع المحافظة على تركيز ذهني. هذا الوصف لا يعكس شخصيتي بطريقة صائبة. لا بد لي من تصحيحه.

أقول: «ما كان عليَّ أن أرهن ذلك الخاتم. لقد طبّقت في ذهني قاعدة غير مناسبة، طبّقت قاعدة ‘من يعثر على شيء يستطيع الاحتفاظ به’ في حين كان عليَّ أن أطبق قاعدة ‘تصرّف مع الآخرين مثلما تريد أن يتصرّفوا معك’. أنا نادمة على اختياري القاعدة الأولى. لكن هذا لا يجعلني سارقة».

تقول لي: «لقد سرقت أشياء أخرى».

أجيبها: «لم أسرق». أعبّر عن استيائي بأن أطوي ذراعي على صدري... أظنها حركة منبئة بامتعاضي الشديد.

«رآك السيد سنو تسرقين الطعام من الصواني المتروكة خارج الغرف. رآك أيضًا تسرقين علب المربى الصغيرة».

أحسّ كأن أسفل معدتي يسقط مثلما يحدث عندما لا يعمل مصعد الفندق على نحو سليم. لست أدري أيهما أكثر إذلالًا لي - رؤية السيد سنو لي وأنا أفعل ذلك، أم حقيقة أنه لم يقل لي أيّة كلمة عما رآه.

أقرّ بالذنب من غير أي تردّد: «إنه يقول الحقيقة. أنا آخذ بعضًا من الطعام الزائد... طعام سينتهي به المطاف إلى القمامة، على أية حال. هذه 'محافظة على الموارد'. هي ليست سرقة».

«الأمر كله متعلّق بالدرجة، يا مولي. قالت لنا واحدة من زميلاتك في خدمة الغرف إن عدم قدرتك على رؤية موضع الخطر تقلقها».

أقول: «إنها سونيثا. أود تسجيل إنها خادمة غرف ممتازة».

«ليست هي من ننشئ سجلًا لها هنا».

أسألها: «هل كلمتِ السيد برستون؟ لا بد أن لديه شهادة طيّبة في حقي».

«الحقيقة أننا كلمنا بواب الفندق. قال إنك 'غير ملومة في شيء' -اختياره هذه الكلمات لافت للنظر- وقال إن علينا أن نبحث عن الأوساخ في مكان آخر. ذكر لنا أفراد أسرة بلاك؛ وقال أيضًا إن شخصيات غريبة تدخل وتخرج في الليل. لكن، بدا لنا أنه يفعل كل ما يستطيع فعله حتى يحميك، يا مولي. يعرف أن في دولة 'الدانمارك' أمرًا على غير ما يرام».

أسألها: «ما علاقة الدانمارك بأي شيء من هذا كله؟».

تطلق المحققة ستار زفرة عالية الصوت: «يا للجحيم! سوف يكون يومًا طويلًا».

أسألها: «وماذا عن خوان مانويل، الذي يغسل الأطباق؟ هل تحدّثتم إليه؟».

«مولي، لماذا نتحدث إلى شخص يغسل الأطباق؟ على أيّة حال، من هو خوان مانويل؟».

هو شخص لديه أم. هو ابنها. هو معيل أسرته... نحلة عاملة أخرى في الخلية لا يلقي أحد إليها بالًا. لكني أقرر ألا أتابع الكلام في شأن خوان مانويل. لا أريد أن أوقعه في أية مشكلة. بدلًا من ذلك، أذكر اسم الشخص الذي أثق ثقة تامة بأنه سيشهد في صالحي... «هل تحدّثت مع رودني؟ إنه المسؤول عن البار في مطعم سوشال».

«في واقع الأمر، تحدثنا إلى رودني. قال إنه يظنك -أقتبس كلامه- ‘أكثر من قادرة على ارتكاب جريمة قتل’ انتهى الاقتباس».

الطاقة التي جعلتني قادرة على إبقاءِ ظهري منتصبًا اختفت كلها، اختفت في لحظة واحدة. أستند بظهري إلى الكرسي وأنظر إلى يدَي في حجري. يدا عاملة، خادمة غرف. يدان عاملتان. يدان جافتان متشقّقتان على الرغم من كل ما أضعه عليهما من كريمات. أظافري قصيرة جدًّا. يدا امرأة أكبر كثيرًا من سنّي الحقيقية. من عساه يكون راغبًا في هاتين اليدَين وفي الجسد المتصل بهما؟ كيف استطعت التفكير في أن رودني يريدني؟

إن رفعت رأسي الآن ونظرت إلى المحقّقة ستارك، فأنا واثقة من أن الدموع ستنهمر من عينَي. لذا، أركز انتباهي على أباريق الشاي الصغيرة الحلوة على بيجامتي - وردي متألّق، وأزرق زاهٍ، وأصفر مثل النرجس البرّي.

عندما تنطق المحقّقة من جديد، يكون صوتها أكثر رقة من ذي قبل. أسمعها تقول لي: «وجدنا بصمات أصابعك في كل مكان في شقة السيد بلاك».

أجيبها: «من الطبيعي أن تكون موجودة هناك. أنظّف تلك الشقة كل يوم».

«هل تقومين أيضًا بتنظيف رقبة السيد بلاك؟ أقول هذا لأننا وجدنا آثار محلول التنظيف على رقبته».

«هذا لأنني تحقّقت من نبضه قبل أن أتصل طالبة العون».

«كانت لديك عدة خطط لقتله، يا مولي. فلماذا وقع اختيارك آخر الأمر على خنقه بدلًا من استخدام المسدس؟ هل ظننت حقًا أننا لن نستطيع أن نوقع بك؟».

لن أرفع رأسي ولن أنظر إليها. لن أرفع رأسي.

«وجدنا السلاح في مكنستك الكهربائية».

تقلصٌ عنيف في أحشائي. التنين يقطّعها ويقضمها بأسنانه. «كيف تعبثون بمكنستي الكهربائية؟».

«كيف تخبئين مسدسًا فيها؟».

نبضي في تسارع شديد. رودني هو الشخص الوحيد الذي عرف بأمر الخاتم والمسدس. لست قادرة على هذا. لست قادرة على تجميع تلك القطع في عقلي.

تقول المحققة ستارك: «لقد فحصنا بطاقة المفتاح الخاصة بالعاملات في خدمة الغرف. تبيّن لنا أن عليها آثار كوكايين. نعرف أنك لست العقل المدبر هنا، يا مولي. بكل بساطة أنت لست ذكية بما يكفي لأن تكوني كذلك. نعتقد بأن جيزيل عرَّفتك على السيد بلاك، وأنها استدرجتك حتى تعملي مع زوجها. نعتقد أيضًا بأنك كنت على معرفة جيّدة بالسيد بلاك،
وأنك كنت تساعدينه في إخفاء تجارة المخدرات المربحة التي كان يديرها انطلاقًا من الفندق. لا بد أن خلافًا قد وقع بينكما. لعلك غضبت منه وقررت الانتقام، فكان انتقامك بأن تسلبيه حياته. أو… أنك كنت تساعدين جيزيل في التخلص من ذلك الوضع الرديء. أيًا يكن الأمر، فأنت متورّطة. وكما قلتُ لك من قبل، يمكن لهذا أن يسير في طريق من طريقَيْن. تستطيعين الإقرار على الفور بأنك مذنبة في هذه الاتهامات كلّها، بما فيها جريمة القتل من الدرجة الأولى. وسوف يأخذ القاضي اعترافك السريع بالذنب بعين الاعتبار. إن من شأن تعبير مبكر عن الندم، وتقديم ما لديك من معلومات عن تجارة المخدرات الجارية في هذا الفندق، أن يكونا مما يفيدك كثيرًا في تخفيف الحكم الذي سيصدر في حقك».

أرى أباريق الشاي تتراقص في حجري. تتابع المحققة كلامها، لكن صوتها صار خافتًا في أذنيّ، صار يبتعد ويبتعد.

«أو... نستطيع أن نتخذ الطريق الأكثر طولًا، الأكثر بطئًا. نستطيع جمع مزيد من الأدلّة إلى أن نصل إلى المحكمة. وفي الحالتين، يا مولي، فإن أمرك بات مكشوفًا. فماذا تختارين؟».

أعرف أنني غير قادرة على التفكير الواضح. وأعرف أنني أجهل قواعد الإتيكيت الصحيحة عندما يجد المرء نفسه متهمًا بجريمة قتل. وعلى غير انتظار، أتذكّر مسلسل كولومبو.

أقول لها: «لقد قرأتم عليّ حقوقي في وقت سابق. كان ذلك عند باب شقتي. قلتم إن من حقي أن أستعين بمحامٍ. إذا استعنت بمحامٍ فهل أكون مضطرة إلى دفع أتعابه على الفور؟».

تفتح المحققة ستارك عينيها على اتساعهما - الغضب واضح فيهما على نحو لا أستطيع أن أخطئ رؤيته. تقول لي: «في الأحوال المعتادة، لا ينتظر المحامون استلام أتعابهم نقدًا على الفور».

أرفع رأسي وأنظر إليها مباشرة. أقول لها: «في هذه الحالة، أود إجراء اتصال هاتفي، من فضلك. أريد أن أكلم محاميًا».

تدفع المحققة ستارك بكرسيها إلى الخلف. تصدر قوائم الكرسي صوتًا مؤذيًا. أنا واثقة من أنها أضافت الآن خدوشًا جديدة إلى الخدوش الكثيرة الموجودة على الأرض. أراها تفتح باب غرفة الاستجواب وتقول شيئًا للشرطي الشاب الواقف حارسًا من خلفه. يخرج الشرطي من جيبه هاتفًا. يناولها إياه. إنه هاتفي. ماذا يفعل هاتفي في جيبه؟

تقول لي المحققة: «خذي». تضع الهاتف على الطاولة أمامي كأنها تقذف به قذفًا.

أقول لها: «لقد أخذتم هاتفي، من أعطاكم الحقّ في ذلك؟».

تتسع عينا المحقّقة ستارك. تقول لي: «أنتِ من أعطانا الحق. بعد إغمائك في الزنزانة، كنت مصرّة على أن نأخذ هاتفك تحسبًا لأن تجدي نفسك محتاجة إليه في وقت لاحق، حتى تتصلي بصديق».

الحقيقة أنني لا أتذكّر شيئًا. لكني أحسّ أمرًا غامضًا في أعماق وعيي.

أقول لها: «أشكرك شكرًا جزيلًا». ألتقط الهاتف وأضغط على مفتاحه. أبحث بين الأسماء الثمانية المسجلة فيه - جيزيل، جدتي، تشيريل غرين، مطعم حديقة الزيتون، السيد برستون، رودني، السيد روسو، السيد سنو. أفكر في من هو في صفّي حقًا... وفي من قد لا يكون في صفّي. تتداخل الأسماء أمام عينَي. أنتظر إلى أن تعود إليَّ الرؤية الواضحة. ثم أقرر، وأتصل. أسمع صوت الرنين. يفتح أحدهم الخط. أقول له: «سيد برستون».

«مولي! هل أنت بخير؟».

«أرجو أن تعذرني لأنني أزعجك في هذه الساعة غير المناسبة. أظنك الآن تستعد للذهاب إلى عملك».

«ليس الآن. لديّ اليوم نوبة عمل متأخرة، يا فتاتي العزيزة، ما الذي يجري؟».

تجول عيناي في الغرفة البيضاء كلها تحت نور مصابيح النيون المعلقة فوقي. أرى المحققة ستارك محدقة فيّ بعينيها الصقيعيتين. «الحقيقة هي... يا سيد برستون... هي أنني لست بخير. لقد اعتقلوني واتهموني بجريمة قتل. اتهموني بأشياء أخرى. أنا الآن موقوفة في مركز الشرطة القريب من الفندق. وأنا... لا أحب قول هذا، لكني في حاجة حقيقية إلى عونك».

الفصل السادس عشر

ما إن أُفرغ من كلامي مع السيد برستون حتى تمدّ لي المحقّقة ستارك يدها. في الحقيقة، لا أفهم ما تريده منّي. أمسك بكأس الستيروفوم الخالي وأناولها إياه ظانة أن كلامنا انتهى وأنها تريد تنظيف الطاولة.

تقول لي: «هل هذا مزاح؟ أتظنين الآن أنني صرت خادمتك؟».

أنا لا أظن هذا، بكل تأكيد. إذا كانت المحقّقة ستارك قريبة من مستوى خادمة نصف مقبولة، فلن تكون هذه الغرفة مثلما هي الآن - كلّها خدوش وآثار وبقع ولطخ. لو كان لدي منديل وزجاجة ماء، لا أكثر، لاستطعت قضاء الوقت في تنظيف زريبة الخنازير هذه.

تنتزع المحققة هاتفي من يدي.

أقول لها: «هل سأستعيد هاتفي؟ إن فيه أرقامًا مهمّة أكره أن أضيّعها».

تقول لي: «سوف تستعيدين هاتفك... يومًا من الأيام». تنظر إلى ساعتها، «إذًا، ألديك شيء آخر تريدين قوله أثناء انتظارنا وصول محاميك؟».

«أعتذر منك، أيتها المحقّقة. أرجو ألّا تأخذي صمتي على محمل شخصي. الحقيقة أنني ما كنت في يوم من الأيام صاحبة موهبة في ميدان الأحاديث الصغيرة. وعندما أجد نفسي مرغمة عليها، كثيرًا ما أقول أشياء خاطئة. وأما الأمر الثاني، فأنا مدركة أن لي الحق في أن ألتزم الصمت. سوف أبدأ استخدام هذا الحق منذ الآن».

تقول: «عظيم. أنت وما تريدين».

بعد زمن طويل بدا لي أبدًا شيطانيًا، أسمع نقرة قوية على الباب.

تقول المحققة ستارك: «ينبغي أن يكون هذا شيئًا مهمًا». تنهض عن كرسيها وتفتح الباب. إنه السيد برستون في ملابس مدنيّة. لم أره في ملابس غير معطف بواب الفندق وقبعته إلّا مرات نادرة. إنه الآن يرتدي قميصًا أزرق متقن الكيّ، ومن تحته بنطلون جينز داكن اللون. من خلفه امرأة ترتدي ملابس أكثر رسمية: بدلة أنيقة بحريّة اللون. في يدها حقيبة أوراق من جلد أسود. شعرها القصير المتموّج مصفَّف بكل عناية. عيناها البنيتان الداكنتان تشيان على الفور بهويتها لأنهما مثل عينَي أبيها تمامًا.

أقف لتحيتهما. أقول: «سيد برستون». لا أكاد أستطيع إخفاء ارتياحي لرؤيتهما. أتحرك بسرعة زائدة فيصطدم عظم وركي بحافة الطاولة. يؤلمني هذا الاصطدام لكنه لا يحول دون اندفاع الكلمات من فمي: «ما أسعدني بأنك هنا. أشكرك كثيرًا لأنك أتيت. المسألة هي أنني متهمة بأشياء فظيعة. في حياتي كلها، لم أسبب الأذى لأحد من الناس، ولم أمسّ المخدرات طيلة عمري. المرة الوحيدة التي حملت فيها سلاحًا كانت...».

تقاطعني ابنة السيد برستون وتقول: «مولي، أنا شارلوت. نصيحتي المهنية لك هي أن تظلّي الآن صامتة. أوه... أنا مسرورة جدًا بلقائك. يحكي لي أبي عنك كثيرًا».

تقول المحقّقة ستارك: «من الأفضل أن يكون واحد منكما محاميًا، وإلّا فسوف أفقد صبري».

تتقدّم منها شارلوت. كعباها العاليان يضربان الأرض الصلبة الباردة مصدرَيْن صوتًا مسموعًا. تقول لها: «أنا هي المحامية. أنا شارلوت برستون من شركة بيلينغز وبرستون وغارسيا للمحاماة». تقدّم بطاقتها إلى المحققة.

يقول لي السيد برستون: «يا فتاتي العزيزة. نحن الآن هنا. لا تقلقي أبدًا. هذا كله ليس أكثر من...».

تقول شارلوت: «بابا!».

يجيبها: «آسف، آسف»، ثم يطبق فمه.

«مولي، هل أنت موافقة على أن أمثّلك؟».

لا أنبس ببنة شفة.

تستحثني قائلة: «مولي؟».

«أمرْتِني بألّا أتكلّم. هل أتكلّم الآن؟».

«اقبلي اعتذاري. لم أكن واضحة. تستطيعين الكلام، لكن عليك ألّا تقولي شيئًا ذا صلة بالتهم الموجهة إليك. اسمحي لي أن أسألك من جديد: هل تقبلين أن أمثلك؟».

أقول: «أوه، نعم. سيكون هذا عونًا كبيرًا لي. هل نستطيع مناقشة خطة دفع الأتعاب في وقت أكثر ملاءمة من الآن».

يسعل السيد برستون في يده.

«ليتني أستطيع إعطاءك منديلًا يا سيد برستون. لكنني أخشى أنه ليس لديّ منديل أعطيك إياه».

أنظر إلى المحقّقة ستارك فأراها تهزّ رأسها.

تقول شارلوت: «أرجو ألا تشغلي بالك الآن بمسألة دفع الأتعاب. دعينا نكتفي بالتركيز على مهمّة إخراجك من هذا المكان».

«هل تعرفين أن إطلاق سراحها يستدعي إيداع كفالة بقيمة 800,000 دولار؟ والآن، دعيني أرى...». تضع المحقّقة ستارك يدها على شفتيها، «أظن أنه مبلغ أعلى كثيرًا مما تكسبه خادمة ومما قد يكون في حوزتها. فهل أنا مصيبة في هذا؟».

تقول شارلوت: «أنت مصيبة، أيتها المحقّقة. كثيرًا ما تكون أجور الخادمات والبوابين منخفضة جدًا، وكثيرًا ما يُساء تقديرهم. ولكن، ماذا عن المحامين؟ نحن نجني مالًا. نجني مالًا أكثر من

المحققين. هكذا قيل لي. لقد قمت شخصيًا، منذ البداية، بإيداع الكفالة لدى الموظف المسؤول».
أراها تبتسم للمحقّقة ستارك. أستطيع أن أُبصر، وأن أكون متأكدة مئة بالمئة، أنها ليست ابتسامة وديّة.

تلتفت شارلوت صوبي. تقول لي: «مولي، لقد رتّبت الأمر بحيث تمثُلين في وقت لاحق من هذا الصباح أمام القاضي الذي يقرّر إخلاء سبيلك. ليس مسموحًا لي أن أمثّلك هناك. لكني قدّمت بضع خطابات من أجلك».

أسألها: «خطابات؟».

«نعم. خطاب من أبي الذي قدّم إفادته الشخصية، وخطاب آخر منّي يقول إنني سأسدّد مبلغ الكفالة. إذا سارت الأمور سيرًا حسنًا، فسوف يُخلى سبيلك بعد ظهر هذا اليوم».

أسألها: «أصحيح هذا؟ هل الأمر بهذه البساطة؟ هل يخلون سبيلي وينتهي الأمر كله؟». تتنقل عيناي بينها وبين السيد برستون.

تقول المحقّقة ستارك: «لا تظنّي هذا. حتى إذا تمكّنوا من إخلاء سبيلك الآن، فسوف يظلّ عليك أن تخضعي للمحاكمة. لا يعني ما سمعته أننا سنسقط الاتهامات الموجّهة إليك».

تسألني شارلوت: «هل هذا هاتفك؟».

أجيبها: «نعم».

«سوف تحرصين على إبقائه مقفلًا في مكان آمن، أليس كذلك، أيتها المحقّقة؟ لن تستخدمي المعلومات التي فيه أدلّةً في هذه القضية».

تظل المحقّقة ستارك صامتة بضع لحظات. يدها على خصرها. «هذه ليست أول قضية أتولاها. إن معي مفتاح بيتها أيضًا. وبالمناسبة، هي التي أصرّت على أن أحتفظ به عندما فقدَت وعيها».

تخرج المحقّقة مفاتيحي من جيبها وتلقي بها على الطاولة. لو كان معي منديل معقم لرفعت المفاتيح وعقمتها من غير تأخير.

تقول شارلوت وهي تأخذ هاتفي ومفاتيحي: «عظيم. سوف نكلّم الموظف الذي عندكم ونحرص على أن يسجل الهاتف والمفاتيح مقتنيات شخصية، لا أدلة».

تقول المحققة ستارك: «جيد».

ينظر السيد برستون إليَّ. حاجباه منعقدان معًا. لعل هذه علامة على التركيز الشديد، لكني أرجّح أن يكون قلقًا.

يقول لي: «لا تقلقي. سوف نكون في انتظارك بعد مثولك أمام القاضي».

تضيف شارلوت: «نراك في الناحية الأخرى»، ومع قولها هذا، يستديران ويخرجان.

بعد ذهابهما، تظلّ المحقّقة ستارك واقفة هناك، عاقدة ذراعَيها على صدرها، محدّقة فيّ.

أسألها: «ماذا سيحدث الآن؟». أجد صعوبة في التنفس.

تجيبني المحقّقة ستارك: «ستعودين أنت وأباريق الشاي التي عليك إلى زنزانة التوقيف الساحرة، ثم تنتظرين هناك صابرة إلى أن يحين وقت مثولك أمام القاضي».

أنهض واقفة وأسوّي بيجامتي. الشرطي الشاب في الخارج جاهز لمرافقتي في طريق عودتي إلى زنزانتي الفظيعة.

أقول للمحقّقة قبل خروجي: «أشكرك جزيل الشكر».

تسألني: «من أجل ماذا تشكرينني؟».

«أشكرك على المافن والقهوة. أتمنى لك صباحًا سارًا أكثر من صباحي».

الفصل السابع عشر

أحسّ قدرًا كبيرًا من الغرابة لأنني لا أزال أرتدي البيجاما في فترة بعد الظهر. يرهق أعصابي إرهاقًا خاصًا أن أكون مرتدية هذه الملابس في المحكمة لأنها غير مناسبة على الإطلاق. تلطّفَ واحد من عناصر الشرطة لدى المحقّقة ستارك فجلبني بالسيارة إلى المحكمة منذ نحو ساعة. وأنا الآن جالسة في مكتب مهلهل في مبنى المحكمة، وإلى جانبي رجل في أول شبابه سوف يكون المحامي الذي يمثلني في هذه الجلسة. سألني عن اسمي، واستعرض الاتهامات الموجهة إليَّ، وقال إنهم سوف يستدعوننا إلى قاعة المحكمة عندما يكون القاضي مستعدًا. بعد ذلك، زعم أن لديه إيميلات يريد أن يقرأها. أخرج هاتفه وظل انتباهه كلّه منصبًّا عليه ما لا يقل عن خمس دقائق. ما كانت لديّ أية فكرة عما أستطيع فعله خلال ذلك الوقت. لا أهميّة للأمر. سوف يتيح لي هذا متسعًا كافيًا لأن أستجمع شتات نفسي.

أعرف مما رأيته في التلفزيون أن عليَّ -بما أنني متهمّة- أن أكون مرتدية بلوزة نظيفة مزرّرة من أسفلها إلى أعلاها، وبنطلونًا رسميًا. أنا واثقة تمامًا من أنني لا ينبغي أن أكون مرتدية هذه البيجاما. أقول للمحامي الشاب: «عفوًا، هل من الممكن أن أذهب إلى البيت وأبدل ملابسي قبل بدء الجلسة؟».

يتغضّن وجهه عجبًا. يجيبني: «هل أنت جادة في هذا؟ هل تعرفين كم أنت محظوظة بأن يراك القاضي اليوم؟».

أقول له: «أنا جادة. جادة تمامًا».

يضع هاتفه في جيب سترته. «واو! هل تعرفين أنني أستطيع الآن أن أخبرك شيئًا مهمًا عنك؟».

أجيبه: «رائع. من فضلك، أخبرني فورًا».

لكنه لا ينطق بأيّة كلمة. يكتفي بالنظر إليَّ فاتحًا فمه. بكل تأكيد، يعني هذا أنني أخطئ في أمر من الأمور، لكنني لا أعرف في أي شيء أخطأت.

بعد لحظات من ذلك، يبدأ المحامي بطرح أسئلته عليَّ: «هل أمضيت أية فترة بالسجن في ما مضى؟».

أقول: «ليس قبل هذا الصباح».

يقول: «ذلك ليس سجنًا. السجن أسوأ كثيرًا. هل لديك سوابق جنائية؟».

«سجلّي نظيف تمامًا. أشكرك جزيل الشكر».

«هل تفكّرين في أية خطط لمغادرة البلاد؟».

«آه، نعم. أحب أن أزور جزر كايمان في يوم من الأيام. سمعت أنها جميلة. هل زرتها؟».

يقول لي: «ما عليك إلّا أن تقولي للقاضي إنك لا تعتزمين مغادرة البلاد. لا تقولي شيئًا غير هذا».

«مثلما تريد».

«لن تستغرق الجلسة زمنًا طويلًا. هذه الجلسات متشابهة كلّها، حتى في القضايا الجنائية... مثل قضيّتك. سأحاول الحصول على قرار بإخلاء سبيلك بموجب كفالة. وأنا أفترض أنك لست مذنبة -مثل أي شخص آخر يوجه إليه اتهام- وأنك تريدين أن يخلي القاضي سبيلك بكفالة لأن ما من أحد غيرك يرعى جدتك المسكينة الفقيرة، أليس الأمر هكذا؟».

أقول: «كنت أرعاها. لكني ما عدت كذلك. لقد ماتت. وأما من ناحية أخرى، فأنا لست مذنبة في أيّ من الاتهامات الموجهة إلي».

يجيبني: «صحيح، بالطبع».

أنا ممتنة لهذا التعبير الفوري للثقة من جانبي.

أهمّ بالمضي في سرد تفاصيل براءتي التامة، لكن هاتفه يهتز في جيبه. يقول لي: «حان دورنا. فلندخل».

يقودني فنخرج من غرفة المكتب الصغيرة، ثم نسير في ممر، وندخل في قاعة أكبر كثيرًا من الغرفة التي تركناها، قاعة فيها صفوف من المقاعد يتوسطها ممر عريض. أسير معه في الممر حتى نبلغ صدر قاعة المحكمة. في لحظة واحدة، أتخيّل قاعة مثل هذه القاعة فيها ممر مثل هذا الممر، لكنها قاعة مختلفة كثيرًا. ففي خيالي، أرى نفسي عروسًا سائرة في الممر، وإلى جانبي رجل ليس غريبًا أبدًا، بل شخص أعرفه حق المعرفة.

يقول المحامي الشاب مقاطعًا خيالي المحلّق مقاطعة فظّة: «اجلسي!». يشير إلى كرسي عند طاولة إلى يمين منصّة القاضي.

لحظة جلوسي، تدخل المحقّقة ستارك قاعة المحكمة وتجلس في كرسي مثل الكرسي الذي جلست فيه، عند طاولة مثل الطاولة التي جلست خلفها، لكن إلى الجهة الأخرى من الممر.

أحس الارتعاش يعاودني. أضم يدَيّ بقوة في حجري حتى أمنعهما من الارتعاش.

يقول أحدهم: «فلينهض الجميع». أحس يدّ المحامي الشاب على مرفقي كأنه يقول لي إن عليَّ أن أنهض واقفة.

يدخل القاضي من باب في آخر قاعة المحكمة، ويتهادى سائرًا إلى منصته العالية. يجلس من خلفها مطلقًا تأوهًا مسموعًا.

لا أريد الإساءة عندما أقول إنه يذكّرني بالضفدع البرازيلي ذي البوق. تابعت مع جدتي برنامجًا وثائقيًا رائعًا عن الغابات المطيرة في حوض نهر الأمازون، وعن الضفدع البرازيلي ذي البوق. مخلوق غريب جدًّا له فم طويل مقلوب إلى الأسفل وحاجبان ناتئان منتصبان فوق عينيه... تمامًا مثل هذا القاضي الجالس قبالتي.

وعلى الفور، تبدأ مجريات الجلسة. يطلب القاضي من المحقّقة ستارك أن تتكلّم. تقف المحقّقة وتعرض الاتهامات الموجهة إليّ. تقول أشياء كثيرة عن قضية السيد بلاك، وعن تورطي فيها. يجعلني كلامها أبدو شخصًا لا يمكن الركون إليه. لكن خاتمة كلامها اللاذعة هي
ما تجرحني أكثر من أي شيء تذكره.

أسمعها تقول: «يا سعادة القاضي! إن الاتهامات الموجهة إلى مولي غراي خطيرة جدًا. ومع إدراكي أن المتهمة الماثلة أمامكم تبدو صورة للبراءة، صورة موحية بأنها لا يمكن أبدًا أن تفرّ من وجه العدالة، فقد أثبتت لنا أنها شخص غير موثوق أبدًا. إنها مثل فندق ريجنسي غراند، حيث تعمل. من حيث المظاهر كلها، يبدو ذلك المكان فندقًا ممتازًا، رفيع المستوى. لكننا، كلما تعمّقنا في تفاصيل حياة مولي وفي تفاصيل مكان عملها، كلما اكتشفنا مزيدًا من القذارة».

لو كنت قادرة، ولو كان موقعي يسمح لي بهذا، لضربت الطاولة بمطرقة القاضي وصحت: «أعترض»، تمامًا مثلما أراهم يفعلون في التلفزيون.

لا يأتي القاضي بأيّة حركة، لكنه يقاطعها ويقول لها: «أيتها المحقّقة ستارك، أذكّرك بأن الفندق ليس موضوع هذه الجلسة، وبأن من غير الممكن أن نحاكم فندقًا. من فضلك، هل تستطيعين الوصول إلى خلاصة الأمر؟».

تسعل المحقّقة ستارك سعلة صغيرة. تقول: «خلاصة الأمر هي أننا بدأنا نشك في طبيعة العلاقة بين مولي غراي والسيد بلاك. لقد جمعنا أدلة مهمّة عن نشاط غير قانوني كان جاريًا بين السيد بلاك وخادمة الغرف الشابة التي تبدو بريئة، هذه الخادمة الماثلة أمامكم. أنا لست مطمئنة إلى استقامتها الأخلاقية وإلى قدرتها على التقيّد بأحكام القانون. بكلمات أخرى، إنها يا سعادة القاضي، مثال واضح على المظاهر الخدّاعة».

أحسّ كلامها إهانة كبيرة جدًا. قد تكون لي أخطائي، لكن قولها إنني لا أتقيّد بالقواعد ليس إلّا هراء... ليس إلّا كلامًا فارغًا. إنني أكرّس لهذا الأمر حياتي كلّها، وأتقيّد بالقواعد كلّها، حتى عندما تكون غير مناسبة لي على الإطلاق.

يشير القاضي إلى المحامي الشاب بأن يتكلم نيابة عنّي. يتكلّم بسرعة، ويلوح بيديه على نحو دراماتيكي. يوضح للقاضي إن سجلي الجنائي نظيف تمامًا، وأنني أعيش حياة لا يحدث فيها شيء، حياة خالية إلى حدّ محزن، وأنني أعمل بأجر في وظيفة وضيعة لا توفّر لي دخلًا يسمح لي بأن أفرّ من البلاد، وأنني لم أسافر إلى الخارج طيلة حياتي كلّها، فضلًا عن حقيقة أنني أعيش في الشقة نفسها منذ خمس وعشرين عامًا - أيّ طيلة عمري.

وعلى سبيل الختام، يطرح المحامي سؤالًا: «هل تجدون في هذه الشابة أي شيء متفق مع صورة مجرمة خطيرة يمكن أن تفرّ من وجه العدالة؟ أعني، هل ترون شيئًا من هذا؟ انظروا مليًّا إلى هذه الفتاة الماثلة أمامكم. إن الفكرتَيْن غير منسجمتَين على الإطلاق».

ذقن القاضي الشبيهة بذقن الضفدع مستندة إلى يديه. جفنا عينَيه مسدلان. عيناه نصف مغمضتَين. أسمعه يسأل: «من أودع الكفالة؟».

يجيبه المحامي الشاب: «بعض معارف المتهمة».

ينظر القاضي في ورقة أمامه، «شارلوت برستون». تنفتّح عينا القاضي قليلًا. ينظر إليَّ ويقول: «أرى أن لك أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة».

أجيبه: «ليس في الأحوال العادية، يا سعادة القاضي. وأما في الآونة الأخيرة، فنعم.
وأيضًا، أودّ الاعتذار منكم لأن ملابسي غير مناسبة أبدًا. لقد اعتقلوني عند باب بيتي في ساعة غير ملائمة، في ساعة مبكرة جدًا في الصباح. لم تتح لي فرصة ارتداء ملابس محترمة تليق بمحكمتكم».

لست أدري إن كان جائزًا لي أن أتكلّم، لكن الأوان قد فات. فم المحامي الشاب مفتوح دهشة؛ لكنني لا أستطيع أن أستنتج من مظهره ما ينبغي عليَّ فعله، أو ما ينبغي عليَّ قوله.

يتكلّم القاضي بعد لحظة صمت طويلة. يقول: «يا آنسة غراي، لن نحكم عليكِ استنادًا إلى أباريق الشاي على بيجامتك، بل استنادًا إلى تقديرنا مقدار استعدادك للتقيّد بالأنظمة وعدم الفرار من وجه العدالة». يرتفع حاجباه الكبيران كأنهما يؤكّدان على كلماته.

«هذه أخبار حسنة، يا سعادة القاضي. الحقيقة هي أن التقيّد بالقواعد والقوانين واحدة من مواهبي».

يجيبني: «يسرّني سماع هذا».

يظلّ المحامي الشاب على صمته. أراه لا ينطق بكلمة واحدة دفاعًا عني، فأتابع كلامي: «يا سعادة القاضي، اعتبر حظي وافرًا لأن لي بضعة أصدقاء من منزلة أعلى كثيرًا من منزلتي؛ لكني لست إلّا خادمة في فندق، كما ترى. أعمل في خدمة الغرف. وقد اتهموني ظلمًا».

«أنت لا تُحاكمين اليوم، يا آنسة غراي. يجب أن تدركي أن تحركاتك ستكون مُقيّدة إذا قررنا إخلاء سبيلك بكفالة. البيت، والعمل، وهذه المدينة فقط».

«يلخّص هذا، تلخيصًا دقيقًا، مجال حركتي كلّها حتى هذه اللحظة من حياتي -يا سعادة القاضي- باستثناء برامج الطبيعة والرحلات التي أتابعها في التلفزيون. أظنها لا علاقة لها بالأمر لأنني أذهب إلى تلك الأماكن كلها وأنا جالسة على أريكتي المريحة نسبيًا. لا نيّة لي، ولا مال عندي، لتوسيع نطاق حركتي الجغرافي. ثم إنني لا أعرف كيف أسافر وحدي. وسوف أكون قلقة لأنني لا أعرف القواعد والنظم في أماكن غريبة عنّي. في هذه الحالة، سأجعل من نفسي... نعم، سأجعل من نفسي أضحوكة». أتوقّف عن الكلام، لكني لا ألبث أن أتذكّر ما سَهوْت عنه، فأضيف: «يا سعادة القاضي».

تعوجّ زاوية فم القاضي الطويل الشبيه بأفواه البرمائيات، اعوجاجًا يكاد يكون موحيًا بابتسامة.

أسمعه يقول لي: «لا أحب أن يجعل أيٌّ من الحاضرين هنا من نفسه أضحوكة». ينظر إلى المحقّقة ستارك التي أراها -للمرة الأولى منذ بداية الجلسة- لا تنظر في عينَيْه.

يقول القاضي معلنًا: «آنسة غراي، إنني أمنحك إخلاء سبيل مشروطًا بالكفالة. أنت الآن حرّة».

الفصل الثامن عشر

في آخر المطاف، وبعد انتظار طويل، وبعد عدد كبير من الأوراق والإجراءات الشكليّة، وجدتُ نفسي جالسة في مقعد جلديّ وثير هو المقعد الخلفي في سيارة فخمة، سيارة شارلوت برستون. أخذوني، بعد خروجي من قاعة المحكمة، إلى موظفة هناك قالت إنها على معرفة جيّدة بشارلوت، وإنها ستوصلني إليها آمنة. قادتني إلى باب خلفي كان كلٌّ من السيد برستون وابنته في انتظاري عنده، مثلما وعداني. أخذاني معهما في هذه السيارة. لقد صرت حرّة؛ الآن، على الأقل.

تُنبئني لوحة العدادات في سيارة شارلوت بأن الساعة قد بلغت الواحدة ظهرًا، أظنها سيارة مرسيدس. لكني لم أمتلك سيارة في حياتي كلّها، ولا أجلس في سيارة إلّا في حالات نادرة. لذا، لست على دراية بأنواع السيارات الفخمة. شارلوت تقود السيارة؛ والسيد برستون جالس إلى جانبها.

أنا شديدة الامتنان لأنني جالسة في هذه السيارة، لا في قاعة المحكمة، ولا في زنزانة التوقيف القذرة في قبو مركز الشرطة. أظن أن من الأفضل لي أن أركّز على الجانب المشرق، وأن أبتعد عما هو مزعج. مررت اليوم بتجارب كثيرة، بتجارب جديدة. كانت جدّتي تقول إن التجارب الجديدة تفتح أبوابًا مفضية إلى تطور الشخصية ونموّها. لست واثقة من أنني استمتعت بالأبواب التي انفتحت اليوم، ولا بالتجارب التي مررت بها. لكني آمل أن تؤدّي إلى تطوّر شخصيّ على المدى البعيد.

«بابا، إن هاتف مولي ومفاتيحها معك، أليس كذلك؟».

يجيب السيد برستون،: «آه، صحيح. أشكركِ لأنك ذكّرتني». يُخرج الهاتف والمفاتيح من جيبه. يلتفت إليَّ ويضعها في يدي.

أقول له: «أشكرك، يا سيد برستون».

في تلك اللحظة، ينبثق سؤال في ذهني: «أأستطيع سؤالكما عن المكان الذي نحن ذاهبون إليه؟».

تقول شارلوت: «ذاهبون إلى بيتك، يا مولي. سوف نأخذك إلى البيت».

يلتفت السيد برستون في مقعده، وينظر في عينَيَّ. يقول لي: «الآن، لا تقلقي يا مولي. سوف تساعدك شارلوت في الخروج من هذه المحنة، سوف تساعدك عن طيب خاطر. لن نتوقّف قبل أن يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي، تمامًا مثلما كان».

أسأله: «لكن، ماذا عن مبلغ الكفالة؟ ليس عندي ولو حتى جزءًا بسيطًا من ذلك المال».

تقول شارلوت من غير أن ترفع عينيها عن الطريق أمامها: «هذه ليست مشكلة، يا مولي. لم أكن مضطرة إلى دفع ذلك المبلغ. لن أكون مضطرة إلى دفعه إلّا إذا فررتِ».

أميل صوبهما عبر الفراغ بين المقعدين الأماميين وأقول: «جيد. لن أفرَّ أبدًا».

تقول شارلوت: «الظاهر أن القاضي العجوز وايت استطاع أن يتوصّل سريعًا إلى هذا الاستنتاج... أو هكذا قيل لي».

يسألها السيد برستون: «كيف سمعت ذلك بهذه السرعة؟».

«الموظفون، والمعاونون، والصحافيون الذين في المحكمة. الناس يتكلّمون. أحسِنْ معاملتهم، وسوف تجدهم يخبرونك بكل شيء. مع هذا، لا يعيرهم أكثر المحامين اهتمامًا».

يقول السيد برستون: «هكذا هو العالم».

«مؤسف أنه هكذا. قالوا لي أيضًا إن القاضي وايت لن يستعجل الكشف عن اسم مولي أمام الصحافة. يبدو لي القاضي مدركًا أن المحقّقة ستارك أخطأت الهدف».

أقول: «لست أدري كيف يمكن أن يحدث أيّ شيء مما حدث لي. لست إلّا خادمة في فندق تحاول أداء عملها على أحسن نحو تستطيعه. أنا... أنا لست مذنبة في أيّ شيء مما يتّهمونني به».

يقول السيد برستون: «نحن واثقان من هذا، يا مولي».

تضيف شارلوت: «أحيانًا، لا تكون الحياة منصفة. إن كنتُ قد تعلّمت شيئًا خلال سنوات عملي في المحاماة، فهو أن هناك مجرمين كثيرين مستعدّين لاستغلال الأشخاص المختلفين عنهم من أجل مصلحتهم الشخصيّة».

يستدير السيد برستون في اتجاهي مرّة أخرى وينظر إليّ. غضون عميقة ظاهرة في جبهته.

يقول: «لا بد أن حياتك من غير جدتك قد صارت صعبة. أعرف أنك كنت تعتمدين عليها كثيرًا. هل تعرفين أنها، قبل موتها، طلبت مني أن أهتم بك».

أقول: «هل طلبت منك هذا؟ أشكرك. أشكرك لأنك تهتم بأموري». كم أتمنى لو أن جدتي معي الآن. أدير وجهي وأنظر إلى الخارج عبر الدموع التي بدأت تنساب من عينَيّ.

يجيبني السيد برستون: «نعم، يسرّني هذا».

تظهر لي بنايتي أمامنا. لا شك عندي أبدًا في أنني لم أُسعد يومًا لرؤيتها مثلما أجد نفسي سعيدة الآن.

«سيد برستون، هل تظن أن من الملائم أن أذهب اليوم إلى عملي كالمعتاد؟».

تلتفت شارلوت إليَّ، ثم تعود عيناها إلى الطريق.

يجيبني السيد برستون: «لا، يا مولي. سيكون أمرًا متوقّعًا أن ترتاحي حينًا من الزمن».

«أليس من الأفضل أن أتصل بالسيد سنو؟».

«لا، ليس في هذه الحالة. من الأفضل الآن ألّا تتصلي مع أي شخص في الفندق».

أقول: «هناك موقف سيارات للزائرين خلف بنايتي. لم أستخدمه أبدًا لأن أكثر الزائرين الذين كنت استقبلهم مع جدتي كانوا من أصدقائها؛ وما كانت لديهم سيارات».

تسألني شارلوت وهي تنعطف لكي توقف السيارة في مساحة خالية: «ألا تزالين على صلة بهم؟».

أجيب: «ليس بعد أن ماتت جدتي».

تتوقف السيارة، ونخرج منها، فأتقدّمهما إلى مدخل البناية. أشير إلى السلم، وأقول لهما: «من هنا».

تسألني شارلوت: «أليس لديكم مصعد؟».

أجيبها: «للأسف، لا».

نصعد السلم صامتين حتى نصل إلى طابقي، ثم نسير في الممر متّجهين إلى شقتي. أرى السيد روسو خارجًا من شقته.

يقول مشيرًا إليَّ بسبابته الغليظة: «أنتِ! لقد أتيتِ بالشرطة إلى هذه البناية! لقد اعتقلوك! مولي، أنت لست جيّدة، ولا تستطيعين الإقامة هنا بعد الآن. إنني أطردك من هذه الشقة. هل تسمعين؟».

أحسّ يدًا تمس ذراعي قبل أن أفلح في قول أي شيء. تتقدّمني شارلوت وتقف على مسافة إنشات قليلة من السيد روسو.

«أظنك مالك هذه الخرابة - أعني، مالك الشقة!».

ينفخ السيد روسو مستاء مثلما يفعل كلما قلت له إنني سأتأخر قليلًا عن دفع الإيجار.

يقول لها: «أنا مالك الشقة، فمن تكونين؟».

تجيبه شارلوت: «أنا محامية مولي. أنت تدرك أن هذه البناية مخالفة لعدد من الأنظمة والقوانين، أليس كذلك؟ باب الحريق معطوب، ومساحات وقوف السيارات ضيقة جدًا. ثم إن بناية سكنية فيها أكثر من خمسة طوابق ينبغي أن يكون فيها مصعد صالح للاستخدام».

يقول السيد روسو: «هذا مكلف كثيرًا».

«أنا واثقة من أن مفتشي المدينة يسمعون هذه الحجة دائمًا. دعني أقدّم لك نصيحة قانونية مجانية. قل لي اسمك مرة أخرى».

أتطوّع بالإجابة: «إنه السيد روسو».

تجيب شارلوت: «شكرًا، يا مولي. سوف أتذكر هذا الاسم».

تلتفت إليه من جديد: «إذًا، نصيحتي المجانية هي: لا تفكّر في موكّلتي؛ ولا تتكلّم عليها بالسوء؛ ولا تضايق موكلتي أو تهددها بالإخلاء أو بأي شيء آخر. إلى أن تسمع مني شيئًا غير هذا، سوف يظلّ من حقها أن تبقى هنا، تمامًا مثل أي شخص آخر. هل فهمت هذا؟ هل هو واضح؟».

صار وجه السيد روسو أحمر داكنًا. أتوقّع أن أسمعه يقول شيئًا، لكن صمته يفاجئني. يكتفي بأن يومئ برأسه، ثم يعود فيدخل شقته ويغلق بابها من خلفه بكل هدوء.

يبتسم السيد برستون لشارلوت ويقول: «هذه هي ابنتي».

أبحث عن مفاتيحي. أفتح باب الشقة.

إن من أعظم فضائل نظام التنظيف اليومي الذي وضعَته جدتي هو بقاء الشقة في حالة مناسبة جدًا لاستقبال أي زائرين غير متوقّعين، مع أنني لا أستقبل أحدًا في الأحوال العادية. فباستثناء زيارة الشرطة غير المرغوب فيها في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم، وباستثناء زيارة جيزيل التي فاجأتني كثيرًا يوم الثلاثاء، هذه واحدة من المرّات القليلة التي تتاح لي فيها فرصة الاستفادة من هذه المزية.

أقول: «تفضلا بالدخول». أنظر إلى شارلوت والسيد برستون وأشير إليهما بالدخول. لا أخرج خرقة تلميع الأحذية من الخزانة لأن قدمَيَّ لا تزالان في الشبشب المنزلي: نعلاه من مادة إسفنجية لا فائدة من مسحها بالخرقة. بدلًا من ذلك، أتناول من خزانة الأحذية كيس نايلون وأضع فيه الشبشب حتى أنظفه في وقت لاحق. يختار السيد برستون وشارلوت أن يدخلا بحذائيهما، لكن هذا لا يزعجني لأنني الآن شديدة الامتنان لهما.

أسأل شارلوت: «ألا آخذ عنك حقيبتك؟ الخزانة صغيرة، لكني ماهرة في ترتيب أشياء كثيرة فيها».

تقول لي: «في واقع الأمر، سوف أكون في حاجة إليها... حتى أسجل ملاحظاتي».

أقول: «بالطبع». لكني أحسّ بالأرض تهتز تحت قدميَّ، فقد أدركت الآن سبب مجيئها، وفهمت ما سوف يحدث بعد قليل. حتى هذه اللحظة، كنت أحاول التركيز على هذه المتعة الجديدة، متعة استقبال زائرين - زائرين ودودين؛ زائرين يساعدونني. وكنت أحاول تجاهل حقيقة أنه سيكون عليَّ، في وقت قريب جدًّا، أن أفكر تفكيرًا أعمق في كل ما جرى معي اليوم، وفي كل ما أدى إلى ما جرى معي اليوم. سيكون عليَّ أن أكشف عن تفاصيل كثيرة، وأن أتذكّر أمورًا لا أحب التفكير فيها. سأكون مضطرّة إلى شرح كل ما اتخذ مسارًا غير صحيح. سيكون عليَّ انتقاء ما يجدر بي قوله.

أبدأ بالارتجاف ارتجافًا واضحًا لحظة بدأت هذه الأفكار تتوارد إلى ذهني.

يقول السيد برستون واضعًا يده على كتفي: «يا مولي، هل يزعجك أن أذهب إلى المطبخ حتى أعدّ لنا جميعًا إبريق شاي؟ سوف تخبرك شارلوت أنني ماهر جدًا في إعداد الشاي... على أيّة حال، ماهر جدًا بالنسبة إلى رجل عجوز مثلي».

تدخل شارلوت غرفة المعيشة. تقول لي: «إنه يستطيع إعداد فنجان شاي رائع، والدي هذا. اتركي الأمر له. وأما أنت، يا مولي، ففي وسعك الآن أن تذهبي وتغتسلي. أنا واثقة من أنك شديدة التوق إلى تبديل ملابسك».

أنظر إلى بيجامتي وأقول: «بكل تأكيد، أريد تبديل ملابسي. لن أستغرق وقتًا طويلًا».

«لسنا في عجلة من أمرنا. سنكون هنا عندما تكونين جاهزة».

أستطيع سماع السيد برستون يتحرّك في المطبخ ويدندن لنفسه بلحن. أظل واقفة في الممر. بكل تأكيد، هذه مخالفة للبروتوكول اللائق. ينبغي أن يجلس الضيوف مرتاحين في غرفة المعيشة، وأما أنا فعليَّ أن أعتني بهم، لا أن أتركهم يعتنون بي.

مع هذا، حقيقة الأمر هي أنني غير قادرة على اتباع البروتوكول الصحيح في هذه اللحظة. لا أكاد أقوى على التفكير الواضح. أعصابي مرهقة كثيرًا. تنضم شارلوت إلى السيد
برستون في المطبخ وأنا لا أزال واقفة في ممر شقتي، عاجزة عن الحركة. يثرثران ويتبادلان أطراف الحديث مثل عصفورَيْن واقفين على سلك. يبعث صوتاهما في نفسي بهجة كبيرة... كأنهما أمل وضياء شمس. أتساءل لحظة عما فعلته حتى أستحق هذا الحظ الطيب، حتى أستحق وجودهما معًا في بيتي. تستعيد ساقاي قدرتهما على الحركة، فأسير إلى المطبخ وأقف بالعتبة. أقول: «الشكر لكما! لا أستطيع وفاءكما حقكّما من الشكر على...».

يقاطعني السيد برستون: «وعاء السكر؟ أعرف أنه ينبغي أن يكون موجودًا هنا، في مكان من الأماكن».

أقول: «هو في الخزانة إلى جوار الموقد. على الرف الأول».

«إذًا، انطلقي... هيا! اتركي الباقي لنا».

أستدير وأذهب إلى الحمام حيث أستحم سريعًا. يسعدني أن لديَّ اليوم ماء حارًا كما ينبغي. ويفرّج عني أن أدعك جلدي حتى أزيل عنه أوساخ المحكمة ومركز الشرطة. أدخل غرفة المعيشة بعد دقائق معدودة مرتدية بلوزة بيضاء ذات أزرار ومن تحتها بنطلونًا أسود. أشعر بأنني صرت أحسن حالًا.

السيد برستون جالس على الأريكة، وشارلوت جالسة قبالته على كرسيّ أتت بها من المطبخ. لقد عثر في الخزانة على صينية جدتي الفضية، الصينية التي اشتريناها بسعر اقتصادي جدًا من متجر للأشياء المستعملة- اشتريناها منذ زمن بعيد بعيد. ما أغرب أن أرى هذه الصينية بين يديه الضخمتين، الذكوريتين. لوازم الشاي كلها مرتبة على الطاولة أمام الأريكة. هذا ترتيب يدّ خبيرة.

«أين تعلمت تقديم الشاي بهذه الطريقة، يا سيد برستون؟».

يقول: «لم أكن بوّابًا طيلة حياتي. كان عليَّ أن أشق طريقي صعودًا حتى أصل إلى هذه الوظيفة. كان عليَّ أيضًا أن أفكر جيدًا. لديَّ الآن ابنة تعمل محامية». تشرق عيناه عندما ينظر إلى ابنته. هذه نظرة تذكّرني بجدتي، تذكرني كثيرًا. أود أن أبكي.

يسألني السيد برستون: «ألا أسكب لك فنجان شاي؟». لا ينتظر إجابتي... «قطعة سكر واحدة، أم اثنتان؟».

أجيبه: «أود اليوم أن أضع في الشاي قطعتَيّ سكر».

يقول: «وأما أنا، فأحب أن أضع في فنجان الشاي قطعتَي سكر كل يوم. أحب الحصول على أقصى قدر ممكن من الحلاوة».

في حقيقة الأمر، أنا أيضًا أحب هذا. أنا في حاجة إلى سكر لأنني أحس بنفسي موشكة على الإغماء من جديد. لم أصب أي طعام منذ قطعة المافن بالزبيب هذا الصباح، في مركز الشرطة. ليس في خزائن مطبخي طعام كافٍ لثلاثة أشخاص. وإذا أكلت وحدي، فسوف يكون هذا دليلًا صارخًا على قلّة الذوق.

تهز شارلوت رأسها وتقول: «بابا، عليك أن تقلل من تناول السكر. تعرف أنه ليس جيدًا لك».

يجيبها: «آه، لا بأس. يصعب تعليم كلب عجوز أن يقوم بحركات جديدة. ما رأيك، يا مولي؟». يربّت بيده على بطنه، ويضحك.

تضع شارلوت فنجانها على الطاولة، تلتقط رزمة الأوراق الصفراء وقلمًا دقيقًا ذهبي اللون. كان القلم والأوراق على الأرض إلى جوار كرسيّها. «والآن، يا مولي... اجلسي. هل أنت مستعدة للكلام؟ أريد منك إخباري بكل ما لديك من معلومات عن السيد والسيدة بلاك، وكذلك بالسبب الذي تظنين أنه جعلهم يوجهون إليك الاتهامات... الحقيقة، أريد أن أسمع أشياء كثيرة».

أقول وأنا أجلس إلى جانب السيد برستون: «اتهموني ظلمًا».

تجيب شارلوت: «هذه هي الحقيقة التي أنطلق منها، يا مولي. آسفة لأنني لم أوضح هذا في بداية كلامي. ما كنا لنأتي إلى بيتك، أنا وأبي، لو لم نكن مصدّقين هذا. أبي مقتنع بأن لا علاقة لك بالأمر كلّه. وهو يشكّ منذ زمن بعيد في أن نشاطات مريبة تجري في ذلك الفندق». تتوقّف عن الكلام وتجول عينَاها في أرجاء الغرفة. يستقر نظرها على ستائر جدتي المزينة بالأزهار، وعلى خزانة التحف، وعلى صور الريف الإنكليزي على الجدران: «أستطيع فهم ما يجعل أبي واثقًا هذه الثقة كلّها. لكن، حتى نستطيع تبرئتك من الاتهامات الموجهة إليكِ، لا بدّ لنا من التوصل إلى المذنب في هذه الجرائم. نظن كلانا أن هناك مَن تلاعب بك. هل تفهمين هذا؟ لقد استخدموك وجعلوك بيدقًا في جريمة قتل السيد بلاك».

أتذكّر المسدس الذي كان في مكنستي الكهربائية. الشخصان الوحيدان اللذان علما بأمره هما جيزيل ورودني. هذه الفكرة وحدها تجعل موجة حزن تتخلّلني كلّيّ. أتهاوى مستندة إلى ظهر الكرسي لأن تلك الموجة تودي بما كان باقيًا في عمود الفقري من تماسك.

أقول: «أنا بريئة. لم أقتل السيد بلاك». دموع واخزة في عينيَّ، لكني أجبرها على العودة من حيث أتت. لا أريد أن أجعل من نفسي أضحوكة.

يقول السيد برستون وهو يربت على يديَّ: «لا بأس عليك. نحن نصدّقك. كل ما عليك فعله هو قول الحقيقة، حقيقتك أنت. وسوف تتكفّل شارلوت بالباقي».

أقول: «حقيقتي. نعم. أستطيع فعل هذا. وأظن أن الوقت قد حان».

أبدأ بوصف شامل لما رأيته يوم دخلت جناح السيد والسيدة بلاك، فوجدته ميتًا في فراشه. شارلوت تدوّن كل كلمة أقولها. أصف زجاجات الشراب التي كانت على طاولة غرفة الجلوس. أصف كيف كانت أقراص علبة الدواء، دواء جيزيل، متناثرة في غرفة النوم. أصف الفستان الملقى على الأرض والوسائد الثلاث على السرير. لم تكن أربع وسائد. تعاودني الذكريات فيعاودني ارتعاشي.

يقول السيد برستون: «مولي، لست أدري إن كانت تلك الفوضى وتلك الوسائد من بين التفاصيل التي تريد شارلوت سماعها. أظنّها مهتمة بالمعلومات التي قد تشير إلى اللعبة القذرة التي جرت».

تقول شارلوت: «هذا صحيح. كالأقراص مثلًا. هل مسستها؟ هل كانت على عبوة الأقراص لصاقة؟».

«لا، لم أمسّها. على الأقل، لم أمسّها في ذلك اليوم. وأما عبوة الأقراص فكانت من غير لصاقة. أعرف أنها أقراص جيزيل لأنها تناولتها مرّات كثيرة في حضوري عندما أكون في الشقة لتنظيفها. وأيضًا، كنت أرى تلك الأقراص في الحمام، أكثر الأحيان. كانت تدعوها 'أصدقائي البنز' أو 'أقراص الراحة'. أظن أن كلمة 'بنز' نوع من أنواع الأدوية. لكنها ما كانت تبدو لي مريضة - أعني، ليس بالمعنى الجسدي. لكن من الأمراض ما يشبه خادمات الغرف: موجودات دائمًا، لكنهن غير محسوسات، تقريبًا».

ترفع شارلوت رأسها عن الأوراق، وتقول: «صحيح تمامًا. كلمة 'بنز' اختصار لكلمة أخرى هي 'بنزودايازيبين'. إنه دواء مضاد للقلق والاكتئاب. هل كانت أقراصًا مدورة صغيرة بيضاء؟».

«كانت فيها لمسة من لون أزرق خفيف».

تقول شارلوت: «هه. يعني هذا أنها من مخدرات الشوارع. ليست من الأدوية التي تباع بموجب وصفة طبية. بابا، هل دارت أيّة أحاديث بينك وبين جيزيل؟ هل لاحظت أي سلوك غريب من جانبها؟».

يتناول رشفة من فنجان الشاي ثم يقول: «هه، سلوك غريب! السلوك الغريب هو ما تريَنه كل يوم عندما تعملين عند مدخل فندق ريجنسي غراند. كان واضحًا أن الخلافات كثيرة بينها وبين السيد

بلاك. يوم مات السيد بلاك، خرجت جيزيل من الفندق على عجل، وكانت باكية. وقبل أسبوع من ذلك، رأيت الأمر نفسه. لكن هذا كان بعد أن زارتها ابنة السيد بلاك -اسمها فيكتوريا- ومعها السيدة بلاك الأولى، أعني زوجته السابقة».

أقول: «أتذكر ذلك اليوم. أبقت السيدة بلاك -الأولى- باب المصعد مفتوحًا من أجلي. لكن ابنتها قالت لي أن أستخدم مصعد العاملين. قالت لي جيزيل إن فيكتوريا تكرهها. لعل هذا ما جعل جيزيل تبكي ذلك اليوم، يا سيد برستون».

يقول السيد برستون: «الدموع والانفعالات الكبيرة كانت مما يتكرّر كثيرًا في سلوك جيزيل. أظن هذا ليس بالأمر المفاجئ عندما تفكّرين في الرجل الذي تزوجتْه. ليس من طبعي أبدًا أن أتمنى السوء لأيّ إنسان، لكني لم أحزن لرؤية حياة ذلك الرجل تنتهي في وقت مبكر».

تسأله شارلوت: «ما السبب؟».

«إذا عمل المرء بوابًا في فندق ريجنسي غراند زمنًا طويلًا بقدر الزمن الذي أمضيته في هذه الوظيفة، يصير قادرًا على قراءة الناس بنظرة واحدة. لم يكن ذلك الرجل جنتلمانًا، لا مع السيدة بلاك الجديدة، ولا مع السيدة بلاك السابقة. تذكّري كلامي... لقد كان رجلًا سيئًا».

أسأله: «هل تعني بيضة فاسدة؟».

يؤكد السيد برستون على ما قلته: «بل بيضة متعفّنة، كريهة الرائحة».

«هل كان له أيّ أعداء واضحين، يا بابا؟ أيّ شخص قد يكون راغبًا في التخلص منه؟».

«أوه، أنا واثق من وجود هؤلاء الأشخاص. لقد كنت واحدًا منهم. لكنْ، هناك غيري. في البداية، لديك النساء - النساء الأخريات. عندما لا تكون السيدة بلاك، الجديدة أو القديمة، موجودة على مقربة منه، فإن هناك! ماذا أدعوهن... زائرات شابات؟».

«بابا، قل إنهن عاملات جنس».

«لو كنت واثقًا تمام الثقة من أنهن كذلك، لدعوتهن مثلما قلتِ الآن، لكني لم أشاهدهن أبدًا يأخذن منه مالًا... ولم أرَ الجزء الآخر من الأمر». يسعل السيد برستون، ثم ينظر إليَّ ويقول: «آسف يا مولي. الأمر كله فظيع حقًا».

أقول: «إنه فظيع. لكني قادرة على فهم هذا. أخبرتني جيزيل أن السيد بلاك كانت له علاقات خارج الزواج. كان على علاقة مع أكثر من امرأة. وكان هذا يجرح جيزيل... هذا أمر مفهوم!».

تسألني شارلوت: «هل قالت لك هذا؟ هل أخبرتِ أحدًا بالأمر؟».

أقول: «بكل تأكيد، لكن لم أخبر أحدًا...». تمتد يدي إلى أعلى أزرار بلوزتي، «الكتمان شعاري. خدمة النزلاء غير المرئية هدفنا».

تنظر شارلوت إلى أبيها.

يقول لها موضحًا: «هذا من جملة التعليمات التي يعطيها السيد سنو للعاملين في الفندق. إنه مدير الفندق؛ وقد وضع نفسه في منصب 'الصدر الأعظم' المسؤول عن النظافة وحسن الضيافة في الفندق. لكني أجد نفسي الآن أتساءل إن كان تمثيله دور 'السيد نظيف' واجهة ذكية، لا أكثر».

تقول شارلوت: «مولي، هل تستطيعين إخباري بأيّ شيء قد يساعدني في فهم ما جعلهم يتهمونك بحيازة المخدرات والسلاح».

«آمل أن أستطيع إلقاء بعض الضوء على هذا الأمر. ما كانت العلاقة بيني وبين جيزيل مجرّد علاقة بين نزيلة وخادمة في الفندق. لقد وثقَت بي. أطلعتني على أسرارها. كانت صديقتي». أنظر إلى السيد برستون وأخشى أن أكون قد خيّبت أمله لأنني تجاوزت الحدّ الفاصل بين النزلاء والعاملين. لكنه لا يبدي أيّ انزعاج... يبدو عليه الاهتمام فقط.

«أتت جيزيل إلى بيتي في اليوم الذي أعقب موت السيد بلاك. لم أقل هذا للشرطة. رأيت أنها كانت زيارة خاصة في بيتي. وبالتالي، فلا علاقة للشرطة بها. كانت جيزيل حزينة جدًا. وقد طلبت مني

معروفًا، فلبّيتها».

يقول السيد برستون: «أوه، يا إلهي!».

تقول شارلوت: «بابا!». ثم تخاطبني: «ما الذي طلبَتْ منكِ فعله؟».

«طلبت أن آتيها بالمسدس الذي خبأَتْه في شقتها، في مروحة التهوية في الحمام».

نظرة أخرى بين السيد برستون وشارلوت، نظرة صرت أعرفها تمام المعرفة: يدركان شيئًا لا أدركه.

يقول السيد برستون: «لكن، لم يُسمع صوت إطلاق نار، بل حتى لم يُقَل أيّ شيء عن جروح في جثة السيد بلاك».

تقول شارلوت: «صحيح. لا علم لي بأيّ شيء من هذا القبيل».

أقول: «مات اختناقًا. هذا ما قالته لي المحقّقة ستارك».

تظهر الدهشة على وجه شارلوت. تقول وهي تكتب شيئًا على أوراقها الصفراء: «حسنًا أن أعرف هذا. إذًا، يعني هذا أن المسدس لم يكن سلاح الجريمة. هل أعدتِه إلى جيزيل؟».

«لم تسنح لي فرصة لفعل ذلك. خبأته في مكنستي الكهربائية على أمل أن أسلّمها إياه في وقت لاحق. ثم خرجت من الفندق في استراحة الغداء».

يقول السيد برستون: «هذا صحيح. رأيتك تخرجين مسرعة من باب الفندق، وتساءلت في نفسي عمّا يجعلك في عجلة من أمرك إلى هذا الحدّ».

أطرق برأسي وأنظر إلى فنجان الشاي في يدي. وخز في ضميري. التنين يتحرك في أحشائي. أقول: «لقد عثرت على خاتم زواج السيد بلاك. وقد رهنته. أعرف أن هذا لم يكن تصرفًا سليمًا.

لكني أعاني صعوبة كبيرة في تدبّر أموري المالية بعد أن صرت وحدي. لو كانت جدتي حيّة لأخجلها سلوكي كثيرًا». لا أجرؤ على النظر إلى أيٍّ منهما. بدلًا من ذلك، أواصل التحديق في قعر فنجان الشاي.

يقول السيد برستون: «يا فتاتي العزيزة! كانت جدتك تفهم المشكلات المالية أكثر مما يفهمها أي شخص غيرها. صدقيني... أعرف هذا عنها، وأعرف أكثر منه أيضًا. لكني أظن بأن جدتك تركت لك بعض المدخرات... أعني، بعد موتها».

أقول: «لقد ذهبت. ضاعت». لا أستطيع إخبارهما شيئًا عن ويلبور، ولا عن «المطمورة». أنا غير قادرة على الاعتراف بأمور مخجلة أكثر مما اعترفت به حتى الآن.

تسألني شارلوت: «هل يعني هذا أنك رهنت الخاتم، ثم عدتِ إلى عملك؟».

«نعم».

«وكانت الشرطة في انتظارك عند وصولك إلى الفندق، أليس كذلك؟».

يتدخل السيد برستون في الحديث: «هذا صحيح، يا شارلوت. لقد كنتُ هناك. لم أستطع فعل شيء للحيلولة دون ذلك... مع أنني حاولت».

تغيّر شارلوت جلستها على الكرسي. تضع ساقًا فوق ساق، ثم تسألني: «وماذا عن اتهامك بحيازة مخدرات؟ هل تعرفين ما جعلهم يتهمونك بهذا؟».

«وجدوا آثار كوكايين على عربتي، عربة خدمة الغرف. لا فكرة عندي أبدًا كيف يكون هذا ممكنًا. لقد عاهدت جدتي منذ زمن بعيد بألّا أمسّ المخدرات في حياتي كلها. والآن، أخشى أن أكون قد نكثت بعهدي».

يقول السيد برستون: «يا فتاتي العزيزة، أنا واثق من أنها لم تكن تعني ذلك بمعناه الحرفي».

تقول شارلوت: «فلنعد إلى المسدس. كيف عثرت الشرطة على المسدس في مكنستك الكهربائية؟».

هذه هي النقطة التي أصير عندها مضطرة إلى الاعتراف بأجزاء الأحجية التي تمكّنت من تجميعها بنفسي منذ اعتقالي. أقول: «رودني». أختنق باسمه، ولا أكاد أستطيع نطقه، لا أكاد أستطيع جعله يخرج من بين شفتي.

يقول السيد برستون: «كنت أترقّب ظهور اسمه في هذه القصة».

«كنت خائفة عندما استجوبتني الشرطة يوم أمس. كنت خائفة كثيرًا. عدت إلى البيت، واتصلت برودني».

يقول السيد برستون موضحًا الأمر لشارلوت: «إنه المسؤول عن البار في مطعم سوشال. دجّال قميء. سجّلي هذا عندك».

يؤلمني أن أسمع السيد برستون يقول هذا. أتابع: «اتصلت برودني. لم أجد شيئًا أستطيع فعله غير ذلك. لقد كان صديقًا مخلصًا لي، بل ربما أكثر قليلًا من صديق. قلت له إن الشرطة استجوبتني، وأخبرته بما طلبته جيزيل منّي، وبأنني أخفيت المسدس في مكنستي الكهربائية. أخبرته أيضًا بأنني عثرت على الخاتم ورهنته».

يقول السيد برستون: «دعيني أخمّن ما حدث بعد ذلك! قال لك رودني إنه سيكون سعيدًا جدًا بمساعدة فتاة لطيفة مثلك».

أقول: «شيء من هذا القبيل. لكن المحقّقة ستارك قالت إن تشيريل -هي المشرفة على عملي- تبعتني حتى متجر الرهونات. لعلّها هي من فعلت هذا كله! أنا متأكدة من أنها غير جديرة بالثقة. أستطيع أن أحكي لكم عنها قصصًا كثيرة».

يتنهّد السيد برستون ويقول: «عزيزتي مولي، لقد استخدم رودني تشيريل وجعلها تُخبر الشرطة. ألا تستطيعين رؤية هذا؟ من المحتمل كثيرًا أن يكون قد استخدم حقيقة حيازتك المسدس والخاتم

حتى يبعد الشبهات عنه، حتى يجعلها تتجه إليكِ. ومن الممكن أيضًا أن تكون له صلة بالكوكايين الذي وجدوا آثاره على عربتك... وبمقتل السيد بلاك أيضًا».

تتهدّل كتفاي أكثر من ذي قبل على الرغم من معرفتي أن هذا مما يسوء جدتي. أكاد لا أستطيع البقاء جالسة منتصبة الظهر. أسأله: «هل تظن أن هناك احتمالًا لأن يكون رودني وجيزيل متعاونَيْن في هذا الأمر؟».

بحركة بطيئة، يومئ السيد برستون برأسه. يقول لي: «أنا آسف، يا مولي. حاولت أن أحذّرك من رودني».

«لقد حاولت، يا سيد برستون. تستطيع أيضًا أن تضيف 'قلت لك هذا'. أستحق ما جرى لي».

يجيبني: «أنت لا تستحقين هذا. كل منّا لديه نقاطه العمياء».

ينهض واقفًا ويسير إلى خزانة التحف، خزانة جدتي. ينظر إلى صورة أمي، ثم يعيدها إلى مكانها. يحمل صورتنا في مطعم حديقة الزيتون، صورتي مع جدتي. يبتسم، ثم يعود فيجلس على الأريكة.

«بابا، ما الذي رأيته في الفندق، على وجه التحديد، جعلك تشكّ في أن هناك نشاطات غير قانونية؟ هل تعتقد أن هناك تجارة مخدرات حقيقيّة جارية عبر فندق ريجنسي غراند؟».

قبل أن يتمكّن من الإجابة عن سؤالها، أقول بكل ثقة: «لا. فندق ريجنسي غراند مؤسسة نظيفة. لا يقبل السيد سنو بغير هذا. المخالفة الوحيدة في الفندق هو خوان مانويل».

يسألني السيد برستون: «هل تعنين خوان مانويل موراليس، الذي يغسل الأطباق؟».

أجيبه: «نعم. لك أن تكون واثقًا من أنني لا يمكن أن أقول هذا في ظلّ أي ظرف من الظروف المعتادة. لكن ما نحن فيه الآن ظرف بعيد كل البعد عن أن يكون ظرفًا معتادًا».

تقول شارلوت: «تابعي».

يميل السيد برستون صوبي ويعدّل جلسته بحيث يتحاشى النوابض البارزة في الأريكة.

أشرح لهما كل شيء. منذ بعض الوقت، انتهت مدّة تصريح العمل الخاص بخوان مانويل الذي ليس له مكان يعيش فيه. أشرح لهما كيف يجعله رودني يبيت سرًا في غرف الفندق الخالية. أحدّثهما عن الحقيبة التي أوصلها إلى غرفته كل ليلة، الحقيبة التي فيها ملابسه، وكيف أنظف الغرفة بعد أن يغادرها خوان مانويل وصديقاه كل صباح.

أقول: «أعترف بأنني لا أفهم كيف يتراكم في الغرفة ذلك الغبار كله في ليلة واحدة».

تضع شارلوت القلم من يدها، تضعه فوق أوراقها وتخاطب أباها. تقول له: «واو، يا بابا! ما هذه المؤسسة الراقية التي تعمل لديها؟».

أضيف من عندي: «بار إكسيلانس... مثلما يقولون بالفرنسية».

يضع السيد برستون يدَيْه على وجهه ويهزّ رأسه أمامًا وخلفًا. أسمعه يقول: «كان عليَّ أن أعرف... علامات الحروق على ذراعَيّ خوان مانويل، وكيف كان يتهرّب منّي كلما سألته عن أحواله».

عندها فقط، تتخذ قطع الأحجية أماكنها الصحيحة في عقلي. صديقا رودني العملاقان، والغبار، والعلب، وحقائب الليل، وآثار الكوكايين على عربتي.

أقول: «أوه، يا ربي! خوان مانويل! لقد كانوا يستغلّونه ويرغمونه على العمل معهم».

يقول السيد برستون: «إنهم يرغمونه على تجزئة المخدرات إلى حصص صغيرة، كل ليلة، في الفندق. ليس هو الشخص الوحيد الذي استغلوه، لقد استغلوك أنت أيضًا، يا مولي».

أحاول ابتلاع الغصّة التي في حلقي. يصير كل شيء واضحًا، أرى الأمر كله. أسأل: «ما كان عملي خادمة فندق فحسب، أليس كذلك؟».

تجيبني شارلوت: «يؤسفني أن الأمر كذلك فعلًا. لا أحب أن أقول هذا، يا مولي، لكنهم كانوا يستخدمونك -أنت أيضًا- كما تُستخدم البغال».

الفصل التاسع عشر

شارلوت تتكلّم في الهاتف بصوت منخفض، تتكلّم مع شخص من مكتبها. السيد برستون في المرحاض. وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا. أتوقّف عند النافذة وأفتحها قليلًا في محاولة لا طائل منها لاستنشاق هواء نقيّ. طبق فارغ من أطباق إطعام الطيور معلّق إلى جدار شقتنا الخارجي. أراه يتأرجح مع النسيم. من هذه النافذة، كنت أراقب الطيور مع جدتي. كنا نستمتع لساعات طويلة بمتابعتها وهي تنقر قطع الخبز التي نتركها لها في الخارج. أعطَيْنا كل طائر صغير اسمًا: السير تشيرب سالوت، والليدي وينغ دامير، وإيرل بيك. لكن أصوات الطيور أزعجت السيد روسو فكففنا عن إطعامها. رحلت الطيور ولم تعد بعد ذلك. آه، ليتني كنت طيرًا!

أقف قبالة النافذة وأسمع نتفًا من كلام شارلوت... «التحقّق من خلفية رودني ستايلز»؛ «البحث عن اسم جيزيل بلاك في سجل الأسلحة النارية»؛ «سجلات التفتيش على فندق ريجنسي غراند».

يخرج السيد برستون من المرحاض. يسألني: «ألم يصل خوان مانويل؟».

أجيبه: «ليس بعد».

منذ نحو ساعة، قرر كل من شارلوت والسيد برستون الاتصال بخوان مانويل. كنتُ شديدة التردّد في جرّه إلى هذه الفوضى. وقتها، قالت شارلوت: «هذا هو الأمر الصائب الذي ينبغي فعله... أسباب كثيرة».

أضاف السيد برستون: «إنه من يملك الأجزاء المفقودة من هذه الأحجية. وهو الشخص الوحيد الذي قد يتمكن من إلقاء ضوء على هذه الفوضى كلها... هذا إذا استطعنا إقناعه بأن يتكلّم».

سألته: «ألن يكون خائفًا؟ لديَّ ما يجعلني أظن أن تهديدات قد وُجّهت إلى أسرته. هدّدوه هو أيضًا». لا أجرؤ حتى على الإشارة إلى الجزء الآخر مما أعرفه، إلى علامات الحروق على ذراعيه.

تقول شارلوت: «نعم، فمن لا يكون خائفًا في هذه الحالة. لكنه، سيحظى بفرصة اختيار لم تكن لديه قبل الآن».

سألتها: «أيّ اختيار؟».

أجابني السيد برستون: «الاختيار بيننا وبينهم».

بعد ذلك، لم يُضِعِ السيد برستون وقتًا. اتصل بشخص في مطبخ الفندق وجعله يتصل بشخص آخر ويطلب منه أن يتحرّى سرًّا سجل العاملين، وأن يأخذ رقم هاتف خوان مانويل. أسرعنا جميعًا وحفّظنا رقمه في هواتفنا.

انتظرت متوترة، في حين كان السيد برستون يطلب رقم هاتف خوان مانويل. ماذا إن اتضح لنا أنه ليس إلّا خيبة أمل أخرى، ليس إلّا شخصًا مختلفًا عما توقّعته أن يكون؟

سمعت السيد برستون يقول: «خوان مانويل؟ نعم، هذا صحيح».

كنت غير قادرة على سماع إجابات خوان مانويل، لكني تخيلت وجهه الحائر في السبب الذي جعل السيد برستون يكلّمه بالهاتف.

قال السيد برستون موضحًا: «أظنك في خطر كبير». ثم شرح له أن ابنته محامية، وأنه مدرك حقيقة أنهم أجبروه على التعاون معهم في الفندق.

فترة صمت قصيرة. خوان مانويل يتكلّم.

قال السيد برستون: «أفهم هذا. لا نريد أن يلحق بك أيّ أذى. ولا نريد أيضًا أن يلحق الأذى بأسرتك. عليك أيضًا إدراك أن مولي واقعة في مشكلة كبيرة، مثلك... نعم، هذا صحيح... لقد اتهموها بقتل السيد بلاك».

فترة صمت قصيرة أخرى، ثم مزيد من تبادل الكلام، ثم: «أشكرك... نعم بكل تأكيد... نستطيع أن نشرح لك كل شيء بالتفصيل. وأرجو أن تعرف أيضًا أننا لا يمكن أبدًا أن نفعل شيئًا حتى... بالطبع. سيكون القرار قرارك أنت... سأرسل لك العنوان. نراك عما قريب».

انقضى أكثر من ساعة بعد تلك المكالمة الهاتفية ولم يصل خوان مانويل. ما أثقل هذا الانتظار والترقّب! ما أثقلهما على أعصابي! حتى أُهدّئ نفسي، أفكّر كيف صارت الأمور مختلفة كل الاختلاف بعد وقوف السيد برستون وشارلوت إلى جانبي. كنت وحيدة يوم أمس. أحسست بهذه الشقّة كالحة، فارغة. جفّت ألوانها ونضب نشاطها بعد موت جدّتي. لكنها عادت الآن حيّة من جديد، دبّت فيها الروح. أنظر إلى طبق إطعام العصافير خارج النافذة. قد أعود إلى جمع فتات الخبز كي أملأه بصرف النظر عما يقوله السيد روسو.

أحسّ بطاقة كبيرة تملأ كياني كله. أصير غير قادرة على البقاء في مكاني. هذا ما يجعلني أسير في الغرفة. لو كنت هنا وحدي، فمن المرجّح أن أنظف الأرض أو أن ألمّع بلاط الحمام. لكني لست وحيدة؛ لم أعد وحيدة. وجود أشخاص معي أمر جديد تمامًا لم آلفه من قبل. هو أيضًا مبعث راحة كبرى.

يجلس السيد برستون على الأريكة.

تنهي شارلوت مكالمتها.

شيء يلحّ على ذهني إلحاحًا شديدًا فأقرر الجهر به. أسألهما: «ألا تظنان أن عليَّ أن أكلم رو... رودني؟». من جديد، يوقعني ذكر اسمه في ارتباك وحيرة شديدَيْن، لكني أتابع كلامي: «لعلّه قادر على توضيح الأمر! لعله لا علاقة له بالكوكايين الذي وجدوه على عربتي. أليس ممكنًا أن يكون هذا من فعل تشيريل؟ أو من فعل شخص آخر؟ ماذا لو كان رودني قادرًا بالفعل على توضيح هذا كله؟».

تقول شارلوت: «لا، بكل تأكيد. لقد تحرّيت ماضي رودني. هو من أسرة ثرية. لكن أسرته طردته عندما كان في الخامسة عشرة. ثم أقام في بيت مع مجموعة أشخاص. ثم اعتقلته الشرطة مرّات

كثيرة واتهمته بسرقات صغيرة، ثم باعتداء، ثم اتُّهم أكثر من مرّة في قضايا مخدرات، لكنهم لم يتمكنوا من إدانته. غيّر عناوين إقامته مرّات كثيرة جدًّا قبل أن يستقر في هذه المدينة».

يقول السيد برستون وهو يسوّي على الأريكة تغضنات بطانية الكروشيه التي كانت لجدتي: «أرأيتِ، يا مولي؟ الاتصال بذلك الوغد فكرة رديئة. لن يكون إلّا كاذبًا».

تضيف شارلوت: «ثم يختفي بعد ذلك».

«وماذا عن جيزيل؟ لا بد أنها تعرف شيئًا مفيدًا لنا. أو السيد سنو».

قبل أن يتمكّن أيّ منهما من الإجابة على تساؤلاتي، نسمع نقرًا على الباب.

تعلق أنفاسي في حلقي: «ماذا لو كانت الشرطة هنا؟».

أحسّ بالغرفة تدور بي، وأخشى ألّا أستطيع الوصول إلى باب الشقة.

تنهض شارلوت واقفة وتقول لي: «إن لديك الآن محامية. لو أرادت الشرطة أن تتواصل معك، لاتصلت بي».

تقف إلى جانبي وتقول لي: «لا تخافي»، تضع يدها على معصمي، تطمئنني. ينجح الأمر. على الفور، أرى أنني هدأت قليلًا. تكفّ الغرفة عن التأرجح.

يأتي السيد برستون ويقف إلى جانبي، من الجهة الأخرى. يقول لي: «مولي، تستطيعين فعل هذا. فلنفتح الباب معًا».

أستنشق نفسًا عميقًا وأمضي إلى مدخل الشقة. أفتح الباب. أرى خوان مانويل واقفًا أمامي. إنه يرتدي قميص بولو حسن الكيّ أدخل أطرافه تحت بنطلونه الجينز الأنيق. أرى في يده علبة طعام من البلاستيك. عيناه متسعتان وأنفاسه متقطّعة كأنه صعد السلم درجتين درجتين.

يقول لي: «مرحبًا، يا مولي. لا أصدق هذا. أبدًا، أبدًا، لا أحب أن تقعي في أية مشكلة. ولو استطعت...». يتوقّف في منتصف جملته. تتجاوزني عيناه، تنظران إلى شارلوت، يسألها: «من أنت؟».

تتقدّم شارلوت من الباب: «أنا شارلوت، محامية مولي، وابنة السيد برستون. من فضلك لا تخشَ شيئًا. لا نيّة لدينا في تسليمك، أبدًا. ونحن نعرف أنك في خطر عظيم».

يقول: «أنا متورّط كثيرًا، كثيرًا جدًّا. لم يكن هذا اختيارًا أقدمت عليه بإرادتي. لقد أجبروني. هم من أرغموا مولي أيضًا... الحالة نفسها، لكن بطريقتَيْن مختلفتَيْن».

أقول: «أنا وأنت، واقعان في مشكلة كبيرة، يا خوان مانويل. هذا خطير جدًا».

يقول: «صحيح. أعرف».

يتكلم السيد برستون من خلفي: «ماذا في العلبة؟».

يجيبه خوان مانويل: «طعام من الفندق. كان عليّ أن أجعل الأمر كأنني خارج في استراحة غداء مبكرة. في العلبة سندويتشات صغيرة أعرف أنك تحبها، يا سيد برستون».

يقول السيد برستون: «أوه، أحبها حقًا. أشكرك. سوف أتولى وضعها في أطباق. نحن جميعًا في حاجة إلى أن نقوّي أنفسنا».

يأخذ السيد برستون العلبة ويسير بها إلى المطبخ.

يظل خوان مانويل واقفًا بالباب من غير أن يأتي بأيّة حركة. الآن، بعد أن أخذ السيد برستون الكيس منه، صار ارتعاش يديه واضحًا.

يداي مرتعشتان أيضًا.

«ألن تدخل؟».

يتقدم خطوتَيْن غير واثقتَيْن. فأقول:

«أنا شاكرة لأنك أتيت، بالنظر خاصة إلى ظروفك الحالية. أتمنى أن تحدّثني، وأنت تحدّثهم. أنا في حاجة إلى... عونك».

«أعرف، يا مولي. نحن الاثنان واقعان في مشكلة كبيرة».

«صحيح. جرت أمور لا أستطيع أن...».

«تريدين القول إنها أمور لم تستطيعي فهمها... حتى الآن».

أقول: «نعم». أُلقي على ندوب ذراعَيْه نظرة سريعة، ثم أدير وجهي.

يخطو داخلًا ويجيل عينَيْه في الشقة. يقول: «واو... هذا المكان! تذكّرني شقتك ببيتي».

يخلع حذاءه، ويقول لي: «أين أستطيع وضع حذاء العمل؟ ليس نظيفًا تمامًا».

أقول: «أوه، هذا لطف منك!». أدور من حوله وأفتح خزانة الأحذية. أتناول الخرقة من الخزانة. أهمّ بمسح أسفل حذائه، لكنه يأخذ الخرقة مني.

«لا، لا. إنه حذائي. هذه مهمّتي».

أظلّ واقفة لا أعرف ما أفعله بنفسي إلى أن يمسح حذاءه بكل عناية ويضعه في الخزانة. يطوي الخرقة طيًّا أنيقًا ويعيدها إلى مكانها، ثم يغلق باب الخزانة.

أقول له: «لا بد لي من تحذيرك من أنني لست في حالة طبيعيّة. لقد كان كل شيء... صادمًا، صادمًا جدًا. لا يأتيني زائرون في الأحوال العادية. ولهذا، أنا لا أعرف كيف أستقبل الزائرين.

لست خبيرة في استقبال الناس».

يقول السيد برستون من المطبخ: «بحق الرب، يا مولي! ما عليكِ إلّا أن تسترخي وتقبلي بعض العون. خوان مانويل، ألا تساعدني في المطبخ؟».

يذهب خوان مانويل إليه. وأما أنا، فأذهب إلى المرحاض. الحقيقة هي أنني في حاجة إلى لحظة خلوة أستجمع فيها شتات نفسي. أحدّق في المرآة وأتنفّس بعمق. خوان مانويل هنا؛ وكلّ منّا معرّض لخطر كبير. أحسّ بأنني موشكة على الانهيار. دوائر سوداء تحت عينَي اللتين صارتا حمراوين، منتفختَين. أنا متوترة، مستنفدة القوى. صرت مثل بلاطات الحمام التي من حولي. بدأت تشققاتي تظهر واضحة. أغسل وجهي بالماء، ثم أجففه، ثم أخرج من الحمام وأنضمّ إلى ضيوفي في غرفة المعيشة.

يدخل السيد برستون حاملًا صينية جدتي الفضية وقد امتلأت سندويتشات أنيقة -أزال عنها القطع المتفتتة كلها- ومعها قطع التارت الصغيرة المحشوة وأطايب أخرى من بقايا الفندق. أشم رائحة الطعام فتقرقع معدتي على الفور. يضع السيد برستون الصينية على الطاولة الصغيرة، ثم يذهب لجلب كرسي إضافي من المطبخ حتى يجلس عليه خوان مانويل. نجلس كلّنا من حول الصينية.

لا أصدق هذا. ها نحن هنا مجتمعون في غرفة الجلوس في بيت جدتي. أنا والسيد برستون جالسان على الأريكة، وقبالتنا شارلوت وخوان مانويل. نتبادل مجاملات صغيرة كأننا أصدقاء التقوا لشرب الشاي. لكننا نعرف كلنا أن الأمر ليس هكذا. تسأل شارلوت خوان مانويل عن أسرته، وعن المدّة التي أمضاها يعمل في فندق ريجنسي غراند. يشاركهما السيد برستون الحديث ويثني على مصداقية خوان مانويل وجدّيَته في العمل. يُطرق خوان مانويل برأسه ناظرًا في حضنه. يقول: «أعمل كثيرًا. هذا صحيح. أعمل كثيرًا جدًا. لكن، مع هذا، لديّ مشكلات ضخمة».

بين يدَيْ كلّ منا طبق صغير جدًا ممتلئ سندويتشات صغيرة. نأكل كلنا، لكنني ألتهم الطعام أسرع من أيّ شخص آخر.

تقول شارلوت: «كلا... أنتما الاثنان. ما تواجهانه ليس سهلًا. عليكما أن تظلّا قويَّيْن».

يميل خوان مانويل فوق الطاولة ويقول لي: «خذي، جرّبي هذين». يضع في طبقي سندويتشَيْن صغيرَيْن، «أنا مَنْ صنعهما».

أرفع سندويتشًا إلى فمي وأقضم لقمة. طعم رائع... الجبن الطري الناعم مع شرائح السلمون المدخنة مع نفحات من طعم الشبت وشذى الليمون. في حياتي كلّها، لم أذق سندويتشات مثل هذه. أجد صعوبة كبيرة في الالتزام بتعليمات المضغ التي كانت جدتي مصرّة عليها. يختفي السندويتش قبل أن أنتبه.

أقول له: «لذيذ جدًا. أشكرك».

لا أعرف إن كان هذا الصمت غير مريح للآخرين، لكنه يريحني. تمرّ لحظة قصيرة، أجد فيها نفسي، على الرغم من هذه الظروف، أحسّ شيئًا لم أحسّه منذ زمن بعيد جدًا، منذ ما قبل موت جدّتي. أشعر... بالرفقة. أشعر أنني لست وحدي. ثم أتذكّر ما جمعَنا هنا، فيتصاعد قلقي من جديد. أضع طبقي جانبًا.

تحذو شارلوت حذوي. تحمل أوراقها وقلمها. «والآن، نحن هنا كلنا لسبب واحد. لذا، من الأفضل أن نبدأ. أظن، يا خوان مانويل، أن عليَّ إخبارك بأمر المحنة التي ألمّت بمولي. وأعتقد أنك أنت أيضًا، في وضع صعب جدًا».

يتحرّك خوان مانويل في كرسيّه. يقول: «هذا صحيح. أنا في وضع صعب». تنظر عيناه الكبيرتان البنيّتان في عينَيّ. يقول لي: «مولي، لم أرد أبدًا أن أراك متورطة في هذا لكني ما كنت قادرًا على فعل شيء عندما أوقعوا بك. أتمنى أن تصدّقيني».

أبتلع ريقي وأفكّر في كلماته. لا بد لي من وقت حتى أميّز الفارق بين الصدق والكذب الوقح. لكن كل شيء يغدو جليًا. أستطيع رؤية الحقيقة في وجهه بكل وضوح. ما يقوله هو الحقيقة. «شكرًا، يا خوان مانويل. أصدقك».

يقول السيد برستون مقترحًا: «أخبرها بما قلته لي في المطبخ».

«تعرفين كيف كنتُ أبيت كل ليلة في غرفة مختلفة. وتعرفين كيف كنتِ تعطينني بطاقة مفتاح غرفة جديدة في كل ليلة».

أقول: «أعرف هذا».

«السيد رودني... لم يقل لك الحقيقة كلّها، لم يخبرك بالحكاية كلها. صحيح أنه ليس لديَّ الآن مكان أعيش فيه. وليس لدي الآن تصريح بالعمل. عندما كان لديَّ مسكن وتصريح بالعمل، كان كل شيء رائعًا. كنت أرسل النقود إلى أسرتي. أسرتي في حاجة إلى المال لأنه ما عاد لديها ما يكفيها بعد موت أبي. كانت أسرتي شديدة الفخر بي. وكانت أمي تقول لي: 'أنت ابن بارّ. أنت تعمل كثيرًا من أجلنا'. وقد كنت سعيدًا. كنت على المسار الصحيح».

يصمت خوان مانويل لحظة. يبتلع ريقه، ثم يتابع كلامه. بعد ذلك، عندما صار عليَّ أن أجددّ ترخيص العمل، قال لي السيد رودني: 'لا مشكلة في هذا' وأخذني إلى محامٍ من أصدقائه. جعلني ذلك المحامي أدفع مالًا كثيرًا، لكني لم أحصل على ترخيص العمل في آخر المطاف. شكوت الأمر لرودني فقال: 'صديقي المحامي قادر على حلّ أية مشكلة. سوف تحصل على ترخيص عمل جديد في غضون بضعة أيام'. قال لي إنه سيحرص على ألّا يعرف السيد سنو بالأمر. لكنه أضاف: 'عليك أن تساعدني أيضًا. أنت تفهم هذا. تحكّ ظهري وأحكّ ظهرك'. ما كنت راغبًا في حكّ ظهره. أردت العودة إلى موطني والبحث عن عمل جديد هناك. لكني لم أستطع العودة لأن مدَّخراتي نفدت كلّها».

يصمت خوان مانويل.

تسأله شارلوت: «ما الذي جعلك رودني تقوم به؟... على وجه التحديد».

«في الليل، بعد انتهاء عملي في المطبخ، أتسلل إلى الغرفة التي تكون مولي قد أعطتني مفتاحها. تكون مولي قد تركت لي حقيبة في تلك الغرفة. هل هذا صحيح، يا مولي؟».

أقول: «نعم. كنت أفعل هذا، كل ليلة».

«تلك الحقيبة، لم تكن حقيبتي على الإطلاق. إنها حقيبة السيد رودني. ومخدراته فيها. كوكايين. أنواع أخرى أيضًا. كان يأتي في وقت لاحق من الليل ومعه مزيد من المخدرات... يأتي إلى الغرفة عندما يضمن أن لا أحد يراه. ثم يذهب. كان يجعلني أعمل طيلة الليل -أعمل وحيدًا بعض الأحيان، ومع رجال السيد رودني في أحيانٍ أخرى- كنا نجهّز الكوكايين من أجل بيعه. أقسم أنني ما كنت أعرف عن هذه الأمور شيئًا من قبل. لكني تعلّمت. كنت مضطرًا إلى التعلّم سريعًا».

تسأله شارلوت: «ما الذي عنيته بقولك إنه أرغمك على هذا؟».

يعصر خوان مانويل يديه وهو يتكلم: «قلت للسيد رودني، 'لا أريد فعل هذا. لا أستطيع فعل هذا. أفضّل أن يرحّلوني. هذا خاطئ'. لكن الوضع ساء عندما قلت له هذا. قال إنه سيقتلني. قلت له، 'لست أبالي. اقتلني. هذه ليست حياة'...». يصمت خوان مانويل لحظة. يطرق برأسه، ثم يتابع، «لكن السيد رودني وجد، آخر الأمر، طريقة يرغمني بها على القيام بعمله القذر». يتوتّر وجه خوان مانويل. أنتبه إلى احمرار عينَيْه، وإلى الدوائر السوداء
تحتهما. إن لنا المظهر نفسه، هو وأنا... معاناتنا ظاهرة على وجهَيْنا.

تسأله شارلوت: «ماذا فعل رودني عند ذلك؟».

«قال إنه - إذا لم ألزم الصمت وأقوم بذلك العمل القذر، فسوف يقتل أسرتي. له أصدقاء من النوع السيئ جدًا. كان لديه عنوان أسرتي في مازاتلان. إنه رجل شرير. أحيانًا، كان التعب يغلبني أثناء عملي في الليل فأنام وأنا جالس على الكرسي. ثم أستيقظ فلا أعرف أين أنا. كان رجلا السيد رودني يضربانني ويسكبان الماء عليَّ حتى أبقى مستيقظًا. وأحيانًا، كانا يعاقبانني بأن يحرقا ذراعيَّ بالسيجار». رفع ذراعَيْه أمامنا.

يقول خوان مانويل: «مولي، كنت كاذبًا عندما قلت إن آلة غسل الأطباق أحرقتني. آسف! هذا غير صحيح...». يتقطع صوته، وتنهمر دموعه. يقول لي: «لا يجوز هذا. أعرف أن الرجال لا يبكون مثل الأطفال». يرفع رأسه وينظر إليَّ: «مولي، عندما دخلتِ غرفة الفندق ذلك اليوم ورأيتني مع رودني ورجليه، حاولت القول لك أن تفرّي، أن تذهبي وتخبري أحدًا. لم أرد أن يوقعوا بك مثلما أوقعوا بي. لكنهم فعلوا ذلك. استطاعوا العثور على طريقة لاستغلالك».

يهزّ السيد برستون رأسه، ويستمر بكاء خوان مانويل. تنهمر دموعي بدورها.

على نحو مفاجئ، أحسّ تعبًا شديدًا جدًا... أحسّ تعبًا أشد مما عرفته في حياتي كلها. لست الآن راغبة في شيء إلّا في أن أنهض عن الأريكة وأسير في الممر قاصدة غرفتي، وفي أن ألتف بلحاف جدّتي ذي النجمة الكبيرة، وأن أغرق في النوم، أنام إلى الأبد. يعود ذهني إلى جدّتي في آخر أيامها. أهذا ما أحسّته عند دنوّ أجَلها؟ هل صارت من غير رغبة في مواصلة العيش؟

يقول السيد برستون: «يبدو أننا عثرنا على الجرذ».

تضيف شارلوت: «عند وجود جرذ، ينبغي أن تكون هناك جرذان أخرى معه». تلتفت إلى خوان مانويل: «هل كان رودني يعمل لدى السيد بلاك؟ هل سمعت أو رأيت شيئًا -أيّ شيء، مهما يكن- قد يكون موحيًا بأن السيد بلاك كان من خلف تجارة المخدرات هذه؟».

يمسح خوان مانويل دموعه عن وجهه: «ما كان السيد رودني يتحدّث كثيرًا عن السيد بلاك. لكن مكالمات هاتفية كانت تأتيه أحيانًا. يظنني غبيًّا لا أفهم اللغة الإنجليزية. لكني سمعت كل شيء. أحيانًا، كان السيد رودني يأتي إلى الغرفة في ساعة متأخرة من الليل حاملًا مبالغ مالية كبيرة. وكان يرتب مواعيد مع السيد بلاك كي يسلمه المال. مال كثير لم أر مثله في حياتي كلها... هكذا». باعد بين يديه محاولًا الإشارة إلى كمية المال.

قالت شارلوت: «حزم من أوراق نقدية».

«نعم. جديدة كلها».

أقول: «رأيت رزم نقود في خزنة السيد بلاك يوم عثرت عليه ميتًا».

يتابع خوان مانويل: «ذات يوم، كان رودني شديد الانزعاج لأن المال الذي أتاه تلك الليلة كان قليلًا. ذهب لرؤية السيد بلاك، ثم عاد حاملًا ندبة مثل ندوبي هذه. ما كانت ندوبًا على ذراعيه، بل على صدره. هكذا علمت أنني لست الشخص الوحيد الذي يتلقّى العقوبات».

فهمت الأمر. أتذكّر فتحة قميص رودني الأبيض المكوي، والكدمة المدورة على صدره الصقيل.

أقول: «رأيت تلك الندبة».

يقول خوان مانويل: «ثمة أمر آخر. أبدًا، لم يذكر لي رودني شيئًا عن السيد بلاك. لكني أعرف أنه كان يعرف زوجته. أعني زوجته الجديدة، السيد جيزيل».

أقول: «هذا غير معقول. أكدّ لي رودني أنه لم يكد يكلّمها». لكني أدرك لحظة قولي هذا أنني حمقاء.

تقول شارلوت: «كيف تعرف أن رودني على معرفة بجيزيل؟».

يخرج خوان مانويل هاتفه من جيبه ويقلّب الصور إلى أن يجد الصورة التي يبحث عنها. يقول: «لأنني أمسكت به -كيف تقولون هذا باللغة الإنجليزية- متلبيسًا».

يصحح السيد برستون: «متلبّسًا».

يقول خوان مانويل: «وجدته هكذا»، ثم يدير الهاتف صوبنا حتى نرى الصورة. إنها صورة رودني وجيزيل يتبادلان قبلة محمومة في ممر معتم في الفندق. لا شك في أنهما لم يلاحظا وجود خوان مانويل، ولا التقاطه هذه الصورة. يؤلمني قلبي. أحسّه ثقيلًا عندما أحدّق في الصورة، عندما أنظر إلى تفاصيلها - شعرها منسدل على كتفه، ويده أسفل ظهرها. أخشى أن يتوقف قلبي.

تقول شارلوت: «واو! ألا ترسلها إليَّ».

يقول خوان مانويل: «سأرسلها». يتبادلان رقمَيْ هاتفَيهما، ثم يرسل الصورة إليها. لا يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ معدودة قبل أن يظهر ذلك الدليل الشائن على شاشتها.

تنهض شارلوت وتخطو في الغرفة، «يزداد الآن وضوحًا أن جيزيل ورودني كانت لديهما أسباب كثيرة تجعلهما يريدان موت السيد بلاك. لكن السبيل الوحيد إلى إثبات براءة مولي هو أن نعثر على دليل لا يدحض على أن واحدًا منهما قتل السيد بلاك، أو كلَاهما».

أقول: «ليست جيزيل. هي لم تفعل ذلك».

تنظر إليّ عيونهم متسائلة.

تقول شارلوت: «أوه، يا مولي! كيف تعرفين هذا؟».

«أعرفه. أعرفه فقط».

يتبادل السيد برستون وشارلوت تلك النظرة مرة أخرى، نظرة الشك.

ينهض السيد برستون واقفًا، ثم يقول: «لديَّ فكرة».

تقول شارلوت: «آها!».

يقول: «استمعوا إليَّ! لن يكون هذا سهلًا. علينا أن نكون فريقًا واحدًا و...».

تقول شارلوت: «هذا مؤكّد».

يقول خوان مانويل: «تعجبني فكرة الفريق هذه. إنهم يعاملوننا بطريقة سيئة».

يقول السيد برستون: «علينا أن نحوك الأمر سرًّا. وسوف نضع خطة فولاذية».

تقول شارلوت: «سنضع خطة».

يجيبها السيد برستون: «نعم، خطة. سنضع خطة محكمة تجعلنا نوقع بالثعلب».

الفصل العشرون

نُمضي أكثر من ساعة في استعراض التفاصيل كلّها. وخلال هذا الوقت، أكرر قول: «لا»، و«لا أستطيع» مرّات كثيرة جدًا. أكرره حتى أصير كأنني «القاطرة الصغيرة التي تستطيع»(6) مثلما كانت جدتي تقول.

قال السيد برستون لي مرّة بعد مرّة: «بل تستطيعين. هل يمكن لكولومبو أن يستسلم؟».

يقول لي خوان مانويل: «إنه محق، يا آنسة مولي».

وتضيف شارلوت: «لو رأيتك غير قادرة على هذا، لما اقترحته».

تمرنّا، وتمرنّا. رحنا نستعرض المسارات المختلفة، وكانت إجاباتي عن أسئلتهم تتطوّر وتتحسّن شيئًا بعد شيء. فكّرنا في كل ما يمكن أن يجري على غير ما نريد. كان لا بدّ لي من تجاوز إحساسي بأنني أُماري وأتظاهر بغير الحقيقة، بأنني لا أعبّر عن أفكاري الحقيقيّة تعبيرًا صادقًا. لكن خوان مانويل قال لي شيئًا أراح ذهني: «بعض الأحيان، يكون عليكِ أن تفعلي شيئًا سيئًا واحدًا حتى تستطيعي فعل شيء حسن». إنه محق من نواحٍ كثيرة جدًا. أعرف هذا من تجربتي.

تمرّنت مع خوان مانويل الذي لعب دور مَنْ أواجهه، ثم مع السيد برستون. كان لا بدّ لي من نسيان أنهما صديقان. كان لا بد لي من النظر إليهما على أنهما بيضتان فاسدتان كثيرًا، مع أنهما ليسا كذلك أبدًا. مضينا عبر التفاصيل كلّها، وسجّلنا النقاط المهمّة، ووضعنا خططًا احتياطيّة للتعامل مع كل مفاجأة غير مواتية.

وقد فرغنا الآن من ذلك كلّه. شارلوت والسيد برستون وخوان مانويل مبتسمون جميعًا، منتصبو القامات في مقاعدهم وهم ينظرون إليَّ. لا أستطيع أن أكون واثقة تمام الثقة، لكني أظنني أفهم ما أراه في وجوههم... إنه الاعتزاز. هم واثقون من قدرتي على فعل هذا.

لو كانت جدتي هنا لقالت لي، أرأيت، يا مولي، تستطيعين فعل ذلك إن عقدتِ العزم على فعله!

أجد نفسي أحسن حالًا بعد هذه التمرينات كلها. وأحسّ اطمئنانًا أكبر إلى خطتنا. لا بدّ لي من القول إنني أرى نفسي الآن مثل كولومبو، ومن حولي فريق من المحققين. لقد ابتكرنا معًا فخًا نأمل أن يمكّننا من الإيقاع برودني متلبّسًا... متلبسًا مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة تمام الاختلاف هذه المرة.

وعلى الفور، نبدأ بتنفيذ الخطوة الأولى. أكتب له رسالة نصّية. فكّرنا طويلًا في ما أكتبه إليه. أقول لهم وأنا أكتب الرسالة على هاتفي: «أنا متوتّرة كثيرًا، ألا يراجع أحدكم الرسالة قبل أن أضغط على مفتاح الإرسال؟». يتجمع خوان مانويل والسيد برستون وشارلوت من حولي ويقرأون الرسالة من فوق كتفي.

يقول خوان مانويل: «تبدو لي جيدة. أسلوب كلامك لطيف دائمًا. ينبغي أن يتعلم مزيدٌ من الناس طريقة كلامك، يا مولي».

يبتسم لي فأحسّ نفحة دفء. أقول له: «أشكرك. هذا لطف كبير منك».

يقترح السيد برستون: «أقترح إضافة كلمة 'عاجلًا' إلى رسالتك».

تقول شارلوت: «نعم، هذه فكرة حسنة. أضيفي كلمة 'عاجلًا'!».

أعدّل الرسالة فتصير: رودني، علينا أن نلتقي عاجلًا! مات السيد بلاك مقتولًا. كشفتُ للشرطة عن أمور ينبغي أن أخبرك إياها. أنا آسفة جدًا.

أسألهم: «هل هذا حسن؟». أنظر إليهم لأرى إن كانوا موافقين.

تقول شارلوت: «هيا، يا مولي، اضغطي على مفتاح الإرسال».

أغمض عينَيَّ وأضغط على المفتاح. أسمع صوت «وووش»، صوت الرسالة منطلقة من جهازي.

أفتح عينَيَّ بعد بضع ثوانٍ فتظهر لي ثلاث دوائر في صندوق رسالة نصيّة جديد تحت رسالتي.

يقول السيد برستون: «جيّد، جيّد، جيّد! الظاهر أن ذلك الوغد قد استجاب سريعًا».

يهتز هاتفي مع ظهور رسالة رودني: مولي، ما الأمر؟ نلتقي في OG بعد عشرين دقيقة.

يسأل السيد برستون: «OG، ما معنى هذا؟».

يجيبه خوان مانويل: «لعلها تعني ‘مجرمًا حقيقيًّا’!».

تسألني شارلوت: «ماذا يمكن أن يكون معنى هذين الحرفين؟».

تأتيني الفكرة في لحظة واحدة فأفهم الأمر. أقول: «مطعم حديقة الزيتون(7). سنلتقي هنا. هل أرد على رسالته؟».

تقول شارلوت: «قولي له إنك ستكونين هناك سريعًا».

أحاول كتابة ردٍّ على رسالته، لكنّ يدَيّ مرتجفتان كثيرًا. لا أستطيع الكتابة.

تسألني شارلوت: «أتريدين أن أكتبها بدلًا منك».

أجيبها: «نعم، من فضلك».

أناولها الهاتف، وننظر كلنا إلى ما تكتبه فيه: OK. SU in 20 min(8). تهم شارلوت بالضغط على مفتاح الإرسال، لكن خوان مانويل يوقفها ويقول: «هذا لا يشبه أبدًا أسلوب مولي في الكتابة. لا يمكن أبدًا أن تكتب بهذه الطريقة».

تسأله شارلوت: «أهذا صحيح؟ ما المشكلة».

يقول خوان مانويل: «عليك أن تجعلي الرسالة أكثر أناقة. استخدمي لغة سليمة. من الممكن أن تستخدمي كلمة 'جميل'. إن مولي تستخدمها كثيرًا: جميل! «ما ألطف هذه الكلمة!». تمحو شارلوت الرسالة التي كتبتها، ثم تحاول من جديد: يبدو اقتراحك جميلًا مع أن الظروف التي تجمعنا الآن ليست كذلك. أراك عما قريب.

أقول: «نعم. هكذا أكتب. هذا حسن جدًا».

يقول خوان مانويل: «نعم. هكذا هي الآنسة مولي».

تبعث شارلوت بالرسالة، ثم تناولني هاتفي.

يضع السيد برستون يده على كتفي ويقول لي: «مولي، هل أنت مستعدة؟ تعرفين ما عليك قوله له. تعرفين ما ينبغي فعله».

ثلاثة وجوه تنتظر إجابتي، تنتظر متوتّرة.

أجيبه: «أنا مستعدة».

تقول شارلوت: «تستطيعين فعل هذا، يا مولي».

يضيف السيد برستون: «نحن نثق بك».

يرفع لي خوان مانويل إبهامه.

لقد وضعوا كلّهم ثقتهم في قدرتي على فعل هذا. إنهم مؤمنون بي. أنا هو الشخص الوحيد الذي لا يزال غير واثق.

تستطيعين فعل ذلك إن عقدت العزم على فعله!

أستنشق نفسًا عميقًا ثم أضع هاتفي في جيبي. أنهض واقفة. أغادر الشقة.

---

(6) هذه إشارة إلى كتاب «القاطرة الصغيرة التي تستطيع» الذي صدر سنة 1930، وصار حكاية أميركية فولكلورية.

(7) حديقة الزيتون: Olive Garden.

(8) أوكي. أراكَ بعد عشرين دقيقة.

الفصل الحادي والعشرون

أكون في مطعم حديقة الزيتون بعد ثماني عشرة دقيقة، أي قبل موعدنا بدقيقتين اثنتين. أظن أن توتري هو ما جعلني أسير مسرعة طيلة المسافة إلى المطعم. أنا جالسة في مقصورتنا نفسها تحت ألق المصباح المعلّق فوقها. لكني لا أحسّها «مقصورتنا». هذه المرة، لا أحسّها «لنا». لن تكون «مقصورتنا» بعد اليوم.

لم يصل رودني بعد. أنتظره، وتلوح في ذهني صور مخيفة - السيد بلاك. جلده مرتخٍ، رمادي اللون. صورة رودني وجيزيل. ثعبانان متشابكان. جدّتي في الدقائق الأخيرة قبل موتها. لست أدري سبب توارد هذه الصور إلى ذهني، لكنها تزيد توتري الذي هو شديد أصلًا، حتى من غيرها. كيف سأكون قادرة على تجاوز هذا كله؟ لست أدري! كيف أتصرّف بطريقة طبيعية في حين يهز هذا التوتر كياني كله؟

أرفع رأسي فأراه داخلًا المطعم بخطوات سريعة. عيناه تبحثان عني. شعره مشعّث. الزرّان العلويان في قميصه مفتوحان. صدره الصقيل ظاهر من فتحة القميص. أتخيّل أنني ألتقط شوكة الطعام التي أمامي وأطعنه بها هناك، هناك حيث جلده ظاهر في تلك الفتحة. لكني أرى الندبة فتختفي هذه الرغبة المظلمة.

يصل المقصورة ويجلس قبالتي. يقول: «مولي، استأذنت حتى أترك العمل دقائق قليلة. لكن وقتي ضيّق جدًا. فلنسرع. قولي لي كل شيء».

تأتي نادلة إلى طاولتنا. أسمعها تقول: «أهلًا بكما في حديقة الزيتون. هل نبدأ بطبق السلطة المجاني مع الخبز؟».

يجيبها رودني: «نحن هنا من أجل شراب سريع. اجلبي لي بيرة».

أرفع إصبعي وأقول لها: «في الواقع، ستكون السلطة مع الخبز شيئًا جميلًا. وسوف أطلب أيضًا طبق مقبلات وبيتزا بيبيروني من المقاس الكبير، من فضلك! أوه، وماء أيضًا. أريد ماء باردًا،

بارِدًا جدًا، مع الثلج». لن أطلب اليوم كأسًا من نبيذ شاردونيه لأنني أريد أن يظلّ ذهني صافيًا. ثم إن هذا ليس احتفالًا، ليس احتفالًا على الإطلاق. أقول للنادلة: «أشكرك». يمرر رودني أصابعه في شعره ويتنهد.

أقول له، بعد انصراف النادلة: «أشكرك لأنك أتيت. استعدادك للاستجابة عندما أكون في حاجة إليك يعادل العالم كلّه في نظري. أنت صديق أستطيع الاعتماد عليه». أقول هذا وأحس بوجهي متيبسًا، غير صادق. لكن الظاهر أن رودني لا يلاحظ شيئًا من هذا كله.

«أنا هنا من أجلك، يا مولي. ليس عليك إلّا أن تخبريني بما جرى».

أخفي يدَيّ المرتجفتين تحت الطاولة وأقول: «نعم. بعد أن أخذتني المحقّقة إلى مركز الشرطة، قالت لي إن السيد بلاك لم يمت ميتة طبيعية. قالت إنه مات خنقًا».

أنتظر لحظة ريثما يستوعب رودني ما سمعه.

يقول: «واو! في نظرهم، أنت موضع الشبهة الواضح».

«الحقيقة هي أنني كذلك. لكنهم يبحثون عن شخص آخر». هذه هي الكلمات التي أمرتني شارلوت بقولها.

أراقبه منتبهة. أرى تفاحة آدم تعلو وتهبط في عنقه. تعود النادلة بالخبز والسلطة والبيرة والماء. آخذ جرعة كبيرة من الماء البارد. أجد نفسي مستمتعة باضطراب رودني. لا أمسّ الطعام أبدًا. أنا شديدة التوتر. ثم إن الطعام يستطيع الانتظار.

«قالت المحققة ستارك إن الأشخاص الذين تدور الشبهات من حولهم ينبغي، على الأرجح، أن يكونوا ممن لهم صلة بوصيّة السيد بلاك. وتظن أيضًا أن من المحتمل أن يكونوا قد ناقشوا وصيّته معه قبل أن يقتلوه. مسكينة جيزيل! هل تعرف أن السيد بلاك لم يترك لها شيئًا؟ لم يترك لها أي شيء، تلك المرأة المسكينة».

«ماذا؟ هل قالت لك المحققة هذا؟ لكنه غير ممكن. أنا واثق من أن الأمر ليس هكذا».

أقول له: «أتقول إنك واثق؟ ظننتك لست على معرفة قويّة بجيزيل».

يجيبني: «لست على معرفة وثيقة بها». يبدو لي كأنه بدأ يتعرّق مع أن الجو هنا ليس حارًا... «لكني أعرف أشخاصًا يعرفونها معرفة جيدة. على أية حال، هذا غير ما قاله لي أولئك الأشخاص. إذًا، فالأمر... نعم، هذه مفاجأة». يتناول بيرته ويأخذ منها جرعة كبيرة ثم يستند إلى الطاولة بمرفقيه.

«هذا غير لائق».

«ماذا؟».

«لقد وضعت مرفقيك على الطاولة. نحن في مطعم. وهذه طاولة طعام. تقتضي أصول الإتيكيت ألّا تضع مرفقيك على الطاولة».

يهز رأسه، لكنه يرفع قائمتيه مرفقيه المزعجتَيْن عن حافة الطاولة.

هذا نصر!

أسأله: «ألا تريد خبزًا؟ سلطة؟».

يجيبني: «لا. فلنعد إلى موضوعنا. ألم يترك السيد بلاك لجيزيل تلك الفيلا في كايمان؟ هل ذكرت المحقّقة أمامك شيئًا عن هذا الأمر؟».

أقول: «هممم... ». أتناول منديلي وأمسح به يدَيَّ المتعرّقتين، تحت الطاولة، «لا أتذكر أنني سمعتهم يذكرون شيئًا عن فيلّا. لكن أظنني سمعت المحقّقة تقول إن كل شيء سيكون من نصيب السيدة بلاك الأولى وابنَيها وابنتها». نبأ سار آخر، مثلما خططنا.

«هل تقولين لي إن الشرطة تطوّعت بأن تقدم إليك هذه المعلومات كلّها من غير سبب؟».

أقول: «ماذا؟ بالطبع لا! من عساه يهتم بأن يقول لي أي شيء؟ لست إلّا خادمة في فندق. تركتني المحققة ستارك وحيدة في الغرفة. أنت تعرف كيف يحدث هذا. ينسى الناس أنني موجودة. أو لعلّهم يعتبرونني غبيّة لا أفهم شيئًا! سمعت الأحاديث الجارية بينهم في مركز الشرطة».

«ألم تكن المحقّقة مهتمّة بالمسدس الذي عثروا عليه في مكنستك الكهربائية؟ أعني...
أظن أن هذا ما جعلهم يقبضون عليك، أليس كذلك؟».

أقول: «صحيح. الظاهر أن تشيريل عثرت على المسدس، ثم أخطرتهم. عجيب كيف عرفت أين ينبغي أن تبحث عنه! فبالنسبة إلى إنسانة كسول مثلها، يصعب تخيّل أنها يمكن أن تفتش كيس الأوساخ في المكنسة الكهربائية».

تغيّر وجه رودني. «لا أظنك تلمحين إلى أنني أخبرتها. مولي، تعرفين أنني لا يمكن أبدًا أن...».

أقول: «لا يمكن أبدًا أن ألمّح إلى شيء من هذا القبيل، يا رودني. أنت فوق الشبهات. أنت بريء، مثلي تمامًا».

يومئ رودني برأسه ويقول: «لا بأس. يسعدني أن ما من سوء تفاهم بيننا». يهزّ رأسه مثلما يفعل كلب عندما يخرج من الماء، «إذًا، ماذا قلتِ للشرطة عندما سألوك عن المسدس؟».

أجيبه: «أوضحت لهم، بكل بساطة، مسدس مَنْ هو، وأين وجدته. استغربوا الأمر كثيرًا. أظن أن هذه كانت مفاجأة للمحقّقة ستارك».

«هل تقولين لي إنك وشيت بجيزيل؟ وشيت بصديقتك؟». يعود مرفقاه المزعجان إلى حافة الطاولة.

أقول: «لا يمكن أبدًا أن أخون صديقة حقيقيّة. لكنَّ هناك خبرًا فظيعًا أريد قوله لك. إنه السبب الذي جعلني أطلب لقاءك». ها هي اللحظة قد أتت، اللحظة التي أنا مستعدة لها.

يسألني: «ماذا لديك أيضًا؟». لا يكاد يستطيع إخفاء الغضب في صوته.

«آه، يا رودني. تعرف كم أتوتر في بعض المواقف الاجتماعية. عليَّ القول إن استجوابي من قبل المحقّقين سبّب لي ذعرًا شديدًا، فأنا لا خبرة لي في هذه الأمور. لعلك أكثر خبرة مني في التعامل مع محن مثل هذه المحنة!».

«مولي، تكلمي!».

تشد يداي على المنديل تحت الطاولة. أقول، «نعم. بعد خروج نبأ مسدس جيزيل من الكيس -أظنني أستطيع قول هذا بالمعنَيَين الحرفي والمجازي- قالت المحقّقة إنهم سيفتشون شقة السيد والسيدة بلاك مرة أخرى». أرفع المنديل إلى عينَي، وأحاول سبر ردّة فعله على ما سمعه.

يقول لي: «تابعي».

«قلت لها: ‘أوه، لا تستطيعون فعل ذلك، لأن خوان مانويل مقيم في تلك الشقة’. سألتني المحققة عند ذلك، ‘من هو خوان مانويل؟’ فأخبرتها بأمره. أوه، يا رودني، على ما أظن، ما كان عليَّ أن أخبرها بهذا. قلت لها إن خوان مانويل صديقك، وإنك تساعده لأنه الآن من غير تصريح عمل، و...».

«هل ذكرت اسمي أمام المحققة؟».

أقول: «نعم. أخبرت الشرطة أيضًا عن الحقائب التي آخذها إلى الغرف، وكيف كنت أنظّف تلك الغرف بعد أن يمضي خوان مانويل وصديقاك ليلتهم فيها. قلت لها أيضًا إنكم، جميعًا، لطيفون جدًا معي، و...».

«ليسا صديقيَّ، إنهما صديقا خوان مانويل».

«لا بأس. كيفما كانا، فمن المؤكد أنهما يتركان في الغرفة أوساخًا كثيرة. لكن، لا تقلق. لقد حرصت على جعل المحقّقة تفهم أنك رجل طيّب جدًا، حتى إن كان أصدقاؤك يخلّفون في الغرفة شيئًا من... من الغبار».

يضع رأسه بين يديه: «أوه، مولي! ماذا فعلت، يا مولي؟».

أجيبه: «قلت لهم الحقيقة. لكني مدركة أن ما قلته يسبّب مشكلة لخوان مانويل. ماذا سيحدث إن وجدوه في شقة السيد والسيدة بلاك عندما يأتون لتفتيشها؟ لا أحبّ أن أراه واقعًا في أية مشكلة. أنت أيضًا لا تحبّ هذا. أليس ما أقوله صحيحًا، يا رودني؟».

يومئ برأسه: «صحيح. نعم. أعني... علينا أن نحرص على ألّا يكون هناك عندما يأتون. علينا أيضًا أن ننظف تلك الغرفة تنظيفًا جيدًا. في أسرع وقت ممكن... قبل وصول الشرطة. أنت تفهمين ما أقوله لك، أليس كذلك. لا نريد أن يعثروا في الشقة على أي أثر لخوان مانويل».

أقول: «بكل تأكيد. هذا ما أفكر فيه». أبتسم لرودني. وأما في خيالي، فأنا أسكب ماء مغليًا على وجهه القذر، الكاذب.

يسألني: «إذًا، هل ستفعلين هذا؟».

أجيبه: «أفعل ماذا؟».

«تتسللين إلى الفندق وتنظّفين الشقة. الآن، قبل أن تصل الشرطة. فضلًا عن تشيرنوبيل وسنو، أنت الوحيدة التي تستطيعين دخولها. إذا ضبط السيد سنو خوان مانويل في الشقة -أو إذا ضبطته الشرطة هناك، وهذا أكثر سوءًا- فسوف يتم ترحيله من البلاد».

«لكن، لا يجوز أن أذهب اليوم إلى العمل. يقول السيد سنو إنني ‘موضع شبهة’ في نظر الشرطة. وبالتالي، فـ-... »

يقاطعها: «من فضلك، يا مولي! هذا أمر مهم». يضم يدَيّ بين راحتيه. أود إبعاد يديّ، لكني أعرف أن عليّ ألّا أفعل هذا.

نحن نثق بك!

أسمع هذه العبارة في رأسي، لكن الصوت ليس صوت جدتي. إنه صوت السيد برستون، ثم شارلوت، ثم خوان مانويل.

تظل يداي في مكانهما تحت كفّيه. عيناي غير موحيَتَين بأي تعبير. أقول له: «يعني هذا أنني لا أستطيع دخول الفندق، لكنه لا يعني أنك لا تستطيع دخوله. ما قولك إن دخلتُ الفندق لحظة قصيرة فقط من غير أن يراني أحد. سآخذ بطاقة مفتاح الشقة وأعطيك إياها. عند ذلك، تستطيع استخدام عربتي لكي تنظف الغرفة بنفسك. ألن يكون هذا شيئًا جديدًا؟
تنظف أوساخك بنفسك... أعني، أوساخ خوان مانويل».

عيناه تجولان في المكان كلّه. إنه يفكّر. العرق الذي كان غلالة على جبهته يتحوّل إلى نقاط كبيرة.

يقول لي بعد بضع لحظات: «لا بأس. فليكن هذا. أنت تحضرين بطاقة المفتاح، وأنا أنظّف الشقة».

أقول: «سأجلب لك البطاقة، بكل طاقة!»، لكنه لا ينتبه إلى ذكاء هذه الجملة.

تأتي النادلة إلى طاولتنا حاملة طبق المقبلات وبيتزا بيبيروني.

أقول لها: «هل تستطيعين وضع ذلك كله في علب، من فضلك؟».

تجيبني: «بكل تأكيد. ألم يعجبكما الخبز والسلطة؟ لم تتناولا شيئًا منهما».

أقول: «أوه، ليس الأمر هكذا. الخبز والسلطة رائعان. كل ما في الأمر هو أننا في عجلة من أمرنا».

تقول: «نعم، نعم، سوف أغلّف كل شيء». تشير إلى واحدة من زميلاتها، وتبدأان في تغليف الطعام.

أشير إلى رودني وأقول: «من فضلكِ، أعطه الفاتورة!».

ينفتح فمه دهشة، لكنه لا يقول أي شيء. لا ينطق بكلمة واحدة.

تتناول النادلة الفاتورة من جيب مريلتها وتناوله إياها. يخرج من محفظته ورقة من فئة مئة دولار. يناولها لها. يقول لها: «احتفظي بالباقي». ينهض واقفًا على الفور ويقول لي: «من الأفضل أن أُسرع، يا مولي. عليَّ أن أعود إلى الفندق وأن أنجز هذا الأمر من غير أي تأخير».

أقول: «بالطبع. سوف آخذ هذا الطعام إلى البيت، ثم أكتب إليك رسالة نصية عند وصولي إلى الفندق. أوه، وأيضًا، يا رودني».

يسألني: «ماذا الآن؟».

«من المؤسف حقًا أنك لا تحبّ تجميع أجزاء الأحجيات».

«لماذا تقولين هذا؟».

أجيبه: «لأنني لا أظنك تدرك جيدًا مقدار المتعة التي يحسّها المرء عندما يفلح فجأة في جمع القطع كلّها على نحو صحيح».

ينظر إليَّ. ترتفع زاوية شفته العليا قليلًا. الأمر واضح... معنى هذه الحركة. أنا حمقاء. أنا غبيّة. بل إني أكثر غباء حتى من أن أستطيع إدراك حقيقة أنني غبيّة. هكذا يراني.

ذلك هو التعبير الذي ارتسم على وجهه السوقي، على وجهه الكاذب.

الفصل الثاني والعشرون

أسير مسرعة طيلة المسافة حتى البيت. أعود إلى شقتي حاملة الطعام معي. ما أشد شوقي إلى إخبارهم بما جرى قبل قليل: السيد برستون، وشارلوت... وخوان مانويل خاصّة.

أدخل البناية وأصعد السلم درجتَيْن درجتين. أنعطف داخلة الممر المفضي إلى شقتي فأرى باب السيد روسو ينفتح قليلًا. يمدّ رأسه فيراني، ثم يعود إلى الداخل ويغلق الباب على الفور.

أضع أكياس الطعام من يدي حتى أدير المفتاح في القفل، ثم أدخل الشقة. أصيح معلنة: «لقد عدت!».

يهب السيد برستون واقفًا على قدميه. يقول: «أوه، فتاتي العزيزة. أنت هنا. الشكر للسماء!».

شارلوت وخوان مانويل جالسان في غرفة المعيشة. يقفزان واقفَيْن لحظة تقع عيونهما عليّ.

تسألني شارلوت: «كيف جرى الأمر؟».

يصير خوان مانويل إلى جانبي قبل أن أتمكّن من الإجابة عن سؤالها. يتناول أكياس الطعام مني، ثم يُخرج من الخزانة خرقة مسح الأحذية. يأخذ حذائي لحظة أخلعه من قدمي. ينظّف أسفله، ويضعه في مكانه.

أقول له: «ليس عليك أن تفعل هذا».

يقول: «لا بأس. هل أنت في حاجة إلى أي شيء؟ هل أنت بخير؟».

أجيبه: «أنا في أحسن حال. أتيت معي بهذا الطعام. آمل أن يكون الجميع هنا من المعجبين بمطعم حديقة الزيتون».

يقول خوان مانويل: «من المعجبين! أنا أحبّه». يحمل الأكياس ويذهب بها إلى المطبخ.

تقول شارلوت: «من الأفضل أن تقولي لنا كيف جرى الأمر. إن أبي وخوان مانويل في غاية التوتر منذ أن دخلتِ الشقة».

أقول لها: «صار كل شيء بحسب الخطة. رودني عائد الآن إلى الفندق. ليس على علم بأنني الشخص الذي اعتقلوه بتهمة القتل. يعتقد الآن أن الشرطة عائدة إلى الفندق حتى تفتش الشقة. قلت له إنني سأكون هناك بعد قليل حتى أعطيه بطاقة المفتاح». لا أستطيع منع نفسي من الابتسام وأنا أقول هذا... لأنني نجحت في إنجاز شيء ما كنت واثقة من قدرتي على إنجازه.

تقول لي شارلوت: «ممتاز. أحسنت صنعًا».

ينادي خوان مانويل من المطبخ: «كنت واثقًا من أنك تستطيعين فعل هذا».

تقول شارلوت: «بابا، تبدأ نوبة عملك في الساعة السادسة، أليس كذلك؟ هل أنت واثق من أنك تستطيع الحصول على بطاقة مفتاح شقة بلاك؟».

يجيبها: «إن لديّ بضع حيَل أستطيع استخدامها».

«من الأفضل أن تكون حيلًا ناجحة، يا بابا، لأن آخر ما يلزمنا الآن هو أن تتورّط في المشكلات بدورك».

«لا تقلقي عليّ. سوف يجري كل شيء مثلما نريد. ضعي ثقتك في أبيك العجوز!».

يظهر خوان مانويل آتيًا من المطبخ حاملًا صينية جدتي مملوءة بيتزا ومقبلات من حديقة الزيتون.

يقول: «كان عليّ أن أعود إلى عملي في الفندق منذ حين. يواصلون الاتصال بي». يضع الصينية على الطاولة الصغيرة، ثم يجلس.

تقرّب شارلوت كرسيها منه. تقول له: «الأمر عائد إليك، يا خوان مانويل. لكني أخشى أنك إذا عدت إلى عملك اليوم -بل حتى إذا عدت إلى ذلك الفندق في أي وقت- فسوف يعثر رودني على طريقة لاستغلالك مثلما يفعل دائمًا. عند ذلك، ستكون أنت من يقع في الفخ، لا هو».

يطرق خوان مانويل برأسه. ينظر إلى قدمَيه ويقول: «صحيح. أعرف هذا. سأتصل بمطبخ الفندق وأقول لهم إنني مريض. سأقول إنني غير قادر على إنهاء فترة عملي لهذا اليوم».

تقول شارلوت: «جيد».

يضيف خوان مانويل: «سوف أفكر لاحقًا كيف أتدبر بقية الأمر».

يسأله السيد برستون: «ما هي بقية الأمر؟».

يقول: «أين أنام الليلة؟ في البداية، علينا التركيز على الإمساك بالثعلب». يومئ برأسه ويبتسم. لكن ابتسامته ليست من النوع الحقيقي... ابتسامة ليست من النوع الذي يبلغ عينيه.

تنظر شارلوت إلى السيد برستون.

يقول السيد برستون: «أوه، يا خوان مانويل! لم نفكّر في هذا. إذا لم تعد إلى الفندق، فهذا يعني أن لا مكان لديك تنام فيه».

يجيبه من غير أن يرفع رأسه: «هذه مشكلتي، لا مشكلتكم. لا تقلقوا».

على الفور، يتبادر إلى ذهني أن هناك حلاً واضحًا؛ لكنه حلّ فيه قدر من الغرابة بالنسبة إليّ. لم يحدث من قبل أن أمضى ضيف ليلته في شقتي. لكني أظن أن جدتي -في هذه الحالة بعينها- كانت ستحثّني على فعل ما هو صحيح. أقول له: «تستطيع أن تنام هنا، هذه الليلة. لدي متسع كافٍ. سوف تأخذ غرفتي، وسأنام في غرفة جدتي. سوف يمنحك هذا وقتًا للتفكير في بدائل أخرى».

ينظر إليَّ كأنه لا يصدق ما سمعه: «حقًا! هل أنت جادّة في ما تقولين؟ هل ستتركينني أنام الليلة هنا؟».

«أليس هذا ما يفعله الأصدقاء؟ ألا يساعد واحدهم الآخر في الملمّات؟».
يهزّ رأسه بحركة بطيئة إلى الأمام وإلى الخلف. يقول: «لا أستطيع تصديق أنك تفعلين هذا من أجلي بعد كل ما حدث. أشكرك كثيرًا. وأيضًا، لا تقلقي... أنا هادئ جدًا. وأنا مثل فرن جيد: ينظّف نفسه بنفسه».

يضحك السيد برستون ويتناول واحدًا من الأطباق الصغيرة التي على الصينية ثم يضع فيه بروشيتا وبيتزا وموتزاريلا مقليّة.

أحذو حذوه وأملأ طبقًا آخر أقدّمه إلى خوان مانويل، ثم أملأ طبقًا لنفسي. أقول لهم: «هذه ضيافة من رودني. إنه مدين لنا جميعًا بأكثر من هذا».

يقول خوان مانويل: «هذا صحيح».

تنهض شارلوت وتمسك بجهاز تحكم التلفزيون. تفتح التلفزيون على قناة الأخبار المحلية التي تعمل أربعًا وعشرين ساعة.

أهمّ بتناول لقمتي الأولى من الموتزاريلا المقلية عندما أسمع ما يجعلني أتوقّف قبل أن أقضم لقمتي.

«سوف تقيم الشرطة بعد ساعة من الآن مؤتمرًا صحافيًا خاصًّا تكشف فيه عن تطوّرات مهمّة في ما يخص البحث عن قاتل تشارلز بلاك الذي كان من كبار رجال الأعمال في ميدان العقارات. لسنا متأكدين بعد، لكننا نتوقّع سماع معلومات عن الاتهامات التي وجهتها الشرطة؛ ومن الممكن جدًا أن نتعرف على هوية الشخص المتهم، فضلًا عن...».

أحسّ بأعينهم كلّها متجهة إليَّ. تتلاشى ثقتي في لمح البصر. أسألهم: «وماذا الآن؟».

تتنهّد شارلوت. تجيبني: «هذا لم يكن مصدر قلقي. تريد الشرطة طمأنة الرأي العام والفوز بالثناء لأنها قبضت على القاتل».

يضيف خوان مانويل وهو يضع طبقه على الطاولة: «هذا ليس حسنًا».

«ألا يمكن أن يذكروا اسمي؟ ماذا لو عرف رودني بهذا حتى قبل وصولي إلى الفندق؟».

يقول السيد برستون: «لقد بلغت الساعة الخامسة. لا تزال أمامنا ساعة».

تقول شارلوت: «هذا صحيح. لا حاجة إلى الذعر. أرى أن نبقى على خطتنا. لكن الوقت المتاح أمامنا صار محدودًا».

مذيع التلفزيون يستعرض تفاصيل الوفاة ونتائج تشريح الجثة - الموت نتيجة الخنق. نتابعه كلنا صامتين. «... تقول مصادر داخلية إن زوجة السيد بلاك، جيزيل بلاك، قد لا تكون متهمة، وإنها لا تزال مقيمة في الفندق. لكن من المؤكد أننا سنعرف المزيد. ربما بعد ساعة من الآن عندما... » تغلق شارلوت التلفزيون. «فلنأمل في ألّا يرى رودني هذا ويختفي. ولنأمل أيضًا في ألّا تغادر جيزيل الفندق عما قريب».

أقول لها: «لن تغادر الفندق. ليس لديها مكان تذهب إليه».

يضع السيد برستون طبقه، ثم ينهض واقفًا. يقول: «الظاهر أنني سأبكّر اليوم في الذهاب إلى عملي. مولي، هل أنت جاهزة؟ هل تفهمين الخطوة التالية؟».

أحسّ بأنني غير قادرة على العثور على كلمات أجيبه بها. وأحسّ بالأرض تهتزّ تحت قدميَّ. لكنني أدرك أن عليَّ أن أمضي قدمًا. أقول له: «أنا جاهزة».

«شارلوت، هل ستتصلين بالمحققة ستارك عندما تتلقين رسالتي؟».

«نعم، يا بابا. الحقيقة أنني سأقف أمام مركز الشرطة أنتظر رسالتك».

«خوان مانويل، سوف تظلّ هنا لكي تقوم بدور ‘غرفة العمليات’. سنتصل بك عندما نكون في حاجة إلى عون منك».

يجيبه خوان مانويل: «نعم، بالطبع. سأتحرّك عندما تتصل. لن يهدأ لي بال قبل أن نوقع به».

ما عاد لديّ شيء آخر أقوله، وما عاد لديّ شيء آخر أفعله. فقدت رغبتي في الطعام فوضعت طبقي على الطاولة.

تبقى أصابع الموتزاريلا المقليّة في الصحن.

الفصل الثالث والعشرون

يصرّ السيد برستون على أن نذهب إلى الفندق بسيارة تاكسي حتى نوفّر الوقت. بلغنا الآن منعطفًا قريبًا من الفندق. سوف أنزل هنا. أحسّ حرجًا عندما أرى السيد برستون يدفع أجرة التاكسي. لكن، ما من خيار أمامي غير قبول كرمه.

«مولي، هل أنت واثقة من أنك تستطيعين المتابعة سيرًا من هنا؟ هل تتذكّرين الخطة؟».

«نعم، يا سيد برستون. أنا بخير، وأنا مستعدة».

أقول هذه الكلمات آملة أن يعقبها إحساس حقيقيّ بها. وأما في الواقع، فأنا أرتجف وأحسّ بالعالم يدور من حولي، يدور سريعًا.

أهمّ بالنزول من سيارة التاكسي عندما يضع السيد برستون يده على ذراعي ويقول لي: «لو كانت جدتك هنا لفخرت بك».

أتذكّر جدتي، فتضجّ مشاعري، لكني أكتمها، أرغمها على العودة من حيث أتت. قبل خروجي من السيارة، أُفلح في أن أقول له: «أشكرك كثيرًا، يا سيد برستون». أقف على الرصيف، وتتابع عيناي السيارة مبتعدة به.

أمشي وحدي مسافة كتلة سكنية واحدة، ثم أقف مختبئة في شارع فرعيّ قبالة الفندق حيث سأنتظر عشر دقائق. الفندق جميل جمالًا غريبًا هذا العصر. ضياء الشمس الذهبي منعكس على زجاج المدخل الذي يبدو كأنه يستحم في هذا الألق المسحور. أرى السيد والسيدة تشن خارجين من الفندق لتناول عشاء مبكر. هو في بدلة مقلّمة؛ وهي في ملابس كلّها سوداء عدا باقة أزهار صغيرة ذات لون ورديّ فاقع مثبتة إلى صدرها. أسرة شابة تنزل من سيارة تاكسي بعد يوم طويل من التجوّل ورؤية معالم المدينة. الأبوان متعبان، حركاتهما بطيئة. والأطفال يندفعون صاعدين الدرجات القرمزية، أيديهم ممتدّة بتذكارات أتوا بها. يريدون أن يراها عاملو الفندق الواقفون عند المدخل، الحمّالون والسائقون. على الدوام، هكذا يكون مدخل الفندق قبيل المساء... وكأن النهار يلقي آخر

ما تبقى لديه من طاقة على تلك الدرجات، في حين يظل الفندق نفسه صابرًا، منتظرًا أن يحلّ هدوء الليل.

منصة البواب هي المكان الوحيد الخالي، المهجور. لم يصل السيد برستون حتى الآن. لا شك في أنه لا يزال في الأسفل، يرتدي الآن معطفه الطويل، ويعتمر قبعته، ويسجّل موعد وصوله إلى العمل.

الزمن يمرّ بطيئًا. بطء لا أستطيع احتماله. توتّر عصبيّ يجعل جسدي يرتجف كلّه. لست أدري إن كنت قادرة على فعل هذا. لم أعتد هذه السوية من الأداء. أمر واحد يمنحني قوة: حقيقة أن السيد برستون وشارلوت وخوان مانويل واقفون في صفّي.

إن كنتِ مؤمنة بنفسك، فلن يقدر أي شيء على إيقافك!

أحاول أن أبذل كل جهدي، يا جدتي... أحاول.

حان الوقت!

أظلّ حيث أنا. أظلّ مختبئة في أوّل الشارع الفرعي، محتمية بظلال واجهة المقهى، شبه ملتصقة بالجدار. يظهر السيد برستون بعد انتظار طويل. إنه الآن في ملابس عمله الأنيقة. يسير بخطوات هادئة خارجًا من الباب الدوّار، ثم يقف في الفسحة أعلى السلم، خلف منصّته. يُخرج هاتفه من جيبه. يبعث برسالة، ثم يعيد الهاتف إلى جيبه. أستند إلى الجدار مع يقيني من أنه غير نظيف. إن سار كل شيء على ما يرام، فسوف يكون لديّ وقت كافٍ للاغتسال. وإن ساءت الأمور، فلن أنعم بالنظافة بعد الآن.

تنقضي دقيقتان اثنتان. تمامًا عندما أحسّ بأن الذعر قد بدأ يُطبق عليّ، أراه آتيًا في الشارع، أرى رودني سائرًا بخطوات سريعة، متّجهًا إلى الفندق. أعترف بأن مشاعري عند رؤيته مشاعر مختلطة. فمن ناحية، يعني ظهوره أن كل شيء سيسير مثلما خطّطنا. ومن ناحية أخرى، ينبعث في نفسي غضب فور رؤيتي وجهه الكاذب. وجهه الخائن.

يصعد درجات المدخل قفزًا، ثم يتوقّف عند منصّة البواب. أراه يكلّم السيد برستون. يطول كلامهما أكثر من دقيقة. ثم يدخل رودني الفندق.

يخرج السيد برستون هاتفه. يتصل ويرفع الجهاز إلى أذنه. أكاد أقفز في مكاني عندما يهتزّ هاتفي في جيبي.

أرفع الهاتف إلى أذني. أهمس: «ألو! نعم، رأيت ذلك كله. ماذا أراد منك؟».

يقول السيد برستون: «لقد سمع بأمر المؤتمر الصحافي. سألني إن كنت أعرف هويّة الشخص الذي اعتقلوه».

أسأله: «وماذا قلت له؟».

«قلت له إنني رأيت جيزيل تتكلّم مع الشرطة. وقلت إنها بدت في حالة صدمة».

أقول: «أوه، يا إلهي. هذا ليس جزءًا من الخطة».

«كان لا بدّ لي من التفكير سريعًا، ومن اختراع شيء أقوله له. لو كنتِ مكاني لفعلتِ مثلما فعلت. أنت قادرة على هذا. أنا واثق تمام الثقة».

أستنشق نفسًا عميقًا، ثم أسأله: «أيّ شيء آخر؟».

«يبدأ المؤتمر الصحافي بعد أقلّ من أربعين دقيقة. علينا أن نكون سريعين. لقد حان الوقت. ابعثي إليه بتلك الرسالة الآن، ثم تابعي بحسب الخطة».

«فهمت، يا سيد برستون. هذا ما سوف أفعله».

أُنهي المكالمة، وأنظر إلى السيد برستون فأراه يعيد هاتفه إلى جيبه.

أبدأ كتابة الرسالة إلى رودني: النجدة! أنا واقفة عند باب الفندق، لكنهم لا يسمحون لي بالدخول. إذا لم أستطع أن أدخل حتى أجلب لك بطاقة المفتاح، فماذا نفعل؟

على الفور، يأتيني ردّ رودني: BRT DGA.

ما هذا؟ كيف أستطيع فهم هذه الرسالة، كيف أعرف معناها؟ لا فكرة لدي أبدًا. فكّري، يا مولي... فكّري!

أنت لست وحدك أبدًا طالما أن لديك أصدقاء.

الإجابة قريبة مني، قريبة جدًا. أبحث في هاتفي عن رقم خوان مانويل. أتصل به. يجيبني قبل نهاية الرنة الأولى.

«مولي، ماذا حدث؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم، كل شيء بخير. تسير الخطة سيرًا حسنًا. لكن... يا خوان مانويل، أنا في حيرة من أمري. أريد مساعدة عاجلة». أقرأ عليه ما وصلني من رودني.

«أتظنين أنني أعرف معنى هذا؟».

أحسّ كأنني في برنامج تلفزيوني(9) حيث أستطيع الاتصال بصديق حتى يساعدني في الإجابة فأفوز بجائزة ماليّة كبيرة. «يا مولي... لقد اتصلتِ بصديق لا يعرف الإجابة الصحيحة». يصمت لحظة، ثم يتابع، «انتظري. انتظري لحظة». أسمع أصواتًا غريبة آتية من هاتفه.

«مولي... هل أنت على الخط؟».

«نعم».

«بحثت عنها في غوغل. يعني ما كتبه رودني: ظلّي هناك. لا تتركي المكان. هل فهمتِ هذا؟ هل فهمت معناه؟».

لقد فهمت. فهمت ما أراد قوله. عادت الأمور إلى مجاريها. «خوان مانويل، أستطيع الآن...».

أستطيع الآن أن أقبّله. هذا ما أود قوله... أنا ممتنة له كثيرًا، ممتنة إلى درجة تجعلني راغبة في تقبيله. لكن هذه فكرة سخيفة، فكرة متهوّرة لا تشبهني أبدًا. تعلق الكلمات في حلقي ولا أستطيع قولها.

بدلًا من ذلك، أقول في الهاتف: «أشكرك».

يجيبني: «انطلقي وأمسكي بالثعلب، يا مولي. سأكون في البيت عندما تعودين».

أعرف أنه ليس معي الآن، لكني أحسّ كأنه معي... كأنه ممسك بيدي حتى يساعدني في المضي قدمًا.

«نعم. شكرًا، يا خوان مانويل». أنهي المكالمة، ثم أعيد الهاتف إلى جيبي.

حان الوقت.

أستنشق نفسًا عميقًا ثم أسير خارجة من الظلال، أسير على الرصيف.

انظري في الاتجاهَيْن، دائمًا...

أعبر الشارع، محاولة أن تكون مشيتي طبيعية من غير اندفاع زائد. أذكّر نفسي بأن أتصرّف كأن هذا اليوم ليس إلّا يومًا عاديًا آخر. أقف أمام مدخل الفندق، أسفل السلم. أضع يدي على الدرابزين النحاسي. أصعد خطوة بعد خطوة، أسير على السجادة الحمراء الوثيرة.

يراني السيد برستون. يرفع سماعة هاتف الفندق المستقر على منصّته ويجري اتصالًا.

أستطيع سماع صوته الواثق يقول: «نعم. على الفور. إنها هنا أمام الفندق. ترفض الانصراف».

يدا السيد برستون في قفازين أبيضين، مثلما خططنا. ليس هذا جزءًا من مظهره المعتاد. ففي الأحوال العادية، لا يضع هذين القفازين إلّا في مناسبات خاصة. لكنهما سيكونان اليوم مفيدين لنا.

يخاطبني بصوت مرتفع فيه قدر من الفظاظة: «مولي! ماذا تفعلين هنا؟ لا تستطيعين القدوم إلى الفندق اليوم. أنا مضطر إلى مطالبتك بأن تنصرفي على الفور». ينظر من حوله حتى يتأكد من أن الناس يرون ما يجري. نزلاء كثرٌ يسيرون داخلين الفندق، خارجين منه. اثنان من السائقين العاملين في الفندق واقفان على الرصيف، ينصرف انتباههما عما يفعلانه وينظران إلينا. أحسّ كأنني صرت شخصية تستقطب الأنظار.

على الرغم مما أحسه من غرابة شديدة في كل ما أفعله الآن، فقد جاء وقت قيامي بدوري، وقت اجتذاب مزيد من الأنظار إليَّ. أصيح بصوت عالٍ، واثق كل الثقة: «من حقّي أن أكون هنا. أنا موظفة مرموقة في هذا الفندق، وأنا...».

تتوقّف كلماتي عندما يظهر السيد سنو خارجًا عبر باب الفندق الدوار.

يسير إليه السيد برستون بخطوات سريعة. «سوف أطلب الأمن». يقول هذا للسيد سنو، ثم يعبر الباب إلى بهو الفندق.

يندفع السيد سنو في اتجاهي. يقول لي: «مولي، يؤسفني إبلاغك أنك ما عدتِ عاملة في فندق ريجنسي غراند. عليك أن تغادري المكان على الفور».

كلماته صدمة لي. عليَّ القول إنني أسمعها فينتابني إحساس مَن فقدَت شيئًا غاليًا عليها. مع هذا، استنشق نفسًا عميقًا وأتابع أدائي كما يقتضي الدور الذي ألعبه أن أقوله. يغدو صوتي أعلى مما كان: «لكني موظفة أقوم بواجبي على أحسن مثال! لا تستطيعون طردي من غير سبب».

يقول السيد سنو: «يا مولي، تعرفين تمام المعرفة أن هناك سببًا. عليك أن تبتعدي فورًا عن مدخل الفندق. الآن».

أقول: «هذا غير منصف. لن أذهب».

يصحّح السيد سنو وضع نظارته على وجهه. يهمس لي بصوت كالفحيح: «أنت تزعجين نزلاء الفندق».

أنظر من حولي فأرى أن عدد النزلاء المجتمعين من حولنا قد ازداد. الظاهر أن الحمّالين والسائقين أخبروا موظفي مكتب الاستقبال... أرى عددًا منهم هنا، أراهم واقفين خارج الباب، أراهم يتهامسون. عيونهم كلها متجهة إليَّ.

تمضي بضع دقائق. أستمر في مشاغلة السيد سنو عند مدخل الفندق. أستمر في مطالبته بأن يفسّر لي الأمر. لا أزال أرجوه أن يعيد النظر. لا أزال أتكلّم كثيرًا وأشير إلى أن الفندق اكتسب سمعة مُضافة من قيامي بالنظافة على أعلى مستويات الجودة... مكاسب حقّقتها للفندق في سمعته مع كل غرفة أتولى تنظيفها. أفعل مثلما كانت تفعل جدتي، مثلما كنت
أراها في الصباح تزقزق وتزقزق وتزقزق من غير أن تصمت لحظة واحدة تلتقط فيها أنفاسها. طيلة ذلك الوقت، يظلّ في بالي أن لدينا دقائق معدودة فقط قبل أن تتهاوى خطتنا كلها. أنا الآنلا أرتدي ملابس العمل، وهذا يزيد توتري وإحساسي العام بأنني غير مرتاحة. أقول في نفسي، عد، يا سيد برستون! عد سريعًا!

بعد زمن أحسسته طويلًا جدًا، أرى السيد برستون خارجًا من الباب الدوار بخطوات سريعة. يأتي ويقف إلى جانب السيد سنو. يعلن قائلًا: «سيدي، لم أستطع العثور على عناصر أمن الفندق».

يجيبه السيد سنو: «وأنا عاجز عن جعلها تغادر المكان».

يقول السيد برستون: «دعني أتولى هذا الأمر».

يومئ السيد سنو برأسه ويتنحّى جانبًا. يخاطبني السيد برستون: «مولي، اسمحي لي بكلمة...».

يأخذني السيد برستون جانبًا، بكل لطف، يبتعد بي عن مسامع الآخرين. يصير الجمع الفضولي خلف ظهرينا.

أهمس له: «هل نجح الأمر؟».

«لقد نجح. وجدت تشيريل».

أسأله: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

«حصلت على ما أردت».

أسأله: «كيف؟».

«قلت لها إنني على علم بأنها تسرق بقية بقشيش الخادمات. غضِبت غضبًا شديدًا جعلها لا تنتبه إليَّ عندما وضعتُ في جيبي بطاقتها التي تفتح الأبواب كلها. وأيضًا، ما من بصمات أصابع باقية هناك». يقول هذا ويحرّك أصابعه في قفازه الأبيض. يمدّ يده إلي ويقول: «هيا، صافحيني».

أفهم ما أراد قوله. وعندما أصافحه، تستقر بطاقة تشيريل في كفّ يدي من غير أن يراها أحد.

يقول بصوت عالٍ يستطيع سماعه الواقفون من حولنا: «اعتني بنفسك، يا مولي. اذهبي الآن إلى بيتك. لا مكان لك هنا في هذا اليوم». يومئ للسيد سنو برأسه، فيجيبه بإيماءة مماثلة.

بطبيعة الحال، يعرف السيد برستون مثلما أعرف أنني لا أستطيع الانصراف. لم يحن أوان الانصراف بعد. أهمّ ببدء مونولوج جديد عن خليّة النحل والنحلات العاملات، لكني أرى رودني خارجًا من باب الفندق. ينزل درجات المدخل متجه صوبنا بخطوات سريعة.

أصيح: «لا أفهم شيئًا من هذا كله! أنا خادمة غرف جيّدة! رودني، أنت هو الشخص الذي أردت رؤيته. هل تستطيع تصديق هذا؟».

يقترب السيد سنو. أسمعه يقول: «رودني، نحاول أن نوضح للآنسة مولي أنها لم تعد عاملة في هذا الفندق. لكننا نجد صعوبة في جعلها تفهم هذا الأمر».

يقول رودني: «فهمت. دعني أكلمها بنفسي».

من جديد، يأخذني جانبًا. نبتعد عنهم قليلًا، فيقول رودني: «مولي، لا تقلقي. سوف أكلم السيد سنو في وقت لاحق وأفهم منه حكاية طردك من العمل. هل اتفقنا؟ أظن بأن الأمر ليس أكثر من سوء تفاهم. هل بطاقة المفتاح معك؟ أعني، مفتاح شقة بلاك؟ لا نستطيع أن نضيّع الوقت».

أقول له: «أنت محق. لا وقت لدينا. هذه هي البطاقة. خذها». أناوله البطاقة خفية عن الأعين.

«شكرًا، يا مولي. أنت أفضل صديقة. سمعت أن الشرطة قد أعلنت عن عقد مؤتمر صحافي. سوف يبدأ مؤتمرهم الصحافي بعد قليل. هل تعرفين لماذا يعقدون مؤتمرًا صحافيًا؟ ماذا سيقولون؟».

أجيبه: «للأسف، لا أعرف».

أنظر إليه نظرة فاحصة. هل جعلته إجابتي أكثر هدوءًا؟ يقول لي: «نعم. لا بأس. من الأفضل أن أنجز الأمر قبل أن يستقبل وجه البوم عناصر الشرطة».

«صحيح. عليك أن تسرع إلى أقصى حدّ ممكن. أتمنى لك حظًا طيبًا».

يستدير رودني، ويبدأ صعود درجات مدخل الفندق. أقول له: «أوه، رودني!». يستدير وينظر إليَّ: «أنا معجبة كثيرًا باستعدادك لفعل كل شيء من أجل أصدقائك».

يجيبني: «أنت لم ترِ بعد إلّا نصف ما أنا مستعد لفعله. لا أتورّع عن أيّ شيء».

يبلغ أعلى السلم قبل أن أفلح في قول شيء آخر. أسمعه يقول للسيد سنو: «كن مطمئنًا، سوف تنصرف». يقول له هذه الكلمات من غير اهتمام... كأنني لست موجودة.

بعد ذلك، أسير مبتعدة عن المدخل بخطى سريعة، ولا ألتفت إلّا مرة واحدة أرى فيها رودني داخلًا عبر الباب الدوار، ومن خلفه السيد برستون رافعًا إحدى يديه في اتجاهي، مصاحبًا السيد سنو إلى ردهة الفندق.

أنظر في هاتفي. إنها الخامسة وخمس وأربعون دقيقة.

حان الوقت.

---

(9) المقصود برنامج من سيربح المليون.

الفصل الرابع والعشرون

أنا جالسة في المقهى المقابل للفندق. اخترت مكانًا عند واجهة المقهى، عند الواجهة تمامًا، حتى أستطيع رؤية مدخل فندق ريجنسي غراند بكل وضوح. ضوء النهار يخبو. ظلال حادّة الزوايا تكتنف مدخل الفندق وتحيل لون درجاته القرمزي إلى لون مختلف، إلى شيء أشبه بلون دم جاف. لن يطول الأمر قبل أن تضيء مصابيح الغاز فيتألق نورها الغني مع لملمة الغسق فلوله وتقدّم جحافل الظلام.

أمامي إبريق شاي معدني من ذلك النوع الذي تسقط منه نقط بعد صبّ الشاي. أمامي أيضًا فنجان شاي ثقيل. أفضّل فنجانَي جدتي، لكن من يتسوّل ليس من حقّه أن يختار. أمامي أيضًا قطعة مافن بالزبيب، قطعة مافن طازجة قسمتها أربعة أجزاء. لكني متوترة... لا أستطيع أكلها الآن.

قبل بضع دقائق، ظهر السيد برستون من باب الفندق وعاد إلى موقعه خلف منصّة البواب. رأيته يجري اتصالًا هاتفيًا. كان اتصالًا سريعًا. في الواقع، كان سريعًا جدًا. رأيته يرفع رأسه وينظر عبر الشارع إلى واجهة المقهى. لعله غير قادر على رؤيتي في هذا الضوء الشحيح، في ضوء آخر النهار. لكنه يعرف أنني هنا. وأنا أعرف أنه هناك. يريحني هذا.

يهتز هاتفي. إنها رسالة من شارلوت. صورة إبهام مرفوعة اتفقنا مسبقًا على أن معناها، «كل شيء يسير بحسب الخطة».

تصلني منها رسالة أخرى: انتظري حيث أنت!

أرسل إليها رسم إيموجي، صورة إبهام مرفوعة، مع أنني لست في مزاج حسن على الإطلاق. بالتأكيد، أنا في حالة معنوية صعبة، ولن أصير مثلما يوحي به رسم الإبهام المرفوعة إلى أن أرى حركة هناك، على درجات الفندق... إلى أن أرى علامة -أيّة علامة غير صورة الإبهام المرفوعة- تشير إلى أن خطتنا تحقق نجاحًا. حتى الآن، لا شيء من هذا.

الساعة الآن الخامسة وتسع وخمسون دقيقة.

حان الوقت.

أضم فنجان الشاي بيدَيَّ القلقتَيْن، لكنه صار الآن فاترًا... ما عاد فيه ذلك الدفء المريح. أرى عن كثب شاشة التلفزيون المعلّقة إلى يمين طاولتي. صوت التلفزيون مكتوم، لكن القناة هي نفسها القناة الإخبارية العاملة على مدار اليوم. يظهر على الشاشة شرطي شاب أرى على الفور أنه واحد من زملاء المحقّقة ستارك. هو من سيتكلّم في المؤتمر الصحافي. إنه يقرأ من أوراق أمامه. يظهر كلامه مكتوبًا على شريط متحرك أسفل الشاشة:

... تم اعتقال شخص في ما يتصل بما تؤكد الشرطة الآن على أنه جريمة قتل السيد بلاك يوم الاثنين في فندق ريجنسي غراند. المتهمة بقتله هي مولي غراي التي تعمل في خدمة الغرف في فندق ريجنسي غراند. لقد اعتُقلت ووجِّهت إليها تهمة ارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى، وتهمة حيازة سلاح ناري، فضلًا عن اتهامها بحيازة المخدرات.

أتناول رشفة من فنجان الشاي، ثم أكاد أختنق بها عندما يظهر وجهي على شاشة التلفزيون. إنها صورة التُقطت لي عند بداية عملي في الفندق من أجل حفظها في ملف العاملين. لست مبتسمة في تلك الصورة، لكن لي مظهر المحترفين، على الأقل. أنا في ملابس العمل. ملابسي نظيفة، مكويّة. يتتالى ظهور الكلمات على الشريط المتحرك:

... تم الإفراج عنها بكفالة. ندعو كل من لديه أيّة معلومات إضافية إلى أن...

في تلك اللحظة، ينصرف انتباهي عن التلفزيون لأنني أسمع صوت مكابح سيارات تتوقّف أمام الفندق. إلى الناحية الأخرى من الشارع، أمام مدخل الفندق تمامًا. أرى أربع سيارات كبيرة داكنة اللون. يقفز عناصر شرطة مسلّحين من تلك السيارات ويجرون صاعدين درجات المدخل. أرى السيد برستون يدخل معهم. لا يدوم المشهد كله أكثر من بضع ثوانٍ. يظهر السيد برستون من جديد خارجًا عبر الباب الدوار، وخلفه السيد سنو، يتبادلان بضع كلمات، ثم يلتفتان إلى بضعة نزلاء يقفون أمام الباب. لا شك في أنهم يطمئنونهم إلى أن كل شيء على ما يرام، مع أن من المؤكد تمامًا أن كل شيء ليس على ما يرام. أحسّ بنفسي عاجزة وأنا أراقب المشهد من بعيد. لست قادرة على فعل شيء غير الانتظار والأمل. أستطيع أيضًا إجراء مكالمة هاتفية. مكالمة هاتفية مهمّة واحدة.

حان الوقت.

هذا هو الجزء الوحيد من الخطة الذي احتفظت به لنفسي طيلة الوقت. لم أطْلع عليه أحدًا - لا السيد برستون، ولا شارلوت، ولا حتى خوان مانويل. لا تزال هناك بضعة أمور لا يعرفها غيري، أمور لا يستطيع فهمها غيري لأنني عشتها. أعرف كيف يكون إحساس المرء بأنه وحيد، بأنه وحيد إلى حدّ يجعله يُقدم على خيارات خاطئة... فاليأس يجعلك تضع ثقتك في أشخاص لا يستحقونها.

أفتح قائمة الأرقام المخزونة في هاتفي. أطلب رقم جيزيل.

يرن الهاتف مرة، مرتين، ثلاث مرات. تجيب عندما أبدأ الظن أنها لن تجيبني... «ألو».

«مساء الخير يا جيزيل. أنا مولي، مولي الخادمة. صديقتك».

«أوه، يا إلهي... مولي! كنت في انتظار اتصال منك. لم أرك في الفندق. أنا مشتاقة إليك. هل كل شيء على ما يرام؟».

لا وقت لدي أضيّعه في المجاملات. أعتقد بأن هذه واحدة من الحالات القليلة في الحياة التي يكون فيها تخطّي قواعد الإتيكيت أمرًا مناسبًا تمامًا. أقول لها: «لقد كذبت عليّ. رودني عشيقك. عشيقك السرّي. لم تقولي لي هذا أبدًا».

لحظة صمت على النهاية الأخرى من الخط، ثم تقول بعد حين: «أوه، يا مولي. أنا جدّ آسفة». أستطيع سماع أسفها في صوتها، في صعوبة النطق التي تنبئني بأنها موشكة على البكاء.

«ظننت أننا صديقتَان».

تجيبني: «نحن صديقتان بالفعل».

أحسّ وخز هذه الإجابة كأنه شوكة.

تقول لي: «مولي، أنا ضائعة. أنا... أنا ضائعة جدًا». إنها تبكي الآن. صوتها مستسلم، مذعور.

أقول: «لقد جعلتني آخذ مسدسك».

«أعرف هذا. ما كان ينبغي لي أن أورّطك في هذه الفوضى. كنت خائفة. خشيت أن تعثر الشرطة عليه فأصير متّهمة. ظننت أنهم لن يشكّوا فيك أبدًا».

«وجدت الشرطة مسدسك في مكنستي الكهربائية. والآن، صارت الشكوك كلّها موجهة إليّ، يا جيزيل. اعتقلوني ووجهوا إليّ اتهامات كثيرة. أُعلِنَ هذا على الملأ منذ دقائق معدودة».

تقول: «أوه، يا ربي! لا يمكن أن يحدث هذا».

«لكنه يحدث. يحدث لي. وأنا لم أقتل السيد بلاك».

تقول: «أعرف هذا. وأنا أيضًا، لم أقتله. أقسم لك على هذا يا مولي».

أقول لها: «أعرف. ألم تدركي أن رودني سوف يورّطني في الأمر؟».

«مولي... أُقسم لك أنني لم أعرف هذا. لم أعرف شيئًا عما فعله رودني بك. لم أعرف أنه كان يجعلك تنظفين الغرف بعد أن ينتهي من إعداد شحناته. لم أكتشف هذا كله إلّا صباح يوم الاثنين. قبل ذلك، لم تكن لديَّ أية فكرة عما يفعله رودني. ألم تري كيف كانت عينه متورّمة؟ ضربته عندما أخبرني. جرت بيننا مشادّة كبيرة من أجل هذا الأمر. قلت له إنه لا يجوز أن يفعل هذا بكِ. قلت له إنكِ شخص طيب، بريء. قلت إنه لا يجوز أن يستغل الناس بهذه الطريقة. قذفته بحقيبة يدي، يا مولي. جُننت غضبًا. أصابت سلسلة الحقيبة عينه».

الآن، اتضح لي أمر واحد كان غامضًا... لكنه أمر واحد فقط. أسألها: «هل كنت على علم بأن رودني والسيد بلاك شريكان في نشاطات غير مشروعة؟ هل كنت تعلمين أنهما يديران عمليات تجارة المخدرات انطلاقًا من الفندق؟».

أحسّ تردّدها على النهاية الأخرى من الخط. أسمعها تقول: «أعرف هذا منذ فترة من الزمن. كان ذلك سبب إقامتنا فترات طويلة جدًا في هذا الفندق الملعون. وأما الجزء الخاص بك... إقدام رودني على توريطك في هذا العمل القذر فلم أعرف عنه شيئًا إلّا في هذا الأسبوع. لو عرفت به قبل ذلك، لوضعت حدًا له. أُقسم لك على هذا. أقول لك أيضًا إنني لا علاقة لي بقتل تشارلز. نعم، كان بيني وبين رودني مزاح في هذا الأمر. تحدثنا كيف نبدأ الحياة من جديد ونصير قادرَيْن على الظهور أمام الناس معًا... يكفي أن نتخلّص من رئيسه ومن زوجي برصاصة واحدة. بل إننا خططنا أيضًا للهرب معًا، للسفر بعيدًا».

أفهم الأمر. بطاقة الطائرة: بطاقة سفر في اتجاه واحد، لشخصَيْن. أقول: «إلى جزر كايمان!».

«صحيح، إلى جزر كايمان. هذا ما جعلني أطلب من تشارلز تسجيل تلك الفيلا باسمي. لقد اعتزمت تركه والهرب بعيدًا، ثم تقديم طلب الطلاق من هناك. أردنا بدء حياة جديدة، أنا ورودني. أردنا بدء حياة أفضل... نحن الاثنان فقط. لكني لم أتصوّر أبدًا... لم أعرف أبدًا أن رودني يمكن أن يكون قادرًا حقًا على...». تصمت جيزيل.

أسألها: «هل أحسست يومًا بالخيانة، يا جيزيل؟ هل وضعت ثقة كبيرة جدًا في شخص، ثم خذلك ذلك الشخص؟».

تجيبني: «تعرفين أنني مررت بهذا. أنت تعرفين حق المعرفة».

«تعنين السيد بلاك... هو من خذلك».

«لقد خذلني، لكنه ليس وحده من خذلني. رودني أيضًا. الظاهر أنني خبيرة في وضع ثقتي في الأنذال».

أقول: «قد يكون هذا شيئًا مشتركًا آخر بينا».

تقول جيزيل: «صحيح. لكني لست مثلهما، يا مولي. لست مثل تشارلز وردني. لست مثلهما أبدًا».

أسألها: «ألست مثلهما؟ كانت جدتي تقول، إذا أردت أن تعرف وجهة شخص من الأشخاص، فلا تلقي بالًا إلى كلماته بل انظر إلى قدميه. لم أفهم عبارتها قبل اليوم. كانت تقول أيضًا: البرهان كامن في المذاق».

«البرهان كامن في... ماذا؟».

«يعني هذا أنني لن أثق بكلامك بعد الآن. لن أثق بك».

«مولي، لقد ارتكبتُ غلطة كبيرة جدًا. كانت غلطة غبيّة عندما طلبت منك العودة إلى تلك الشقة حتى تقومي بالمهمّة القذرة بدلًا مني. من فضلك، سامحيني. لن أتركك تضيعين بسبب هذا. لا يستطيعون الإفلات بما فعلوه».

صوتها مجروح، حقيقي. ولكن، هل أستطيع أن أثق بما أسمعه؟

أقول لها: «جيزيل، هل أنت الآن في الفندق؟ هل أنت في غرفتك؟».

«نعم، أميرة محبوسة في قلعة. مولي، اسمحي لي بأن أساعدك. سوف أقول لهم كل شيء، هل تسمعين. سوف أقول للشرطة إن المسدس لي، وإنني طلبت منك إحضاره. بل سأقول لهم أيضًا إن رودني وتشارلز كانا يديران عصابة مخدرات. سوف أُبرئ ساحتك. أعدك بهذا. مولي، أنت صديقتي الحقيقيّة الوحيدة. في حياتي كلها، لا صديقة لي غيرك».

أحسّ باندفاع الدموع إلى ضفاف عينَي. أتمنى أن يكون ما أسمعه حقيقيًا، أتمنى هذا. أتمنى أن تكون جيزيل بيضة صالحة وجدت نفسها في سلّة بيض فاسد. حان وقت وضعها موضع الاختبار.

«عليك الآن أن تصغي جيدًا إلى ما أقول، يا جيزيل. عليك أن تصغي بكل انتباه، بأقصى حدّ من الانتباه، هل تسمعين؟».

تقول بين شهقات بكائها: «نعم».

«هل تستطيعين السفر إلى جزر كايمان؟».

«نعم. لديّ بطاقة الطائرة. أستطيع السفر في أي وقت».

«هل جواز سفرك معك؟».

«نعم».

«لا تتصلي برودني. هل تفهمين هذا؟».

«ولكن، ألا ينبغي أن أخبره بـ...».

«جيزيل... رودني لا يبالي بك أبدًا. ألا تستطيعين رؤية هذا؟ سوف يوقع بك، أنت أيضًا. سوف يوقع بك في أول فرصة تسنح له. لست أكثر من بيدق آخر في لعبته».

أسمع صوت تنفسها. أسمع كيف صار التنفس صعبًا عليها. أسمعها تقول: «أوه، يا مولي. ليتني كنت مثلك. لست مثلك. لست مثلك على الإطلاق. أنت قويّة، أنت صادقة. أنت طيبة. لست أدري إن كنت قادرة على هذا. لست أدري إن كنت قادرة على أن أكون وحدي».

«لقد كنت وحدك دائمًا، يا جيزيل. الصحبة الرديئة أسوأ من الوحدة».

«لا بدّ أنّ جدتك قالت لك هذا».

«قالت لي هذا، وكانت محقة».

«كيف استطعت أن أقع في حب رجل يبلغ هذا القدر من...». أساعدها في العثور على الكلمة، «من الانحطاط».

تقول: «نعم. إنه منحط».

«كلمتا منحط وشرير مكوَّنتان من الأحرف نفسها. واحدة تولّد الأخرى»(10).

أجيبها: «منحط وشرير. جيزيل، ليس لدينا وقت. أريد أن تفعلي مثلما قلت لك. عليك أن ترحلي سريعًا».

تقول: «لا بأس. سأفعل ما تقولين، يا مولي».

«أريد أن تضعي حوائجك الضرورية في حقيبة واحدة. أريد أن تأخذي معك جواز سفرك وكل ما لديك من مال. أريدك أن تفرّي. لا تخرجي من باب الفندق الرئيسي، بل عبر واحد من أبوابه الخلفية. اذهبي الآن، هل تسمعين؟».

«لكن، ماذا عنك أنت؟ لا أستطيع أن أذهب وأتركك لـ...».

«إن كنت صديقتي فسوف تفعلين هذا من أجلي. لم أعد وحيدة. لديَّ الآن أصدقاء، أصدقاء حقيقيّون. سوف أكون في أحسن حال. أطلب منك الآن أن تفعلي ما قلته لك. اذهبي يا جيزيل. ارحلي الآن يا جيزيل. اهربي».

تواصل كلامها، لكني ما عدت أصغي إليها لأنني قلت كل ما أردت قوله. أعرف أن هذه فظاظة. لو لم نكن في ظرف خاص جدًا، لما تصرفت بهذا الأسلوب الخشن، المقتضب. أنهي المكالمة من غير أن أقول لها أية كلمة أخرى.

أعيد هاتفي إلى مكانه، ثم أرفع رأسي فأرى عاملة في المقهى تقف فوق طاولتي. أراها تنقل ثقل جسدها من قدم إلى أخرى. أعرف معنى هذا، فهو ما أفعله عندما أقف منتظرة دوري في الكلام.

تسألني: «هل هذه أنت؟». تشير إلى شاشة التلفزيون.

كيف ينبغي أن تكون الإجابة عن هذا السؤال؟

الصدق أفضل سياسة.

«نعم، هذه أنا».

تظلّ المرأة صامتة... ريثما تستوعب إجابتي.

«أوه... عليَّ القول أيضًا إنني لم أفعل هذا. أعني أنني لم أقتل السيد بلاك. أنا لست قاتلة. ليس عليك أن تقلقي». أتناول رشفة من فنجان الشاي.

تتيبّس عاملة المقهى، ثم تتراجع مبتعدة عن طاولتي. لا تدير ظهرها إلّا بعد أن تصير في مكان آمن خلف طاولة البيع. أراها تندفع إلى المطبخ. لا شك في أنها ستخبر الشخص المسؤول عنها. سرعان ما يأتي ذلك الشخص وينظر إليَّ بعينَيْن مذهولتَيْن. وعلى الفور، سوف أعرف ذلك التعبير. سوف أعرف أنه يعني الخوف لأنني أحقّق تقدّمًا في هذا الأمر... في فهم الإشارات الخفيّة ولغة الجسد التي تعبّر عن الحالة النفسية، عن المشاعر.

كلما عشت أكثر، كلما تعلمت أكثر.

سوف ينظر إليَّ ذلك الشخص، سوف ينظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل حتى يتحقق من أنني الفتاة التي ظهرت على شاشة التلفزيون. وسوف يتصل بالشرطة. ستقول له الشرطة شيئًا حتى تهدّئ مخاوفه. ستقول له ألّا يقلق... أو، ستقول له إن المعلومات التي وردت في المؤتمر الصحافي كانت غير صحيحة.

سيكون كل شيء في أحسن حال... في آخر المطاف.

أستنشق نفَسًا عميقًا. أستمتع برشفة جديدة من الشاي الفاتر. أنتظر، وأرقب مدخل الفندق.

وعندها... ها هم يظهرون أخيرًا. أرى أمامي ما كنت في انتظاره.

يخرج عناصر الشرطة من الباب الدوار. أراهم يقودون أمامهم رجلًا. إنه رودني. كمّا قميصه الأبيض المطويان يجعلان رؤية الأصفاد في معصميه سهلة. المحقّقة ستارك تسير من خلفه. أرى في يدها حقيبة رياضية لونها أزرق داكنًا. أعرف الحقيبة على الفور. سحّاب الحقيبة نصف المفتوح. حتى من هذه النقطة، أستطيع القول إن ما فيها ليس ملابس عامل غسل الأطباق في المطبخ ولوازمه الشخصية، بل أكياس من مسحوق أبيض اللون.

أرفع إلى فمي ربعًا من قطعة المافن بالزبيب. ما أطيبها! إنها طازجة! أليس غريبًا أن ينتج هذا المقهى سلعه المخبوزة في ساعة متأخرة بعد الظهر؟ لا يتوقّع المرء أن يجد أشخاصًا كثيرين يختارون تناول المافن بعد الظهر. لكن، ها هي طازجة هنا! لعل في هذا العالم أشخاصًا آخرين يشبهونني!

البشر سرّ غامض لا سبيل إلى اكتشافه.

هذا صحيح، يا جدتي! بل هو صحيح جدًا!

تبعث قطعة المافن بهجة في نفسي. تذوب في فمي. مذاقها لذيذ. شيء بشريّ جدًا، مُرضٍ جدًا. شيء لا بد لنا من فعله، كلنا... شيء موجود لدى كل إنسان على هذه الأرض. أنا آكل... أنا موجودة على هذه الأرض.

يخفض عناصر الشرطة رأس رودني ويُجلِسونه في واحدة من سياراتهم، في المقعد الخلفي. عدد من رجال الشرطة الذين دخلوا الفندق قبل دقائق معدودة يقفون الآن عند أسفل السلم. نزلاء الفندق المتوترون متجمّعون عند المدخل يسألون البوّاب راجين أن يسمعوا منه ما يطمئنهم، ويريح أعصابهم.

تصعد المحقّقة ستارك درجات المدخل، ثم تقول شيئًا للسيد برستون. أراهما ينظران في اتجاهي، كلاهما. أنا واثقة من هذا. لكني لا أجد نفسي واثقة من تأثير تلك الحركة الصغيرة التي تقوم بها المحقّقة. أعرف أنني أواجه قدرًا من الصعوبة في تفسير حركات المحقّقة ستارك. لذا، فلن يكون تخميني إلّا مجرّد تخمين... لن يكون إلّا ظنًا، ليس مؤكدًا.

ما كنت يومًا واحدة ممن يحبون القمار، ولا المراهنات... لعل هذا لأن كسب المال كان شديد الصعوبة دائمًا، وكان فقدانه سهلًا. لكن إن أردت المراهنة الآن، فسوف أقول إن تلك الإيماءة من رأس المحققة حملت معنى واضحًا. معناها: لقد كنتُ مخطئة.

---

(10) الكلمتان في الإنجليزية هما: «vile» و«evil».

الفصل الخامس والعشرون

أسير عائدة إلى شقتي. خطواتي كسلى. غريب كيف يصعب على المرء أن يستمتع بالأشياء الصغيرة من حوله، بالأشياء البهيجة، عندما يثقل عليه توتره... عصافير تزقزق أغنياتها الأخيرة قبل أن تهدأ استعدادًا لنوم الليل؛ وغروب الشمس يجعل غيوم السماء كأنها قطن؛ وحقيقة أنه عائد إلى البيت حيث يفتح الباب فيجد صديقًا في انتظاره... تمامًا عكس ما كانت عليه الحال. لعل هذه أوّل مرة منذ ماتت جدتي أعيش هذا الإحساس بالأمل.

في آخر المطاف، سيكون كل شيء على ما يرام. وإذا لم يكن على ما يرام، فهذا يعني أن تلك ليست نهاية المطاف!

بنايتي أمامي. تتسارع خطواتي. أعرف أن خوان مانويل في توق إلى الأنباء، في توق إلى أنباء حقيقية لا إلى مجرد صورة صغيرة فيها إبهام مرفوعة.

أدخل باب البناية، وأصعد السلم حتى طابقي، أصعد السلم كل درجتين معًا. أنعطف في الممر. أخرج مفتاحي. أدخل الشقة.

أصيح: «لقد عدت».

يندفع خوان مانويل صوبي. يتوقف على مسافة قريبة منّي، مسافة أقل من طول عربتي. لكن هذا لا يزعجني أبدًا. ما كانت لديّ في يوم من الأيام مشكلة في أن يكون الناس قريبين منّي. دائمًا، كانت مشكلتي عكس هذا... يحافظ الناس على مسافة تفصلهم عنّي.

يقول: «مرحبًا. لقد عدْتِ!». يضم كفَّيه معًا. يفتح باب خزانة الأحذية ويتناول الخرقة. ينتظر أن أخلع حذائي.

يسألني: «هل نجح الأمر. هل أمسكوا بالثعلب؟».

أرد: «نعم. رأيت ذلك بأم عينيّ. قبضوا على رودني».

«أوه، شكرًا، شكرًا لك. عليك أن تحكي لي كل شيء. هل أنت بخير؟ قولي لي، هل أنت بخير؟».

«خوان مانويل، أنا بخير. الحقيقة أنني في أحسن حال».

يتنفّس الصعداء. يقول لي: «هذا جيّد. جيّد جدًا». يأخذ حذائي ويمسح أسفله كأنه يتوقّع ظهور جنّيٍّ منه. لحسن الحظ، ينتهي ذلك المسح العنيف. يضع حذائي في الخزانة، ومعه الخرقة. ثم يعانقني. يفاجئني هذا التعبير غير المتوقّع عن الحماسة، فتظل ذراعاي متدليتين، وأنسى أن أتصرّف تصرفًا صائبًا، أنسى أن أعانقه بدوري. لا أكاد أدرك هذا إلّا بعد أن أفلتني.

أسأله: «لماذا عانقتني؟».

«لأنك عدت إلى البيت سالمة. تعالي، تعالي إلى المطبخ. أعددت لنا عشاء صغيرًا. حاولت أن أظل متفائلًا، يا مولي، لكني كنت قلقًا. فكرت في أن الشرطة يمكن أن تأتي وتأخذني من هنا، أو في أن من الممكن ألّا تعودي إلى البيت. أتتني أفكار سيئة، سيئة جدًا... فكّرت في
أنهم قد...». يتوقّف عن الكلام.

أسأله: «في أنهم قد يفعلون ماذا؟».

يقول: «رودني ورجاله. إذا... ألحقوا بك الأذى مثلما فعلوا بي».

تجعلني هذه الفكرة أحسّ بأرض الغرفة تهتزّ من تحتي، لكني أتنفّس بعمق حتى أُهدّئ من روعي.

يقول خوان مانويل: «تعالي».

أسير خلفه إلى المطبخ، فأرى أنه أعدّ طاولة العشاء. إنها بقايا الطعام الذي جلبته من مطعم حديقة الزيتون، لكنها الآن مرتبة ترتيبًا جميلًا في طبقَيْن، واحدٌ لكل منا. بل إنه وضع أيضًا مفرش جدتي ذا المربعات السوداء والبيضاء حتى يضفي قدرًا إضافيًا من الجوّ الإيطالي. أثرٌ ساحر! تحوّلت تلك

الزاوية الصغيرة في مطبخنا إلى شيء كأنه صورة على بطاقة سياحية. أحسّ كأنني في حلم. تلزمني برهة حتى أستعيد قدرتي على النطق.

أفلح في أن أقول له: «خوان مانويل، هذا جميل جدًا. هل تعرف أنني أظن الآن -أول مرّة منذ زمن بعيد جدًا- أظنني قادرة على تناول وجبة كاملة؟».

«سنأكل وستحكين لي كل شيء».

نجلس معًا، لكنه لا يكاد يجلس على الكرسي حتى ينهض واقفًا من جديد. يقول: «أوه، لقد نسيت».

يذهب مسرعًا إلى غرفة المعيشة، ثم يعود حاملًا واحدًا من شمعدانات جدتي ومعه علبة من أعواد الكبريت. يسألني: «هل نستطيع إشعال هذه الشموع؟ أعرف أنها شيء خاص. لكن هذا اليوم خاصٌّ أيضًا. أليس هذا صحيحًا؟ ألم يقبضوا اليوم على المجرم الحقيقي؟».

«نعم. اليوم أخذوه بسيارة الشرطة. آمل أن يحمل هذا معنى جيّدًا، لي ولك». تراودني شكوك لحظة خروج هذه الكلمات من بين شفتيَّ. أن يكون لدى المرء أمل، أمرٌ، وأن يثق بأن كل شيء سوف ينتهي مثلما يريد، أمرٌ آخر... في ما يخص خوان مانويل، وفي ما يخصّني.

يضع الشمعدان بيننا. يهم كل منا بالتقاط شوكته، فيرن هاتفي في جيبي. أكاد أسقط عن الكرسي. الشكر للسماء... إنها شارلوت.

أقول: «شارلوت. أنا مولي، مولي غراي».

«نعم، أعرف هذا. هل أنت بخير؟».

أجيبها: «نعم. أنا في أحسن حال. أشكر سؤالك. أنا هنا، في البيت، مع خوان مانويل. ونحن موشكان على بدء الجولة الإيطالية».

«ماذا قلت؟».

«هذا غير مهم. أخبريني، كيف جرى الأمر داخل الفندق. رأيت ما حدث من حيث كنت جالسة في المقهى. لكن، هل نجحت خطتنا. هل قبضوا على رودني متلبّسًا؟».

«جرت الأمور بطريقة جيّدة جدًا، يا مولي. اسمعي، لا أستطيع الآن أن أتكلّم طويلًا. أنا في مركز الشرطة. تريد المحقّقة ستارك رؤيتي في مكتبها. عليك أن تظلّي في البيت مع خوان مانويل. هل تفهمين هذا؟ فور انتهائنا من هنا، سننطلق في اتجاهكما. قد يستغرق هذا نحو ساعتين. أظن أن النتائج ستسرّك كثيرًا».

أقول: «نعم، لا بأس. شكرًا، يا شارلوت. سلّمي من طرفي على المحقّقة ستارك».

«هل تريدين مني أن... هل أنت واثقة من هذا؟».

«ما من سبب يدعوني إلى أن أكون غير مهذبة».

«لا بأس، يا مولي. سوف أنقل لها تحياتك».

«قولي لها، إنني أفهم معنى أن يومئ المرء برأسه».

«ما معنى هذا؟».

«ما عليك إلّا أن تقولي لها ما سمعته مني... من فضلك، انقلي لها كلامي مثلما هو. والشكر لك أيضًا».

تقول شارلوت: «لا بأس»، ثم تنهي المكالمة. أضع هاتفي من يدي. «آسفة جدًا لهذه المقاطعة. أود إخبارك بأنه ليس من عادتي أن أتلقّى مكالمات هاتفية أثناء وجبة العشاء. لا أنوي أن أجعلها عادة لي».

«يا مولي، أنت تبالغين كثيرًا في اهتمامك بـ'هذا صائب' و'هذا غير صائب'. لا أريد أن أعرف شيئًا غير ما قالته شارلوت».

«أمسكوا به متلبّسًا؟ قبضوا على رودني».

«En flagrante delito?»(11).

«نعم، قبضوا عليه متلبّسًا».

ترتسم ابتسامة على وجه خوان مانويل كلّه. تبتسم عيناه البنيتان الداكنتان. قالت لي جدّتي ذات يوم إن الابتسامة الحقيقية تظهر في العينين... شيء لم أفهمه حقّ الفهم قبل هذه اللحظة.

«مولي، لم تسنح لي قبل الآن فرصة الكلام معك وحدك، على انفراد، حتى أعبّر لك عن أسفي. لم أرد أبدًا أن تتورّطي في شيء من هذا كله».

كانت شوكتي في يدي، لكني وضعتها على الفور.

أقول: «خوان مانويل، لقد حاولت إبعادي حتى تجنّبني هذا كله. بل إنك حاولت أن تنذرني أيضًا».

«ربما كان عليَّ أن أحاول أكثر. ربما كان عليّ أن أخبر الشرطة بكل شيء. المشكلة هي أن ثقتي في الشرطة ضعيفة. أحيانًا، عندما ينظرون إلى من هم مثلي، لا يرون إلّا ما هو سيئ. ليس كل شرطي جيدًا، يا مولي. فكيف تستطيعين التمييز بينهم؟ خشيت أن تصير الأمور أسوأ من ذي قبل إذا ذهبت إليهم وحدّثتهم عن الفندق وعن المخدّرات... خشيت أن تصير
أسوأ بالنسبة إليّ وبالنسبة إليك».

أقول: «نعم. أفهم هذا. أنا أيضًا لدي مشكلات في التمييز بين الناس».

تابع يقول: «ما عدت مهتمًا بأن يقتلني رودني والسيد بلاك. لكنهم هدّدوني بقتل أمي، بقتل أسرتي! أخافني كثيرًا احتمال أن يحاولوا إيذاءهم. خفت أيضًا أن يحاولوا إيذاءك. كنت أقول في نفسي: إذا

صبرت على الألم وبقيت صامتًا، فقد لا يؤذون أحدًا غيري».

رُسغا يديه على حافة الطاولة، لا مرفقاه. أجد صعوبة في التركيز على وجهه لأنني الآن قادرة على رؤية الندوب على ذراعيه... شُفي بعضها، ولا يزال بعضها الآخر حديث العهد.

أشير إلى ذراعي خوان مانويل. أسأله: «أهو من فعل هذا؟ هل كان رودني من فعل بك هذا؟».

يقول: «ليس رودني، بل صديقاه. الرجلان الضخمان. لكنهما كانا يتلقيان الأوامر من رودني. السيد بلاك يحرق رودني، ورودني يحرقني. هذا ما أناله كلّما تذمّرت، كلما قلت إنني لا أريد القيام بالعمل القذر من أجل رودني. كان هذا أيضًا عقوبة لي: لديّ أسرة أحبها؛ وأما رودني فلا أسرة لديه».

«هذا ظلم كبير، ما فعلوه بك».

يقول: «صحيح، إنه ظلم كبير... وما فعلوه بك أنت أيضًا».

أقول: «انظر إلى ذراعيك. إنهما متورمتان».

«كانتا متورمتَين. لكنهما تحسّنتا اليوم. اليوم، أحسّ بأنني صرت أحسن حالًا. لا أعرف ما يمكن أن يحدث لي، لكني لا أزال مسرورًا لأنهم قبضوا على رودني. ثم إن لدينا هنا شموعًا نستطيع إشعالها. إذًا، لدينا أمل». يُخرج من علبة الكبريت عودًا، ثم يشعل الشموع. يقول بعد ذلك: «لا ينبغي أن نترك الأكل يبرد. فلنأكل».

يحمل كلّ منا شوكته. نبدأ الأكل مستمتعَين بوجبتنا. لديّ من الوقت قدر ما أريد... وقت كافٍ لمضغ كل لقمة على أحسن وجه، وللاستمتاع بكل لقمة. وبين لقمة ولقمة، أقصّ عليه تفاصيل ما جرى عصر اليوم... كيف جلستُ في المقهى، وكيف انتظرت وقلقت، وكيف رأيت صورتي في التلفزيون، وكيف زعقت مكابح سيارات الشرطة عندما توقّفت أمام الفندق. وكيف كان إحساسي عندما رأيتهم يخفضون رأس رودني حتى يجلس في مقعد سيارة الشرطة الخلفي. أحدّثه عن المرأة

في المقهى، المرأة التي عرفتني لأنها رأت صورتي في التلفزيون، فيضحك بصوت مرتفع. أتجمّد لحظة خاطفة: لا أعرف إن كان يضحك مني أم يضحك معي.

أسأله: «ما المضحك في الأمر؟».

«ظنّتك تلك المرأة قاتلة! قاتلة تجلس في مقهاها تشرب الشاي وتأكل قطعة كيك».

أقول: «لم تكن قطعة كيك. كانت قطعة مافن، مافن بالزبيب». يزداد ضحكه شدّة. لست أفهم ما يضحكه في هذا، لكن ما صار واضحًا لي هو أنه يضحك معي، لا مني. وعلى غير انتظار، أجد نفسي أضحك مثله، أضحك من المافن بالزبيب من غير أن أدري لذلك سببًا.

نفرغ من تناول الطعام، فيبدأ خوان مانويل رفع الأطباق عن الطاولة.

أقول: «لا، كان لطفًا كبيرًا منك أن تعد هذا العشاء. أنا سأغسل الأطباق وأمسح الطاولة».

يجيبني: «هذا ليس عدلًا. أم لعلك تظنين نفسك الشخص الوحيد الذي يحبّ التنظيف. لماذا تحاولين حرماني من هذه المتعة؟» يبتسم بطريقته تلك، ثم يتناول مريلة جدّتي المعلّقة خلف باب المطبخ. مريلة زرقاء ووردية، عليها أزهار، لكنه لا يبدو مباليًا بمظهرها. يعلّقها من رقبته، ويدندن لنفسه بلحن أغنية وهو يربط شريطها حول وسطه. منذ زمن بعيد، لم أر أحدًا يستخدم هذه المريلة، لم أر أحدًا غيري يستخدمها. كان مرض جدتي في شهورها الأخيرة أشدّ من أن يسمح لها بوضع مريلتها. لكني أراها الآن مجسّمة، أرى من جديد جسدًا يمنحها شكلًا... لا أعرف ما يجعلني أشيح بوجهي. استدير صوب الطاولة، وأبدأ برفع الأطباق الباقية عليها، في حين يحضّر خوان مانويل ماءً بالصابون لغسلها.

ننجز العمل سريعًا، يدًا بيد. وخلال دقائق معدودة، يصير المطبخ كلّه نظيفًا، لامعًا.

يقول لي: «أرأيت؟ لقد عملت طيلة حياتي في المطابخ -مطابخ كبيرة، ومطابخ صغيرة، ومطابخ بيتيّة- يقفز قلبك فرحًا عندما ترين المطبخ نظيفًا آخر النهار».

أقول: «يقفز فرحًا!».

«نعم. يقفز فرحًا».

أنظر إليه في ضوء شموع جدتي فأحس كأنني لم أنظر إليه قبل الآن. في العمل، كنت أرى هذا الرجل كل يوم، على امتداد شهور كثيرة. والآن، يفاجئني أنه أكثر وسامة مما كنت أظن.

أسأله: «هل تحسّ بنفسك أحيانًا شخصًا غير مرئي؟ أعني، في العمل. هل تحس بأن الناس لا يرونك؟».

إنه يخلع مريلة جدتي ويعيدها إلى مكانها خلف الباب.

يقول لي: «نعم، بالطبع. لقد أَلِفت هذا الإحساس. أعرف كيف يجد المرء نفسه غير مرئي على الإطلاق، كيف يحسّ بنفسه وحيدًا في عالم غريب... كيف يخشى المستقبل».

أقول: «لا بد أن هذا كان مخيفًا لك... أن تجد نفسك مرغمًا على مساعدة رودني مع علمك بأن ما تفعله سيئ جدًا».

«أحيانًا، يكون عليكِ أن تقْدِمي على فعل ما هو سيئ حتى تستطيعي فعل أمر حسن. لا يكون ذلك واضحًا على الدوام، لا يكون بالأبيض والأسود مثلما يظنّ الناس... خاصة عندما لا تجدين أمامك أيّة خيارات أخرى».

نعم. هذا صحيح. إنه محق تمامًا.

أقول له: «أخبرني، يا خوان مانويل... هل تحبّ الأحجيات؟ هل تحبّ الأحجيات التي نجمّع أجزاءها؟».

«هل أحبّها؟ أعشق هذه الأحجيات».

في تلك اللحظة، أسمع نقرًا على الباب. على الرغم من شعور الراحة الذي بدأ ينتابني، إلا أن معدتي لا تزال تنقبّضعندما أسمع طرق الباب.

«مولي، هل نفتح الباب؟... مولي؟».

أقول: «نعم، بالطبع».

أرغم ساقَيّ على الحركة. نذهب إلى الباب معًا. أزيح المزلاج، وأفتح الباب. شارلوت والسيد برستون واقفان هناك، ومن خلفهما المحقّقة ستارك.

ترتجف ركبتاي فأتمسّك بإطار الباب حتى لا أقع.

يقول السيد برستون: «لا بأس عليك، يا مولي. لا بأس».

تضيف شارلوت: «أتت المحقّقة حاملة إليك أنباء طيّبة».

أسمع كلماتها، لكني أظلّ غير قادرة على الحركة. خوان مانويل واقف إلى جانبي، يحميني من السقوط. أسمع صوت باب ينفتح في الممر. ثم أرى السيد روسو واقفًا خلف المحقّقة ستارك. جمهرة أشخاص صارت مجتمعة عند بابي.

يصيح السيد روسو: «كنت أعرف هذا. كنت أعرف هذا يا مولي غراي. كنت أعرف أنك لست جيّدة. شاهدتك في الأخبار. أريد أن تتركي هذه البناية. هل تسمعين؟ أيتها الشرطية، أخرجيها من هذه البناية».

إحساس بالعار يحرق وجنتَيَّ، يسلبني القدرة على الكلام.

تلتفت المحقّقة ستارك إلى السيد روسو. تقول له: «في الحقيقة، أيها السيد، كانت معلومات ذلك التقرير التلفزيوني غير صحيحة. سوف ننشر توضيحًا بعد نحو ساعة واحدة من الآن. مولي بريئة

تمامًا من أيّ فعل غير سليم. والواقع أنها حاولت مساعدتنا في حل هذه القضية، لكن محاولتها لم تلق فهمًا صحيحًا أول الأمر. هذا سبب وجودي هنا».

تقول شارلوت مخاطبة السيد روسو: «أيها السيد، كلّي ثقة من أنك على دراية تامّة بأنك لا تستطيع إخلاء المستأجرين من غير سبب. هل سددت الآنسة غراي إيجار شقتها؟».

يجيبها: «تأخرت عن السداد... لكن، نعم، لقد سدّدت ما عليها».

تجيبه شارلوت: «الآنسة غراي مستأجرة مثالية لا تستحق هذا الإزعاج من جانبك». تخاطب المحققة... «وأيضًا، أيتها المحقّقة ستارك، هل لاحظت وجود مصعد في هذه...».

يقول السيد روسو: «آسف، عليَّ الآن أن أذهب»، ثم يبتعد مسرعًا.

تصيح شارلوت في إثره: «مع السلامة!».

الممر هادئ. ونحن واقفون جميعًا عند بابي. الأعيُن كلّها متّجهة إليّ. ماذا أفعل الآن؟ لست أدري!

يتنحنح السيد برستون، ثم يقول لي: «مولي، ألّا تتلطفين بدعوتنا إلى الدخول؟».

تستعيد ساقاي قدرتهما على الحركة بعد شللهما. يفلتني خوان مانويل عندما يراني قد تمالكت نفسي.

أقول: «أعتذر. لم أعتد استقبال هذه الكثرة من الزائرين. لكنها صحبة أرحب بها. تفضّلوا بالدخول».

يقف خوان مانويل عند الباب منتصبًا مثل حارس. يرحب بكل واحد من الزائرين ويطلب منه أن يخلع حذاءه. يأخذ الحذاء ويمسحه بيد مرتعشة، ثم يضع الأحذية كلها في الخزانة ويرتبها ترتيبًا أنيقًا.

يدخل ضيوفي غرفة المعيشة، يدخلون جميعًا ويقفون مرتبكين. ماذا ينتظرون؟

أقول لهم: «أرجوكم، تفضلوا بالجلوس!».

يذهب السيد برستون إلى المطبخ، ثم يعود منه بكرسيين يضعهما قبالة الأريكة.

أسألهم: «ما رأيكم في فنجان شاي؟».

يقول السيد برستون: «أنا مستعد للقتل من أجل فنجان شاي».

«بابا!».

«أسأت اختيار كلماتي. أعتذر».

أقول له: «لا مشكلة في هذا، يا سيد برستون». ثم ألتفتُ إلى المحققة ستارك، «كل واحد منا يخطئ من وقت إلى آخر، أليس هذا صحيحًا أيتها المحقّقة؟».

تبدو المحقّقة ستارك كأنها شديدة الاهتمام بالنظر إلى قدمَيها المجوربتَيْن. أظنها لم تألف خلع حذائها أثناء وقت العمل، ولم تألف أن تكون أصابع قدميها الرقيقة مكشوفة هكذا.

أقول من جديد: «إذًا، ما رأيكم في تناول الشاي؟».

يستجيب خوان مانويل: «سوف أعدّ الشاي». يلقي نظرة سريعة في اتجاه المحقّقة ثم ينسحب إلى المطبخ مسرعًا.

يدعو السيد برستون المحقّقة إلى الجلوس، فتستجيب. تجلس شارلوت في كرسيّها المعتاد. وأما أنا فأجلس على الأريكة، ويجلس السيد برستون إلى جواري حيث كانت تجلس جدتي... في ما مضى.

أقول: «أظنكم تتوقّعون أنني في غاية الشوق إلى معرفة ما جرى، وما تبيّن في الساعات القليلة الماضية. وسوف أكون شاكرة كثيرًا إذا عرفت إن كنت لا أزال متهمة بجريمة القتل».

أسمع صوت ملعقة تسقط على بلاط أرضية المطبخ.

يصيح خوان مانويل: «آسف!».

تقول المحقّقة ستارك: «الاتهامات الموجّهة إليك، أُسقطت كلها».

تكرّر شارلوت من خلفها: «أُسقطت كلها. طلبت المحققة أن تذهبي إلى مركز الشرطة حتى تبلّغك شخصيًا، لكني كنت مصرّة على أن تأتي هي إليك بنفسها».

أقول لشارلوت: «أشكرك».

تنحني صوبي، وتنظر في عينَي. تقول لي: «أنت بريئة، يا مولي. هل تفهمين هذا؟ الآن، صار هذا معلومًا لديهم».

أسمع الكلمات. يسجّلها عقلي، لكني لا أصدقها تمامًا. كلمات من غير أفعال يمكن أن تكون خداعة.

يربّت السيد برستون على ركبتيّ. يقول لي: «هيا، هيا. كل ما ينتهي على خير، فهو خير. لو كانت جدتك حيّة، لقالت لك هذه الكلمات نفسها».

تقول المحقّقة ستارك: «يا مولي، أنا هنا لأننا سنكون في حاجة إلى عونك. تلقينا بعد ظهر اليوم اتصالًا من السيد سنو. طلب أن نأتي إلى الفندق على وجه السرعة. أبلغنا بأن هناك تطورات جديدة».

يظهر خوان مانويل بباب المطبخ. ووجهه ممتقع، شاحب. بين يديه صينية الشاي التي كانت لجدتي. يضع الصينية على الطاولة. يتراجع مبتعدًا عن المحقّقة مسافة تبلغ عدة أضعاف طول عربتي.

لا تلاحظ المحققة ستارك حركته. تنظر إلى الصينية وتختار فنجان جدتي. يزعجني اختيارها. يزعجني كثيرًا، لكن، لا بأس.

أنهض واقفة وأقول: «خوان مانويل، من فضلك، خذ مكاني». ليت كرسيًا أخرى كانت عندي حتى أقدّمها إليه. لكن، للأسف، هذا كل ما لدي.

يقول: «لا، لا. من فضلك يا مولي، اجلسي. سأظل واقفًا».

تقول المحقّقة ستارك: «هذه فكرة حسنة... فقد يغمى عليها من جديد».

أجلس على الكرسي.

تضيف المحقّقة السكر إلى فنجانها، ثم تقلّب السكر في الشاي. تواصل كلامها: «عندما دخلنا اليوم الشقة التي كانت شقة بلاك، وجدنا فيها رودني ستايلز، عامل البار في مطعم سوشال، ومعه اثنان من شركائه».

أسألها: «هل كانا رجليَن ضخميَن على وجهَيْهما وشوم كثيرة؟».

«صحيح. هل أنت على معرفة بهما؟».

أقول: «ظننتهما نزيلَين في الفندق. قيل لي إنهما صديقا خوان مانويل». أقول هذه الكلمات الأخيرة، ثم أندم على قولها.

كأن السيد برستون قادر على قراءة أفكاري: ينبري قائلًا على الفور: «مولي، لا تقلقي. تعرف المحقّقة كل شيء عن رودني، وتعرف أنه كان يبتزّ خوان مانويل. تعرف أيضًا... الأفعال العنيفة التي تعرّض لها خوان».

خوان مانويل واقف من غير حركة، واقف عند باب المطبخ. أعرف كيف يكون إحساس المرء في هذه الحالة... عندما يتحدّثون عنه كأنه غير موجود.

تقول شارلوت: «مولي، هل تستطيعين إخبار المحقّقة عن السبب الذي جعلك تنظفين الغرف من أجل رودني كلما طلب منك ذلك؟ ما عليك إلّا أن تقولي لها الحقيقة كاملة، مثلما هي».

أنظر إلى خوان مانويل. لن أقول كلمة أخرى من غير قبوله. يقول لي: «لا بأس. تستطيعين أن تقولي لهم كل شيء».

عندها، أبدأ شرح كل ما جرى... كيف كذب عليَّ رودني وقال لي إن خوان مانويل صديقه وإنه لا بيت له... كيف جعلني أنظّف الغرف من غير أن أدرك ما كنت أزيله منها... وكيف غشّني... وأيضًا، كيف استغل خوان مانويل.

«ما كنت أدرك ما يجري فعلًا في تلك الغرف كل ليلة. ولم أعرف أن خوان مانويل كان ضحية اعتداءات عنيفة. ظننت نفسي أساعد صديقًا».

تسألني المحقّقة ستارك: «مع هذا، لمَ صدّقتِ رودني؟ لماذا صدّقت رودني عندما كان واضحًا تمامًا أن في الأمر مخدرات؟».

«ما هو واضح بالنسبة إليك، أيتها المحقّقة، لا يكون على الدوام واضحًا في عَين غيرك. ومثلما كانت جدتي تقول: 'نحن متماثلون جميعًا، لكن بطرق مختلفة'. الحقيقة هي أنني وضعت ثقتي في رودني. وضعت ثقتي في بيضة فاسدة».

يظلّ خوان مانويل جامدًا في مكانه عند باب المطبخ، كأنه تمثال.

«استغلّني رودني، واستغلّ خوان مانويل، حتى يظلَّ في الخفاء. الآن، صار هذا الأمر واضحًا لي».

تجيبني المحقّقة ستارك: «أنت محقّة. لكننا قبضنا عليه. وجدنا في الشقة كميّات كبيرة من الكوكايين ومن البنزوديازبين. كانت المخدرات بين يديه بالمعنى الحرفي لهذا التعبير».

أتذكّر أقراص جيزيل التي كانت في عبوة لا لصاقة عليها. على الأرجح، رودني هو من كان يزوّدها بها.

«وجّهنا إليه عددًا من الاتهامات الجنائية المتعلّقة بالمخدرات، فضلًا عن حيازة سلاح ناري غير مرخّص وتهديد الشرطة به».

«تهديد الشرطة!».

«نعم، شهر مسدسه عندما انفتح باب الشقة. كان مسدسًا مماثلًا للمسدس الذي وجدناه في مكنستك الكهربائية».

أجد صعوبة في تخيّل هذا - رودني في قميصه الأبيض الذي طوى كمّيه... يده تحمل مسدسًا بدلًا من كأس بيرة عند البار.

ينتبه خوان مانويل إلى ما لم أنتبه إليه. تتّجه عيونهم إليه عندما يقول: «لقد ذكرتِ اتهامات كثيرة. لكنك لم تذكري اتهامه بالقتل».

تومئ المحقّقة ستارك برأسها. «وجّهنا أيضًا إلى رودني تهمة ارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى، قتل السيد بلاك. لكن، عليَّ أن أكون صادقة تمامًا: نحن في حاجة إلى عونكم حتى نثبت التهمة عليه. لا تزال لدينا بضعة أمور لا نفهمها».

تستحثها شارلوت: «مثل ماذا؟».

«مولي، عندما دخلنا شقة بلاك أول مرة يوم عثرت عليه ميتًا، لم نجد أثرًا لبصمات أصابع رودني في أي مكان في الشقة كلّها. في الواقع، لم نجد في تلك الشقة إلّا بصمات قليلة جدًا. وأيضًا، وجدنا على رقبة السيد بلاك أثرًا من محلول التنظيف الذي تستخدمينه».

«هذا لأني، تحقّقت من نبضه. لأني...».

«نعرف هذا يا مولي، نعرف أنك لم تقتليه».

عندها تخطر في ذهني فكرة. أقول: «أنا المخطئة».

تتجه الأعين كلّها إليّ.

يسألني السيد برستون: «ماذا تقولين؟ ما معنى هذا الكلام؟».

«أعني حقيقة أنكم لم تستطيعوا العثور على بصمات رودني في الشقة... عندما أنظّف شقة من الشقق، فأنا أتركها في حالة من الكمال. إن كان رودني قد دخل ذلك المكان وترك فيه بصماته، فسوف أزيلها حتى من غير أن أعرف هذا. أنا خادمة غرف جيّدة؛ بل قد أكون جيّدة أكثر مما ينبغي».

تقول المحققة ستارك: «قد تكونين محقّة». تبتسم عند ذلك، لكن ابتسامتها ليست مكتملة، ليست تلك الابتسامة التي تبلغ العينَين... «نتساءل الآن إن كانت لديك أية معلومات عن مكان وجود جيزيل بلاك. اندفعنا مسرعين إلى غرفتها بعد اعتقالنا رودني فلم نجدها هناك. لقد غادرت الغرفة قبيل ذلك. الظاهر أنها رأتنا ندخل الفندق فاستعجلت الرحيل. تركت لنا في غرفتها رسالة صغيرة».

أسألها: «ماذا قالت فيها؟».

«قالت الرسالة: 'اسألوا مولي، الخادمة. سوف تخبركم. أنا لم أقتله. رودني وتشارلز = BFFs'».

أسأل: «ما معنى BFFs؟».

تتطوّع شارلوت بالتوضيح لي: «صديقان حميمان دائمًا. تريد القول إن رودني وتشارلز متعاونان».

يقول خوان مانويل: «صحيح. لقد كانا متعاونَيْن». تتجه الأعين كلّها صوبه. يواصل كلامه: «كانت هناك مكالمات هاتفية كثيرة بين رودني والسيد بلاك. وكانا يتجادلان أحيانًا. يتجادلان من أجل المال. يختلفان في ما يخص الشحنات والمناطق والصفقات. كان من الصعب أن يظنَّ أحدا بهذا، لكني سمعته».

تدير المحقّقة كرسيها حتى تواجه خوان مانويل. تقول له: «يهمّنا كثيرًا أن نسجل إفادتك باعتبارك شاهدًا».

يحسّ خوان مانويل خطرًا. يظهر هذا في وجهه.

تقول شارلوت: «لن يوجهوا إليك اتهامًا، ولن يحاولوا ترحيلك. يعرفون أنك ضحية جريمة. وهم في حاجة إلى عونك من أجل محاكمة المجرم الحقيقي».

تقول المحقّقة: «هذا صحيح. نظن أن رودني كان يهدّدك ويرغمك على التعاون معه. نعرف أنك عانيت من اعتداءات جسدية. نعرف أيضًا أن لديك تصريح عمل انتهت مدّة صلاحيته».

يقول خوان مانويل: «لم ينته تصريح العمل فحسب، بل انتهى إلى رودني».

تميل المحقّقة برأسها جانبًا. تسأله: «ما معنى هذا؟».

يوضح لها خوان مانويل كيف جعله رودني على اتصال بواحد من محامي الهجرة. وكيف أن ذلك المحامي أخذ ماله كلّه، لكنه لم يفعل شيئًا من أجل تجديد التصريح.

تسأله: «وهذا الذي يدعو نفسه محاميًا... هل لديك اسمه؟».

يومئ خوان مانويل برأسه.

تهز المحقّقة رأسها وتقول: «الظاهر أنه ستكون لدينا قضية أخرى نعمل عليها».

تسارع شارلوت إلى القول: «خوان مانويل، إذا ساعدتنا ووقفت شاهدًا في هذه القضية ضد رودني، فقد نكون قادرين أيضًا على الإمساك بهذا الذي تقول إنه محامٍ. علينا أن نوقع به قبل أن يفعل هذا بمزيد من الناس».

يقول خوان مانويل: «نعم، أتمنى توقيف هذا المحامي المخادع حتى لا يقع لغيري من المحتاجين ما وقع لي».

تقول شارلوت: «اسمع، يا خوان مانويل، شريكي في العمل، غارسيا، هو من يتولى قضايا الهجرة في مكتبنا. إذا أردت، أستطيع الجمع بينكما لنرى إن كان قادرًا على تجديد تصريح عملك».

تتغير سحنة مانويل: «نعم، تسرّني مقابلته والتحدّث معه. هناك أمور كثيرة تشغل بالي... السيد سنو، على سبيل المثال. يعرف الآن ما كنت أفعله. يعرف الآن أنني لزمت الصمت حين كان ينبغي أن أتكلم. وبالتأكيد، سوف يطردني من عملي».

يقول السيد برستون: «اهدأ، لا أظنه سيطردك. هو الآن في حاجة إليك أكثر من أي وقت مضى».

تضيف المحققة ستارك: «نحن كلنا في حاجة إليك. نريد منك شهادة تثبت أن رودني والسيد بلاك كانا يديران عصابة إجرامية انطلاقًا من الفندق، وتثبت أنهما كانا يستغلانك ويسيئان إليك. وقد نستطيع -أيضًا بمساعدتك- أن نتبيَّن السبب الذي دفع رودني إلى ارتكاب جريمة القتل. لا يزال مصرًّا على أنه بريء من هذه التهمة. لقد اعترف بالجرائم المتّصلة بالمخدرات، لكنه لم يعترف بارتكابه جريمة القتل. لم يعترف بذلك بعد».

يظل خوان مانويل صامتًا بضع لحظات، ثم يقول: «سأساعدكم».

تجيبه المحقّقة ستارك: «أشكرك. وأنت يا مولي، ألديك أي شيء تقولينه لنا عن جيزيل؟ أين هي الآن؟ هل عندك أية فكرة؟».

أجيبها: «سوف تظهر عندما تكون مستعدة».

تقول المحققة ستارك: «آمل أن تظهر!».

أتخيّل جيزيل على شاطئ رملي أبيض، شاطئ في مكان بعيد... أتخيلها تنظر في هاتفها وتتابع الأخبار، فتعلم باعتقال رودني. سوف تكتشف أنني ما عدت مشتبهًا فيها. ماذا تفعل عند ذلك؟ هل تحاول التواصل مع الشرطة؟ أم إنها ستكتفي بأن تضع هذا كلّه خلف ظهرها؟ هل تعاود محاولة النصب على رجل ثري آخر حتى تحصل على ماله، أم إنها ستتغير؟

في حياتي كلها، لم أكن بارعة في الحكم على طبائع الناس. لا أرى الحقيقة إلّا بعد فوات الأوان. لكن الأمر يظلّ مثلما قال خوان مانويل: «أحيانًا، على المرء أن يفعل شيئًا سيئًا حتى يستطيع فعل شيء حسن». لعل جيزيل تكون هذه المرة قادرة على فعل شيء حسن! أم لعلها لن تفعل؟!

أسأل المحققة: «ماذا سيحدث الآن؟ ماذا سيحدث لخوان مانويل؟ ماذا سيحدث لي؟».

تقول المحقّقة ستارك: «أنت الآن حرّة. أُسقطت عنك الاتهامات كلّها».

أسأل من جديد: «ولكن، هل أظل مطرودة من عملي؟».

الفكرة نفسها تجعلني أحسّ كأنني أسقط من أعلى جرف، أسقط إلى حتفي.

يقول السيد برستون: «لا، يا مولي. لن تفقدي عملك في الفندق. الواقع أن السيد ستارك سوف يكلّمك بنفسه من أجل هذا الأمر، وسوف يكلّم خوان مانويل أيضًا».

أقول: «أصحيح ما تقول؟ ألن يطرد أيًّا منا؟».

يقول السيد برستون: «قال إن كلًّا منكما عامل نموذجي في الفندق. قال أيضًا إنكما مثال لما يعنيه أن يكون المرء من العاملين في فندق ريجنسي غراند».

أسأل من جديد: «وماذا عن المحاكمة؟ ماذا سيحدث؟».

تجيبني شارلوت: «لن تبدأ المحاكمة إلّا بعد زمن طويل. سوف نستعد لها. يستغرق الأمر شهورًا كثيرة. لكني آمل أن نتمكّن، من خلال عملنا مع المحققة ستارك وفريقها، من وضع رودني خلف القضبان زمنًا طويلًا».

أقول: «يبدو هذا حسنًا. إنه كاذب، مستغل، غشاش».

يضيف السيد برستون: «وهو أيضًا قاتل».

أظل صامتة.

تقول شارلوت: «أيتها المحققة، أظن أن موكلتي مرهقة. كان هذا اليوم صعبًا عليها، فقد وُجّه إليها في الصباح اتهام بجريمة قتل هي بريئة منها. ونحن الآن نشرب الشاي في غرفة المعيشة في بيتها، مع من اتهمتها! ألديك ما تريدين قوله لها؟».

تسعل المحققة ستارك سعلة صغيرة، ثم تقول: «لن أقول إلّا إنني... آآآ... آسفة لأننا... اعتقلناك».

أجيبها: «هذا لطف كبير منك، أيتها المحقّقة. آمل أن تكوني قد تعلمتِ درسًا مهمًّا».

تتململ المحقّقة في كرسيها كأنها جالسة على دبوس حاد. تكرر: «أنا آسفة!».

«لعلك تعجّلت بالوصول إلى استنتاجاتك في ما يخصني. توقّعتِ رؤية ردود الأفعال التي تعتبرينها طبيعية؛ وعندما لم تري شيئًا من ذلك، ظننت أنني مذنبة. لقد كانت افتراضاتك متسرّعة، في غير محلها».

تقول المحققة: «نعم، يمكنك أن تقولي هذا».

«كانت جدتي تقول دائمًا إن من يعِش يتعلّم. آمل أن تستطيعي تفادي الافتراضات المتسرّعة في المرة القادمة».

يضيف خوان مانويل: «نحن متشابهون جميعًا، لكن بطرق مختلفة».

تقول المحققة: «نعم، أظن هذا».

تنهض واقفة، وتشكرنا على وقتنا، ثم تنتعل حذاءها وتنصرف.

بعد إغلاق الباب من خلفها، أقفله بالمزلاج الصدئ، ثم أطلق زفرة ارتياح كبيرة.

أستدير فلا أرى في غرفة المعيشة فراغًا بل وجوه ثلاثة أصدقاء. أرى وجوههم مبتسمة كلّها. إنها تلك الابتسامات التي تبلغ الأعيُن. لأوّل مرة في حياتي، أظنني صرت الآن قادرة على فهم معنى الصديق، الصديق الحقيقي. ليس الصديق شخصًا يحبك فحسب، بل هو من يكون مستعدًا لأن يفعل شيئًا من أجلك.

يقول السيد برستون، «والآن... لقد تلقّت تلك المحققة درسًا شديد الوقع عليها... ابتلَعَتْ شيئًا ثقيلًا. ما شعورك الآن، يا مولي؟».

لا أستطيع وصف شدة ارتياحي. لكن الأمر أكثر من ذلك. أقول: «أنا... لست أدري ما يجعلني أستحق هذا كله».

تقول شارلوت: «أنت لا تستحقين شيئًا مما جرى لك، لأنك بريئة».

«لا أعني الجرائم. أعني لطفكم الكبير معي، ثلاثتكم. أعني لطفكم الذي لا أظنني أستحقه، ولا أرى له سببًا».

يقول خوان مانويل: «دائمًا، هناك سبب للّطف».

يقول السيد برستون: «أنت محق. هل تعرفين، يا مولي، من كان يقول لي هذه الجملة على الدوام؟».

أقول: «لا أعرف».

«إنها جدّتك الطيّبة».

أقول: «لم تحكِ لي جدّتي أبدًا كيف عرف كل منكما الآخر».

يجيبني: «لا، أظنها لم تخبرك...». يستنشق نفسًا عميقًا... «منذ زمن بعيد، كنا مخطوبَيْن».

تقول شارلوت: «كنتما... ماذا؟».

«هذا صحيح. كانت لي حياة من قبلك، يا عزيزتي... كانت لي حياة لا تعرفين عنها إلّا القليل».

تقول شارلوت: «لا أستطيع تصديق هذا. لم أسمع بالأمر قبل الآن!».

يقول خوان مانويل: «هيا! اخبرنا، ما الحكاية؟». ويجلس حيث كانت المحقّقة جالسة.

«كانت فلورا سيّدة رائعة. كانت جدتك رائعة، يا مولي! كانت لطيفة، حسّاسة. كانت شديدة الاختلاف عن بقية الفتيات اللواتي في سنها. لقد سلبت عقلي منّي. همت بها حبًا. سألتها الزواج مني عندما كنا في السادسة عشرة، فوافقت. لكن والديها لم يسمحا لنا بذلك. كانا ميسورَيْن. أظنك تعرفين هذا. كان وضعها الاجتماعي بعيدًا عني أميالًا، لكن هذا لم يجعلها مترفّعة عليّ».

يفاجئني ما أسمعه، يفاجئني كثيرًا. لكن، ربما كان عليَّ إدراك أن لجدتي أسرارها. لكل منا أسراره.

يقول السيد برستون: «أوه، كم كانت جدتك تحبك، يا مولي! أحبّتك أكثر مما تتخيلين».

أسأله: «وهل بقيت على تواصل معها طيلة تلك السنين؟».

«نعم. كانت شديدة اللطف، مع زوجتي، مع ميري. ومن وقت إلى وقت، كانت فلورا تكلّمني عندما تواجه مشكلة. لكن المشكلة الحقيقية كانت منذ زمن بعيد... أتت في وقت مبكر».

أسأله: «ماذا تعني؟».

«هل فكرت يومًا في أن لك جَدًّا؟».

أقول: «نعم. كانت جدتي تقول إنه 'ذبابة ليل، بدوره'».

يقول: «هل كانت تقول هذا؟ كان جدك أشياء كثيرة. لكن... ليس كذلك. ما كان ليتركها ويطير مبتعدًا لو استطاع الاختيار. لقد وجد نفسه مرغمًا على تركها. على أية حال، كنت على معرفة به. تستطيعين القول إنه كان صديقًا. تعرفين كيف تحدث أمور عندما يكون الحب جديدًا، عندما تكون الزهرة نضرة...». يتوقف عن الكلام لحظة، ثم يسعل سعلة صغيرة، «لقد حبلت فلورا. وعندما وجدت أنها ما عادت قادرة على إخفاء حملها عن أبوَيْها، عندما اكتشفا الأمر، نبذاها بطريقة قاسية. الفتاة المسكينة... كانت لا تزال في السابعة عشرة. كانت لا تزال طفلة عندما فرّت من بيت أبويها حاملة طفلتها. ولم تجد أمامها سوى أن تصير خادمة في البيوت».

يصعب عليَّ تخيل هذا: جدتي تصير وحيدة، تخسر كل شيء، تخسر كل إنسان. أحس ثقلًا يحطّ على كتفي. أحس شيئًا لا أعرف ماذا أسمّيه.

يقول السيد برستون: «كانت جدتك فتاة لامعة. كان في وسعها أن تفوز بمنحة دراسية في أيّة جامعة. ولكن، في تلك الأيام، إن كنت امرأة عازبة ولك طفلة، فليس أمامك سوى نسيان أمر مواصلة التعلّم».

تقول شارلوت: «الآن، انتظر لحظة واحدة، يا بابا. هناك أمر لا أفهمه. من هو صديقك هذا؟ أين هو الآن؟».

«آخر ما سمعته عنه هو أن له أسرة يحبّها كثيرًا. لكنه لم ينس فلورا أبدًا... أبدًا».

تميل شارلوت برأسها وتنظر إلى أبيها نظرة غريبة لا أفهمها. تقول له: «بابا... لعل عندك شيئًا آخر تريد قوله لي!».

يجيبها: «يا ابنتي العزيزة، أظنني قلت ما فيه الكفاية».

أسأله: «هل عرفتَ أمي أيضًا؟».

«نعم. أمك... كانت ‘ذبابة ليل’ حقيقيّة. يؤسفني قول هذا. جعلتني جدتك أحاول إعادتها إلى صوابها عندما بدأت تعاشر شخصًا سيئًا. ذهبت لرؤيتها، وحاولت انتزاعها من ذلك الضياع الذي رمت بنفسها فيه. لكنها رفضت أن تستمع إليَّ. جدتك المسكينة، والألم الذي... ألم خسارتها طفلتها بتلك الطريقة...». تفيض عَيْنا السيد برستون دموعًا. تمسك شارلوت بيده.

يقول السيد برستون: «كانت جدتك طيبة جدًا. كانت طيبة. أتت جدتك فأسعفتنا عندما كانت ميري موشكة على أن تموت».

أسأله: «ماذا تعني بهذا؟».

«كان ألم ميري عظيمًا. وكان ألمي عظيمًا. كنت أجلس إلى جانبها ممسكًا يدها، وأقول لها: ‘أرجوك، لا تذهبي! ليس الآن!’. وكانت فلورا ترى ذلك كله. أخذتني جانبًا، وقالت لي: ‘ألا ترى؟ إنها تتألم، ولن تتركك قبل أن تتقبّل أن وقت الرحيل قد حان’!».

تمامًا، هذا ما كان من طبع جدتي أن تقوله. أسمع صدى تلك الكلمات في رأسي. أسأله: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

«قلت لميري إنني أحبها، وفعلت مثلما قالت لي فلورا. كان هذا ما تنتظر ميري سماعه قبل أن ترقد في سلام».

ما عاد السيد برستون قادرًا على كبت نشيجه.

تقول شارلوت: «كان ما فعلته صحيحًا، يا بابا. كانت معاناة ماما كبيرة».

«جعلتني جدّتك أرى كيف أتصرّف. وددت دائمًا أن أستطيع ردّ جميلها».

أقول له: «لقد رددت جميلها، يا سيد برستون. أتيت وأنقذتني. لو كانت جدتي هنا لشكرتك كثيرًا».

يقول السيد برستون: «أوه، لا. لست من فعل هذا... إنها شارلوت».

«لا، يا بابا. غير صحيح. أنت من أصرَّ على هذا. أقنعتني بأن علينا مساعدة هذه الشابة... خادمة الغرف التي تعمل معك. أظنني بدأت أدرك السبب الذي جعل أمرها يهمّك كثيرًا».

أقول: «الصديق وقت الضيق! جدتي تشكركما. تشكركم جميعًا. لو كانت هنا، لقالت هذا لكم بنفسها».

عند ذلك، ينهض السيد برستون واقفًا. تنهض شارلوت أيضًا. يمسح الدمع عن خدَّيْه ويقول: «لا بأس... ليس لنا أن نُثقل عليكِ أكثر مما فعلنا. من الأفضل أن نذهب».

تضيف شارلوت: «كان يومًا طويلًا. خوان مانويل، لقد جلبنا لك حقيبة حوائجك من خزانتك في الفندق... حقيبتك الحقيقية. وضعتها عند الخزانة، قرب الباب».

يجيبها: «شكرًا».

إحساس مفاجئ يداهمني: لا أريد أن يذهبا. ماذا إن خرجا من حياتي ولم يعودا أبدًا؟ لن تكون هذه أول مرّة! الفكرة وحدها جعلتني متوتّرة، على الفور.

أسألهما: «ألن أراكما مجددًا؟». لا أستطيع إخفاء نبرة القلق في صوتي.

يضحك السيد برستون: «سترينّنا، يا مولي... أعجبك هذا أم لم يعجبك».

تقول شارلوت: «سوف ترينّنا كثيرًا. لدينا قضية لا بد لنا من العمل عليها».

«بصرف النظر عن القضية، صرتِ مرتبطة بنا، يا مولي. تعرفين أنني عجوز، وأنني رجل أرمل صار له نمطه الخاص في الحياة. قد يبدو الأمر غريبًا، لكنّي أجد ما يحدث حسنًا، أجده حسنًا كله. وأنتم جميعًا... أحسّ كأن، كأننا...».

يسعفه خوان مانويل: «كأننا أسرة؟».

يقول السيد برستون: «نعم. بالضبط، هكذا هو إحساسي».

يقول خوان مانويل: «في عائلتي قاعدة: نجتمع أيام الأحد ونتناول الطعام معًا. هذا أكثر ما أحنّ إليه».

أقول: «أمر سهل. شارلوت، سيد برستون، هل تتلطفان وتنضمّان إلينا على العشاء يوم الأحد القادم؟».

يقول خوان مانويل: «سأطهو الطعام. لعلكم لم تتناولوا من قبل طعامًا مكسيكيًا حقيقيًا، طعامًا كالذي تعدّه أمي. سوف أقدّم لكم 'جولة مكسيكية'. أوه، سوف يعجبكم هذا كثيرًا».

ينظر السيد برستون إلى شارلوت. فتومئ شارلوت برأسها موافقة.

يقول السيد برستون. «نحن سنجلب الحلوى».

تضيف شارلوت: «ومعها أيضًا زجاجة شامبانيا حتى نحتفل».

عند الباب، أقف وأنتظر ريثما ينتعل السيد برستون وشارلوت حذاءيهما. لست أدري ما تقوله قواعد الإتيكيت عن كيفية وداع شخصين أنقذاني من قضاء عمري كلّه في السجن.

يقول السيد برستون: «والآن، ماذا تنتظرين؟ ألا تعانقين صديقك العجوز؟».

أعانقه فيفاجئني ذلك الإحساس... أحس كأنني «غولدي لوكس» تعانق «بابا بير».

أعانق شارلوت أيضًا. تسرني معانقتها، لكنه إحساس مختلف... كأنني أداعب جناح فراشة.

يسيران مبتعدَيْن، يدًا بيد، فأغلق الباب من خلفهما. خوان مانويل واقف في الممر. أراه متململًا.

يقول لي: «مولي، هل أنت واثقة من أن قضائي الليلة هنا لا يزعجك؟».

أقول: «نعم، الليلة فقط». لكن الكلمات التي تلي ذلك تندفع من فمي اندفاعًا «سوف تأخذ غرفتي. وسأنام في غرفة جدتي. سأغيّر الملاءات على الفور. أنا أغسل الملاءات دائمًا، وأعقمها، وأكويها، وأحتفظ بمجموعتين جاهزتين. لك أن تكون مطمئنًا إلى أنني أنظّف الحمام وأعقمه على نحو منتظم. وإذا كنت في حاجة إلى أيّ شيء... فرشاة أسنان، أو صابونة، فأنا...».

«مولي، هذا كافٍ. أنا في أحسن حال. كل شيء على ما يرام».

يتوقّف اندفاع كلماتي. أقول له: «لست بارعة في هذا. أعرف كيف أتعامل مع النزلاء في الفندق، لكن... ليس في بيتي».

«لستِ محتاجة إلى معاملتي بأيّة طريقة خاصّة. سوف أحاول أن أكون نظيفًا، وأن أكون هادئًا، وأن أقدّم ما أستطيعه من مساعدة. هل أنت ممن يحبّون تناول الإفطار؟».

«نعم، أحب وجبة الإفطار».

يقول: «جيّد. وأنا أيضًا أحبها».

أحاول تغيير ملاءات السرير في غرفتي... أحاول أن أغيّرها وحدي، لكن خوان مانويل لا يقبل هذا أبدًا. ننزع ملاءات السرير معًا بعد إزاحة اللحاف ذي النجمة الوحيدة، ثم نضع محلّها ملاءات جديدة نظيفة. نقوم بهذا معًا وهو يحكي لي قصصًا عن تيودور - ابن أخته الصغير البالغ ثلاثة أعوام الذي كان يقفز دائمًا على السرير عندما يرتبه خوان مانويل. يحكي لي قصصه فتتجسّد لي في ذهني حيّة. أستطيع رؤية ذلك الصبي الصغير يلعب ويقفز على السرير. أحسّه يصير موجودًا في الغرفة معنا.

يصمت خوان مانويل بعد انتهائنا من ترتيب السرير. يقول لي: «لا بأس. سوف أستعد الآن للنوم، يا مولي».

«ألست في حاجة إلى أي شيء آخر؟ لعلك تحب تناول فنجان حليب دافئ؛ أو لعلك في حاجة إلى شيء من مستلزمات الحمّام».

«لا. أشكرك، يا مولي».

أقول وأنا خارجة من الغرفة: «حسنًا جدًا، تصبح على خير».

يجيبني: «أتمنى لك ليلة طيبة، يا آنسة مولي». ثم يغلق باب الغرفة بكل هدوء.

أسير في الممر قاصدة الحمام. أخلع ملابسي وأرتدي البيجاما. أستغرق زمنًا في تنظيف أسناني. أغنّي «عيد ميلاد سعيد» ثلاث مرات حتى أضمن أنني نظّفت كل سنٍّ زمنًا كافيًا.

أغسل وجهي، وأستخدم المرحاض، ثم أغسل يدَيّ غسلًا جيدًا. ومن تحت المغسلة، أتناول عبوة سائل تلميع الزجاج. ألمّع المرآة تلميعًا سريعًا. أرى صورتي فيها منعكسة أمام عينَيّ، نظيفة، لا شائبة فيها.

لا حاجة إلى التأجيل أكثر من هذا.

حان الوقت!

أخرج إلى الممر وأسير حتى أصير أمام باب غرفة جدتي. أتذكّر آخر مرة أغلقت فيها هذا الباب بعد أن حمل العاملون الطبيّون جدتي وذهبوا بها، بعد أن نظّفت الغرفة من أعلاها إلى أسفلها، بعد أن غسلت ملاءاتها ورتّبت سريرها، بعد أن نفشت وسائدها وكنّست آخر ما كان باقيًا في الغرفة من أوساخ، بعد أن تناولت كنزتها المنزليّة المعلّقة على المشجب خلف الباب: إنها آخر قطعة من ملابسها، آخر قطعة لم أغسلها. رفعت الكنزة إلى وجهي لكي أستنشق آخر نفحة من رائحة جدتي قبل أن أضعها في سلّة ملابس الغسيل. كان الصوت الحاد الذي انبعث من لسان قفل الباب عندما أغلقته قاطعًا، نهائيًا مثل الموت نفسه.

أمدّ يدي وأضعها على مقبض الباب. أدير المقبض. أفتح الباب. الغرفة مثلما تركتها تمامًا. دمى جدتي الخزفية ترقص ساكنة على سطح طاولة الزينة. أطراف ملاءات سريرها الزرقاء تتدلّى في طيات متقنة. وسائدها في مكانها، منتفخة، لا تجاعيد على وجوهها.

أقول: «آه، يا جدتي». أحسّ بموجة أسى عظيمة، موجة قويّة تحملني إلى سريرها. أستلقي على السرير فينتابني إحساس مفاجئ بأنني على طوف نجاة ضائع في البحر. أعانق واحدة من وسائدها وأضمها إلى وجهي، لكني غسلتها غسلًا جيدًا جدًا. لا أثر باقيًا منها. لقد رحلت. جلست معها في آخر يوم من أيام حياتها. كانت مستلقية حيث أنا أستلقي الآن. جلبتُ الكرسي التي عند باب الشقة، الكرسي التي عليها وسادة صلاة السكينة. وضعت الكرسي إلى جانبها، وجلست عليها. قبل أسبوع من ذلك، نقلتُ التلفزيون إلى غرفتها ووضعته على صندوق الدروج قبالتها حتى تستطيع متابعة برامج الطبيعة و«قناة ناشيونال جيوغرافيك» أثناء غيابي في العمل. لم أكن راغبة في تركها هنا وحدها، ولا حتى بضع ساعات. كنت أعرف أنها في ألم شديد على الرغم من كل ما تبذله من جهد لإنكار ذلك.

«إنهم في حاجة إليك في العمل، يا ابنتي الغالية. أنت جزء مهم من الخليّة. وأنا مرتاحة هنا. الشاي إلى جانبي، وكذلك أقراص الدواء. معي أيضًا كولومبو».

تغيّر لون جدتي مع مضي الأيام. توقّفت عن الغناء والدندنة لنفسها. صارت أكثر هدوءًا، حتى في الصباح؛ صار تفكيرها في أيّ شيء مرهِقًا لها. صار ذهابها إلى المرحاض سفرًا شاقًا.

فعلت كل ما استطعته حتى أجعلها مقتنعة بمنطقي. كنت أقول لها: «جدتي، علينا أن نطلب سيارة إسعاف. ينبغي أن تذهبي إلى المستشفى».

كانت تهزّ رأسها بحركة بطيئة، فتتناثر خصلات شعرها الرمادية الواهية على وسادتها. «لا حاجة إلى هذا. أنا راضية. لديّ أقراص الدواء من أجل تهدئة الألم. أنا هنا، حيث أريد أن أكون. البيت... بيتي، بيتي الحلو».

«لكن، لعلهم يستطيعون فعل شيء. لعل الأطباء يستطيعون أن...».

تقول لي كلما رفضت الإصغاء إليها: «ششش. لقد تعاهدنا، أنا وأنت. فماذا نفعل عندما نتفق على أمر، عندما نتعاهد؟».

«ينبغي حفظ العهد».

تقول: «صحيح. هذه هي فتاتي».

وفي يومها الأخير، صار ألمها أشدّ من أي وقت مضى. حاولتُ مرة أخرى إقناعها بالذهاب إلى المستشفى، لكن من غير جدوى.

قالت لي: «حان وقت مسلسل كولومبو».

شغّلت التلفزيون وتابعنا الحلقة معًا، أو تابعتها وحدي في حين كانت عينا جدتي مغمضتَين، ويداها قابضتَين على ملاءاتها.

قالت لي بصوت لا يعدو أن يكون همسًا: «أنا مصغية. كوني عينيّ. صفي لي ما ترين».

جلست أنظر إلى الشاشة وأحكي لها ما يجري فيها. كان كولومبو يستجوب امرأة جميلة (واحدة ممن يتزوجهن رجال أثرياء للمباهاة بهنّ)، امرأة لم يظهر عليها كبير انفعال عندما علمت أن زوجها المليونير قد لا يكون الشخص الرئيسي المشتبه فيه. وصفت لجدتي المطعم الذي كانا فيه،

ومفرش الطاولة الأخضر، وكيف كانت المرأة تحرك رأسها، وكيف كانت تعبث بمفرش الطاولة. أخبرت جدتي عندما فهمت أن كولومبو يحاول الإيقاع بها لأنه يظنها ارتكبت تلك الجريمة: تلك النظرة التي تبين أنه عرف الحقيقة قبل أن يعرفها أحد غيره.

قالت جدتي: «نعم. هذا جيد جدًا. أنت تتعلّمين قراءة تعابير الوجوه».

وعند منتصف الحلقة، صارت جدتي متوتّرة. كان ألمها يجعلها تتأوه وتزفر. دموعها تجري على وجنتَيْها.

«جدّتي! هل أستطيع مساعدتك؟ ما الذي أستطيع فعله من أجلك؟».

كنت أسمع أنفاسها الثقيلة. صوت غريب مع كل شهيق يشبه صوت الماء عندما يجري عبر مصرف المغسلة.

قالت لي: «مولي، حان الوقت».

في التلفزيون، كان كولومبو يتابع تحرياته. كان يحاصر تلك الزوجة. وكانت قطع الأحجية تتجمَّع. خفضت صوت التلفزيون.

«لا، يا جدتي، لا. لا أستطيع».

قالت لي: «بل تستطيعين. لقد وعدتني».

اعترضتْ. حاولت مناقشتها. رجوتها... رجوتها كثيرًا، كثيرًا جدًا... أن تسمح لي بطلب سيارة إسعاف.

انتظرت جدتي إلى أن انقضت عاصفة مشاعري. وعندما انقضت، قالت لي من جديد: «أعدّي لي فنجان شاي. حان الوقت».

كنت في غاية الامتنان لأنني تلقيت هذا الأمر. وثبت مندفعة إلى المطبخ. أعددت لها فنجان الشاي، فنجانها المفضل - الفنجان الذي عليه صورة الكوخ الجميل... أعددت الشاي في زمن قياسي.

حملت الفنجان إليها، ووضعته على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريرها. وضعت وسادة خلف ظهرها حتى تستطيع الجلوس، لكنها كانت تئن أنينًا محزنًا مهما حاولت جعل لمستي رقيقة. كانت تئن متألمة كأنها حيوان واقع في مصيدة.

قالت لي: «أعطني دوائي! أعطني كل ما بقي من تلك الأقراص».

قلت لها: «لن يفيدك هذا، يا جدتي. الأقراص غير كافية. سأجلب مزيدًا منها في الأسبوع القادم». رجوتها من جديد. توسّلت إليها.

«العهود...».

ما عادت لديها طاقة كافية لإتمام الجملة.

وفي آخر الأمر، رضخت. فتحت زجاجة الدواء ووضعتها على حافة الطبق. حملت فنجان الشاي ووضعته بين يدَيْها.

قالت لي: «ضعي الدواء فيه».

«جدتي...».

«من فضلك!».

أفرغت في الفنجان كل ما كان باقيًا من أقراص الدواء المسكن للألم - أربعة أقراص كانت كل ما لدينا. غير كافية. أمامنا خمسة أيام قبل أن نستطيع ملء وصفة جديدة لشراء الدواء، خمسة أيام من ألم شديد.

نظرتُ إلى جدتي، نظرت إليها عبر دموعي. رفرفت عيناها. نظرَتْ إلى الملعقة الموضوعة على الطبق. تناولتُ الملعقة وقلّبت أقراص الدواء في الشاي إلى أن رفرفت عينا جدتي من جديد. توقّفت عن تقليبها.

وبجهد كبير، انحنت إلى الأمام، انحنت بالمقدار الذي يمكّنني من رفع الفنجان إلى شفتَيها الرماديتَيْن. توسّلت إليها، حتى بعد أن بدأت تشرب: «لا تشربي. لا».

لكنها شربت. شربت الشاي كله.

وعندما فرغت، همست لي، «لذيذ»، ثم استندت إلى وسائدها. وضعت يدها على صدرها. تحركت شفتاها. كانت تقول شيئًا. كان عليَّ أن أضع أذني عند شفتيها حتى أسمع كلماتها.

قالت لي: «أحبك، يا ابنتي الغالية. الآن، تعرفين ما ينبغي فعله».

قلت: «جدتي، أنا لا أستطيع!».

لكني كنت قادرة على رؤية ذلك، على رؤية كيف تيبّس جسدها وكيف استولى عليها الألم. صار تنفّسها أكثر ضحالة، وصار ذلك الصوت الغريب فيه أشد ارتفاعًا... صار كأنه قرع طبول.

ناقشنا الأمر. صحيح، لقد وعدتها. على الدوام، كانت جدتي منطقيّة، منطقيّة جدًا، ولم أستطع أن أنكر عليها رغبتها الأخيرة هذه. كنت مدركة أن هذا ما أرادته. لا تستحق جدتي أن تعاني.

اللهم امنحني سكينةً لأتقبل ما لا أستطيع تغييره، وامنحني شجاعة لأغيّر ما أستطيع تغييره، وامنحني حكمة التمييز بين هذا وذاك.

تناولت الوسادة التي كانت على الكرسي خلف ظهري... وسادة صلاة السكينة. وضعت الوسادة على وجه جدتي وأمسكتها بكلتا يدَيّ. ضغطت عليها.

لم أستطع النظر إلى الوسادة. بدلًا من ذلك، ظلّت عيناي متعلّقتين بيدَيْها، يدَي امرأة عاملة، يديّ خادمة، يدين تشبهان يدَيَّ كثيرًا: يدان نظيفتان، أظافرهما قصيرة، مفاصلهما خشنة متقرِّنة، جلدهما رقيق كأنه من ورق، والعروق الزرقاء من تحت ذلك الجلد تضمحل، يتباطأ جريان الدم فيها.
وعندما رفعت يدَيْها وفتحت أصابعها محاولة أن تمسك بالوسادة، كان الأوان قد فات. لقد اتفقنا. لقد قررنا. ارتخت يداها قبل أن تستطيعا بلوغ أيّ شيء. تخلت يداها عن كل شيء.

لم يستغرق الأمر طويلًا. وعندما انتهى ذلك كله، وسادَ الصمت، أزحتُ الوسادة عن وجهها.
احتضنت الوسادة، شددتها إلى صدري بقوتي كلها.

ها هي جدتي أمامي. كان مظهرها كلّه يوحي بأنها غارقة في نوم عميق: عيناها مغمضتان، وفمها مفتوح قليلًا، ووجها في سكينة. ارتاحت.

والآن، أنا أرقد في سريرها بعد تسعة شهور من ذلك، مستيقظة في سريرها، وخوان مانويل في آخر الممر. أفكر في ما وقع، أفكر في ما جرى، أفكر فيه كلّه، وأفكر في الأيام الأخيرة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب.

«جدتي... اشتقت إليك كثيرًا. لا أستطيع تصديق أنني لن أراك من جديد».

اتلِ صلواتك**!**

قلت بصوت مسموع: «نعم، يا جدتي. سأتلو صلواتي. هذه أفضل طريقة كي أنام بسلام».

?: في اللغة الإسبانية، في حالة تلبّس.En flagrante delito(11)

الجمعة الفصل السادس والعشرون

أستيقظ على أصوات وروائح مألوفة، أصوات إعداد وجبة الإفطار، وروائحها - القهوة تتخمّر، ووقع خطوات في المطبخ. أسمع أيضًا صوت دندنة.

ولكن... هذه ليست جدتي!

وأنا لست في سريري. أنا في سرير جدتي.

عاد إليّ ذلك كله، عاد إلى ذاكرتي.

انهضي وأشرقي، يا ابنتي العزيزة! إنه يوم جديد!

أقوم من سريري، وأدسّ قدميَّ في شبشبي، وألبس رداء جدتي المنزلي فوق بيجامتي. أسير على أطراف أصابعي، أذهب إلى الحمام حتى أغسل وجهي، ثم أذهب إلى المطبخ. ها هو هناك، خوان مانويل. لقد استحمّ - لا يزال شعره رطبًا. يدندن لنفسه بلحن أغنية، ويضع أطباقًا، ويقلي على الموقد بيضًا.

يرفع رأسه عن المقلاة ويقول لي: «صباح الخير. آمل ألا يزعجك هذا. ذهبت إلى المتجر وعدت بأقصى سرعتي. ما كان لديك بيض هنا. وهذا الخبز...!». يشير إلى الفطائر الصغيرة على طاولة المطبخ... «هذا الخبز غريب بالنسبة إليّ. لا أعرف كيف أحضّره. إن فيه ثقوبًا كثيرة».

أقول له: «إنها فطائر. وهي لذيذة أيضًا. ما عليك إلّا أن تحمصها قليلًا ثم تضيف إليها زبدة ومربى». أتناول كيس الفطائر وأضع اثنتين في آلة تحميص الخبز.

«أرجو ألا تزعجكِ مبادرتي إلى إعداد الإفطار».

أقول: «لا، أبدًا. هذا لطف كبير منكَ».

«اشتريت قليلًا من القهوة. أحبّ شرب القهوة في الصباح مع الحليب. وأحبّ البيض. أحبّ تناول خبز التورتيلا. ولكني سأجرب اليوم شيئًا جديدًا... سأجرّب فطائرك هذه».

معًا، ننشغل في المطبخ منهمكَيْن في إعداد الوجبة. أمر غريب إلى حدّ أكاد لا أستطيع تصديقه... أن أتحرك في هذا المطبخ مع شخص غير جدتي. لكننا أنجزنا العمل في لمح البصر. جلسنا إلى الطاولة. وضعتُ الزبدة والمربى على الطاولة، إلى جانب الفطيرتين.

نجلس إلى الطاولة، وأضع على الفطيرتين زبدة ومربى. «هل يزعجك هذا؟ لقد غسلت يدَي».

يقول خوان مانويل: «إن كان هناك من أثق بنظافته ثقة عمياء، فهو أنت».

أبتسم لسماع هذا الإطراء. أجيبه: «أشكرك كثيرًا».

البيض المقلي لذيذ جدًا. لقد أعدّه مستخدمًا صلصة فيها نوع من التوابل. طعم لاذع، لكنه لذيذ. ثم إنه منسجم تمامًا مع المربى، مع الفطائر. أستطيع الاستمتاع بكل لقمة في صمت
لأنه يتكلّم ويتكلم كأنه عصفور دوري يزقزق في الصباح. يتكلّم حاملًا الشوكة بيده، ولا أستطيع إلّا أن أكون معجبة بأنه لا يستند إلى الطاولة بمرفقيه.

«تكلّمت هذا الصباح مع أسرتي عن طريق تطبيق فيس تايم. لا يعرفون شيئًا عما جرى هنا. ولن أقول لهم شيئًا. لكنهم يعرفون أنني أمضيت الليلة الماضية هنا، مع صديقة. أريتهم غرفتك، ومطبخك، وغرفة المعيشة. أريتهم صورتك». يتناول رشفة قهوة. «آمل ألّا يكون هذا مزعجًا لك».

لا أستطيع الإجابة لأن فمي مليء، ولأن من غير اللائق أن يتكلّم المرء عندما يكون فمه مليئًا. لكن هذا لا يزعجني... ليس لديّ أيّ مانع على الإطلاق.

«أوه، ابن عمي فرناندو! تكمل ابنته الآن سنتها الخامسة عشرة. لا أستطيع حتى أن أصدق هذا! في بلادي، عندما تتم الفتاة الخامسة عشرة من عمرها، تقيم أسرتها احتفالًا كبيرًا. نأتي بالعازفين، ونعدّ وجبة كبيرة، ونرقص طيلة الليل. أمي... أصابها زكام، لكنها تحسّنت الآن. يوم الأحد القادم سيلتقطون صورة عائلية أثناء وجبة العشاء، ثم يبعثون بها إلينا. سوف ترين الجميع. وابن أختي، تيودورو. ذهب إلى المزرعة، وركب حمارًا. الآن، لا يفعل شيئًا غير التظاهر بأنه حمار. مضحك كثيرًا... أوه، ما أشدّ شوقي إليهم».

أبتلع آخر لقمة من فطيرتي، ثم أتبعها بجرعة من قهوتي.

أقول: «لا بدّ أن هذا صعب عليك. أعني... أنت لا تستطيع رؤيتهم إلّا عبر اتصال فيس تايم».

يجيبني: «إنهم بعيدون عني، لكنهم قريبون أيضًا».

أفكّر في والدتي، وفي جدتي. أقول: «نعم، أنت محق».

يرنّ هاتفي قبل أن نستطيع متابعة المضي في هذا الحديث. لقد تركت الهاتف في غرفة المعيشة.

أقول له: «اعذرني. في الأحوال العادية، لا أتلقى مكالمات هاتفية أثناء وجبات الطعام، ولكن...».

يجيبني: «أعرف هذا، أعرف هذا».

أذهب إلى غرفة المعيشة. أحمل الهاتف. أقول: «مرحبًا. هذه مولي. كيف أستطيع مساعدتكم؟».

«مولي، أنا السيد سنو».

«نعم، مرحبًا».

يسألني: «كيف حالك الآن؟».

«أنا بخير. أشكر اهتمامك. كيف حالك أنت؟».

«لقد مررنا بوقت عصيب. وأنا مدين لك باعتذار. جعلتني الشرطة أظن بك ظنونًا اتضح لي أنها غير صحيحة أبدًا. ما كان ينبغي أن أظنّ بك ذلك، يا مولي. عرَفنا في حاجة إلى عنايتك. آمل أن تعودي إلى عملك في المستقبل القريب».

يسرني سماع هذا، يسرني كثيرًا. أقول له: «أخشى أنني لا أستطيع الذهاب إلى العمل في هذه الدقيقة. أنا في منتصف وجبة الإفطار».

«أوه، لا. لم أكن أعني أن عليكِ أن تأتي على الفور. أردت القول... عندما تكونين مستعدة. وبالطبع، خذي كل ما يلزمك من وقت».

أسأله: «ماذا عن الغد؟».

أستطيع سماع كيف يُطلق السيد سنو زفرة ارتياح. «سوف يكون هذا رائعًا جدًا، يا مولي. للأسف، قالت تشيريل إنها ليست في حالة صحيّة حسنة. بقيّة العاملات في خدمة الغرف تبذلن جهدًا مضاعفًا. لقد اشتقن إليك كثيرًا؛ وهنّ قلقات عليك. سوف يسعدهنّ كثيرًا سماع أنك عائدة إلى العمل».

أقول: «أرجو أن تبلغهنّ تحياتي، من فضلك».

شيء يلحّ على ذهني فأقرر الإفصاح عنه. أقول له: «يا سيد سنو، سمعت أن عددًا من زملائي في العمل يعتبرونني... غريبة. وأظن أن 'غريبة الأطوار' واحدة من الصفات التي يطلقونها عليَّ. أتمنى أن أسمع رأيك في هذا الأمر، وأن أعرف كيف تراني».

يصمت السيد سنو برهة، ثم يقول: «رأيي هو أن على بعض زملائك في العمل أن يكبروا. نحن ندير فندقًا، لا حضانة أطفال. رأيي هو أنك موظفة فريدة، فريدة من النواحي الحسنة كلها. أنت أفضل عاملة خدمة غرف عرفها فندق ريجنسي غراند».

أحسّ بنفسي تمتلئ اعتزازًا، كأنني أكبر وأرتفع. أظن أن طولي قد ازداد بضع بوصات نتيجة سماعي هذه الكلمات.

أقول له: «سيد سنو».

«نعم يا مولي».

«ماذا عن خوان مانويل؟».

«سوف أكلمه أيضًا حتى أكون واثقًا من معرفته بأن لديه وظيفة في الفندق طالما ظلّ راغبًا فيها. من الواضح أن المشكلة المتّصلة بتصريح العمل قابلة للحلّ. لم يكن خوان مانويل مذنبًا في أي شيء مما حدث».

أقول: «أعرف هذا. إنه، عندي. هل تريد أن تكلمه الآن؟».

«هو الآن... ماذا؟ أوه، نعم، سيكون هذا حسنًا جدًا».

أعود إلى المطبخ، وأناول خوان مانويل هاتفي.

أسمعه يقول: «مرحبًا، أنا في غاية الأسف، يا سيد سنو. أنا، لا... أنا...». في بداية الأمر، لا يكاد خوان مانويل يستطيع إكمال جملة واحدة، «نعم، يا سيدي... أفهم هذا، يا سيدي. أنت لم تكن عارفًا. لكني أشكرك لأنك تقول هذا...».

ثم يعودان إلى الكلام عن العمل: «بالطبع، يا سيدي. سوف أتكلم اليوم مع محامٍ... أقدّر لك هذا. وأنا سعيد جدًا لسماعي أنني سأظل في عملي».

يجري بينهما مزيد من الكلام. وأخيرًا، أسمع خوان مانويل يقول له: «سوف أعود إلى العمل فور تمكّني من ذلك. مع السلامة، يا سيد سنو».

يغلق خوان مانويل الهاتف ويضعه أمامي، على الطاولة.

«لا أستطيع تصديق هذا. لا تزال لديَّ وظيفتي».

أقول: «وأنا أيضًا». يسري في نفسي دفء وانطلاق لم أعرفهما منذ زمن بعيد.

يضم خوان مانويل يديه معًا. يقول لي: «إذًا، يبدو لي أن في هذا المطبخ شخصين لديهما يوم عطلة. أتساءل عمّا يفعلانه في هذا اليوم...».

أقول: «أخبرني، يا خوان مانويل، ألا تحب الآيس كريم؟».

بعد بضعة شهور الفصل السابع والعشرون

إنه يوم جميل! ولهذا أسباب كثيرة جدًا. عندما آويت إلى فراشي الليلة الماضية وبدأت أتلو صلواتي، كانت لديّ صلوات وأدعية كثيرة تلوت مئة منها في أقصر وقت. لا بدّ أنني غرقت في النوم بعد ذلك؛ لكني كنت قادرة على الاستمرار في تلاوة الصلوات طيلة الليل من غير أن تنتهي.

وفي هذا اليوم أيضًا لديَّ عدد أكبر من أمور حسنة، من أشياء حسنة كثيرة لا أكاد أستطيع إحصاءها.

الشمس مشرقة. والطقس في الخارج دافئ. سماء صافية لا غيوم فيها. وصلتُ في هذه اللحظة إلى فندق ريجنسي غراند. أصعد درجات المدخل القرمزية متقدّمة من السيد برستون الذي فرغ قبل لحظة من مساعدة بضعة نزلاء جدد في حمل حقائبهم.

ابتسامة كبيرة على وجهه كله. يقول لي: «مولي! ما أجمل أن ألتقيك في العمل بدلًا من رؤيتك في قاعة محكمة مزدحمة».

«أليس هذا يومًا جميلًا، يا سيد برستون؟».

يجيبني: «يوم جميل. نحن في العمل، ورودني خلف القضبان. العالم بخير».

لست أدري إن كان سيأتي يوم أسمع فيه اسم رودني من غير أن تنقبض معدتي ويتوتر وجهي.

يسألني السيد برستون: «أين خوان مانويل؟».

«سوف يأتي بعد قليل. تبدأ نوبة عمله بعد ساعة واحدة من الآن».

«ألا نزال على موعدنا من أجل يوم الأحد؟ أنا في شوق إلى تذوّق سندويتشات إنتشيلاداس(12) التي يعدّها. ينبغي القول إنني لست من الأشخاص الذين يحبون المغامرات في ما يتعلق بالطعام. وبعد رحيل زوجتي، ما عدت أهتم كثيرًا بالمطبخ. لكن ذلك الرجل استطاع أن يثير شهيتي. أظنه أثارها كثيرًا». يقول السيد برستون هذا ويربّت على بطنه مقهقهًا.

«سيسرّه كثيرًا أن يسمع هذا الكلام منك. نعم، سوف نراكما، أنت وشارلوت، في يوم الأحد المعتاد. من الأفضل الآن أن أذهب. لديَّ اليوم عمل كثير. هناك حفل زفاف ومؤتمر. يقول السيد سنو إن غرف الفندق كلها محجوزة أسبوعًا كاملًا. سلّم لي على شارلوت».

«سأبلغها سلامك، يا فتاتي العزيزة. كوني بخير».

يلتفت السيد برستون كي يساعد نزلاء وصلوا في هذه اللحظة. أمضي عبر الباب الدوار وأنظر إلى ردهة الفندق. لا تزال الردهة فخمة عظيمة، مثلما كانت أول يوم وقعت فيه عينَاي عليها - السلّم الرخامي الكبير، والدرابزين المصنوع من ثعابين ذهبية، والأرائك الزمردية الصغيرة الوثيرة، وأصوات النزلاء والحمّالين والسائقين مندفعين هنا وهناك. أستنشق نفسًا عميقًا، ثم أمضي صوب القبو. لكني أنتبه إلى البطاريق الأنيقة خلف مكتب الاستقبال، أنتبه إليهم قبل أن أبلغ السلّم النازل إلى القبو. أراهم توقفوا عن العمل جميعًا. أراهم ينظرون صوبي. يتهامس عدد منهم بطريقة لا يعنيني أمرها، لا يعنيني أبدًا.

يخرج السيد سنو من باب خلف مكتب الاستقبال. يراني. يناديني: «مولي!»، ثم يأتي إلي مسرعًا، «أنت رائعة. أنت رائعة جدًا».

أجد صعوبة في التركيز على كلماته لأنني أنظر إلى البطاريق محاولة فهم ما يجعل تركيزهم كله منصبًّا عليَّ هذه المرة.

أقول للسيد سنو: «لم أفعل شيئًا غير قول حقيقتي».

«صحيح، لكن حقيقتك، شهادتك أنت، هي ما حسم الأمر. كنت في غاية الهدوء عندما وقفت للشهادة. كنت ثابتة مستقرة. ثم إنك موهوبة في انتقاء الكلمات... هل تعرفين هذا؟ وفي تذكّر

التفاصيل أيضًا. رأى القاضي ذلك وأدرك أنكِ شاهد يستطيع الاعتماد عليه».

أسأله: «لماذا ينظرون إليَّ؟».

يقول السيد سنو: «عفوًا، ماذا قلت؟». ينظر إلى حيث أنظر، إلى مكتب الاستقبال. يقول: «أوه، فهمت. إن كان لا بد لي من تخمين السبب، فسوف أقول إنهم معجبون بكِ. سأقول إنهم ينظرون إليكِ نظرة احترام».

احترام! لم أعتد أن أكون محلًّا لهذا القدر من الاحترام... بل إنني لا أكاد أستطيع فهم نظرة الاحترام عندما أراها.

أقول له: «أشكرك، يا سيد سنو. من الأفضل أن أذهب. لديَّ غرف كثيرة ينبغي أن أعيدها إلى حالة الكمال. ومثلما تعرف جيدًا، الغرف لا تنظف أنفسها بأنفسها».

«بكل تأكيد. أتمنى لك يومًا طيبًا، يا مولي».

أنزل إلى القبو، إلى قسم خدمة الغرف. وكما هو معتاد، أجد المكان مغلقًا، مكتوم الهواء. لكن هذا لا يهمّني، لا يهمّني أبدًا. أنا الآن أقف أمام خزانتي حيث عُلّقت ملابس عملي النظيفة المكوية كيًّا متقنًا ضمن غلالة رقيقة من النايلون. ملابس عملي هذه بركة من بركات حياتي. هي شيء جميل جدًا.

آخذها إلى غرفة تبديل الملابس. أرتديها. ثم أعود إلى خزانتي وأفتحها. لقد أعادت إليَّ المحقّقة ستارك ساعة جيزيل الرملية، أعادتها منذ زمن بعيد. لا أزال أحتفظ بها على الرفّ العلوي في خزانتي حتى تظل تذكارًا لي. حتى تذكّرني بها. حتى تذكّرني بنا. حتى تذكّرني بالصداقة الغريبة التي نشأت بيننا، بالصداقة التي كانت ولم تكن.

حان الوقت!

لديَّ الآن شيء آخر أحتفظ به في خزانتي، شيء هو إضافة جديدة إلى ملابس عملي: شارة مستطيلة مذهّبة أثبّتها بدبوس على صدري، عند قلبي. بطاقة مكتوب عليها: مولي غراي، كبيرة خادمات الغرف.

في حركة جريئة غير متوقّعة، أقدم السيد سنو على ترقيتي قبل شهر من الآن. لست ممن يحبون تداول الأقاويل، لكن الظاهر أن أخلاقيات العمل لدى تشيريل ما كانت وافية بالمعايير الاحترافية الرفيعة التي يتطلّع إليها السيد سنو: لقد جرّدها من دورها الإشرافي وعهد به إليَّ.

منذ ذلك الوقت، أدخلتُ عددًا من طرائق العمل الجديدة الرامية إلى تطوير الأداء وتحسين أخلاقيات العمل في الخليّة. أولًا، أهتم قبل كل نوبة عمل بأن تكون عربات خادمات الغرف مجهّزة تجهيزًا تامًا ومزوّدة بكل ما يلزمها. أحب هذا الجزء من عملي، أحب ترتيب قطع الصابون وعبوات الشامبو الصغيرة في صوانيها، وأحب وضع مناشف التلميع ومستحضراته. أحبّ ترتيب المناشف البيضاء النظيفة في أكداس أنيقة. وفي الأيام التي لها أهمية خاصّة -كيوم عيد الأم، مثلًا- أضع هدايا صغيرة في عربات خادمات الغرف... علبة شوكولاته عليها بطاقة صغيرة: هدية من مولي، الخادمة. أنت تؤدين عملًا حلوًا.

من بين الأمور الجديدة التي أدخلتُها كيفية بدء نوبة العمل نفسها. نجتمع كلنا -نحن، خادمات الغرف- مع عرباتنا ونتفق على توزيع الغرف في ما بيننا توزيعًا متساويًا، منصفًا، من حيث عدد الغرف التي تتولاها كلّ منا، ومن حيث مقدار البقشيش المتوقّع. وقد حرصت حرصًا شديدًا على أن أوضح لتشيريل أنه لا يجوز لها «تفقّد» الغرف المخصّصة لغيرها من الخادمات. أوضحت لها أيضًا أنها إذا أخذت قرشًا واحدًا من على وسادة من غرفة مخصصة لغيرها فسوف أطردها من الخليّة شر طردة... سوف أدهسها بعربتها نفسها.

لدينا شخص جديد ضمن فريق خدمة الغرف. اسمه ريكي؛ وهو ابن سنشاين. لم تتأخر تشيريل في الإشارة إلى أن لديه لثغة في الكلام، وإلى أنه يضع في عينيه كحلًا... أمران لا علاقة لهما أبدًا بالعمل هنا (إن شئنا الصدق)، لا علاقة لهما بالعمل إلى حدّ جعلني لا أنتبه إليهما طيلة فترة التدريب التي استمرّت شهرًا كاملًا. لكن ما انتبهت إليه هو أنه شاب سريع التعلّم، وأنه يجد متعة في ترتيب السرير بحيث تصير الملاءات مستوية استواء تامًا من غير أيّة ثنية فيها. انتبهت إلى أنه

يلمّع الزجاج تلميعًا ممتازًا، وإلى أنه يعرف كيف يحيّي النزلاء كأنه خادم في بلاط ملكي. يصف المديرون من هو مثله بأنه شخص يضمن المحافظة على سويّة عمل رفيعة.

ازداد دخلي عندما جرت ترقيتي. بفعل هذه الزيادة، وكذلك بفعل أنه صار لي شريك في دفع إيجار الشقة، أصبحت قادرة على بدء «مطمورتي» من جديد. حتى الآن، ليس فيها مبلغ كبير... بضع مئات من الدولارات، لا أكثر. لكن لديَّ خطة. سوف أواصل تنمية المبلغ إلى أن يصير لديّ مالٌ كافٍ للالتحاق ببرنامج الضيافة وإدارة الفنادق في المعهد القريب. وسوف أستأذن السيد سنو في تقليص أوقات عملي في الفندق بما ينسجم مع أوقات الدراسة. أتخرج بعد سنة، أو سنتين، أتخرج بمرتبة متميّزة، ثم أعود إلى عملي في فندق ريجنسي غراند بدوام كامل متسلّحة بمهارات أفضل وبمعارف أكثر اكتمالًا في كل ما يخص إدارة الفنادق.

لعل أكبر تغيّر شهدته حياتي هو أن الأمر قد صار الآن رسميًا: صار لديَّ صاحب! يقال لي إن الإشارة إليه بتعبير «شريك» هي الأسلوب الرائج الآن. أحاول اعتياد استخدام هذا التعبير، لكني أحسّ -كلما استخدمته- بأن ذهني ينصرف إلى فكرة «شريك في جريمة». نحن كذلك، على نحو ما؛ لكني لم أعرف ذلك وقتها.

عندما حصل خوان مانويل على تصريح العمل آخر الأمر، وعاد إلى وظيفته في المطبخ، عرض عليه السيد سنو استخدام غرفته في الفندق طيلة الزمن اللازم حتى يقف على قدميه من جديد. لكنا صرنا نمضي معًا أوقاتًا كثيرة، أنا وخوان مانويل، في الأمسيات وعندما لا نكون في العمل. كان لا بد لي من زمن قبل أن أصير واثقة ثقة تامة من أن حقيقته متفقة مع ما يظهره... حقيقته هي أنه بيضة صالحة. وأظن أيضًا أنه استغرق بعض الوقت قبل أن يصير موقنًا من أنني كذلك.

تعلّمت أن أحكم على الأصدقاء من خلال أفعالهم؛ وقد كانت أفعال خوان مانويل ناطقة بالكثير. كانت هناك أمور كبيرة من بينها وقوفه في المحكمة وشهادته بأنني لم أكن أعرف شيئًا عما كان يجري في الفندق من نشاطات غير مشروعة. لكنّ هناك أمورًا صغيرة أيضًا من بينها وجبات الغداء التي يعدّها من أجلي ويضعها في أكياس من ورق بني... وجبات أستلمها من المطبخ وقت الظهر في كل يوم من أيام عملي. أجد في الكيس سندويتشًا لذيذًا وشيئًا حلوًا يعرف أنني أحبه - قطع بسكويت، أو شوكولاته... ومن وقت إلى آخر، قطعة مافن بالزبيب.

لا تزال تمرّ بي أيام ينتابني فيها حزن شديد على جدتي. وكلما كتبت إلى خوان مانويل رسالة نصية أقول فيها إنني حزينة، يجيبني على الفور، ابقيّ مكانك! لا تذهبي! يجلب لي أحجية نعمل عليها معًا، أو يساعدني في مهمات التنظيف اليومية في البيت. إن كان هناك ما هو قادر على رفع المعنويات أكثر من تنظيف البيت وترتيبه، فهو تنظيف البيت وترتيبه مع شريك. وأما من ناحيتي، فأنا لا أقدّم إلى خوان مانويل مناديل ورقية عندما أراه حزينًا لشدة شوقه إلى عائلته، بل أعطيه معانقات وقبلًا.

قبل شهرين، سألت خوان مانويل إن كان راغبًا في ترك الفندق والإقامة في شقتي. قلت له: «من أجل تقليل النفقات، وأمور أخرى أيضًا».

«لن أوافق إلّا إذا كان مسموحًا لي بأن أغسل الأطباق دائمًا».

قبلت شرطه، لكن على مضض.

نعيش معًا سعيدين منذ ذلك الوقت. نتقاسم الإيجار، ونعدّ الوجبات معًا، ونتصل بعائلته معًا، ونخرج إلى التسوّق معًا، ونذهب إلى مطعم حديقة الزيتون معًا... وأكثر من ذلك. يشاركني خوان مانويل محبتي طبق «الجولة الإيطالية». وكثيرًا ما نلعب لعبة عندما نريد اختيار جزء واحد فقط من أجزاء ذلك الطبق... إذا وجدنا نفسَيْنا في يوم من الأيام ضائعَيْن على جزيرة نائية.

أقول له: «يمكنك اختيار نوع واحد فقط. الدجاج بالبارميزان، أو اللازانيا، أو فيتوتشيني ألفريدو».

«لا، لا أستطيع الاختيار. مولي، هذا مستحيل».

«لكن عليك أن تختار. عليك أن تختار واحدًا منها».

«لا أستطيع الاختيار. أفضل أن أموت».

«وأنا أفضّل أن تظل حيًّا وفي صحة جيدة. لا أريدك أن تموت!».

كنا في مطعم حديقة الزيتون عندما لعبنا هذه اللعبة آخر مرة. انحنى صوبي وقبلني عبر الطاولة، تمامًا تحت المصباح المعلّق من فوقنا... فعل ذلك حتى من غير أن يستند إلى الطاولة بمرفقيه: هكذا هو خوان مانويل.

سوف نخرج الليلة معًا، نحن الاثنان فقط، سنذهب إلى مطعم حديقة الزيتون. لدينا اليوم سبب يدعونا إلى الاحتفال. لقد كان يوم أمس كبير الأهميّة بالنسبة إلينا. وقفنا شاهدين في محاكمة رودني. أنفقت شارلوت أسابيع كثيرة في إعدادنا لذلك، وفي جعلنا مستعدَّيْن لكل سؤال صعب يمكن أن يطرحه علينا محامي الدفاع. في آخر المطاف، جاء دور خوان مانويل في الشهادة قبل دوري. أدلى أمام المحكمة بقصّته الحقيقية الحزينة، المخيفة. أخبر المحكمة كيف أُخذت أوراقه منه، وكيف هدّده رودني بقتله وبقتل أفراد عائلته، وكيف أُرغم على العمل من أجل رودني، وكيف كانوا يحرقونه دائمًا. وفي النهاية، لم يكن خوان مانويل من تعرّض للهجوم على منصة الشهادة... أنا التي هوجمت!

هل تتوقّعين حقًا أن تصدّق المحكمة أنكِ ما كنت تعرفين أي شيء عن الأمر كله مع أنكِ كنت تزيلين الكوكايين عن الطاولات كل صباح؟

ألا يصحّ القول إنك كنت متعاونة مع السيد بلاك؟

هل جيزيل صديقتك؟ أهذا هو سبب حرصك على حمايتها؟

وددت القول لهم إن جيزيل ليست في حاجة إلى حمايتي. وددت القول لهم إنها ما عادت في حاجة إلى حمايتي لأن من كان يسيء إليها -السيد بلاك- قد مات. لكن شارلوت علمتني أنني لست مضطرة، في المحكمة، إلى الإجابة عن أي سؤال فيه شيء من الافتراض. ولمّا كنت لا أريد أن أجعل من نفسي أضحوكة، فقد تركت شارلوت تعترض على هذه الأسئلة. بقيت صامتة ولم أقل شيئًا.

حاولت المحقّقة ستارك مرّات كثيرة أن تجعل جيزيل تمثُل أمام المحكمة، لكن من غير طائل. تمكنَتْ ذات مرة من التحدث معها عبر الهاتف. علمَت أنها تقيم في فندق في سان تروبيز. رجتها المحققة ستارك أن تعود إلى البلاد حتى تدلي بشهادتها أمام المحكمة. سألتها جيزيل عن هوية

الشخص الذي وُجه إليه الاتهام. وعندما علمت أن الاتهام ليس موجهًا إليَّ، بل إلى رودني، قالت لها: «إلى الجحيم! أنا لن أعود».

سألت المحققة: «هل ذكرت سببًا؟».

«قالت لي إنها أنفقت قدرًا كافيًا من عمرها على رجال سيئين. قالت إن كل شيء في حياتها صار الآن مختلفًا، وإنها أصبحت حرّة مثلما لم تكن أبدًا من قبل. قالت إنها لن تعود أبدًا إلّا إذا تمكّنت الشرطة من تعقبها ومن استصدار استدعاء قضائي في حقّها. قالت أيضًا إنني المحققة المسؤولة عن هذه القضية، لا هي... وإن عملي هو أن أضع المجرم خلف القضبان».

نعم، هكذا تتكلّم جيزيل... أكاد أستطيع سماعها تقول هذه الكلمات.

ثم جاء دوري فوقفت في منصة الشهادة وليس لديَّ أحد يثبت صحة أقوالي غير خوان مانويل.

لكن من الواضح أن أدائي كان جيدًا. من الواضح أن مسلكي كان هادئًا، وأن القاضي لاحظ ذلك. تقول شارلوت إن الشاهد يحسّ بنفسه واقعًا تحت وطأة هجوم عند وقوفه خلف منصة الشهادة فيبالغ في كلامه، أو ينهار.

لقد اعتدت سماع تلميحات كثيرة عن شخصيتي وسماع الناس ينعتونني بأشياء كثيرة. لقد اعتدت تلقّي وخزات وطعنات لفظيّة توجه إليَّ كل يوم... وخزات وطعنات لا أنتبه إليها أكثر الأوقات. اعتدت أن تكون كلماتي دفاعي الوحيد.

لم أجد الإدلاء بالشهادة أمام المحكمة مهمّة صعبة. ما كان عليَّ غير أن أستمع إلى الأسئلة جيدًا، ثم أجيب عنها بقول الحقيقة، بقول حقيقتي.

جاء أصعب جزء عندما طلبت مني شارلوت أن أستعرض أمام المحكمة ما أتذكره عن يوم عثوري على السيد بلاك ميتًا في فراشه. قلت لهم كيف اصطدم بي السيد بلاك أمام باب الشقة فكاد يوقعني أرضًا. قلت لهم أيضًا إنني دخلت الشقة في وقت لاحق من ذلك اليوم فوجدت أن جيزيل قد ذهبت. سرت صوب غرفة النوم فرأيت السيد بلاك مستلقيًا هناك. أخبرت المحكمة بكل تفصيل

استطعت تذكره - الكؤوس المتروكة على الطاولة في غرفة الجلوس، وخزنة النقود المفتوحة، وزجاجة الدواء التي تناثرت أقراصها، وحذاء السيد بلاك الملقى على الأرض، وثلاث وسائد على السرير، لا أربع وسائد.

قالت شارلوت: «ثلاث وسائد! ما عدد الوسائد التي تكون عادة على كل سرير في فندق ريجنسي غراند؟».

«أربع وسائد، دائمًا. اثنتان قاسيتان، واثنتان طريتان. أستطيع أن أؤكد لك أنني أضع دائمًا أربع وسائد نظيفة، أضعها على ذلك السرير. أنا شخص شديد الانتباه إلى التفاصيل».

سَرَتْ في قاعة المحكمة ضحكات مكتومة... يضحكون منّي. أمرهم القاضي بالصمت، وطلبت مني شارلوت أن أواصل كلامي.

«أخبري المحكمة، يا مولي، هل رأيت في الشقة، أو في الممرات، أي شخص يمكن أن يكون من أخذ الوسادة المفقودة؟».

هنا تأتي اللحظة الصعبة، اللحظة التي لم أناقشها مع أي شخص، ولا حتى مع شارلوت. لكني أعددت نفسي من أجل هذه اللحظة. تمرّنت عليها ليلة بعد ليلة، قبل نومي.

حاولت إبقاء عينَيّ ثابتتَين، وإبقاء صوتي ثابتًا. ركّزت تفكيري على ذلك الصوت السارّ، صوت نبضات قلبي. استطعت سماعه في أذني، سماع صوت الدم متدفقًا، داخلًا خارجًا، صوت أمواج على شاطئ بعيد. الحقّ حق. وما حصل قد حصل.

قلت: «لم أكن وحدي في تلك الغرفة. ظننت أنني وحدي. ظننت ذلك أول الأمر. لكني لم أكن كذلك».

استدارت شارلوت على عقبيها. نظرت إليّ وقالت: «مولي! ما هذا الذي تقولينه؟».

ابتلعت ريقي، ثم تكلّمت. «أعدت السماعة إلى مكانها بعد اتصالي أول مرة بمكتب الاستقبال حتى أطلب المعونة. ثم استدرت صوب باب غرفة النوم. في تلك اللحظة، رأيت ذلك».

نصحتني شارلوت متكلمة بصوت هادئ: «مولي، أريد أن تفكري بكل انتباه قبل أن تتكلمي...». كان الإحساس بالخطر ظاهرًا في عينَيْها، «سوف أطرح عليك سؤالًا. وعليك أن تقولي الحقيقة فقط. ماذا رأيتِ؟». مالت برأسها جانبًا ونظرت إليَّ نظرة موحية بأنها لا تجد في ما قلته أي معنى.

«كانت على جدار الغرفة المقابل مرآة. كانت على الجدار البعيد عني».

توقفت عن الكلام لحظة وانتظرت أن تطرح عليَّ شارلوت سؤالًا.

لم يطل بها الأمر.

قالت: «مرآة؟ ماذا رأيت في تلك المرآة؟».

«في بداية الأمر، رأيت نفسي. رأيت وجهي المذعور ناظرًا إليّ. ثم، من خلفي، صوب اليسار، في زاوية ظليلة عند خزانة ملابس جيزيل رأيت... رأيت شخصًا».

كانت عيناي معلّقتَيْن بعينَيْ شارلوت التي صار عقلها كأنه آلة دقيقة تقرأ عقلي وتتأمل في ما قد أقوله بعد ذلك.

سألتني: «و... هل رأيت أي شيء في يد ذلك الشخص؟».

«رأيت وسادة».

سرَت في قاعة المحكمة همهمات كثيرة. أمرهم القاضي بالصمت.

«مولي... ذلك الشخص الذي كان واقفًا في الزاوية المظلمة... هل هو حاضر في هذه القاعة اليوم؟».

قلت: «أخشى أنني لست واثقة من الإجابة عن هذا السؤال».

«ألأنك لا تعرفين الإجابة؟».

«لأنني فقدت الوعي في تلك اللحظة عينها، أي عندما استدرت مبتعدة عن المرآة لكي ألقي نظرة إلى تلك الزاوية المظلمة. وعندما عاد إليَّ الوعي، لم يكن ذلك الشخص موجودًا هناك».

أومأت شارلوت برأسها. انتظرت لحظة قبل أن تقول: «بالطبع. إن لك تاريخًا من حالات فقدان الوعي، أليس هذا صحيحًا، يا مولي؟ شهدت المحققة ستارك بأنك فقدت الوعي عند باب شقتك لحظة اعتقالك، ثم فقدت الوعي مرّة ثانية في مركز الشرطة، هل هذا صحيح؟».

«نعم، إنه صحيح. يغمى عليَّ عندما أكون تحت ضغط شديد. وأنا واثقة كل الثقة من أنني كنت تحت ضغط شديد عندما اعتقلوني، وأيضًا كنت تحت ضغط شديد عندما نظرت في تلك المرآة وأدركت أنني لست وحيدة في تلك الغرفة».

بدأت شارلوت تخطو أمام تلك المنصة جيئة وذهابًا. توقّفت أمامي لحظة، سألتني: «ما حدث عندما عدت إلى وعيك؟».

«عندما عدت إلى وعيي، اتصلت مرة أخرى بمكتب الاستقبال. لكن لم يكن في الغرفة أحد في تلك اللحظة. لم يكن فيها أحد غيري. بل.. كان في الغرفة اثنان، أنا وجثة السيد بلاك».

«هل من الممكن، يا مولي -لست أقول إن الأمر كذلك- لكن، هل من الممكن أن يكون رودني ستايلز هو الشخص الذي كان واقفًا في الزاوية المظلمة؟».

قفز محامي رودني واقفًا على قدميه. قال: «أعترض! هذا السؤال فيه توجيه للشاهدة».

أجابه القاضي: «الاعتراض مقبول. أيتها المحامية، ألا تعيدين صياغة السؤال بطريقة أخرى».

صمتت شارلوت لحظة، لكني أشك في أنها صمتت كي تفكر. استفدتُ من تلك اللحظة حتى ألقي على رودني نظرة فاحصة. رأيت محاميه مائلًا صوبه يهمس بشيء في أذنه. لست أدري بأية صفات كان يدعوني في تلك اللحظة؛ لكن هذا لا أهميّة له. كان رودني مرتديًا ما بدا لي بدلة غالية الثمن كثيرًا. في ما مضى، كنت أراه رجلًا وسيمًا. لكني أنظر إليه الآن، فلا أستطيع تخيّل ما كنت أراه فيه.

تكلّمت شارلوت بعد فترة صمت طويلة. قالت: «لا مزيد من الأسئلة، سعادة القاضي». ثم التفتت إليَّ، «أشكرك كثيرًا، يا مولي».

ظننت لحظة أن الأمر قد انتهى، لكني تذكّرت أننا لا نزال في منتصف الطريق. أتى محامي رودني ووقف أمامي. توقف أمامي مباشرة ونظر إليَّ نظرة متعالية. لكن تلك النظرة لم تزعجني أبدًا، ولم تثر أعصابي. لقد اعتدت مواجهة هذه النظرات. أعدَّني العالم لها إعدادًا جيدًا.

لست قادرة على تذكّر كل كلمة قيلت بعد ذلك، لكني أتذكر أنني كررت قول الأمور نفسها، كررت القصة نفسها كلما سئلت. لم أرتبك ولم أرتكب أيّة غلطة لأن من السهل أن تقول الحقيقة عندما تعرف ما هو حقيقة وما هو ليس كذلك. يكون قول الحقيقة سهلًا عندما تستطيع تحديدها تحديدًا واضحًا. مرّت لحظة واحدة فقط أحسست فيها بأن أسئلة محامي رودني صارت أكثر شراسة.

«مولي، إن في قصتك أمرًا لا أزال غير قادر على فهمه. أتوا بك إلى مركز الشرطة أكثر من مرة. أتيحت لك فرصة أكثر من كافية لأن تخبري المحقّقة ستارك أنك رأيتِ في ذلك اليوم شخصًا واقفًا في الغرفة، في الزاوية المظلمة. لو قلت لها ذلك، لكان من المحتمل أن تبتعد الشكوك عنكِ. لكنك لم تتطرقي في أيّة مرّة إلى ذكر وجود شخص آخر في الغرفة. لم تنطقي أيّة كلمة عن هذا الأمر. وإذا كان لسلوك محاميتك الآن أي معنى، فمن الواضح أنها -بدورها- لم تسمع بهذا الأمر قبل اليوم. والآن... ما سبب هذا، يا مولي؟ هل السبب هو أنه ما كان في الغرفة أحد؟ أو أنك تحاولين حماية شخص آخر؟ أو أنك نظرت في المرآة فلم تري شيئًا غير صورة وجهك المذنب ناظرة إليك؟».

قالت شارلوت: «أعترض. هذه مضايقة للشاهدة. مضايقة واضحة جدًّا».

قال القاضي: «الاعتراض مقبول... عدا العبارة الأخيرة».

سرت في القاعة همسات كثيرة.

قال محامي رودني: «سوف أعيد صياغة السؤال: هل كذبت على المحقّقة ستارك عندما أخبرتها أوّل مرّة عما رأيته في تلك الغرفة في الفندق؟».

أقول: «لم أكذب أبدًا. على العكس تمامًا... قرأتم كلكم محاضر الاستجواب. بل لعلكم شاهدتم تسجيل فيديو لما أدليت به في اليوم الأول عندما جرى استجوابي في تلك الغرفة القذرة في مركز الشرطة. كان من بين كلماتي الأولى التي قلتها للمحققة ستارك -قلت ذلك بطريقة لا لبس فيها- إنني أعلنت عن نفسي عند دخولي الشقة لأنني أحسست بأن فيها شخصًا غيري. أذكر أنني طلبت منها تسجيل ذلك».

«لكن من الواضح أن المحقّقة افترضت أنك تشيرين إلى السيد بلاك».

قلت: «هذا ما يجعل الافتراض أمرًا خطيرًا».

أجابني وهو يخطو جيئة وذهابًا أمام منصة الشهادة: «أوه. يعني هذا أنك لم تقولي الحقيقة كلّها. رفضت أن تكوني واضحة. هذا كذب أيضًا، يا مولي».

نظرتُ إلى القاضي فرأيته يومئ برأسه إيماءة خفيفة جدًا. ظننت أن شارلوت سوف تتدخّل في تلك اللحظة، لكنها لم تفعل شيئًا. ظلّت صامتة، جالسة على مقعدها.

«من فضلك، يا مولي، هل تستطيعين جعلنا نرى السبب الذي دفعك إلى الامتناع مرّات كثيرة جدًا عن أن توضحي للمحققين زعمك بأن شخصًا آخر كان في الغرفة، وبأن ذلك الشخص كان حاملًا وسادة؟».

«لأنني كنت...».

«لأنك كنت ماذا، يا مولي؟ نادرًا ما تعوزك الكلمات القادرة على التعبير عما تريدين قوله. لذا، قولي الحقيقة».

«ما كنت واثقة مئة بالمئة مما شاهدته. لقد تعلّمت أن أشك في نفسي وفي فهمي العالم المحيط بي. أدرك أنني مختلفة... مختلفة عن معظم الناس. ما أدركه ليس ما تدركونه أنتم. ثم إن الناس نادرًا ما يصغون إليَّ. كثيرًا ما تكون لديّ خشية من أن أحدًا لا يصدقني، ومن أن أحدًا لا يقيم اعتبارًا لما أفكّر فيه. لست إلّا خادمة... لا أحد. وما رأيته في تلك اللحظة كان شيئًا كأنه حلم. لكني واثقة الآن من أنه كان حقيقة. لقد قتل السيد بلاك شخصٌ لديه دافع عميق إلى قتله. لم أكن ذلك الشخص». قلت هذا ونظرت إلى رودني. نظر إليَّ. كانت نظرته إليَّ مختلفة تمام الاختلاف، نظرة جديدة. كان ذلك كأنه يراني على حقيقتي، مثلما أنا، كأنه يراني أول مرة.

ضجيج في قاعة المحكمة. من جديد، أمرهم القاضي بالهدوء. أجبت عن بضعة أسئلة أخرى طُرحت عليَّ. كانت إجاباتي واضحة، مهذّبة. لكني كنت مدركة أن ما من أهمية لأي شيء آخر مما أقوله. أدركت هذا لأنني نظرت إلى شارلوت فرأيتها مبتسمة. هذه ابتسامة جديدة سوف أضيفها إلى سجل الابتسامات في عقلي، ابتسامة إكبار. لقد فاجأتها مفاجأة تامة، لكني لم أفسد الأمر. كل شيء يسير في صالحنا: هذا ما قالته ابتسامتها.

وقد كانت محقّة. جرت الأمور في صالحنا.

والآن، عندما أفكّر في ما جرى، في كل ما شهدته قاعة المحكمة يوم أمس، لا أستطيع إلّا أن أبتسم لنفسي.

أنتزع نفسي من تلك الأفكار عندما أرى سونيثا وسنشاين آتيتَيْن صوبي. لقد وصلتا. الآن، تبدأ نوبة عملنا.

كل منهما ترتدي ملابس عملها الأنيقة. كل منهما شعرها مربوط خلف رأسها. تقفان أمامي صامتتَيْن: صمت مألوف تمامًا من جانب سونيثا، وغير مألوف أبدًا من جانب سنشاين.

أقول لهما: «صباح الخير، أيتها السيدتان. أظنكما تترقبان بدء يوم جديد من إعادة الغرف إلى حالتها المثالية».

ظلّتا صامتتَيْن.

أخيرًا، تنطق سنشاين. تقول لرفيقتها: «هيا، أخبريها».

تتقدم سونيتا خطوة إلى الأمام وتقول: «أريد القول إنك أمسكت بالأفعى. الآن، صار العشب نظيفًا. أشكرك».

لا أفهم على وجه التحديد ما تريد قوله لي، لكني أدرك أنها تمتدحني.

«نريد كلنا أن ننظف هذا الفندق. أليس هذا صحيحًا؟».

تجيبني: «أوه، نعم. نظيف يعني أخضر».

يسرّني ما سمعته سرورًا شديدًا لأنها اقتبست شيئًا مما قلته في آخر جلسة من جلسات تدريب خادمات الغرف. إنْ عملنا حتى نجعل كل شيء نظيفًا، فسوف يكون الأخضر كثيرًا. بكلمة «أخضر» كنت أعني المال... البقشيش، الدولارات. أعتقد أن ما قلته يومها كان جملة ذكيّة. وأنا مسرورة لأنها تتذكّرها.

قالت لي: «بقشيش كبير اليوم، وبقشيش كبير في المستقبل».

أقول: «هذا حسن لنا جميعًا. ألا نبدأ؟».

من غير قول أي كلمة أخرى، تقف كل منا خلف عربتها وتدفعها أمامها.

لكننا لا نكاد نصل المصعد حتى يهتز هاتفي في جيبي.

ينفتح باب المصعد أمامنا. أقول لهما: «اذهبا أنتما. سوف أذهب بعدكما».

تدخلان المصعد، ويُغلق الباب من خلفهما. يمنحني هذا لحظة أنظر فيها إلى هاتفي. أظنه خوان مانويل. كثيرًا ما يكتب إليَّ رسائل نصية أثناء يوم العمل... أشياء صغيرة تجعلني أبتسم. صورة لنا معًا نأكل الآيس كريم في الحديقة، أو خبرًا جديدًا عن عائلته.

لكن هذا ليس خوان مانويل. إنها رسالة من مصرفي. في لحظة واحدة، أحس انقباضًا في معدتي. لا أستطيع احتمال فكرة ورود أنباء مالية سيئة. أفتح الرسالة وأقرأها:

أرسلت إليك ساندي كايمان مبلغ عشرة آلاف دولار أميركي. تم إيداع المبلغ في حسابك.

ثم أرى رسالة أخرى، رسالة من كلمتين: اعترافًا بجميلك.

أظنّ أول الأمر أنني أخطأت القراءة، أو أن في الأمر غلطة ما. لكني لا ألبث أن أدرك معنى ما قرأت: ساندي كايمان(13). شواطئ رملية. جزر كايمان. جيزيل!

هذه هديّة من جيزيل. إنها هناك، في جزر كايمان، في جزيرتها المفضّلة، في الفيلّا التي أرادت كثيرًا أن تكون لها، الفيلا التي طلبت من السيد بلاك تسجيلها باسمها قبل ساعات من موته. رضخ السيد بلاك لما أرادته. استسلم لرغبتها. هذا ما كشف عنه محامو رودني في قاعة المحكمة. عندما خرج السيد بلاك من الشقة في آخر يوم من أيام حياته بعد أن خلع من إصبعه خاتم الزواج وقذف به... بعد ذلك، غيّر رأيه. أخذ من الخزنة وثيقة ملكية الفيلا في جزر كايمان. لقد رأيتها في جيب صدّاره عندما اصطدم بي وكاد يسقطني أرضًا عند مدخل باب الشقة. على الرغم من المشادة التي دارت بينه وبين جيزيل، مضى مباشرة إلى محاميه وجعله ينقل ملكيّة الفيلّا إليها. كان هذا آخر ما فعله قبل أن يعود إلى الفندق. هذا يوضح الكثير...

تخيّلت جيزيل مستلقية في الشمس على كرسي الشاطئ هناك. تخيلتها بعد أن حصلت أخيرًا على ما أرادته دائمًا، لكن طريقة حصولها عليه جاءت مخالفة لتوقّعاتها. أيضًا، لديها الآن مال. لست

أدري من أين أتت به؛ لكنْ لديها مال حتى لو لم يكن من السيد بلاك... لديها من المال ما يسمح لها برد الجميل.

لقد أرسلت إليَّ هديّة. أرسلت هديّة ضخمة ستكون تعزيزًا كبيرًا لمطمورتي.

هدية لن أعرف كيف أردها، حتى إن أردت.

هدية أعتزم الاستفادة منها على نحو حسن جدًا.

---

(12) إنتشيلاداس: سندويتش مكسيكي من خبز التورتيلا واللحم مع صلصة حارة.

(13) ساندي (Sandy): اسم علم لامرأة، وأيضًا كلمة تعني «رملي».

خاتمة

كانت جدتي تقول دائمًا إن الحقيقة أمر ذاتي... أمر لم أفهمه تمام الفهم إلى أن أثبتت لي تجربتي في الحياة أنه صحيح... إلى أن أثبتت لي حكمة جدّتي. أفهم الآن. حقيقتي ليست مثل حقيقتكم لأننا لا نعيش الحياة بطريقة واحدة.

نحن متماثلون جميعًا، لكن بطرق مختلفة.

هذا الفهم المرن للحقيقة أمر أستطيع تقبله. بل أكثر من هذا... هو أمر يمنحني راحة كبيرة هذه الأيام. أتعلّم الآن كيف أصير أقل تقيّدًا بالمعنى الحرفي، أتعلّم كيف أتعامل تعاملًا نسبيًا مع أكثر الأمور. يصير العالم مكانًا أفضل عندما ننظر إليه عبر موشور من الألوان بدلًا من الاكتفاء بلونَيْن اثنين، أبيض وأسود. في هذا العالم الجديد، ثمة متّسع لنسخ وتنوّعات كثيرة، ثمة متسع لظلال ودرجات من اللون الرمادي.

كذلك هي، بالضبط، نسخة الحقيقة التي قلتها عندما وقفت ذلك اليوم للشهادة في المحكمة: نسخة من ذكرياتي ومما شهدته في ذلك اليوم عندما وجدت السيد بلاك ميتًا في فراشه. حقيقتي تشدّد على نظرتي إلى العالم، تضعها في المقام الأول. هي نسخة تراعي ما أفضّل ألّا أنظر إليه نظرة مدقّقة.

العدالة مثل الحقيقة. هي ذاتيّة بدورها. لذا، لا يتلقّى جزاءه كثيرون ممن يستحقون العقاب. وفي الوقت عينه، تجري إدانة أشخاص صالحين، أشخاص جيدين، بجرائم لم يرتكبوها. إنه نظام معطوب، مختل -نظام العدالة- نظام ناقص، فوضوي، قذر. لكن، إن قبل الأخيار تحمّل مسؤولية شخصية عن إحلال العدل، أفلن تكون لدينا فرصة أفضل من أجل تنظيف العالم كله، من أجل جعل الكاذبين والغشاشين والمستغلين يلقون جزاءهم؟ أنا لا أفصح عن آرائي هذه أمام أشخاص كثيرين. فمن عساه يكون مهتمًّا بها؟ في آخر المطاف، لست سوى خادمة!

في ذلك اليوم في المحكمة، أخبرت من فيها عما جرى يوم عثوري على السيد بلاك ميتًا في فراشه. قلت لهم كيف رأيت ذلك، وكيف عشته، لكني اختزلت الحكاية. صحيح أنني وضعت يدي على رقبة السيد بلاك حتى أتفقد نبضه، وأنني لم أجد نبضًا. صحيح أنني اتصلت بمكتب الاستقبال

طالبة العون. صحيح أنني استدرت صوب باب غرفة النوم فلمحت صورتي في المرآة. أدركت عند ذلك أنني لست وحدي في تلك الغرفة. نعم، كان شخص واقفًا في الزاوية. ظلٌّ كثيفٌ حجب وجه ذلك الشخص، لكني رأيت اليدين بكل وضوح، ورأيت وسادة. رأيت اليدين ممسكتين بالوسادة، ضاغطتين بها على قلب من يحملها. ذكرني هذا الشخص بنفسي كثيرًا، وذكرني بجدّتي. كان ذلك كأنني أرى صورتي منعكسة في المرآة مرّتَين. وعندها، فقدت الوعي.

تستمرّ القصة بعد ذلك. تستمر كأنها حلقة من حلقات مسلسل كولومبو: دائمًا، يكون هناك أمر آخر لم يظهر واضحًا من قبل.

الشخص الواقف في الزاوية... لم يكن ذلك الشخص رجلًا.

وعندما يعود إليَّ الوعي، أجد نفسي راقدة على الأرض، إلى جوار السرير. أحدهم يهوّي وجهي مستخدمًا نشرة من نشرات الفندق. أستنشق بضعة أنفاس عميقة فتنجلي غمامة عن عينَيَّ. أرى امرأة. إنها امرأة في أواسط العمر، لها شعر يخالطه الشَيب، شعر تثبته إلى الخلف نظارتها الشمسية المرفوعة فوق رأسها. شعرها صقيل مثل شعري، مقصوص قصة أنيقة. إنها ترتدي بلوزة بيضاء فضفاضة من فوق بنطلون أسود. المرأة جاثمة عند رأسي. وجهها ناطق بالقلق. أنظر في وجهها فلا أعرفها... لا أعرفها، أول الأمر.

تتوقّف عن التهوية وتسألني: «هل أنت بخير؟».

كانت حركتي الغريزية الأولى أن أمدّ يدي إلى الهاتف من جديد.

قالت لي: «من فضلك، لستِ في حاجة إلى فعل هذا».

أستويت جالسة، وأستندت بظهري إلى الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. تراجعت المرأة خطوتين مفسحة لي متسعًا للحركة، لكنّ عينَيْها ظلتا تنظران إلي.

قلت لها: «أنا آسفة جدًّا. لم أدرك أن في الغرفة شخصًا آخر. لكن عليَّ الآن...».

«ليس عليك فعل أي شيء. من فضلك، اسمعيني جيدًا قبل أن تمدّي يدك إلى الهاتف».

لم يبدُ لي أن في صوتها أي قدر من الغضب، ولا حتى من التوتر. كانت كمن يقترح أمرًا، لا أكثر.

فعلتُ مثلما قالت لي.

سألتني: «هل تريدين كأس ماء؟ وربما شيئًا حلوًا أيضًا؟».

ما كنت متأكدة من قدرتي على الوقوف على قدميّ. ما كنت واثقة من قدرة ساقيّ على ذلك. قلت لها: «نعم، سيكون هذا لطفًا منك».

أومأت برأسها مرّة واحدة، ثم خرجت من الغرفة. سمعتها تتحرك في غرفة المعيشة. ثم سمعت صوت الماء في مغسلة الحمام.

وبعد لحظة، عادت المرأة إلى غرفة النوم وجثت قبالتي. ناولتني كأس ماء أمسكتها بيدَيْن مرتعشتَيْن وشربتها بشراهة.

وبعد أن انتهيت، قالت لي: «خذي. وجدت هذا في عربة التنظيف».

كان ما وجدَته قطعة شوكولاته من تلك التي نقدّمها إلى النزلاء وقت المساء. إن أردت الدقة، أستطيع القول إنه لا يحقّ لي تناولها. لكن هذا ظرف استثنائي؛ ثم إن المرأة قد مزّقت غلاف قطعة الشوكولاته.

قالت لي: «ستجعلك أحسن حالًا».

ناولتني قطعة الشوكولاته، وضعتها في راحة يدي.

أجبتها: «أشكرك». وضعت القطعة كلّها على لساني، دفعة واحدة. ذابت على الفور، وفعل السكر فعله السحري.

انتظرت المرأة لحظة، ثم سألتني: «هل أستطيع مساعدتك في الوقوف؟».

مدّت لي يدها. وضعت يدي المرتعشة في يدها، وبمساعدتها استطعت النهوض ووقفت إلى جانبها. رأيت الغرفة كلها واضحة، وعادت الأرض ثابتة تحت قدمي.

بقينا لحظة واقفتين إلى جانب السرير تنظر كل منا إلى الأخرى.

قالت لي: «ليس لدينا كثير من الوقت. هل تعرفين من أنا؟».

نظرت إليها عن كثب. بدا لي وجهها مألوفًا، لكن على نحو غامض. إلّا أنها بدت لي أيضًا مثل أيّة نزيلة في أواسط العمر ممن أراهنّ في الفندق.

«يؤسفني القول إنني...».

عرفتها في تلك اللحظة. عرفتها من الصور التي كنت أراها في الصحف. عرفتها من لقائنا القصير في المصعد. إنها السيدة بلاك. ليست هي السيدة بلاك الثانية، ليست جيزيل، بل السيدة بلاك الأولى. إنها الزوجة الأولى، السيدة بلاك الأصلية.

طوت غلاف قطعة الشوكولاته طيًا أنيقًا ودسّته في جيب بنطلونها. قالت: «آه. لقد عرفتني الآن».

«سيدة بلاك، يؤسفني كثيرًا أن أقحم نفسي، لكني أظن أن زوجك السابق... أظن أن السيد بلاك قد مات».

تومئ برأسها وتقول: «كان زوجي السابق خائنًا، وكان لصًا. كان يسيء إلى الآخرين. كان مجرمًا».

عندها، في تلك اللحظة فقط، بدأ الأمر يتضح أمام عيني. سألتها: «سيدة بلاك، هل... هل قتلتِ السيد بلاك؟».

تقول لي: «أظن أن هذا متعلّق بنظرتك إلى الأمر. ما أراه هو أنه قتل نفسه بنفسه. قتل نفسه بطيئًا، مع مرور الزمن... أصابته عدوى جشعه نفسها فسلبني وسلب أطفاله حياتنا العادية، وكان مثالًا للفساد والشرّ من كل ناحية. صار ولداي بيدقَيْن في يده. خبلت المخدرات القذرة عقليهما وجعلتهما يجريان من حفلة إلى حفلة وينفقان مال أبيهما. وأما فيكتوريا، ابنتي، فلا تريد شيئًا غير إعادة أعمال العائلة نظيفة، غير جعلها تجري على نحو لائق. لكن أباها يريد تجريدها من حصتها. ما كان يريد التوقّف قبل أن يجعلنا معدمتَيْن، أنا وفيكتوريا. كان يفعل هذا مع أنها تملك تسعة وأربعين بالمئة من الأسهم. الحقيقة أنها كانت مالكة لتسعة وأربعين بالمئة من الأسهم. لكنها، الآن، ستصير أكثر من ذلك».

نظرَتْ إلى السيد بلاك الميت على سريره، ثم نظرت إليَّ.

«أتيت حتى أكلّمه، فقط... حتى أطلب منه أن يعطي فيكتوريا فرصة. لكنه كان ثملًا عندما فتح لي الباب، وكان يبتلع هذه الأقراص، ويغمغم بالكلمات قائلًا إن جيزيل ليست إلّا عاهرة تسعى خلف الذهب، مثلي تمامًا... أنا وهي لسنا، في نظره، إلّا زوجتَيْن جميلتَين غبيتَين، لسنا إلّا أكبر غلطتَين ارتكبهما في حياته كلها. لقد كان رجلًا بغيضًا، متجبّرًا. بكلمات أخرى، هذه هي طبيعته الحقيقيّة».

تصمت لحظة ثم تقول: « أمسكني من معصمي. سوف تظهر كدمات عليهما».

أقول: «تمامًا مثلما فعل بجيزيل».

«صحيح. تمامًا مثلما فعل بالسيدة بلاك في نسختها الجديدة المحسّنة. حاولت تحذيرها. حاولت تحذير جيزيل. لكنها لم تصغ إليَّ. لا تزال أصغر سنًا من أن تستطيع إدراك هذا».

أقول لها: «هو يضربها أيضًا».

تجيبني: «لن يضربها بعد الآن. أراد أن يفعل بي ما هو أسوأ من هذا، لكنه بدأ يترنح ويلهث. ترك معصمي، ثم تهاوى على الفراش. خلع حذاءه واستلقى، مثلما ترين».

التفتت التفاتة سريعة إلى الوسادة الملقاة على الأرض، ثم أشاحت بوجهها.

قالت لي: «أخبريني... هل يحدث لك أن تحسّي العالم كله مقلوبًا رأسًا على عقب؟ تتحسّن أحوال الأشرار، ويعاني الأخيار؟».

كان ذلك كأنها تقرأ أعمق أفكاري. فكّرت في قائمة قصيرة من أسماء أولئك الذين جعلوني أعاني، الذين سلبوني من غير وجه حق - تشيريل، ويلبور... ورجل لم أعرفه أبدًا... أبي نفسه.

أجيبها: «نعم. هذا ما أحسّه طيلة الوقت».

تقول: «أنا أيضًا. بحسب تجربتي، هناك أوقات يتعين فيها على شخص صالح أن يفعل شيئًا غير صالح تماماً لكنه يظل الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله».

نعم، إنها محقة.

تسألني: «ماذا لو كان الأمر مختلفًا هذه المرة؟ ماذا إن تولينا الأمر بأنفسنا وصححنا الميزان؟ ماذا إن كنتِ لم تريني أبدًا؟ ماذا إن سرتُ خارجة من هذا الفندق ولم أنظر خلفي أبدًا؟».

«سوف يعرفون وجهك. ألا تظنين هذا؟».

«سيعرفني الناس إن كانوا يقرأون الصحف التي تصل حتى أبوابهم. لكني أشك في أنهم يقرأونها فعلًا. إلى حدّ كبير، أنا شخص غير مرئي... لست إلّا امرأة أخرى شائبة الشعر، في أواسط العمر، أرتدي ملابس فضفاضة، وعلى وجهها نظارة شمسية... امرأة تخرج من باب خلفي في فندق ريجنسي غراند. لست إلّا شخصًا آخر لا هوية له».

امرأة غير مرئية في وضح النهار... مثلي تمامًا.

أسألها: «ما الذي مسّته يداك هنا؟».

«عفوًا؟».

«ما الذي مسّته يداك بعد دخولك الشقة؟».

«أوه... وضعت يدي على مقبض الباب. أظنني وضعتها أيضًا على الباب نفسه. وأظنني وضعت يدي على الطاولة التي عند الباب. لم أجلس. لم أستطع الجلوس. كان يلاحقني في الغرفة، ويصرخ عليَّ، ويبصق في وجهي. أمسك بمعصميَّ معًا وشدّ عليهما. لذا، لا أظنني لمسته فعلًا. التقطتُ الوسادة من فوق السرير و... أظن أن هذا كل شيء».

صمتنا معًا، صمتنا لحظة قصيرة. كانت عيوننا متّجهة إلى الوسادة على الأرض. من جديد، أتذكّر جدتي. لم أفهمها في ذلك الوقت، لم أفهمها تمامًا؛ لكني رأيت الأمر بكل وضوح خلال تلك اللحظة مع السيدة بلاك... رأيت كيف تتخذ الرحمة أشكالًا غير متوقعة.

رفعتُ رأسي ناظرة إليها، إلى هذه المرأة الغريبة عنّي، المرأة التي تشبهني كثيرًا.

قالت لي: «لست أدري مع من تحدّثت في الهاتف، لكنهم ليسوا قادمين».

«لا، ليسوا قادمين. إنهم لا يصغون جيدًا. لا يصغون إليّ. سوف أتصل مرّة أخرى».

«الآن!».

«لا، ليس الآن».

لم أدر ما أفعله بعد ذلك، أو ما أقوله. استحالت قدماي حجرًا مثلما يحدث كلما توتّرت. آخر الأمر، قلت لها: «من الأفضل أن تذهبي. من فضلك، لا تدعيني أُطيل بقاءك هنا». انحنيت لها انحناءة صغيرة.

«وماذا ستفعلين؟ أعني، بعد ذهابي؟».

«سأفعل ما أفعله دائمًا. سأنظف كل شيء تنظيفًا تامًا. سأخرج زجاجة الماء وأمسح مقبض الباب وسطح الطاولة. سألمع أيضًا صنبور الماء في الحمام. وسأضع تلك الوسادة في قعر حاوية الأشياء التي ستذهب إلى قسم الغسل. وفي القبو، سينظفونها ويعيدونها إلى غرفة أخرى. لن يعرف أحد أبدًا أنها كانت هنا».

«مثلما لن يعرف أحد أنني كنت هنا، أليس كذلك؟».

أقول: «صحيح. وبعد أن أعيد هذه الأماكن في الشقة إلى حالتها المثالية، سأتصل بمكتب الاستقبال مرة أخرى وأكرر طلب العون».

تقول: «أنت لم تريني هنا أبدًا».

أجيبها: «وأنت لم تريني هنا أبدًا».

وبعد ذلك، تنصرف.

تغادر الغرفة، ثم تخرج من باب الشقة. لا أتحرّك من مكاني قبل سماع صوت إغلاق باب الغرفة من خلفها.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها السيدة بلاك، السيدة بلاك الأولى. أو، المرّة الأولى التي «لم أرها» فيها. يعتمد الكثيرون على نظرة المرء إلى الأمر.

وبعد ذهابها، نظّفت كل شيء مثلما قلت إنني سأفعل. وضعت الوسادة التي تركتها السيدة بلاك في أسفل حاوية الغسيل في عربتي. اتصلت بمكتب الاستقبال من جديد بعد أن استعدت الوعي تمامًا… مثلما قلت في المحكمة. وبعد زمن، بعد بضع دقائق، وصلوا.

هذه الأيام، أنام جيدًا في الليل... بل لعلّ نومي صار أفضل من أي وقت مضى لأنني أرقد إلى جوار خوان مانويل، إلى جوار أعز صديق لي في هذا العالم. نومه ثقيل مثلما كان نوم جدتي... لا يكاد يضع رأسه على الوسادة حتى يغرق في النوم. ننام معًا تحت لحاف جدتي ذي النجمة الكبيرة، لأن هناك أمورًا كثيرة من الأفضل أن تظلّ كما هي، في حين يكون من الأفضل إدخال تغيير صغير على بضعة أمور أخرى. لقد أزلت عن الجدران لوحات المناظر الطبيعية التي كانت لجدتي ووضعت محلها صورًا لخوان مانويل ولي.

أصغي إلى صوت أنفاسه كأنها أمواج متتابعة... زفير وشهيق وزفير. وأتلو صلواتي. إن صلواتي وأدعيتي كثيرة جدًا. أعرف أن ضميري نظيف الآن لأن عدد الصلوات التي أتلوها قبل أن أستطيع النوم يتناقص يومًا بعد يوم. أنام فأرى أحلامًا جميلة. أستيقظ منتعشة، مبتهجة، مستعدة لبدء يوم جديد.

إن كان هذا كله قد علمني شيئًا، فهو أن لدي قوّة ما كنت أدري أنها عندي. كنت مدركة دائمًا أن في يديّ قوة... قوة من أجل التنظيف وإزالة الأوساخ، من أجل التلميع والتعقيم، من أجل تصحيح الأمور. لكني أفهم الآن أن لديّ قوّة في مكان آخر أيضًا: قوة في عقلي. قوة في قلبي أيضًا.

في آخر المطاف، اتضح لي أن جدتي كانت محقة. كانت محقة في كل شيء، في كل شيء.

من يعش أكثر يتعلّم أكثر.

الناس سرّ مستغلق لا سبيل إلى حلّه.

إن للحياة طريقتها في ترتيب أمورها بنفسها.

في آخر المطاف، سيكون كل شيء على خير ما يرام. وإن لم يكن كذلك، فهذا ليس آخر المطاف.

شكر وتنويه

استلزَم ظهور هذا الكتاب جهد أشخاص يعادل عددهم سكان قرية. أوجّه شكري إلى أولئك الناس الاستثنائيين في قريتي:

وكيلتي الأدبية مادلين ميلبورن صاحبة الرؤية، صانعة الأحلام. وكذلك أفراد الفريق العامل معها في «مؤسسة مادلين ميلبورن للآداب والتلفزيون والأفلام». أخصّ منهم ليان لويز سميث، وليف ميدمنت، وغيلز ميلبورن، وجورجينا سيموندز، وجورجيا ماكفي، وريتشل يوه، وحنه لادز، وصوفي بيليسييه، وإيما داوسون، وآنا هوغارتي.

تستحق شكري أيضًا كلّ من محررتي الموهوبة هيلاري تيمان من «بنغوين راندوم هاوس يو إس» لأنها لم تبخل عليَّ بأي عون؛ ونيكول وينستينلي من «بنغوين راندوم هاوس كندا»، وشارلوت برابين من «هاربر فكشن يو كي». لقد استطعتن جعل كل شيء أفضل مما كان.

أشكر مؤسسات النشر الكثيرة في أنحاء العالم، تلك المؤسسات التي ساهمت في إيصال هذا الكتاب إلى قرائه.

وأشكر في كندا خاصة كلًا من كريستين كوشرين، وتونيا أديسون، وبوني ميتلاند، وبيث كوكرام، وسكوت سليرز، وماريون غارنر.

وأشكر في الولايات المتحدة كلًا من كارولين ويشون، وجنيفر هيرشي، وكيم هوفي، وكارا ويلش، وسندي بيرمان، وإيرين كورنكو، وإيلينا جيافالدي، وباولو بيبي، وجنيفر غارزا، وسوزان كوركران، وكوين روجرز، وتايلور نويل، ومايكل جاسمين، وفرجينيا نوري، وديبي آروف.

وأشكر في المملكة المتحدة كلًا من كيمبرلي يونغ، وكيت إيلتون، ولاين درو، وإيزابيل كوبورن، وسارة مونرو، وأليس غومير، وحنّه أوبراين، وسارة شيا، وريتشل كوين، وميدي مارشال، وجنيفر هارلو، وبن هورد، وأندرو دروبس، وكلير وارد، وكريس بنت.

وأقول لصانعي الخيال، صانعي الأفلام، إن الحظ أسعدني بأن أعمل مع جوزي فريدمان وآلياس وينبرغر في «آي سي إم بارتنرز»، وكريس غولدبرغ في «وينترلايت بيكتشر» وجيون مونفورد، وكريستين سُن في «يونيفيرسال بيكتشر»، وجوش ماكلولن في «وينك بيكتشرز».
الشكر أيضًا ليكفن هانسون وفريق «سايمون آند تشوستر»، الحالي والسابق. أخص من هؤلاء كلًا من سارة سينتبيير، وبريندال ماين، وجيسيكا سكوت، وفيليس بورس، ولوري غراسي، وجيني يون، وجيستين ستونر، وجاسمين إيلتور، وفيليتسيا كوين، وسارا أليكسا، وشيري لي، ولورين كيري، وديفيدر ميلار، وآدريان لوستياك، وأليسون غالاهان، وجيم بريغستروم، وسوزان بابونو. أنتم ناسي - أنتم ناس الكتب. آمل أن نعرف دائمًا كيف نفرح فرحة الأطفال عندما نفتح صناديق الطبعة الأولى من الكتاب ونستمتع مبهورين برؤية رفوف الكتب في البرية.

أشكر محترفي هذا القطاع واستشارييه: أدريين كيل، وماريان بون أكونر، وكيث شيير، وسامانثا هايوود.

يؤسفني أنني خسرت فرصة التعاون مع كارولين ريدي. ليتنا استطعنا التحدث معًا عن
هذا الكتاب لأن من شأن ملاحظاتك أن تكون مثلك تمامًا: واضحة، لامعة. أينما كنت الآن، أعرف أنك لا تزالين تواصلين القراءة.

أشكر المؤلفين الذين عملت معهم لأنهم علّموني كل ما أعرفه عن الكتابة، ولأن عملي على كتبهم كان تشريفًا كبيرًا لي. أخص بالشكر كلًا من آشلي أودرين، وسامانثا بيني، وكارما براون، لأنهن قدمن لي العون في وقت مبكر عندما كنت في أمس الحاجة إليه.

أشكر أدريان إيواسوتياك، المروّج الاستثنائي، الصديق المخلص داخل ميدان النشر وخارجه.

حبّي وامتناني لجورج ديدي بيلغاديلو وسارا فولتون لمسيرهما معي في رحلة فريدة ولمشاركتهما إياي حب هذه القصة منذ بداياتها الأولى.

أشكر بات وفيريل باغني، القارئين النهمين... إنهما أسرتي الجديدة الغالية على قلبي.

وإلى أصدقائي، أخص منهم جوي ماسلو، وروبرتو فيرديتشيا، وإد إنوتشينزي، وإيلين أونالي رست، وإيريك ريست، ورايان ويلسون، وساندي غابرييل، وجينينا أورتوزار، ومارتين أورتوزار، وإنغريد ناساغر... أشكركم جميعًا لأنكم نجوم الحظ في حياتي.

خالتي سوزان، أفضل منظّفة، الخالة المحبة أكثر مما تتمناه أية ابنة أخت.

قارئي الأول طوني هانايك. قارئي الأكثر لطفًا، وشريكي المحب في مغامرات مجيدة كثيرة (نعم، إنها مغامرات مجيدة).

وأخيرًا، أدين بشكر خاص لأفراد عائلتي، ولآل برونوفوستس، لأنهم جعلوني مثلما أنا - أخص منهم بالشكر جاكي وبو، أمي وأبي؛ وكذلك أخي دان وزوجته باتي؛ وابنهما جوان وابنتهما ديفين. أتمنى أن نواصل سرد حكاياتنا زمنًا طويلًا، وأن نواصل عيشها زمنًا طويلًا.